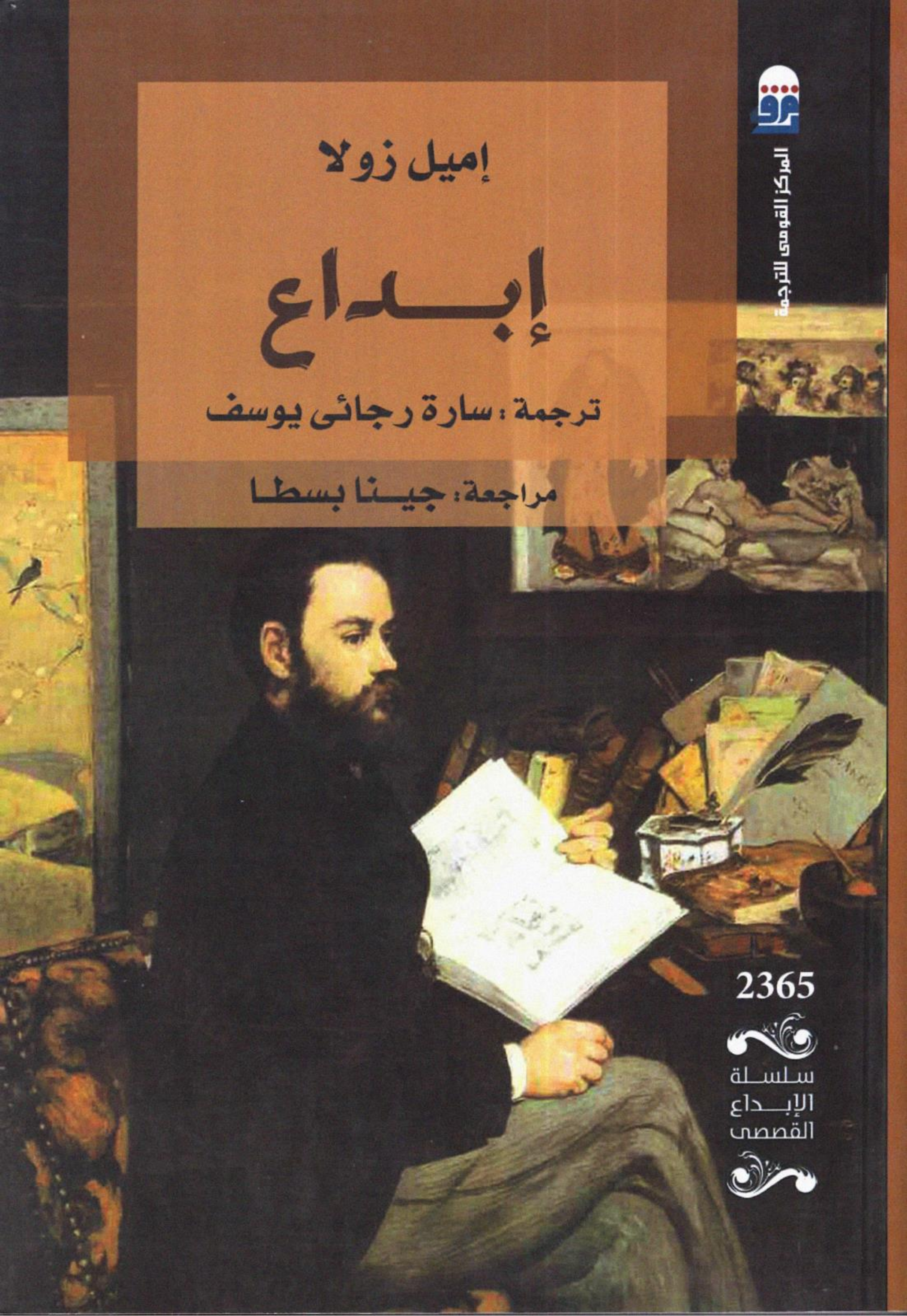


إميل زولا
إبداع
ترجمة : سارة رجائى يوسف
مراجعة: جينا بسطا
المركز القومى للترجمة
2365
سلسلة
الإبداع
القصصى

إبداع

(رواية)



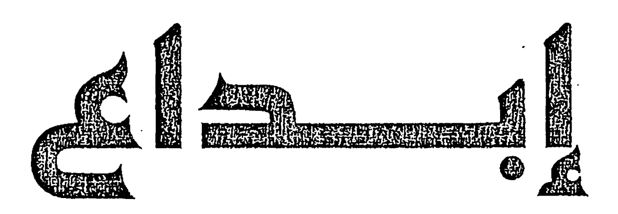
المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2365
- إبداع
- إميل زولا
- سارة رجائى يوسف
- جينا بسطا
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
L'oeuvre
Par: Émile Zola

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

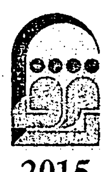


(رواية)

تأليف: إميل زولا

ترجمة: سارة رجائي يوسف

مراجعة: جينا بسطا



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

زولا، إميل ١٨٤٠ – ١٩٠٢
إبداع: (رواية)/ تأليف: إميل زولا، ترجمة: سارة رجائى يوسف، مراجعة: جينا بسطا.
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٥٢٨ ص، ٢٤ سم
١ – القصص الفرنسية
(أ) يوسف، سارة رجائى (مُترجمة)
(ب) بسطا، جينا (مُراجعة)
(جـ) العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع: ٢٢٥٣٩ /٢٠١٤
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 718 - 963 - 7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات



الفصل الأول

دقت الساعة الثانية صباحا، وكان كلود مارا أمام مبنى البلدية، وقت هبوب العاصفة. ظل سائرًا على غير هدى فى منطقة الهال فى تلك الليلة الحارة من ليالى شهر يوليو، متسكعا كفنان عاشق لليالى الباريسية. وفجأة اشتد المطر، فبدأ يجرى ويقفز متعثرًا كالتائه بطول رصيف كورنيش غريف، حتى وصل إلى جسر بول فيليب. اشتد به الغضب من خوفه ولهاثه، فتوقف بعد أن شعر بسخافة الخوف من الماء. وواصل سيره ببطء فوق الجسر مؤرجحًا يده فى وسط الظلام الكثيف والسيل الجارف الذى أطفأ قناديل الغاز. وما إن خطا بعض الخطوات مارا برصيف بوربون فى جزيرة سانت لويس، حتى سطع البرق بقوة أضاءت المبانى القديمة، الواقعة على حافة الطريق الضيق، المشرف على نهر السين، فلمعت النوافذ الزجاجية العالية، وتجلى الطابع الحزين الذى كسا الواجهات القديمة، واتضحت تفاصيلها، فبدت شرفة مصنوعة من الطوب وسور نافذة ونقوش محفورة على مدخل أحد المنازل. كان مرسم كلود يقع على أحد الأسطح الخشبية بفندق "مارتوى" القديم، على ناصية شارع لافام سان تايت، حيث غرق الرصيف فى ظلام دامس، وأحدث الرعد هزة قوية زلزلت الحى النائم بأكمله.

مضى كلود وقد أعماه المطر، يتحسس باب المنزل، وهو باب قديم مستدير ومنخفض، مصفح بالحديد. استمر يبحث عن الجرس في الظلام. وبغتة تراجع مرتعدًا لرؤية إنسان ملتصق بركن الباب الخارجي. سطع ضوء البرق ثانية، فتبين له أنها فتاة شابة ترتعش من الخوف، ومع دوى الرعد، ارتجف الاثنان، وصاح كلود: "ماذا إذًا؟ هذا ما كان ينقصنى! من أنت؟ وماذا تريدين؟" لم يكن يراها، ولكنه كان يسمع صوت نحيبها وتلعثمها: "آه يا سيدى! لا تؤذنى، أرجوك! إن الحوذى الذى استأجرته أهاننى وتركنى هنا بالقرب من هذا الباب...! خرج القطار الذى كنت أستقله عن مساره ناحية نيفير مما تسبب فى تأخيرنا لأربع ساعات، فلم أجد الشخص الذى كان سينتظرنى فى المحطة! يا إلهى! إنها أول مرة آتى فيها إلى باريس ولا أعرف أين أنا..." قطع حديثها ضوء البرق الباهر، فاتسعت عيناها من الذعر ومضت تتفحص هذا الجزء من المدينة المجهولة. ثم توقف المطر، واتضحت ملامح الضفة الأخرى من نهر السين ورصيف "أورم" بمنازلهما الرمادية الصغيرة التى تزينها بوابات المتاجر ذات الأسطح المتعرجة، وظهر فى الأفق على اليسار الأسطح الزرقاء الإردوازية لمبنى البلدية، وعلى اليمين ظهرت قبة كاتدرائية سان بول المكسوة بالرصاص. ولكن أشد ما أثار ضيقها كان ذلك الشق المظلم، تلك الفجوة التى يجرى فيها نهر السين، حيث الدعامات الثقيلة المغمورة فى المياه التى كانت تحمل جسر مارى، والعقود الرشيقة الداعمة لجسر بول فيليب الجديد. كان مجرى المياه مزدحما بكتل غريبة، أسطول صغير يرسو وبعض القوارب والزوارق الصغيرة وسفينة

كاسحة للطمى مربوطة بالرصيف، أما على الحافة الأخرى فكانت هناك قوارب مملوءة بالفحم وأخرى محملة بالأحجار ورافعة حديدية عملاقة تجذب الأنظار. وبعد ذلك يتلاشى كل شىء.

قال كلود محدثا نفسه: "آه، يا لها من كاذبة! ها هى عاهرة تعيش فى الشوارع وتبحث عن رجل!" .. لم يكن يشعر بالثقة تجاه أى امرأة، وبدت له قصة الحادث والقطار المتأخر والحوذى القاسى أمرًا سخيفًا. أما الفتاة، فعادت مذعورة للانزواء فى ركن الباب خوفا من صوت الرعد.

صاح فيها كلود فجأة: "مع ذلك لا يمكنك أن تتامى هنا!" استمرت فى البكاء وقالت بصوت متهدج: "يا سيدى أرجوك خذنى إلى "باسى"، أريد الذهاب إلى هناك..." هز كتفيه فى حيرة وتعجب هل تظنه مغفلاً أم ماذا؟ ثم استدار بحركة آلية نحو رصيف سيليست، حيث موقف العربات ذات الجياد، ولكنه لم ير أى ضوء يلوح فى الأفق.

وصاح بها: "أتريدين الذهاب إلى "باسى" يا عزيزتى، ولماذا لا نذهب إلى فرساى؟ بحق الجحيم من أين تريديننى أن آتى لك بعربة تقلك إلى هناك فى هذا الوقت، وفى مثل هذا الطقس اللعين؟"

صرخت بعد أن أعماها ضوء البرق، وتبدت لها هذه المدينة المأساوية وكأنها مغطاة بالدماء، كفجوة ضخمة تتلاشى مع ضفتى النهر على مدى البصر وتتوسطها ألسنة لهب حمراء تتصاعد وكأنها حريق. واشتد الضوء، حتى اتضحت أدق التفاصيل، فظهرت مغاليق النوافذ المطلة على رصيف

أورم، وجانبى شارع مازور وشارع باون بلان، وبالقرب من جسر مـاري، تجلت أوراق شجر الدلب التى شكلت باقة رائعة الخضرة، بينما تألقت، علـى الناحية الأخرى، القوارب الراسية تحت جسر لويس فيليب فى أربعة صفوف، بما تحمله من شحنات التفاح الأصفر. وظهرت دوامات المياه والقارب الكبيـر ذو المدخنة العالية وسلسلة متدلية من كاسحة الطمى وأكوام من الرمال علـى الميناء، وكأنه عالم جديد يملأ هذه الفجوة الضخمة التى تتمدد فى الأفـق. ثـم أظلمت السماء، ولم تعد ترى المياه التى غلفها الظلام وقصف الرعد.

وصرخت الفتاة: "يا إلهى، لقد انتهيت! يا إلهى مـاذا سـيحدث لـى؟" وبدأت الأمطار تهطل من جديد، أشد قوة من ذى قبل، وحملتها الرياح، التى عصفت برصيف الميناء، وكأنها شلال تدفق على حين غرة.

قال كلود: "دعينى أدخل، هذا لا يحتمل!" كان الاثنان مبللـين تمامًـا، ورآها على الضوء الخافت المنبعث من قنديل الغاز المثبت فى أحد أركـان شارع لافام سان تات، وهى تقطر ماءً، وقد التصق ثوبها بجسدها بسبب سيل المطر المنهمر على الباب.

أخذته الشفقة، وتذكر أنه فى إحدى الليالى العاصفة قد انتشل كلبا من على الرصيف! أزعجته هذه الذكرى، فكان يغضب حينما يرق قلبه ويمتلئ بالحنـان، كما أنه لم يسبق له إدخال فتاة من قبل إلى بيته. كان يعاملهن جميعهن كالصبية، فكان يخفى ما يعانيه من خجل شديد وراء هذا المظهر العنيف. وأشد مـا أثـار استياءه أن تلك الفتاه تعتقد أنه غبى لتستوقفه بهذه الطريقـة بقـصة مغامرتهـا

الهزلية السخيفة، ولكنه قال فى النهاية: "هيا يكفينى من هذا، لنصعد، ستتامين عندى". عندها ازداد ذعرها وبدأت تقاوم: "عندك، آه يا إلهى! لا هذا مستحيل... أرجوك يا سيدى خذنى إلى "باسى". أتوسل إليك!".

استشاط غضبا، فلماذا إذاً تلك الألاعيب ما دام سيبقيها معه؟ كان قد ضرب الجرس مرتين من قبل، فانفتح الباب أخيرا ودفع الفتاة المجهولة إلى الداخل وهى تصيح مقاومة: "لا لا يا سيدى، أقول لك لا...".

ثم أضاء البرق مرة ثانية ودوى صوت الرعد، فقفزت مذعورة ودخلت كالتائهة، وأغلق الباب الضخم ووجدت نفسها فى رواق واسع اكتنفه ظلام دامس.

وصاح كلود لحارسة العقار: "هذا أنا يا مدام جوزيف!" - ثم همس قائلا: "أعطينى يدك، فعلينا أن نعبر الفناء". فأعطته يدها دون مقاومة، وهى شاردة منهكة. وركضا تحت المطر الغزير. كان الفناء ضخما وواسعا ذا شرفات حجرية اختلطت ملامحها فى الظلام. وصلا إلى بهو ضيق بلا باب وحينئذ ترك يدها. سمعته يحاول إشعال أعواد الثقاب وهو يسب، فقد ابتلت جميعها، وتحتم عليهما الصعود فى الظلام متحسسين الطريق.

وقال لها: "تمسكى بالسور واحذرى، فدرجات السلم عالية". كان السلم قديما وضيقا، يصل إلى ثلاثة أدوار غير متطابقة. صعدت الفتاة

تتعثر بقدميها المتعبتين، ثم نبهها أنهما سيمران فى رواق طويل، فمضت خلفه تتحسس بيدها الجدران اللانهائية للرواق الممتدة حتى واجهة المنزل المطلة على رصيف الميناء. وجدت أمامها سلمًا آخر ذا درجات خشبية تحدث صريرا. كان السلم بدون سور جانبى، ويهتز من تحتها تماما مثل سلم الطاحونة المصنوع من ألواح خشبية غير مصقولة. كانت المسافة التى تفصل أعلى السلم عن الغرفة صغيرة حتى إنها ارتطمت بكلود الذى كان يبحث عن مفتاح غرفته.

دخل وقال لها: "انتظرى! لا تدخلى حتى لا تتعثرى ثانيا!". وقفت ساكنة، تلهث وقلبها يدق وأذنها تطن من شدة الإعياء، بعد رحلة الصعود التى اجتازتها فى هذا الظلام، وكأنها امتدت لساعات، فى متاهة مكونة من طوابق ودهاليز لا سبيل إلى الخروج منها.

بداخل المرسم، تعالت أصوات خطوات، وأيد تعبث، وأشياء تتساقط، وسط تعجب الفتاة. ثم انفتح الباب وقال كلود: "ادخلى إذًا!". دخلت دون أن تنظر حولها، لهذه الغلية التى يصل ارتفاعها إلى خمسة أمتار، وتنيرها شمعة واحدة شاحبة. عج المكان بخليط غريب من الأشياء التى تتقاطع ظلالها على الجدران رمادية اللون. أما هى، فلم تر أى شىء بوضوح وإنما رفعت عينيها إلى الشرفة الزجاجية حيث لا تزال تتساقط قطرات المطر محدثة صوتا يشبه نقر الطبول. وفى تلك اللحظة أو مضت السماء بالبرق ومن بعده دوى الرعد، فتهيأ لها أن السقف سينهار. فارتمت على أحد المقاعد صامتة شاحبة اللون.

عندها همس كلود الذى شحب وجهه هو الآخر: "عجبا! كم كان هـذا قريبًا! لقد دخلنا المَنزل فى الوقت المناسب. الوضع هنا أفضل من الشارع، أليس كذلك؟" ثم التفت إلى الباب وأغلقه بالمفتاح الذى كان يحدث صريرا قويا، بينما أخذت ترمقه فى ذهول. وسمعته يقول: "ها نحن فى مأمن". انتهت العاصفة، شعرا بالبرق والرعد يبتعدان، ثم توقف الطوفان.

اعترى كلود نوع من الانزعاج وبدأ يتفحصها خلسة. فوجدها لا بأس بها. كانت شابة لا تتعدى العشرين عاما، ولكنه ظل متشككا. وعلى الرغم من هذا الشك اللاشعورى، غالبه إحساس غريب بأنها صادقة. ثم جال بخاطره بأنها على أى حال- حتى وإن كانت ماكرة- لن تتمكن من خداعه. حاول إضفاء نوع من الفظاظة والخشونة على مظهره فقال بصوت قوى: "هيا ننام لتجف ثيابنا". اعتراها الذعر. كانت هى الأخرى تتفحصه دون أن تواجهه بنظراتها، أخافها هذا الشاب النحيل ذو الملامح المعقدة والرأس القوى واللحية التى جعلته يبدو كواحد من أبطال قصص قطاع الطرق، خاصة قبعته السوداء وسترته البنية القديمة المائلة للخضرة من تشبعها بمياه المطر.

فهمست: "شكرا، ولكنى سعيدة كما أنا، سأنام مرتدية ثيابى".

- "ولكن كيف وثيابك كلها تقطر ماء؟ لا تكونى سخيفة، انزعى ثيابك فورا".

ثم أخذ يدفع بعض المقاعد ورفع الستار نصف الممزق، فظهرت خلفه طاولة للزينة وسرير صغير من الحديد، ورأته وهو ينزع غطاء السرير،

فصاحت: "لا يا سيدى، لا تكبد نفسك هذا العناء، فأنا سأظل هنا!". وعندها اشتد به الغضب وبدأ يلوح بيديه ومعصميه وقال: "فى النهاية، هل ستدعينى وشأنى أم ماذا؟ ما دمت قد أعطيتك سريرى ماذا تريدين أكثر؟ لا تمثلى دور المذعورة، فهذا لا يفيد. كما أننى سأنام على الأريكة".

اتجه ناحيتها متوعدًا، فظننت أنه سيضربها، فأخذها الفزع وخلعت قبعتها وهى ترتجف والمياه تقطر من تنورتها. فاستمر كلود يدمدم وفجأة ساوره شىء من الخجل، وقال فى النهاية فيما يشبه التنازل: "إن كنت تنفرين منى إلى هذه الدرجة، فسأغير لك الملاءات". وبدأ فى نزع الملاءات ووضعها على الأريكة فى آخر المرسم، ثم فتح الدولاب وأخرج منه طاقما جديدا من الملاءات وفرشه بنفسه بمهارة، وكأنه معتاد على هذا العمل، ثم بدأ يطوى بعناية الغطاء من ناحية الحائط ويضغط على الوسادة ويفرد الملاءات. وقال: "قد انتهينا! هيا إلى النوم الآن!".

وعندما رآها لا تزال صامتة، لا تتحرك، تلعب بأصابعها فى صدارها دون أن تقرر فك أزراره، وضع أمامها ستارًا اختفت وراءه، وذهب لينام متعجبًا من هذا الحياء. وضع الملاءات القديمة على الأريكة وعلق ملابسه على مسند قديم لتجف. وقبل أن يطفئ الشمعة، تذكر أنها لن ترى أى شىء، فانتظر حتى تنتهى. فى البداية، لم يسمعها تتحرك، وظن أنها بالتأكيد لا تزال واقفة فى مكانها أمام الفراش، ثم بدأ يسمع ضوضاء خفيفة صادرة عن الأقمشة والحركات البسيطة، كانت هى الأخرى تروح وتجىء فى قلق

وخوف من هذا الضوء الذى لم ينطفئ. وبعد دقائق عديدة، حل الصمت التام، فسألها كلود بصوت حنون: "هل كل شىء على ما يرام يا آنسة؟" فأجابته بصوت خافت مرتعش من فرط التأثر: "نعم يا سيدى!".

– "إذن تصبحين على خير!".

– "تصبح على خير!".

وأطفأ الشمعة وخيم الصمت ثانية.

كان كلود قد جافاه النوم، وعلى الرغم من تعبه لم يستطع أن يغمض عينيه فظل محملقًا فى النافذة الزجاجية يتأمل السماء وقد استعادت صفاءها وتلألأت النجوم فى تلك الليلة الحارة، على الرغم من العاصفة. شعر بذراعيه العاريتين تشتعلان من الحرارة حتى بعد أن أخرجهما من تحت الملاءة.

شغلت الفتاة تفكيره، ودارت أفكار كثيرة فى رأسه. أسعده احتقاره لها، ثم راوده خوف من أن تزحم تلك الفتاة حياته لو استسلم لها أو من أن يظهر بمظهر الأحمق إن لم يستفد من الموقف، ولكن فى النهاية طغى عليه شعور الاحتقار، كان يعتقد أنه شديد القوة ورأى أن الاستسلام لهذه الفتاة سيطيح براحة باله ثم أخذ يضحك ساخرا من الإغراء الذى استطاع أن يقاومه.

شعر بالحر يخنقه، فأخرج ساقيه أيضًا من تحت الغطاء، ثم بدأ يتخيل، تحت تأثير الهلاوس والنعاس أن النجوم المتوهجة تتحول إلى رسوم عارية جميلة للنساء تصور جسد المرأة الحى الذى يعشقه. واستمرت هذه الأفكار

فى التدافع. وأخذ يتساءل عما تفعله الفتاة الآن؟ ظن لفترة أنها نائمة لأنه لم يكن يسمع حتى صوت تنفسها، ولكنه أصبح يسمعها الآن وهى تتقلب على الفراش تطاردها أفكار لا تنتهى مثله تماما. أخذ يحاول أن يفكر، هو القليل الخبرة بالنساء، فى القصة التى روتها له وبدت له بعض التفاصيل محيرة بالفعل وخالية من المنطق، ثم عاد ونبذ الفكرة، فما الفائدة من التفكير؟ فلا يهم سواء كانت صادقة أو كاذبة؟ ففى الغد ستذهب وسينتهى الأمر ولن يرى أحدهما الآخر ثانية.

لم يستطع النوم قبل حلول النهار بعد أن انطفأت النجوم. وخلف الستار، كانت الفتاة لا تزال متوترة يعذبها، بالإضافة إلى إرهاق السفر، ثقل الهواء والحرارة المنبعثة من ألواح الزنك المعدنية المصنوع منها السقف. ثم بدأ ضيقها يقل واعترتها رجفة عصبية مفاجئة، وأطلقت تنهيدة لفتاة بريئة يزعجها وجود هذا الرجل الغريب النائم بالقرب منها.

استيقظ كلود متأخرا، كانت الشمس تملأ المكان. كانت تلك إحدى نظرياته، وهى أن فنانى التصوير فى الهواء الطلق[١] يجب أن يعيشوا فى أماكن تخترقها أشعة الشمس الحية التى لا يفضلها الرسامون الأكاديميون[٢].

انتابته الدهشة واعتدل فى جلسته وساقاه عاريتان يتساءل عما جعله ينام على الأريكة؟ أخذ ينظر حوله وعيناه متعبتان من آثار النوم، حتى وجد

---

(١) مدرسة جديدة فى التصوير قلبت موازين الرسم فى القرن التاسع عشر، وقد بدأت على يد مونيه ومانيه. (المترجمة)

(٢) التقليديون (المترجمة).

تنورة، فتذكر تلك الفتاة، فأخذ يسترق السمع وترامى إلى أذنه صوت أنفاس طويلة ومنتظمة مثل الأطفال. وقال: "جيد! إنها لا تزال نائمة". ومكث فى هدوء شديد لئلا يوقظها.

ظل لفترة شبه تائه يحك ساقيه، مستاءً من تلك المغامرة التى تورط فيها والتى ستفسد يومه وتعوقه عن العمل. كان قلبه الرقيق أكثر ما يغضبه، أراد أن يهزها فتستيقظ وتمضى على الفور. إلا أنه ارتدى بنطاله بهدوء ووضع حذاءه ومشى على أطراف أصابعه. دقت الساعة التاسعة وانتفض كلود خوفا من أن تستيقظ ولكنها لم تتحرك. ورأى كلود أنه من الأفضل أن يستكمل العمل فى لوحته الكبيرة، ثم يتناول طعامه لاحقًا عندما يستطيع التحرك بسهولة. ولكنه استمر مترددًا، كان يشعر بالضيق بسبب التنورة الملقاة على الأرض، وهو الذى كان يعيش فى فوضى فظيعة. كانت الملابس لا تزال مبللة، فبدأ يجمعها قطعة بقطعة متذمرًا ليضعها على المقاعد فى الشمس لتجف. وساورته فكرة: "آه لو كنت أستطيع أن ألقى بكل شيء من النافذة وأتركه يضيع!". "لن تجف هذه الملابس أبدًا وبالتالى فلن تذهب الفتاة أبدًا". وأخذ يقلب الملابس النسائية على كل الأوجه ويتأمل فى حرج هذا الصدار[١] المصنوع من الصوف الأسود، وانحنى على ركبتيه يبحث عن الجوارب التى سقطت خلف لوحة قديمة. كانت الجوارب طويلة ورقيقة مصنوعة من الخيط الإسكتلندى ذات لون رمادى متفخم. أخذ يتفحصها جيدا

---

(١) رداء نسائى يغطى القسم الأعلى من الجسم. (المترجمة)

قبل تعليقها، كانا قد ابتلا من طرف الثوب المبلل، فأخذ يمطهما ويفركهما بيديه الحارتين ليجففهما لتذهب الفتاة فى أسرع وقت.

اجتاحتِه رغبة قوية فى زحزحة الستار ليرى ما وراءه، أثار هذا الفضول الساذج أعصابه وأخيرا أمسك فرشاته ليعمل، ولكنه ما إن سمع صوت حفيف الأقمشة وبعض الكلمات المضغمة التى تتخلل هذه الأنفاس الرقيقة، حتى خارت قواه فترك فرشاته وأطل برأسه خلف الستار. ظل كلود ساكنا فى حالة من النشوة وهمس: "آه عجبًا! آه! ما الذى أراه؟"

كانت الفتاة قد أزالت الملاءة تحت تأثير الحرارة الشديدة التى تشع من النوافذ. ولم تشعر من فرط تعبها بأشعة الشمس تسرى على جسدها العارى النقى. انفكت أزرار القميص الذى ترتديه وهى نائمة، وانزلق كمها الأيسر كاشفا عن صدرها. بدت بشرتها مذهبة فى نعومة الحرير ونهداها صغيرين قويين فائرين ممتلئين بالحيوية تزينهما وردتان شاحبتان. وضعت ذراعها اليمنى تحت رقبتها وتراجع رأسها الناعس وظهر نهداها فى ثقة رائعة، وانسدل شعرها الأسود المتهدل كاسيا إياها بمعطف داكن.

ظل كلود مبهورا: "آه عجبًا! إنها جميلة للغاية!". كان هذا الجمال وهذه الهيئة هما ما يبحث عنه دون جدوى لرسمه فى لوحته.

كانت الفتاة نحيلة كطفلة ولكنها بضة تفيض بنضارة الشباب، ولها نهدان عجيبان فى نضوجهما. "بحق الجحيم أين كان يختفى هذا الصدر الرائع ليلة أمس وكيف لم يخمن وجوده؟ إنها بالفعل اكتشاف حقيقى!".

جرى كلود بخفة وأحضر علبة ألوان الباستيل وورقة كبيرة وضـــعها على ركبتيه، وجلس القرفصاء عند حافة الفراش يرسم بسعادة غامرة. تحول ما كان يشعر به من اضطراب أو فضول جسدى أو رغبة مكبوتة إلى انبهار فنان بالمنظر وانفعال بالدرجات البديعة للألوان والعضلات المنقبضة. نـــسى الفتاة وغرق فى سحر نهديها ناصعى البياض اللذين أضاءا كتفهـــا عنبـــرى اللون. وعندها غلبه شعور قلق بالتواضع والضآلة أمام الطبيعة، وهز مرفقيه كطفل صغير عاقل ومحترم.

استمر الحال هكذا لما يقرب من ربع الساعة. كان يتوقف من حين لآخر ليفرك عينه، ثم يخاف أن تتحرك، فيعود سريعا للعمل كاتمًا أنفاسه لئلا يوقظها.

استمرت الأفكار العابرة تطن فى رأسه، وهو منهمك فى العمل. "مـــن هى تلك الفتاة؟ هى بالطبع ليست متشردة كما ظن فى البداية، فهى لا تـــزال بضة ونضرة. ولكن لماذا قصت عليه تلك الرواية الخيالية؟". وبدأ يتـــصور قصصا أخرى: "قد تكون فتاة غريرة ذهبت إلى باريس مع عشيقها ثم تركها، أو تكون فتاة من أسرة برجوازية أفسدتها صديقة لهـــا، وخافـــت أن تعـــود لوالديها، أو قد تكون ضحية أمر أكثر تعقيدا أو متورطة فى انحرافات ساذجة وغريبة أو فى أشياء أخرى مشينة لن يعرفها أبـــدا". ضـــاعفت كـــل هـــذه الافتراضات من حيرته. ثم انتقل إلى رسم الوجه، فبدأ يدرسه بعناية، وجـــد الجزء الأعلى على قدر عالٍ من الجمال والعذوبة فكان لها جبهة صافية مثل المرآة وأنف صغير ذو أرنبتين رفيعتين عصبيتين، وعيناها تبتسمان تحـــت

أجفانها بصورة تنير وجهها بأكمله، فقط الجزء الأسفل كان يفسد هذا الإشعاع من الرقة والعذوبة، ففكاها وشفتاها الحمراوان تظهر منهما أسنان قوية وبيضاء. فبدت ككتلة من الشغف والنضج الفائر تتخللها ملامح رقة طفولية.

وفجأة سرت فى أوصالها رجفة ارتعشت لها بشرتها الجميلة، وكأنها شعرت فى النهاية بنظرات هذا الرجل الذى يتفحصها، وفتحت عينيها وصرخت: "يا إلهى! يا إلهى!". ظلت مصعوقة، ما هذا المكان المجهول؟ ومن هذا الرجل ذو القميص الراكع أمامها يلتهمها بعينيه؟ فسارعت بحركة مهتاجة تجذب الغطاء ووضعته على جسدها وأخذت تشد عليه بيديها حتى غطى رقبتها، كانت فى حالة من الخوف والإثارة، مدفوعة بذعرٍ وجلٍ، حتى امتدت حمرة وجنتيها إلى أطراف نهديها كسيل هادر من اللون الوردى.

صرخ كلود مستاءً ملوحًا بالقلم: "ماذا إذًا؟ ماذا بك؟." لم تنبس بكلمة وظلت ثابتة والملاءة محكمة حول رقبتها وهى ملتفة حول نفسها ملاصقة للفراش. فقال: "ماذا بك؟ أنا لن أفترسك هيا كونى لطيفة وعودى إلى نفس وضعك الذى كنت عليه!". احمر وجهها حتى أذنيها، وقالت متلعثمة: "لا لا يا سيدى!". بدأ كلود يغضب وملأته شحنة فجائية من الغضب كان يألفها وبدا له هذا العناد ضربا من السخافة.

"قولى لى ما الذى يزعجك؟ فما الخطب فى رؤيتى لتكوينك؟ فلقد رأيت الكثيرات قبلك!"- كانت تنتحب واستشاط هو غضبًا وفقد الأمل فى إكمال رسمه. أخرجته هذه الفكرة عن طوره خاصة حينما فكر أن احتشام هذه الفتاة الزائد هو ما يمنعه من إكمال لوحته.

– "حسنا أنت لا تريدين! ولكن هذه حماقة! من تظنينني؟ لو كنت أفكر فى حماقات لكنت ارتكبتها أمس حينما واتتنى الفرصة! يا عزيزتى يمكنك أن ترينى كل شيء! كما أنه ليس من اللطف أن ترفضى إسداء هذه الخدمة لى بعد أن أحضرتك عندى أمس وجعلتك تنامين فى فراشى".

تعالى صوت بكائها وهى تدس رأسها فى الوسادة. استمر كلود فى حديثه: "أقسم لك بأنى محتاج لهذه اللوحة، أنا لا أعذبك!" فاجأه هذا الكم الهائل من الدموع وشعر بالخجل من فظاظته، صمت فى حرج وانتظر حتى تهدأ، ثم عاد يحدثها بصوت زقيق:

"لنرى، ما دام هذا يزعجك لن نتحدث عنه، ولكنى أريدك فقط أن تعلمى أن هناك صورة امرأة فى لوحتى وأنا عاجز عن رسمها وأنت كنت فى غاية الروعة وأنا أرسمك. تلك اللوحة تمثل لى كل شيء، فأنا على استعداد أن أبيع والدى فى سبيلها! أرجوك أن تمنحينى بضع دقائق! لا لا اهدئى، فأنا لا أريد الجسد وإنما الرأس ولا شيء سواها، دعينى أنهى الرأس على الأقل! من فضلك كونى لطيفة وضعى يدك كما كانت وسأكون مدينا لك طول حياتى!".

كان يتوسل إليها محركًا قلمه بصورة يرثى لها تحت وطأة الرغبة العارمة التى تختلج فى داخل الفنان. لم يتحرك وظل جالسا القرفصاء على المقعد المنخفض بالقرب منها.

كشفت وجهها الهادئ، فلم يكن أمامها بد من ذلك وهى تحت رحمته، كما أنه بدا تعيسا للغاية. كانت لا تزال مترددة ومضطربة، فظلت ممسكة باليد الأخرى بالغطاء المحكم حول رقبتها.

صاح كلود: "كم أنت طيبة! لا تقلقى سأسرع لكى تمضى فى الحـــال!"
كان منكبا على لوحته، لا يلقى عليها سوى تلك النظرات الواضحة لفنـــان اختفت المرأة من أمامه ولم يعد يرى سوى "العارضة".

كستها حمرة الخَجل بسبب ذراعها العارى، الذى لم تكن تظهره سوى بسذاجة فى بعض الحفلات، ولكنه أصبح الآن يملؤها بالاضطراب. بدا كلود عاقلا مما أراحها قليلاً، فخفت حمرة وجنتيها وارتخت شـــفتاها وارتـــسمت عليهما ابتسامة ثقة.

أخذت هى الأخرى تتفحصه من بين جفونها نصف المغلقة، كان قـــد أخافها ليلة أمس بلحيته الكثيفة ورأسه الكبير وحركاته العصبية. لـــم يكـــن قبيحًا، ورأت فى أعماق عينيه البنيتين رقة وحنانا. أما أنفه فكان رقيقًا كأنف النساء حتى إنه كاد يختفى وسط شاربه الكث. ثم هزته رجفة قلقة هو الآخر، مبعثها هذا الشغف المستمر الذى بعث الحياة فى القلم الـــذى بـــين أصـــابعه الرقيقة. تأثرت الفتاة بشدة بهذه الرجفة دون أن تدرى لماذا؟ ولكنها أدركـــت أنه لا يمكن أن يكون شخصًا سيئا وإنما ينبع عنفه من خجله. لم تكـــن قـــد حللت كل هذه الأمور وإنما شعرت بها، فاسترخت وكأنها مع صديق.

كان المرسم لا يزال يخيفها قليلا، فأخذت تلقى عليه نظرات حـــذرة. أدهشتها الفوضى والإهمال. فأمام الموقد، كان لا يزال هناك رماد متكـــدس من الشتاء الماضى. لم يكن هناك أثاث آخـــر بخـــلاف الفـــراش والأريكـــة والطاولة ودولاب قديم متهالك مصنوع من خشب البلوط وطاولة أخرى من

خشب التنوب وضعت عليها فرش وألوان وأطباق قـذرة ومـصباح يعمـل بالكحول الأثيلى. كان على الطاولة أيضًا قدر به آثار شعرية، بالإضافة إلى مقاعد متناثرة خالية من القش ومساندها مكسرة. بالقرب من الدولاب، كانت شمعة ليلة الأمس ملقاة على الأرض، فى أحد الأركان التى لم تنظف منذ عدة أشهر. كان الشىء الوحيد المبهج والنظيف فى المرسم هو الـساعة الفخمـة المزينة بالزهور الحمراء التى تحدث صوتا عاليا.

أخافتها اللوحات المعلقة على الحوائط بدون إطـارات. كـان عـددها ضخما، كسيل متدفق إلى الأرض حيث يتكدس كم رهيـب منهـا بـصورة عشوائية. لم يسبق لها أن رأت صورا رهيبة وخشنة وصارخة مثـل تلـك اللوحات، كانت درجات ألوانها عنيفة وكأنها سباب سائق أمام بوابـة أحـد الفنادق. أطرقت ثم لفتت نظرها لوحة أخرى وجهها للحائط. كانت هى تلـك اللوحة الضخمة التى يرسمها كلود حاليا، والتى يضعها كل يـوم بمواجهـة الحائط، ليقيمها فى اليوم التالى بصورة أفضل عندما يلقى عليها نظرة جديدة.

ماذا كان فى تلك اللوحة يا ترى يجعله يخفيها عن الأنظـار؟ كانـت أشعة الشمس الشديدة القادمة من الزجاج تنتشر دون أن يخفـف حـدتها أى ستار داخل الغرفة وكأنها ذهب سائل يجرى فوق أنقاض المفروشات مظهرًا بوضوح مظهرها البائس.

شعر كلود أن الصمت أصبح مطبقًا، فأراد أن يفتح أى حـديث ليبـدو مهذبًا وأيضًا ليشغلها عن الهيئة التى تتخذها، وبعد بحث طويل، توصل إلى هذا السؤال:

"ما اسمك؟"

ففتحت عينيها المغمضتين وقالت:

"كريستين".

اندهش، فهو لم يقل لها اسمه، فهاهما معا منذ ليلة أمس دون أن يتبادلا الأسماء.

فقال: "أما أنا فاسمى كلود".

انفجرت من الضحك، بضحكات جميلة مرحة صادرة عن فتاة شابة لا تزال تتسم بالصبيانية، متعجبة من هذا التعارف المتأخر، ثم لاحت لها فكرة راقت لها:

"انتظر، كلود وكريستين كلاهما يبدأ بنفس الحرف".

خيم الصمت مرة أخرى، كان يطرف بعينه هائمًا فى الخيال، ولكنه رأى أنها بدأت تمل، فحاول أن يشغلها بأى شىء كيلا تتحرك:

"الجو حار بالفعل".

كتمت هذه المرة ضحكتها، لتخفى تلك السعادة الساذجة التى ظهرت رغمًا عنها منذ أن اطمأنت إليه. اشتدت الحرارة حتى شعرت بأنها مبللة تماما فى الفراش وأصبحت بشرتها الشاحبة رطبة وندية تشبه زهور الكاميليا فى لونها اللبنى الشاحب. أجابت بجدية والسعادة تتدفق من عينها: "نعم الجو حار جدا!".

فعلق كلود بأسلوبه المهذب:

"إن الشمس التى تدخل إلى هنا هى سبب هذه الحرارة، ولكنها مفيدة للبشرة، أليس كذلك؟ ألم نكن نحتاج لمثل هذه الحرارة أمس ونحن أمام الباب؟" ضحك الاثنان بشدة. سعد كلود لأنه وجد أخيراً موضوعا للحديث، ثم سألها عن مغامرتها ولكن ليس بدافع الفضول أو معرفة الحقيقة، وإنما بهدف إطالة الجلسة.

وروت كريستين له ببساطة ما حدث: كانت قد تركت كليرمونت صباح أمس متوجهة إلى باريس، حيث ستعمل مرافقة تقوم بالقراءة لأرملة أحد الجنرالات تدعى السيدة فانزاد، وهى سيدة عجوز وغنية تقطن مدينة باسى. كان من المفترض أن يصل القطار حسب الجدول فى الساعة التاسعة وعشر دقائق، وكانت إحدى الخادمات ستنتظرها عند المحطة، حتى إنهما قد حددا علامة للتعرف على بعضهما بعضا: ريشة رمادية مثبتة فى قبعتها السوداء. – "ولكن بالقرب من نيفير قابلنا قطار بضائع خارجا عن مساره وعرباته كلها مهشمة تعترض الطريق، ثم وقعت بعض الحوادث الأخرى التى تسببت فى تأخير القطار وانتظرنا طويلاً داخل العربات، ثم اضطررنا أن نخلى القطار، فتركنا حقائبنا وسرنا على الأقدام حوالى ثلاثة كيلومترات لنصل إلى المحطة لنستقل قطار الإنقاذ. وتسببت الحادثة التى أغلقت طرفى الطريق فى ضياع كثير من الوقت، وعندما وصلنا إلى المحطة كانت الساعة الواحدة صباحا وكنا متأخرين أربع ساعات عن الموعد المحدد".

قاطعها كلود قائلا: "يا لسوء الحظ!" كان لا يزال متشككًا، فى داخلـه، ولكنه تفاجأ من السهولة التى روت بها تطورات الرواية وأستأنف قـائلا: "وبالطبع لم تجدى أحدًا فى انتظارك؟".

بالفعل لم تجد كريستين خادمة السيدة فانزاد، التـى ملـت الانتظـار بالقطع. ثم روت له عن خوفها وهى فى محطة قطـارات ليـون بقاعتهـا الضخمة السوداء الخالية فى هذا الوقت المتأخر من الليل. فى البدايـة. لـم تجرؤ على تأجير عربة، وظلت تسير حاملة حقيبة يدها على أمل قـدوم أى شخص، خاصة وأنه لم يكن هناك سوى حوذى واحد غاية فى القذارة، تفوح منه رائحة الخمر، يتسكع بالقرب منها عارضًا خدماته بطريقة ساخرة.

استأنف كلود قائلا: "نعم، سائق متسكع!" جذبته الأحداث وكأنه يتـابع حكاية خيالية وسألها: "وهل صعدت إلى العربة؟". فأجابت وعيناها شاخصتان للسقف وهى ثابتة فى وضعها: "نعم، فلقد أجبرنى على الصعود معه. كـان يخيفنى ويدعونى "صغيرته"... ولكن عندما علم أنى ذاهبة إلى باسى غضب وضرب حصانه بقوة فتشبثت بأبواب العربة. ثم بدأت أستـشعر الطمأنينـة عندما رأيت العربة تسير فى وسط شوارع مضيئة بها أناس يسيرون علـى الأرصفة. وأخيرا رأيت نهر السين. لم آت إلى باريس من قبل، ولكنى رأيت خريطة لها، واعتقدت أن العربة ستسير بمحاذاة الكورنيش، ولكنى ارتعبـت عندما رأيت أننا نعبر فوق جسر. كان المطر قد بدأ يهطل، وتوقفت العربـة فجأة فى مكان مظلم، ونزل الحوذى من مقعده وجاء يركب معى فى العربـة خوفًا من المطر".

غرق كلود فى الضحك. لم يعد يشك فى الحكاية، فهى بالتأكيد لم تخترع هذا الحوذى، أما هى فتوقفت محرجة وقالت: "حسنا! حسنا! فهو بالفعل شيء مضحك!".

وعادت تروى كيف قفزت على الفور على الرصيف من الباب الآخر. ولكن الحوذى مضى يسب ويقول إننا قد قاربنا على الوصولَ وإنه سينزع قبعتى إذا لم أدفع. كان المطر ينهمر كالسيل وخلا الرصيف تمامًا، وعندها خفت وأخرجت قطعة نقدية قيمتها خمسة فرنكات، فأخذها وجرى. كما أخذ معه حقيبة يدى، ولحسن الحظ، لم يكن فيها سوى منديلين ونصف قطعة بريوش ومفتاح حقيبتى الكبيرة التى لا تزال فى الطريق.

صاح فيها كلود: "ولكن كيف لم تأخذى رقم العربة؟" وتذكرّ أن هناك عربة قد مرت من جانبه مسرعة وهو يعبر جسر لويس- فيليب وقت هبوب العاصفة. واندهش من الحقيقة وكيف تكون غريبة وعجيبة عادة. فكل ما كان يعتقده بسيطًا ومنطقيا غدا غبيا مقارنة بالمجرى الطبيعى للملابسات اللانهائية للحياة.

أضافت كريستين: "هل تظن أننى كنت سعيدة وأنا واقفة أمام هذا الباب؟ كنت أعلم أنى لست فى باسى، وأنى سأضطر للمبيت هنا فى باريس الرهيبة، وسط هذا الطقس وهذا البرق الأزرق والأحمر اللذين جعلانى أرى أشياء أرعبتنى!". أغلقت عينيها مرة أخرى وظهرت على وجهها الشاحب رعشة وهى تسترجع منظر المدينة المرعبة وأرصفة الميناء الغارقة فى لهيب من النار والضوء، وهذه الحفرة العميقة للنهر حيث تجرى مياه من الرصاص مزدحمة

بأجسام سوداء ضخمة هى القوارب التى تشبه الحيتان الميتة، أو تلك الروافع التى تمتد وكأنها ذراعا مشنقة! يا له من ترحاب جميل!

ساد الصمت مرة أخرى وعاد كلود إلى عمله، واعتدلت هى فى وضعيتها بعد أن خدرت ذراعيها. فقال لها: "اخفضى مرفقك من فضلك!". ثم عاذ فسألها من قبيل الاعتذار وهو يتصنع الاهتمام: "لا بد من أن والديك ستغمرهما الكآبة والأسى إذا علموا بالكارثة".

- "ليس لى أهل".

- "كيف هذا لا أب ولا أم، أنت وحيدة؟".

- "نعم، وحيدة تمامًا!".

كانت كريستين تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما. ولدت فى ستراسبورج، وعندما بلغت اثنى عشر عاما مات والدها الضابط هالوجران وهو جاكسونى من مونتوبان، فى مدينة كلير مونت بعد أن أحيل إلى المعاش لإصابته بالشلل فى ساقيه. ثم قامت والدتها، وهى من مواليد باريس، بتربيتها بدخلها البسيط الذى تدره عليها أعمالها فى رسم المراوح وغيرها لتجعل من ابنتها فتاة محترمة. وماتت هى الأخرى منذ خمسة عشر شهرًا وتركت كريستين وحيدة فى الدنيا دون أى أموال، فلم تعد تمتلك شيئًا سوى صداقتها لإحدى الراهبات وهى كبيرة راهبات دير الزيارة المقدسة[1] فضمتها إلى

---

(١) زيارة السيدة العذراء للقديسة اليصابات. (المترجمة)

المدرسة الداخلية، أى إنها قادمة مباشرة من الدير بعد أن وجدت هذه الراهبة وظيفة لها كقارئة لدى صديقة عجوز شبه عمياء وهى السيدة فانزاد.

ظل كلود صامتًا يستمع لهذه التفاصيل الجديدة حول الدير والفتاة اليتيمة حسنة التربية والمغامرة شبه الخيالية مما زاد من حيرته وارتباكه وذكره بفظاظته ورعونة أقواله وخشونة أفعاله معها، فتوقف عن العمل وظل يتأمل الرسم الأولى.

وسألها أخيرا: "وماذا عن كلير مونت، هل هى جميلة؟"

– "ليس كثيرا فهى مدينة كئيبة، ثم إنى لست أعرفها جيدا فبالكاد كنت أخرج هناك". استندت إلى مرفقيها واستأنفت حديثها بصوت خافت منتحب من الحزن كما لو كانت تحدث نفسها:

"لم تكن أمى قوية، كانت تستنفد طاقتها فى العمل. كانت تدللنى، لم تمنع عنى شيئا، كان لدى معلمون فى كل الفروع، ولكنى لم أكن أستفيد منهم، فى البداية كنت أتصنع المرض كى لا أستمع أو كنت أستغرق فى الضحك. كنت أضيق بالموسيقى، حتى إننى كنت أصاب بتشنجات فى ذراعى عند تعلم البيانو، ولكننى كنت أحسن حالا فى الرسم...". رفع رأسه فى تعجب: "هل تعرفين الرسم؟".

– "آه، لا! إننى لا أعرف شيئا على الإطلاق، وإنما أمى هى التى كانت موهوبة، كانت تجعلنى أرسم لوحات بالألوان المائية، وكنت أساعدها فى عملها فى رسم المراوح. كان رسمها رائعًا!"

نظرت رغمًا عنها إلى المرسم وإلى هذه اللوحات المفزعة التى تشغل الجدران من حولها، وظهر فى عينيها الغافلتين نوع من الاضطراب والاندهاش من هذا الرسم العنيف. ورأت من بعيد اللوحة التى يرسمها لها كلود ولأشد ما كان ذهولها أمام هذه الدرجات العنيفة وهذه الخطوط القوية من الباستيل دون أى ظلال ، حتى إنها لم تجرؤ على مشاهدتها عن قرب. بدأت تتعب من هذا الفراش الحار وعذبتها فكرة ضرورة الرحيل وترك كل هذه الأشياء التى بدت لها كحلم ممتد من ليلة أمس. أدرك كلود هذا الشعور، وساوره مزيج من الخجل والندم، فترك لوحته غير المكتملة وقال بسرعة: "شكرا جزيلا للطفك يا آنستى ... اعذرينى بالفعل، هيا انهضى من فضلك، فلقد حان وقت رحيلك لتهتمى بأمورك. "استمر يدعوها للنهوض وهو لا يعلم لماذا لا تزال حائرة ومحمرة خجلاً رافعة ذراعها العارى وهو يستحثها على القيام، وفجأة قام بوضع الستار بحركة مفاجئة وجنونية وذهب إلى آخر المرسم وهو فى شدة الخجل محدثًا جلبة عالية وهو يرتب آنيته حتى تستطيع أن تنهض من الفراش وترتدى ثيابها دون أن يراها أو يسمعها.

وفى وسط تلك الضوضاء التى يحدثها لم يسمع صوتها الخافت، وهى تقول: "سيدى! سيدى!". وأخيرًا تنبه إليها وهى تقول: "من فضلك يا سيدى، لا أجد جواربى".

مضى بسرعة وهو يتعجب من نفسه، فكيف لها أن تمضى وهى خلف الستار دون صدار أو تنورة بعد أن وضعهما فى الشمس ليجفا. كانت

الجوارب قد جفت ففركهما بيديه ليتأكد، ثم مررهما من الستار حيث رأى لآخر مرة الذراع العارى البض المستدير ذا الطفولة الساحرة.

ثم رمى التنورة على طرف الفراش ودفع لها بالحذاء ولم يترك شيئًا سوى القبعة المعلقة على المسند. شكرته، ولم تنبس بكلمة بعد ذلك. لم يعد يسمع صوتا سوى حفيف الأقمشة وأصوات مياه جارية. ولكنه استمر منشغلا بها:

"يوجد صابون فى الصحن الصغير على الطاولة، افتحى الدرج وأخرجى منشفة نظيفة.... هل لديك ماء كافٍ؟ سأعطيك الإبريق...".

كانت فكرة عودته للتلعثم تثير حنقه، فقال: "هيا ها أنا أزعجك ثانية! تصرفى كما لو كنت فى بيتك".

عاد إلى عمله، ثم خطرت له فكرة: هل يجب أن يدعوها للإفطار؟ كان من الصعب أن يتركها تمضى دون طعام، ولكن هكذا لن ينتهى الأمر وسيضيع اليوم كله دون عمل. ودون أن يقرر أى شىء، ذهب ليضىء المصباح ويغسل القدر، وبدأ يصنع شيكولاتة ساخنة شهية. كان محرجًا فى أعماقه من الشعرية الموجودة لديه وهى عبارة عن ثريد يضع به قطع خبز ويضعه فى الزيت على طريقة الجنوب. كان لم يزل بعد يقطع الشيكولاتة فى القدر، وفجأة صاح فى دهشة: "كيف، هكذا سريعا؟".

كانت هذه كريستين تزحزح الستار لتظهر بوضوح. كانت جميلة فى ثيابها المعقودة بعناية. تورد وجهها من أثر الرطوبة، وانعقد شعرها خلف رقبتها بصورة رائعة دون أن تخرج منه خصلة.

ظل كلود فاغرا فاه أمام السرعة والنشاط والحيوية التى ارتدت بها ملابسها.

- "آه عجبًا! لو كنتن تفعلن كل الأمور هكذا".

اكتشف أنها أطول وأجمل مما كان يتخيل. أعجبه هدوؤها وإصرارها، خاصة وأنها لم تعد تخافه بعد أن نهضت من الفراش، حيث كانت فى موقع ضعيف مهزوم. ارتدت حذاءها وثوبها، ونظرت مباشرة فى عينيه باسمة.

أخيرًا قال ما كان يتردد فى قوله: "هل تبقين لتناول الفطور معى؟".

ولكنها رفضت قائلة: "شكرًا لك، ولكن يجب أن أسرع إلى المحطة لأبحث عن حقيبتى وأجد من يقودنى إلى باسى".

وعبثًا حاول أن يثنيها موضحًا لها أنها بالتأكيد جائعة، وأنه لا يجب أن تخرج دون أن تأكل.

وأخيرًا قال: "إذا سأنزل لأحضر لك عربة".

فقالت: "لا من فضلك! لا تتعب نفسك!".

- "ولكنك لا يمكن أن تسيرى كل هذه المسافة، دعينى على الأقل أصحبك إلى موقف العربات فأنت لا تعرفين الطرق فى باريس".

- "لا لا من فضلك، أنا لست فى حاجة إلى ذلك. إذا سمحت دعنى أذهب بمفردى".

كان هذا قرارها، فقطعًا كانت ترفض فكرة أن يراها أحد وهى تسير مع رجل، حتى وإن لم يعرفها أحد، وبالتأكيد ستتكتم أمر الليلة الماضية وستكذب بشأنها لتحتفظ لنفسها فقط بذكرى هذه المغامرة. أوشك كلود على أن يلعنها من شدة الغضب وقال لنفسه: "التخلص منها أفضل! وهكذا لن أضطر إلى الخروج باقى اليوم".

ولكنه ظل مجروحا من الداخل ورأى أنها ناكرة للجميل.

فقال: "كما تريدين فأنا لن أجبرك على شيء".

اتسعت ابتسامة كريستين وضمت أطراف شفتيها الرقيقتين وصمتت. ثم أخذت قبعتها وجالت بنظرها بحثا عن مرآة، وعندما لم تجد اضطرت إلى ربط شرائط القبعة كيفما اتفق. ورفعت مرفقيها وبدأت تعقد الشرائط دون تعجل، وقد لمع وجهها من انعكاس أشعة الشمس عليه. وعندها انبهر كلود فلم يعد يرى تلك الملامح العذبة الطفولية التى كان يرسمها، وإنما بدا له أعلى الوجه مختلفا، جبهة حادة، وعيون رقيقة ، وفكان مليئان بالشغف وفم شديد الحمرة وأسنان رائعة الجمال وابتسامة غامضة أو ساخرة من يدرى؟

أجاب بغيظ: "على كل حال، لا أظن أنك ستلومينني على شيء؟".

لم تستطع كتم ضحكتها الخفيفة العصبية، وقالت: "لا لا يا سيدى ولا على أى شيء!".

استمر يتأملها يمزقه خجله وقلة خبرته بالنساء، واشتد خوفه من أن يظهر بمظهر سخيف وتفكر فى نفسه: "ماذا عساها أن تعرف تلك الفتاة

الشابة؟ "لا شك أن الفتيات فى المدرسة تعرفن كل شــــىء ولا شـــىء، إنـــه المجهول، سر الجسد والقلب وما يكتنفه من غموض حيــث لا يــستطيع أى إنسان أن يسبر أغواره. أجاءت هذه الشهوانية الخجولة، لتوقظ ما بداخلـــه، بفضولها وخوفها الغريب من الرجل؟ ولكنها الآن لم تعد خائفة، هل فوجئت بأنه لا يوجد شىء يستحق الارتجاف؟ حتى قبلة على أطــراف الأصـــابع؟ بالتأكيد لامبالاة هذا الرجل قد أزعجت المرأة التى لا تزال تتكون بـــداخلها، وها هى تمضى مضطربة متصنعة الشجاعة رغمًا عنها ، حاملة فى داخلها ندما لا شعوريًّا على تلك الأشياء الرهيبة والمجهولة التى لم تقع.

واستأنفت حديثها بجدية:

"قلت إن موقف العربات فى نهاية الجسر على الرصيف الآخــــر؟".

انتهت من ربط شرائطها. وقفت مستعدة مرتدية قفازهـــا ولكنهـــا لـــم ترحل، وإنما كانت تنظر أمامها ورأت لوحة كبيرة وأرادت أن تطلب منه أن يريها إياها ولكنها لم تجرؤ. لم يعد ينقصها شىء للرحيل ولكنها ظلت وكأنها تبحث عن شىء ما قد نسيته ولكنها لا تعرفه. وأخيرًا، توجهت ناحية الباب.

فتح كلود الباب وعندها سقط رغيف خبز مستند إلى الباب، فقال: "أترين، كان عليك أن تأكلى معى، فها هى حارسة المبنى تأتى لى ببقالة كل صباح".

ولكنها رفضت مرة أخرى بإشارة من رأسها، وعلـــى حافـــة الـــدرج استدارت مرة أخرى ووقفت لحظة صامتة، ثم عادت إليها ابتسامتها المرحة ومدت له يدها: "شكرًا، شكرًا جزيلاً!".

فأخذ يدها الصغيرة ذات القفاز فى يده الضخمة الملطخة بالباستيل وظلا هكذا عدة ثوان يشدان على يد أحدهما الآخر فى صداقة عميقة. بقيت كريستين مبتسمة، وراود كلود سؤال: "متى سأراك ثانية؟" ولكن منعه خجله من الكلام. وبعد انتظار، شدت يدها وقالت: "الوداع يا سيدى". "الوداع يا آنستى".

نزلت كريستين السلم دون أن ترفع رأسها وهى تسمع صرير الدرجات، أما كلود فعاد بعنف إلى مرسمه ودفع الباب بقوة صائحًا: "آه من هؤلاء النساء، يا لهن من مخلوقات جهنمية!"

كان شديد العنف، حانقا على نفسه وعلى الآخرين وأخذ يدفع الأثاث بقدميه، صائحًا بصوت عالٍ. كان معه حق بالفعل فى ألا تدخل أى امرأة إلى مرسمه، هؤلاء المتشردات لا يبرعن فى شىء قدر السخرية منه. والآن ما الذى يضمن له أن تلك الفتاة متصنعة البراءة لم تسخر منه بطريقة دنيئة! ولام نفسه على تصديقه لهذه القصص المملة التى تسبب النعاس. وعاودته كل شكوكه، فهو لا يصدق أبدا قصة أرملة الجنرال والحادثة التى وقعت للقطار أو الحوذى؟ آه! هل تحدث أشياء مثل هذه فى الواقع؟ كما أنها تملك فما رائعا وكانت مدهشة وهى تغادر المرسم، ولكن لو كان يعرف لماذا كانت تكذب. ولكن الكذب بدون سبب شىء غير مبرر مثل "الفن للفن"! آه لا بد أنها تضحك من قلبها الآن!

طوى الساتر بعنف ورماه فى أحد الأركان. كان ينتظر أن يرى الفوضى التى خلفتها، ولكنه فوجئ بكل شىء مرتبًا ونظيفًا: الحوض

والمنشفة والصابون ولكنه غضب لأنها لم ترتب الفراش، وبدأ يرتبه بنفسه فى صمت غريب، رفع المرتبة بين ذراعيه ضاربًا الوسادة المعطرة بكلتا يديه، وقد خنقه ذلك الدفء ورائحة الشباب النقية التى فاحت بها الأغطية. غسل وجهه بمياه كثيرة ليرطب صدغيه وأحس حينما وضع المنشفة الرطبة على وجهه بالضيق، حيث شعر بأنفاس الفتاة العذراء العذبة المنتشرة فى أنحاء المرسم تعذبه بقسوة.

أخذ يأكل من إناء الشيكولاتة التى صنعها وهو يسب حاله من الحمى والغضب، وعقله يحثه على الرسم، فازدرد طعامه بسرعة ليباشر عمله. وفجأة صرخ: "ولكننى سأموت هنا! الحرارة هى ما تشعرنى بأننى مريض!"

غربت الشمس وانخفضت الحرارة.

ففتح كلود نافذته الموجودة قرب السقف، وأخذ يستنشق الهواء الحار بعمق أشعره براحة. ثم عاد إلى لوحته، رأس كريستين، ومضى يتأملها طويلا ناسيا نفسه...

الفصل الثانى

انتصف النهار وكلود يعمل فى لوحته، حينما طرق أحدهم الباب بعنف بطرقات مألوفة لديه. وبحركة لا إرادية شبه غريزية أخفى صورة كريستين فى ظرف يحتفظ به ليرسم منها شكل المرأة فى لوحته الكبيرة ، ثـم ذهـب ليفتح الباب. "بيير، أهذا أنت؟". كان بيير صاندوز– صديق طفولته– شابًا فى الثانية والعشرين من عمره شديد السمرة له رأس مستدير وأنف مربع وعينان رقيقتان تملؤهما الطاقة والحيوية وتعلو وجهه لحية خفيفة.

– "تناولت غدائى مبكرا اليوم، فقررت أن آتى إليك لجلسة الرسـم... يا إلهى إن اللوحة تتقدم كثيرا!". وظل واقفا أمام اللوحة، وأضاف: "ها أنت تغير شكل المرأة فى لوحتك؟".

خيم صمت طويل وتبادلا النظرات فى سكون. كانت اللوحـة كبيـرة مقاسها خمسة أمتار فى ثلاثة أمتار، وكلها مغطاة ما عدا بعض أجزائها التى بدأت تظهر بالكاد. كانت ذات طابع عنيف ورائع وألوان مليئـة بالحيويـة الفائرة، وتصور جزءا من غابة محاطا بأشجار كثيفة، يخترقه تيار متدفق من أشعة الشمس، بينما يظهر من بعيد ممر مظلم، وقد جلست، وسط النباتـات الصيفية، امرأة عارية ممددة على العشب وذراعها تحت رأسها وهى مبتسمة

وعيناها مغلقتان مستمتعة بسيل الذهب المنهمر من الشمس، الـذى غطاهـا تماما وبجوارها امرأتان عاريتان إحداهما سمراء والأخرى شقراء، يضحكان وسط أوراق الشجر الخضراء.

ولحاجة كلود لوضع درجات من اللون الأسود لخلق التباين المطلوب، فقد رسم رجلا جالسًا هو الآخر على العشب مرتديًا سترة من المخمل. كـان الرجل جالسًا بظهره لا يظهر منه سوى يده اليسرى الممدودة على العشب.

وقال صاندوز: "بالمناسبة، المرأة جميلة للغاية، ولكن لعنة الله عليـك، أستعمل فى هذه اللوحة للأبد؟".

ثبت كلود عينيه صوب اللوحة، وظهرت عليه سيماء الثقة، ثم قـال: "لا يزال أمامى متسع من الوقت للحاق بالمعرض! لأثبت للجميع أنى لـست الأحمق الذى يظنونه!". وأخذ يصفر بصوت مرتفع، وقد غمرته سعادة خفية بلوحته التى رسم فيها رأس كريستين ولمع فى عينيه بريق الأمل، الذى غاب عنه طويلا، تاركًا إياه صريع اليأس والمخاوف المقبضة التى تفقده شغفه بكل شىء، حتى بالطبيعة التى يعشقها. ثم صاح: "هيا! لا وقت للكسل! فلنبدأ الآن بما أنك هنا!".

كان صاندوز قد تطوع لمساعدته، ليعمل كنموذج للرجل الموجود فى اللوحة، ليجنب صديقه نفقات استئجار من يقوم بهذه المهمة. فكان يأتى أيـام الآحاد التى يكون متفرغًا فيها، وخلال أربعة أو خمسة أسابيع، استطاع كلود أن يرسمه. سأله صاندوز، وهو يرتدى السترة المخملية: "هل تناولت غداءك

أم أنك تعمل فقط منذ الصباح؟ ألا تريد أن تخرج لتتناول قطعة لحم؟ هيا اذهب، سأنتظرك!" كانت فكرة إضاعة بعض الوقت تزعج كلود وتثير حنقه، فقال: "لقد أكلت، لا تقلق! انظر إلى القدر لتتأكد. لا يزال لدى أيضًا قطعة خبز، سآكلها إذا جعت. والآن هيا للعمل أيها الكسول!". ثم تناول ألوانه وفرشاته فى حماس: "دوبوش سيأتى هذا المساء، أليس كذلك؟" - " نعم، نحو الساعة الخامسة." - "رائع، سننزل عندها لتناول العشاء! والآن أمل يدك إلى اليسار قليلاً، ورأسك أيضًا".

جلس صاندوز على الأريكة، بعد أن عدل وضع الوسائد واستقر فى جلسته، معطيا كلود ظهره، واسترسلا فى الحديث. كان قد تلقى هذا الصباح خطابا من بلاسان، المدينة الصغيرة بإقليم البروفانس، حيث كان لقاؤهما الأول فى الصف الثامن. ساد الصمت بعض الوقت، وانهمك كلود فى العمل كمن يهيم فى عالم آخر، بينما حاول صاندوز أن يسترخى قليلا ليقاوم التعب والنعاس، اللذين تملكانه بسبب السكون الطويل.

كان كلود يبلغ من العمر ستة أعوام حينما ترك باريس وعاد ليستقر فى إقليم البروفانس مسقط رأسه. كانت والدته امرأة طيبة لجأت للعمل كغسالة بعد أن تركها والده العاطل، ثم تزوجت من عامل بسيط مهم عشقا بها وبجمالها الفتان. ولكنهما كانا فقيرين، فلم يستطيعا تدبر نفقات المعيشة، ولذا رحبوا عن طيب خاطر بطلب سيد عجوز تولى تربية كلود والتكفل بتعليمه. كان رجلا سخيا وكريما، شديد الولع بالرسم والفن واللوحات. أقام

كلود فى الجنوب لسبع سنوات، وأمضى عامه الأول منهـا فـي المدرسـة الداخلية، ثم ارتاد مدرسة عادية، بينما استقر فى منزل السيد العجوز الـذى يرعاه. وفى ذات يوم، وُجد الرجل العجوز ميتا فى فراشه، بعد أن أوصـى لكلود بعائد سنوى قدره ألف فرنك حتى يبلغ عامه الخامس والعشرين، عندئذ يمكنه امتلاك رأس المال بأكمله. فى تلك الأثناء، بدأ كلود يزداد شغفا بالرسم والتصوير، فترك المدرسة، دون أن يتكبد عنـاء الحـصول علـى شـهادة البكالوريا، ثم توجه إلى باريس وأقام مع صاندوز الذى كان قد سـبقه إلـى هناك. كان الثلاثة، كلود لانتيه وبيير صاندوز ولويس دوبوش، لا يفترقـون منذ الصف الثامن. كان كل منهم ينتمى إلى عالم مختلف، ويمتلـك طابعًـا مغايرا للآخر، لم يكن يجمعهم سوى سنة الميلاد مع فرق بـضعة شـهور. ولكن شيئا ما ربط بينهم وجمع قلوبهم هو طمـوحهم المـشترك وأحلامهـم المعذبة وذكاؤهم المتوقد، الذى توهج وسط غوغائية باقى التلاميذ الكـسالى الذين كانوا يوسعونهم ضربا. كان والد صاندوز لاجئا إسـبانيا، جـاء إلـى فرنسا على إثر نزاع سياسى، ثم استقر هناك بالقرب من بلدة بلاسان، حيث أنشأ مصنعا لصناعة الورق، عمد فيه إلى استخدام آلات جديدة من اختراعه. ولكن ظلت تلاحقه كراهية السكان المحليين حتـى مـات محمـلا بالأسـى والمرارة، تاركا زوجته المسكينة، غارقة فى دوامة مظلمة من القضايا بعـد أن ضاعت ثروته كاملة. كانت الزوجة فرنسية من بورجونى، ولكنها عانت أيضًا من سوء معاملة سكان البروفانس، فامتلأ قلبها حقدا وضـغينة، حتـى أصيبت بالشلل، وظلت تتهمهم بالتسبب فى مرضها. وقد ذهبت مؤخرا إلـى

باريس لتقيم مع ابنها، الذى تملكته أوهام المجد الأبدى العتيد، ومنذئذ وهو يرعاها ويتكفل بنفقاتها معتمدا على دخله البسيط من وظيفته المتواضعة. كانت والدة دوبوش تعمل خبازة فى بلاسان، وهى امرأة حادة الطباع، متقدة الطموح، فدفعت ابنها للسفر إلى باريس مع أصدقائه، ليدرس التصميم المعمارى. وعاش هناك عيشة شحيحة معتمدا على المبلغ الزهيد الذى يرسله إليه والداه، معلقين عليه آمالا عريضة ومراهنين عليه بكل ما يملكان.

قطعت عبارات صاندوز المتذمرة الصمت المطبق: "اللعنة! هذا الوضع ليس مريحا على الإطلاق، لقد أوشك معصمى أن ينكسر! أيمكننى التحرك قليلا؟" تركه كلود يتمطى دون أن يجيبه، مستغلا استراحة صاندوز ليستكمل رسم السترة المخملية. ثم تراجع وأغمض عينيه، وفجأة انفجر ضاحكا منتشيا لذكرى مفاجئة: "قل لى، أتذكر ذلك اليوم حينما وضع بوبو الشموع الموقدة فى دولاب الأستاذ لالوبى الأبله؟ أتذكر كيف فزع لالوبى عندما فتح دولابه محاولا إنقاذ كتبه، قبل أن يكتشف تلك الخدعة الخبيثة؟ آه، لقد عاقبنا جميعا بكتابة خمسمائة بيت شعر!" ضحك صاندوز، وأنعشته تلك الذكريات السعيدة، فعاد إلى الأريكة، وقد اتخذ وضعيته من جديد: "هذا الحقير بوبو! أتعلم أنه أرسل إلى خطابا صباح اليوم، يزف لى خبر زواج الأستاذ لالوبى؟ هذا العجوز القاسى سيتزوج من فتاة جميلة! بالتأكيد تعرفها! إنها ابنة جاليارد بائع الخردوات، تلك الفتاة الشقراء التى كنا نقف تحت شرفة منزلها ننشد الأغانى العاطفية ليلا!".

واستمر فيض الذكريات الذى لا ينضب. ومضيا يتحدثان، وبينما انشغل كلود بالرسم فى حمية وحماس شديد، استقر صاندوز فى الوضع المتفق عليه معطيا ظهره لصديقه، عاجزا عن مقاومة لذة وانفعال استعادة الذكريات. تذكرا أيام المدرسة، والدير القديم مترامى الأطراف وحوله الفناء المزروع بالأشجار الضخمة، والحوض الموحل المغطى بالطحالب، حيث تعلما السباحة لأول مرة. وتذكرا أيضًا الفصول السفلية ذات الجدران الرطبة وصالة الطعام التى تفوح بكل الروائح الكريهة المنبعثة من بقايا الأطعمة ومياه غسيل الأوانى، ومهجع النوم الذى دارت حوله قصص الرعب المخيفة، ومخزن البياضات، والعيادة التى زخرت بالراهبات الرقيقات ذوات الأثواب السوداء وأغطية الرأس البيضاء التى أضفت عذوبة فائقة على وجوههن. – "هل تذكر حينما فرت الراهبة أنجيل، ذات الوجه الملائكى التى كانت تحدث ثورة بمجرد مرورها فى الفناء، مع هرملين، الطالب بالصف الأول، الذى تدله بحبّها من اللحظة الأولى. كان يجرح يديه عمدا ليجد حجة يتوجه بها إلى العيادة لتضمد أنجيل جراحه وتلفها بالحرير الإنجليزى؟" وتوالت الذكريات: مجموعة من الذكريات تثير الرثاء، غوغائية ورهيبة، تعج بصور الشر والمعاناة المتجسدة فى ناظر المدرسة الثانوية الذى كان يفلس لتزويج ابنتيه الجميلتين، اللتين كانتا هدفا سهلا للسب والتجريح من خلال الرسوم المسيئة التى تنقش على الجدران... أو مراقب المدرسة السيد بيفارد وأنفه الشهير، الذى يشبه المدفع القديم، الذى يظهر من خلف الأبواب، وباقى

المعلمين الذين حظى كل واحد منهم بلقب خاص به، مثل رادامنت الـشرير، الذى لم يره أحد قط يبتسم، ولاكراس[1] الذى كان يلطخ المقاعد بالسواد من كثرة حك رأسه، وأديل المخدوع، معلم الفيزياء، الذى كان يصدق أى شىء، وظل الطلبة ينادونه باسم زوجته التى قيل إنهم وجدوها بين أحـضان أحـد الجنود، وغيره مثل سبونتينى المعلم المفترس بسكينه الكورسـيكى الـصدئ الذى يشهره دائما فى وجه الجميع، وشانتوكاى الصغير الذى لا يستطيع منع نفسه من التدخين أثناء النزهات. ثم تذكرا مساعد الطباخ والمرأة التى كانت تتولى غسيل الأطباق، وكيف سرت إشاعات حول وجود علاقة تجمعهما فى الخفاء. ثم تعالت ضحكاتهما حين تذكرا المقالب والمزاحات الماضية: "هـل تذكر اليوم حين أحرقوا حذاء ميمى الميت، أتذكره كنا نسميه الهيكل العظمى من شدة نحافته؟ كان يقوم بتهريب التبغ معشوق الفصل بأكمله! أتذكر أيضًا تلك الليلة التى ذهبنا فيها لسرقة أعواد الثقاب من الكنيـسة لإشـعال أوراق شجر الكستناء الجافة لنحاول تدخينها فى غليون من البوص؟ "باح صاندوز- أكثرهم انطلاقا حينذاك- بالخوف الشديد الذى تملكه فى ذلـك اليـوم وهـو يتجول وسط الظلام لإنهاء هذه المغامرة. ثم تذكر اليوم الذى رغب فيه كلود فى أن يشوى خنفساء ليتأكد من صلاحيتها للأكل كما يقولون! وكيف تصاعد دخان كثيف أشعر الجميع بالغثيان، بمن فيهم المعلم الذى هب لإحضار إبريق المياه ظانا أنه حريق شب فى الفصل! انهالت الذكريات والأحداث كـسرقة

---

(١) وتعنى القاذورات. (المترجمة)

البصل من الحقول فى أثناء نزهاتهم، وإلقاء الأحجار على زجاج النوافذ، حيث تتجلى براعتهم لا فى أحداث الكسور وإنما فى الفرار سريعا بعد ذلك، ودروس اللغة اليونانية، ومقاعد الفناء الخارجى المرصوصة حول البركة وكأنها توابيت محمولة فى موكب مهيب على أنغام الألحان الجنائزية.

– "أتذكر تلك الواقعة الشهيرة، حينما سقط دوبوش فى البركة وهو يؤدى دور الكاهن عندما أراد أن يملأ قبعته من جرن الماء المقدس؟ أو حينما ربط بويو الأوانى فى حبل مرره أسفل الأسرة، واستيقظ يوم العطلة وقام بشد الحبل بقوة وهو يجرى فى أروقة الطوابق الثلاثة محدثا ضوضاء هائلة مخلفا وراءه ضحكات هستيرية؟ "

توقف كلود، وارتسم على وجهه تعبير فرح، وصاح: "آه! بويو اللعين! هل راسلك؟ ماذا يفعل الآن؟" عدل صاندوز وضع الوسائد، ثم أجاب: "لا يفعل شيئا على الإطلاق يا عزيزى! أنهى دراسة الحقوق، وسيستأنف عمل أبيه كمحام. لم يتغير أبدا، لا يزال نفس البرجوازى الطائش!" صمتا برهة، ثم قال صاندوز: "ولكننا نحن أيضا لم نتغير يا عزيزى! نحن محظوظان لأننا ما زلنا كما كنا فى الماضى!" فاضت ذكريات أخرى يطرب لها القلب مثل الأيام الجميلة التى قضوها فى الهواء الطلق والطقس المشمس خارج المدرسة. فمنذ الصف السادس، بزغ عند ثلاثتهم الولع بالنزهات الطويلة، فكانوا ينطلقون فى كل عطلة للتجول فى البلاد فى رحلات استمرت لأيام كاملة ينامون فيها فى الطرقات أو فى أفنية المنازل، أو فى الأكواخ

المهجورة وكأنهم يفرون بعيدا عن الجميع، ليتحدوا بالطبيعة. كانوا متيمين بعشق الأشجار والجبال وينابيع المياه العذبة، حيث تكتنفهم السعادة والشعور الطاغي بالحرية والانطلاق. كان دوبوش ينضم إليهما فقط أيام العطلات لكونه طالبا فى مدرسة داخلية، بالإضافة لافتقاره للنشاط والحيوية، إذ كان يفضل الدراسة وكان طالبا نجيبا متفوقا. كلود وصاندوز، على العكس، لم يعرفا الملل أو التعب، فكانا يستيقظان فى الرابعة فجرا، ويذهب أحدهما ليوقظ الآخر بإلقاء الحصى على نافذته. كانا يعشقان الجولات الصيفية، وسط الأشجار والأمطار التى تروى السهول المنخفضة فى بلاسان. تعلما السباحة فى عامهما الثانى عشر. كانا عاشقين للعب فى المياه الضحلة، ويخرجان ليتمددا عاريين على الرمال الساخنة حتى يجفا، ثم يعودا للسباحة مرة أخرى فى النهر، أو يجلسا للعبث بالعشب على حافة النهر ومراقبة أسماك ثعبان البحر فى جحورها. والتمدد وسط المياه التى تقطر منهما والبقاء تحت أشعة الشمس الحارة وكيف تعيد إليهما الآن طفولتهما النضرة ضحكات الأطفال الأشقياء، حتى بعد مرور السنين وانتقالهما للإقامة فى باريس بلياليها الصيفية المشبوبة والحافلة. كانا من محبى الصيد، ولكن دون مطاردة أى فريسة على عادة سكان قريتهما، فكانا يقضيان ساعات طويلة فى مطاردة العصافير، ليعودا خاليى الوفاض، ماعدا مرة واحدة حينما حالفهما الحظ بالحصول على وطواط متهور اصطاداه بالصدفة أثناء إفراغ مسدساتهما عند مدخل القرية. كان التطرق إلى هذه الذكريات والمغامرات الممتعة يثير فى نفوسهما فرحا عميقا، فيعودان ليتذكرا الطرق البيضاء المغطاة بالأتربة والثلوج الكثيفة

الممتدة فى الأفق البعيد. كان صوت خطواتهما الواسـعة يطربهمـا وهمـا يسيران مسرعين فى هذه الطرقات الخالية، فـى طريقهمـا إلـى الحقـول والأراضى التى اصطبغت أحجارها باللون الأحمر لاحتوائها علـى معـدن الحديد. كانا يقفزان ويركضان تحت السماء الصافية، وقد خلت الأرض مـن الظلال سوى من ظلال أشجار الزيتون القصيرة أو أشـجار اللـوز هزيلـة الأوراق. ليعودا فى النهاية يخامرهما شعور بالخمول اللذيذ والممتع الممزوج بالفخر والانتصار لقيامهما بقطع مسافة أطول من تلك التى قطعوها فى المرة الماضية. كانا يسيـران كالمسحورين، كمن تحركه قوة خارقـة للطبيعـة، تزودهما بالطاقة والانتعاش وكأنهما جنديان يسيران علـى أنغـام الأناشـيد العسكرية التى تنقلهما إلى عالم آخر يشبه الأحلام. كان كلود يحمل معه دائما مجموعة من الأوراق ليرسم فيها كل ما يراه، بينما يصطحب صاندوز كتابا لأحد الشعراء. كانت حمى الرومانتيكية قد طالتهما، فكانا يمضيان الوقت فى ترديد الأبيات الخفيفة والأناشيد الصاخبة والعبارات الساخرة، كالتى يتبادلها الجنود فى ثكناتهم. اكتشفا نبعا للمياه تحوطه أربع من شـجر الصفـصاف، وأصبح هو مكان راحتهما حيث يمضيان الوقت حتى يخيم الظلام فى تمثيل المسرحيات التى يحفظانها عند ظهر قلب، مغيرين أصواتهما لتناسب جميـع الأدوار، فالصوت الجهير للأبطال، والمنخفض الرقيق كالمزمـار للبـسطاء والنساء،... ذابا عشقا فى الفن والأدب منذ سن الرابعة عشرة، ففضلا العزلة والانطلاق بعيدا لاستكشاف الأماكن البعيدة التى تصورها روايات وأشـعار فيكتور هوجو المفعمة بالخيال والمشاعر المتناقضة مصورة سـحر الحيـاة

وقوة أبطال الملاحم الحقيقية. ثم أتى ألفريد موسيه ليقلب حياتهما رأسا على عقب بكتاباته المملوءة بالعاطفة والدموع وأشعاره التى يخفق لهـا قلباهمـا، وتفتح أمامهما عالما جديدا، عالما أكثر إنسانية وتعاطفـا، زلـزل كيانهمـا كصرخة يأس تحطم أغلال الصمت الخانق.

كانا شابين بسيطين لهما شهية عنيفة للقراءة، يقرآن كل شىء، الجيـد والردىء. وعلمتهما قراءة الأعمال الحقيرة توقير وتبجيل الأعمال الجليلـة الحقيقية. كانا- على حد قول صاندوز- واقعين تحت تأثير شهوة القراءة التى حالت دون سقوطهما فى التراخى والبلادة، فلم يكثـرا مـن التـردد علـى المقاهى، حيث يلعب زملاؤهما الورق، ولم يستطيعا التأقلم مع الزحام الـذى يخنقهم كنسور حبيسة الأقفاص. كانت الحياة الريفية بسيطة، تـشبه الحلقـة المفرغة، يعتاد فيها الناس على قراءة الجريدة بعناية، ولعب الدومينو والقيام بالنزهات فى نفس الأماكن ونفس الأوقات حتى يتولد شعور قاتل بـالخمول والبلاهة التى تحجم العقول. كانت تلك الحياة المسطحة تثيـر اشـمئزازهما وتدفعهما إلى الثورة بقوة ضدها، فكانا يتسلقان التلال القريبة ليجلسا سـويا ينشدان الأبيات تحت قطرات المطر المنهمر دون الـشعور بالرغبـة فـى الاحتماء من المطر. كان أملهما هو الاسـتقرار أسـفل الأشـجار، حيـث الاستمتاع بالحياة البرية والسباحة المتواصلة، وقراءة الكتب، خمسة أو سـتة كتب ستفى باحتياجاتهما. لم تكن النساء تخطر لهما ببال، فقد كانـا شـديدى الخجل، عاجزين عن التصرف حيال هذه الأمور، ومن ثم قررا الترفع عنها والسمو بحياتهما.

ذات مرة، وقع كلود في غرام طالبة، واستمر ولعه بها لمدة عامين. فكان يتبعها كل مساء من بعيد، دون أن تواتيه الشجاعة للتحدث إليها. أما صاندوز فكان يرى في أحلامه وخيالاته، نساء قابلهن في رحلاته، وفتيات رائعات الجمال يظهرن فجأة من إحدى الغابات المجهولة، ثم يختفين مثل الظلال وقت المغيب. بدت لهما مغامرتهما العاطفية الوحيدة غاية في السخافة والغباء! ففي الفترة التي بدآ فيها دراسة الموسيقى، قررا الذهاب لغناء الأغاني العاطفية التي تعلماها أسفل شرفتي تلميذتين، حيث جلسا يعزفان على الكلارينيت والبوق، محدثين ضجة عالية أخافت البرجوازيين من سكان الحي، بمن فيهم أهالي الفتاتين الغاضبون الذين ملأوا أوعية المياه وأفرغوها على رأسيهما!- " ما أسعد تلك اللحظات! وما أشد الضحكات التي تنبعث عند مجرد ذكرها!"

كان حائط المرسم مكسوًا بلوحات رسمها كلود أثناء رحلة طويلة قام بها مؤخرا، وقد أعادتهما اللوحات إلى تلك الأماكن التي ارتاداها قبلا، فألفيا أنفسهما تحت السماء الزرقاء وسط الحقول الصفراء والسهول المنبسطة المزروعة بأشجار الزيتون الممتدة حتى التلال البعيدة المغطاة بالزهور الرفيعة. أنعشت هذه اللوحات ذاكرتهما وأعادت إليهما تلك الصور القديمة التي ذهبت إلى غير رجعة، بعد أن جف مجرى المياه الذي يغذي الشجر بين التلال المرتفعة، وحل محله جسر متهالك يعلوه التراب، وزالت الخضرة، فلم يعد هناك سوى غابات صغيرة جفت أشجارها بسبب نقص المياه، ولاح من

بعيد شارع ديزينفيرنيه، وقد أحاطت به الأحجار المتساقطة في فوضى عارمة وكأنها صحراء مترامية الأطراف. ثم ظهرت بعض الأماكن الشهيرة مثل وادى روبانتانس الضيق الذى يبدو كباقة زهور نضرة وسط الحقول المحترقة، وغابة تروابونديو المشمسة المليئة بأشجار الصنوبر بلونها الأخضر اللامع، وفندق جادوبوفون كالمسجد الأبيض متوسطا تلك المسافة الشاسعة من الأراضى الحمراء كمستنقعات الدماء، وغيرها من الأماكن والطرق المتعرجة التى لا تنتهى، والوهاد التى تنبعث منها الأحجار والحصى الملتهبة من شدة الحرارة، وألسنة من الرمال العطشى ترتوى من المجرى المائى نقطة بنقطة، وجحور حيوان الخلد وطوابير الماعز وقمم الجبال الشاهقة التى تخترق زرقة السماء.

ثم التفت صاندوز إلى إحدى اللوحات المعلقة، وقال: "وأين رسمت هذه؟"

فصاح كلود مستاءً وهو يحرك لوحة ألوانه الخشبية: "كيف لا تتذكر هذا المكان؟ لقد أوشكنا على الموت هناك! ألا تتذكر اليوم الذى جاء فيه دوبوش وتسلقنا سويا مرتفعات جوموجارد الملساء مثل راحة اليد، كنا نحاول التشبث بأظفارنا، حتى علقنا فى المنتصف عاجزين عن الصعود أو الهبوط... وبعد أن صعدنا بمعاناة، انهمك دوبوش فى طهى قطعة اللحم التى يحملها، بينما استلقينا كالموتى من فرط الإعياء."

عندها تذكر صاندوز وصاح: "نعم! نعم! كان على كل منا أن يطهو قطعة اللحم الخاصة به الموضوعة على أغصان نبات إكليل الجبل، وحين احترق الغصن الذى أحمله سخرتما منى ومن قطعة اللحم المتفحمة."

واستغرقا فى ضحكات هستيرية، ثم عاد كلود إلى لوحته متحسرا: "ولكن لا فائدة الآن يا عزيزى، فهنا لم يعد لدينا فرصة للتسكع"

كانت تلك هى الحقيقة! فمنذ أن حقق الأصدقاء الثلاثة "حلمهم" بالانتقال سويا إلى باريس و"غزوها"، أصبحت الحياة غاية فى الصعوبة. حاولوا جاهدين القيام بنزهات طويلة كالأيام الخوالى، فعلى مدار بضعة آحاد، كانوا يتجولون على الأقدام بمحاذاة أسوار مقاطعة فونتانبلو وأشجار فيرييير وصولا إلى بيفر ومرورًا بغابات بلفو وميدون ثم يعودن عن طريق جرونيل، محملين باريس مسئولية تراخيهم وتكاسل أقدامهم، فلم يعودوا يغادرونها إذ تفرغ كل منهم إلى معركته الخاصة.

فكان على صاندوز أن يلزم مقعده بالركن المظلم بمكتب تسجيل المواليد بمبنى البلدية فى الحى الخامس يوميا من الاثنين إلى السبت، لا لشىء إلا أن النقود لم تعد تكفى حتى للطعام، كما تقول والدته دائما. أما دوبوش، فمن أجل سداد فوائد الأموال التى أنفقها عليه والداه ، قبل القيام ببعض الأعمال البسيطة عند بعض المهندسين المعماريين إلى جانب دراسته فى الكلية. على عكس كلود الذى كان يحظى بالحرية بفضل الألف فرنك التى يحصل عليها، ولكنه طالما عانى هو الآخر من ضيق ذات اليد خاصة فى نهاية الشهر، حتى بدأ - لحسن الحظ – فى بيع بعض اللوحات الصغيرة بعشرة أو باثنى عشر فرنك للسيد مالجرا، وهو تاجر ماهر. كان كلود يرفض التورط فى التجارة، مفضلا الموت جوعا على اللجوء إلى رسم

الصور الشخصية للبرجوازيين أو الصور الدينية الرخيصة أو ستائر المطاعم ولافتات القابلات. وعند قدومه إلى باريس كان قد اشترى مرسما واسعا فى شارع بوردونييه، ثم انتقل، لدوافع اقتصادية، إلى مرسمه الحالى، حيث يعيش متوحدا محتقرا كل ما لا يتعلق بالرسم، خاصة بعد أن قاطع عائلته التى أصبح يحتقرها، وقد قاطع عمته التى تتاجر فى اللحوم المحفوظة فى منطقة هال لأنها كانت تعيش حياة رغدة. ولكنه ظل يحمل فى قلبه الجرح العميق الذى أحدثه انحراف والدته التى اعتدى عليها بضعة رجال ثم ألقوها فى مجرى الماء.

صاح كلود فى صاندوز: "لا تتراخَ هكذا من فضلك!"

ولكن صاندوز بدأ يتململ بعد أن أصيب بالخدر فقام من على الأريكة ليلين ساقيه. استغرقت هذه الاستراحة عشر دقائق، قضياها فى الحديث. كان كلود، الذى لا يعمل إلا فى صمت كالمحموم حين يشعر بمقاومة الطبيعة له، قد وافق بسماحة على هذه الاستراحة لأن عمله كان يسير على ما يرام هذه المرة، فاشتعلت حماسته واستغرق فى الأحاديث مع صاندوز الذى سرعان ما عاد إلى وضعه وكلود إلى لوحته يرسم بغير فتور دون أن تخطئ فرشاته.

ثم قال: "يا عزيزى! أأنت مرتاح؟ أنت تجلس فى وضع جرىء فى تلك اللوحة... يا لهؤلاء الحمقى إذا رفضوها هذه المرة! أنا أقسو على ذاتى أكثر مما هم على ذواتهم، فإن حكمى على لوحاتى، يكون أقسى من كل لجان التحكيم فى العالم أجمع ... هل تتذكر تلك اللوحة التى تصور منطقة الهال

حيث صبيان جالسان على أكوام الخضراوات، لقد شطبتها بالطبع! لم تكن جيدة على الإطلاق، لقد أخفقت بالفعل فى تلك اللوحة الضخمة التى كنت أعجز حتى عن حملها. سأستكملها بالطبع فى يوم ما إذا استطعت، وسأرسم غيرها وغيرها!" قال ملوحا بيديه كمن يتوعد الجميع: "سأرسم لوحات كبيرة تبهر الجميع وتطرحهم أرضا! "وأفرغ اللون الأزرق لوحة ألوانه الخشبية متسائلا فى سخرية عما سيكون رأى معلمه الأول بيلوك، وهو ربان سابق مبتور الذراع أمضى أكثر من ربع قرن يستقبل طلابه من الصبيان فى إحدى قاعات متحف بلاسان ليدرسوا مدى روعة الخطوط والظلال ، أو معلمه الثانى فى باريس بيرتو، وهو رسام معروف صاحب لوحة "تيرون فى السيرك" وتردد كلود على مرسمه لمدة ستة أشهر، وكان يقول له دائما إنه لن ينجح فى شىء! ما أضيع هذه الشهور التى قضاها وهو ينقش لوحات كالأحمق، ويقوم بتمارين بلهاء بأمر من هؤلاء الرجال وفق أفكارهم المختلفة تماما عن أفكاره! حتى إنه هاجم أعمال اللوفر، مفضلا- على حد قوله- أن يقطع يديه على أن يفسد عينيه برؤية هذه اللوحات التى تشوه إلى الأبد صورة العالم الذى نحيا فيه. أليس الفن هو التعبير عن الأعماق؟ أليس هو الوقوف أمام امرأة جميلة ورسمها كما نشعر بها؟ أتستحق حزمة من الجزر، نعم حزمة من الجزر، مرسومة بطريقة ساذجة ومباشرة هذا المديح الخالد فى الكلية، لأنها ويا للخجل مرسومة طبقا للأساليب المعترف بها؟ ولكن سيأتى يوم ترسم فيه جزرة ضخمة لا مثيل لها على سبيل الثورة! ولهذا ترك كلود هذا المرسم واكتفى بالذهاب إلى مدرسة بوتان، وهى مدرسة حرة تملكها عارضة قديمة فى شارع لاهوشيت، دفع وقتها عند الدخول عشرين

فرنكًا ووجد أمامه رجالا ونساء عرايا يصلحون ليكونوا موضوعا للرسم. وهناك استغرق كلود بجنون في العمل دون أى راحة، ناسيًا الطعام والشراب، جالسا فى أحد الأركان بجوار شابين لم يكفا عن اتهامه بالكسل والجهل أو عن التفاخر بلوحاتهما التى اكتفيا فيها بنقش أنوف وأفواه تحت إشراف معلمهم! - "أتعلم يا عزيزى أنه عندما كان يرسم أحدهما صورة إنسان كان يصعد إلى ليخبرنى ونظل طويلا نتناقش حولها."

أشار بطرف فرشاته إلى لوحة عارية شديدة الروعة معلقة على الحائط قرب الباب، وإلى جوارها لوحات بديعة أخرى تصور أقدام فتيات تتميز بالواقعية والرقة فى تصوير جسد المرأة ببشرتها الناعمة التى تنبض بالحياة. كان كلود فى الأوقات القليلة التى يصفو فيها ذهنه يتأمل بفخر هذه اللوحات التى يرضى عنها وتشهد بالعبقرية والموهبة التى تكبلها نوبات غريبة ومفاجئة من الشعور بالعجز.

استكمل عمله بحماس وبضربات قوية من الفرشاة لينهى السترة المخملية. ثم انفعل بشدة متأثرا بفرط اعتداده بنفسه:

"كل هؤلاء ما هم إلا رسامون رديئون لا تساوى لوحاتهم مليمين، كل شهرتهم مسروقة، فهم إما حمقى أو خبثاء ولكنهم فى النهاية ليسوا سوى عبيد لحماقات الجمهور! لا يوجد بينهم شخص واحد جرىء قادر على توجيه صفعة إلى البرجوازيين! ... إنجر[1] مثلا بلوحاته اللامعة! إنه جسور فى اعتقادى، أرفع له قبعتى تحية له لأنه كان يسخر من كل شىء، حتى إنه رسم

---

(١) إنجر: Ingres (Jean Auguste Philippe): رسام فرنسى من رواد الحركة الكلاسيكية الحديثة. (المترجمة)

لوحة تدعى "صوت الإله" واستطاع أن يجبر الجهلاء على تقبلها، ويعتقدون حتى الآن أنهم يفهمونها... ومن بعده لا يذكر سوى اثنين: دولاكروا[١] وكوربيه[٢] أما الباقون فهم مجموعة من الأفاقين... يا لهذا الأسد الرومانتيكى الجسور دولاكروا! يا له من فنان استطاع أن يلهب الألوان! ما أمهر يديه! أراهن أنه كان سيرسم جدران باريس كلها إذا أعطوه هذه الفرصة! ما أعجب ألوانه الفائرة التى تنبض بالحياة حتى وإن لم تكن سوى تخاريف خارقة للطبيعة! ولكن ماذا يهم؟ كانت تلك هى الوسيلة الوحيدة لإضرام النيران بالكلية... ثم أتى من بعده كوربيه، هذا العامل البسيط ، ذو المهنة التقليدية، الذى أصبح أهم رسام فى القرن، لم يفهمه أحد وهاجمه الجميع ثائرين ضد امتهان وتدنيس الفن، رافضين الواقعية التى لم تكن من الموضوعات المألوفة فى ظل سيطرة رؤية الرسامين القدامى واستمرار رفض متاحفنا لهذه اللوحات الجميلة... جاء كل من دولاكروا وكوربيه فى الوقت المناسب وأحرز كل منهما خطوة للأمام. أما الآن!! فماذا يحدث؟"

سكت وعاد إلى الوراء ليرى اللوحة عن بعد، واستغرق دقيقة يتأملها واقعًا تحت تأثيرها، ثم استأنف حديثه: "أما الآن فشىء آخر... ما هو؟ لا أعلم على وجه التحديد، فلو كنت أعلم وأقدر على التغيير لكنت أقوى كثيرًا... ولكنى أشعر بهذا الصرح الرومانتيكى الذى شيده دولاكروا ينهار ويتداعى، وبلوحات كوربيه السوداوية تفسد وتتعفن داخل المرسم المظلم الذى

---

(١) دولاكروا: Delacroix (Eugene) رسام فرنسى من أعلام المدرسة الرومانتيكية. (المترجمة)

(٢) كوربيه: Courbet (Gustave) رسام فرنسى وهو رائد المدرسة الواقعية. (المترجمة)

لا تدخله الشمس! أترى إذًا؟ إننا فى حاجة إلى الشمس! إلى الهواء الطلـق! إلى لوحات أخرى مكتملة تظهر الأشياء والأشخاص كما يظهرون فى النور الحقيقى لا أقصد فقط لوحاتى وإنما لوحاتنا جميعا التى يجب أن نتدرب أعيننا على رؤيتها وفهمها."

وخفت صوته ثانية وبدأ يتلعثم غير قادر على التعبير عـن المـستقبل الذى يشرق داخله. وخيم الصمت على المكان فى الوقت الذى كاد ينتهى فيه كلود من رسم السترة المخملية، وهو ينتفض.

كان صاندوز يسمعه دون أن يغير وضعه، وقال وهو يعطيه ظهـره محدثا الهواء كالحالم: "لا لا! لا ينبغى ألا نعرف، يجب أن نعرف... فما من مرة أراد فيها أحد المعلمين أن يفرض على حقيقة ما، إلا وشـعرت بالـشك يثور فى داخلى، وكنت أقول "إنه إما مخدوعا أو يريد أن يخدعنى"... كانت أفكارهم تستفزنى فقد بدت لى الحقيقة أوسع وأرحب كثيرًا...كم سيكون رائعا أن يكرس الإنسان حياته كلها من أجل عمل ضخم، يـصور فيـه الأشـياء والحيوانات والبشر جميعهم، لا كما تلقننا كتب الفلـسفة أو بحـسب تـدرج وترتيب أحمق يداعب غرورنا وإنما بأسلوب يصورها فى كامل تدفق الحياة وشموليتها، فى خضم العالم الذى يتحول فيه الإنسان إلى حدث عارض يندمج فيه مع كل شىء، بدءًا من أى كلب مار وحتى الأحجار الملقاة على جـانبى الطريق سعيا إلى اكتماله وتفسيره، هذا الكل الذى يضم كل شىء حيث اهتمام بالسمو أو الهبوط، بالطهارة أو القذارة... لا توجد وسيلة لبلوغ ذلك سـوى

العلم! فلينهل الأدباء والشعراء من العلم بوصفه المنبع والمصدر الوحيد والممكن للمعرفة. ولكن كيف عساى أن أجارى هذا؟ فها أنا ما زلت أتعثر... يا ليتنى أمتلك هذا النوع من الكتب لأمطر به الجمهور!" ثم صمت.

كان صاندوز قد نشر، فى الشتاء الماضى، كتابه الأول وهو عبارة عن مجموعة من المقتطفات البديعة لبلاسان، وإن تخللتها بعض الكتابات الجريئة تعلن عن مولد كاتب متمرد مولع بالحقيقة والقوة. ومنذ ذلك الحين، وهو يتخبط تؤرقه تساؤلات تعصف برأسه حول أفكاره التى لا تزال مبهمة. كان صاندوز مغرما بالأعمال العملاقة، وكان لديه مشروع حول نشأة الكون مكون من ثلاث مراحل: الخلق، وفقا للقوانين والنظريات العلمية ، وتاريخ البشر الذين جاءوا فى وقت ما ليلعبوا دورهم فى مملكة الكائنات وأخيرا المستقبل، فالأجيال المتعاقبة من البشر تشكل العالم بفضل دورة الحياة التى لا تنتهى. ولكن سرعان ما فترت همته أمام النظريات الخاطئة الخاصة بالمرحلة الثالثة، وبدأ يسعى نحو إطار أكثر تحديدا وإنسانية لطموحاته الواسعة.

واستأنف كلود بعد فترة صمت طويلة: "يا له من حلم! رؤية كل شىء ورسم كل شىء! وعندها سنتمكن من تغطية جدران باريس بأكملها وتزيينها باللوحات سواء محطات القطار أو المنطقة التجارية أو مبنى البلدية، وكل ما يقومون بتشييده، عندما يتخلى المهندسون عن حماقتهم! ولا يلزمنا لذلك سوى عضلات قوية ورأس صلب عنيد، فليست الموضوعات هى ما ينقصنا... فلدينا الحياة! الحياة كما هى فى الطرقات، حياة الفقراء والأغنياء، حياة

الأسواق ومضمارات السباقات، الحياة فى الشوارع العريضة وفى الحارات المزدحمة بكل المهن وكل المشاعر، وأيضًا الفلاحون والبهائم والحقول... تخيل كل هذه الأشياء مرسومة فى وضح النهار! سنرى، سنرى بالتأكيد، فأنا لست بأحمق! فأنا أشعر منذ الآن بهذه الرعشة فى يدى! تخيل كل صور الحياة الحديثة تصورها لوحات هائلة بحجم "البانثيون"[١]! ستكون مجموعة جليلة من اللوحات يعج بها متحف اللوفر!"

كانا كلما اجتمعا سويا يصلان إلى تلك الحالة من النشوة، ويلهب أحدهما الآخر بجنون المجد، مدفوعين بحمية الشباب وبشغف العمل، ويضحكان من أحلام العظمة والكبرياء هذه التى كانت تنشطهما وتملؤهما بالراحة والقوة.

زجع كلود إلى الوراء ليستند إلى الحائط فى استسلام، ونهض صاندوز من على الأريكة مجهدًا من هذا الوضع المتعب ليقف بجواره ثم تبادلا نظرات صامتة. انتهى كلود من الرسم المبدئى للرجل ذى السترة المخملية والذى لا تظهر منه بوضوح سوى يده محدثة أثرا بديعا بلونها النضر فى مقابل بقعة اللون الأسود القوية للسترة، مما يضفى إضاءة خفيفة على المرأتين الصغيرتين الجالستين بعيدا تحت الشمس، بينما ظلت المرأة العارية، التى تتصدر اللوحة، غير واضحة المعالم تطفو بجسدها الحالم ووجهها الباسم وعينيها المغمضتين.

---

(١) البانثيون: Le Pantheon أحد الآثار الضخمة الموجودة فى الحى اللاتينى، ويطل على مكتبة سانت جونوفيف. (المترجمة)

ثم سأله صاندوز: "قل لى ماذا تسمى هذا الرسم؟"

أجاب كلود بلهجة حازمة: "الهواء الطلق"

ولكن هذا المصطلح بدا غريبا أو متخصصا لصاندوز الذى كان يرغب أحيانا فى دمج الأدب مع الرسم، فقال: "الهواء الطلق، ماذا يعنى هذا؟"

أجاب كلود: "ليس بالضرورة أن يعنى شيئا ... نساء ورجل يسترخون مستمتعين بالشمس فى إحدى الغابات، ألا يكفى هذا؟

ألا تجد فيها أشياء كثيرة تجعلها تحفة فنية؟" ثم أدار رأسه، وقال بصوت خافت: "ما هذا بحق الجحيم؟ إنها لا تزال قاتمة! أنا ما زلت متأثرا بطقوس دولاكروا! انظر إلى هذه اليد، إنها بالطبع لكوربيه!... يا إلهى! نحن لا نزال غارقين حتى آذاننا فى الرومانتيكية التى لازمتنا منذ الصغر! إننا بلا شك فى حاجة إلى نهضة جديدة."

رفع صاندوز كتفيه فى حسرة، كان ينعى هو الآخر تأثره الشديد بهوجو وبلزاك! شعر كلود بالرضا، سعيدا بنتيجة هذه الجلسة المثمرة. فقط لو استطاع صاندوز أن يأتى إليه مرتين أو ثلاثا مثل اليوم سيكون بوسعه الانتهاء تماما من رسم الرجل، ولكنه قال: "يكفى هذا اليوم!" ثم جلسا يمرحان. كان كلود عادة ينهك عارضيه لدرجة الإعياء ولا يتركهم إلا مغشيًا عليهم من فرط التعب. هو الآخر كان على وشك السقوط من الإنهاك والجوع، وعندما دقت الساعة الخامسة، انقض على قطعة الخبز والتهمها بسرعة يكسرها قطعا بأصابعه المرتعشة. ازدرد طعامه بصعوبة وهو واقف أمام لوحته يتأملها دون أن يدرى بما يأكل!

فقال صاندوز وهو يمد ذراعيه فى الهواء: "إنها الخامسة، سنذهب لتناول العشاء... ها هو دوبوش"

طرق دوبوش الباب ودخل. كان شابا ضخما أسمر اللون، منتفخ الوجه، متناسق القسمات، حليق الشعر، ذا شارب قوى. حياهما ووقف مذهولا أمام اللوحة. كانت مثل هذه اللوحات الجامحة تحيره وهو ذو الطبيعة المتزنة والطالب النجيب الذى يحترم الصيغ التقليدية، الصداقة وحدها هى التى تحول عادة دون انتقاداته. ولكنه لم يستطع إخفاء الثورة التى هزت كيانه، فسأله صاندوز الذى لاحظ اضطرابه: "ما رأيك؟ ألا تعجبك؟"

فقال: "بلى، بلى! إنها مرسومة جيدا... إنها فقط..."

"هيا... أفصح ما الذى لا يعجبك فيها؟"

أجاب: "لا شىء سوى هذا الرجل الجالس فى كامل ثيابه وسط مجموعة من النساء كلهن عاريات... إنه أمر لا يحدث."

ضحك كلود وصاندوز بشدة، قائلين: "ألا يوجد فى اللوفر مئات من اللوحات من هذا القبيل، وإذا كنا لم نر هذا المشهد من قبل، فلنره. كم سخروا قبلا من الجمهور!

"لم يهتم دوبوش بهذه الردود الانفعالية وردد فى هدوء: "الجمهور لن يفهم هذا!... سوف يصم اللوحة بالبذاءة... نعم بالبذاءة!"

صرخ كلود مهتاجا: "أيها البرجوازى القذر! إنهم يفسدون عقلك فى الكلية، لم تكن أحمق إلى هذه الدرجة!"

كانت هذه هى طريقتهما فى مداعبة أحدهما الآخر منذ أن التحق دوبوش بكلية الفنون. فتراجع دوبوش، بعد أن فاجأه عنف المناقشة، وخرج من الموقف بالسخرية من الرسامين، حيث إنهم فى الكلية حمقى حقيقة، أما بالنسبة للمعماريين فالوضع يختلف! وقال وهو يتخذ هيئة الثوار: "فأين تريدوننى أن أدرس إذًا؟ كان يجب أن أدرس هناك، ولكن هذا لا يمنع أن تكون لى أفكارى الخاصة!"

فقال صاندوز: "مادمت ستقدم أعذارًا،هيا بنا لنأكل!"

أما كلود فتناول فرشاته بحركة آلية وعاد إلى العمل، فصورة المرأة المجاورة للرجل ذى السترة المخملية بدت له باهتة وناقصة. كان صبره قد بدأ ينفد، فأخذ يحيطها، فى عصبية، بخطوط قوية تعيدها إلى الصدارة مرة أخرى.

ثم سأله صاندوز: "ستأتى معنا؟"

– "سآتى على الفور لا داعى للعجلة! دعنى أنهى هذه ثم سأصبح ملككما."

حرك صاندوز رأسه، ثم عاد يحدثه بهدوء خشية أن يغضبه: "لا داعى للتشبث يا عزيزى، فأنت منهك وتتضور جوعا وقد تفسد عملك كما حدث من قبل."

قاطعه كلود بإيماءة منزعجة. كانت هذه بالفعل هى أزمته الدائمة، فقد كان عاجزا عن التخلى عن العمل ولو مؤقتا، كان يبدو كالثمل وهو يرسم، وبداخله رغبة عارمة فى استكمال العمل ليثبت لنفسه أنه قادر على إنهاء

تحفته الفنية غير المسبوقة. انتابته شكوك يائسة أفسدت سعادته بجلسة اليوم المثمرة، هل كان محقا بإضفاء هذه القوة على السترة السوداء؟ هل سيجد الدرجة الساطعة التى يريدها لجسد المرأة العارى؟ شعر بأنه لا يطيق الانتظار حتى يعرف، فأخرج صورة رأس كريستين بانفعال شديد من المظروف الذى يحويها ليقارنها مع باقى الجسد.

وعندها صاح دوبوش: "ما هذا؟ أين رسمتها؟ من هذه الفتاة؟"

صعق كلود بهذا السؤال، فلم يجب. وإذا به يكذب عليهما دون تفكير- وهو الذى كان يطلعهما على كل شيء- مدفوعا بخجل غريب وبرغبة رقيقة فى أن يحتفظ لنفسه بتفاصيل تلك المغامرة.

كرر دوبوش سؤاله: "أجبنى! من هى؟"

أجاب كلود: "لا أحد، إنها عارضة."

- "حقًا! إنها عارضة جميلة. هى لا تزال صغيرة أليس كذلك؟... أريدك أن تعطينى عنوانها، ليس من أجلى وإنما لنحات يبحث عن عارضة مثلها. هل وضعت عنوانها هنا؟" والتفت ناحية الحائط الرمادى حيث كتبت عناوين العارضات بالطباشير فى كل مكان، فالعارضات دائما ما يتركن عناوينهن مكتوبة بخطوط ضخمة كخطوط الأطفال، فوجد عنوان زويه بييدفير، والتى تقطن شارع كامبانى- بريميير وهى امرأة ضخمة وسمراء تشوه جسدها، وأيضًا عنوانى فلور بوشان الصغيرة، والتى تعيش فى المنزل رقم

٦ فى شارع لافال وجوديث فاكيه، وهى يهودية تسكن فى المنزل رقم ٦٩ فى شارع روشيه، كانتا فتاتين يهوديتين غضتين لكن شديدتى النحافة.

وعاد دوبوش يسأله: "أين العنوان؟"

فاستشاط كلود غضبا وصاح: "دعنى وشأنى! ولماذا عسانى أن أعرف؟ أنت مزعج بالفعل وقادر على تعطيل أى شخص عن العمل!" ظل صاندوز صامتا فى اندهاش، ثم ابتسم، فقد كان أكثر فطنة من دوبوش ، ثم أشار له ليصمت. ولكنهما عادا يمازحانه: "آسفان! مادمت ستحتفظ بها لنفسك لن نطلب منك أن تعيرنا إياها! يا لك من جرىء تستحضر الفتيات الجميلات! من أين أحضرتها؟ من إحدى حانات مونمارتر، أو من على رصيف ميدان موبير؟"

صاح كلود وهو يرتعش من الانفعال: "يا لكما من أحمقين! يا إلهى! كيف لا تدركان كم أنتما سخفاء!... لقد ضقت ذرعا بكما!"

كان صوته مضطربًا ومتهدجًا، فصمت الاثنان على الفور. أما هو فاستغرق فى لوحته وهو يزيل صورة الرأس القديمة ويعيد رسمها من وحى صورة كريستين بيد غاضبة ومرتعشة. ثم انتقل إلي الصدر مبهم المعالم، وعندها ازداد انفعاله، يعذبه ولعه العفيف بجسد المرأة، وحبه الجنونى للصور العارية التى لا يستطيع إلا اشتهاءها وعجزه عن إشباع رغبته فى خلق هذا الجسد الذى طالما حلم بمداعبته، وهذان الذراعان اللذان تدله بحبهما. كان بالفعل يطرد الفتيات من مرسمه ولكنه يعبدهن فى لوحاته، يغازلهن ويضربهن، يبكى فى يأس على عجزه عن إظهارهن فى كامل جمالهن وحيويتهن.

ثم قال: "انتظرونى عشر دقائق! سأجهز الأكتاف للغد ثم ننزل ســويا." استسلم صاندوز ودوبوش عالمين أنه لا يوجد من يقدر أن يمنعه مــن إنهــاك نفسه بهذا الشكل، فأشعل دوبوش غليونه وتمدد على الأريكة . كان هو الوحيد الذى يدخن، فلم يستطع كلود وصاندوز الاعتياد على رائحة التبغ، فتــصيبهما السجائر القوية بالغثيان. استقر دوبوش على ظهره يتأمل دفعات الدخان التــى تتصاعد من غليونه وأمضى فترة طويلة ساردًا أخباره بعبارات رتيبة.

يا لباريس هذه! فعلى الواجد أن يكد فيها لكى يصل إلى أى منــصب! وتذكر الخمسة عشر شهرا التى قضاها مع معلمه الشهير ديكيرسونبير الحائز على عدة جوائز، الذى أصبح الآن مصممًا معماريا للمنشآت المدنية وحاصلا على نوط جوقة الشرف وعضوا في جمعية الدراسات المعمارية، إنه صاحب تصميم " كنيسة القديس متى" ذى الطُرز المتداخلة. كان رجلا طيبــا وكــان دوبوش يسخر منه ولكنه شاركه احترام الصيغ المعمارية التقليدية القديمــة. فى الواقع ، لم يكن دوبوش ليستفيد شيئا دون زملائه الذين علموه الكثير فى مرسمهم بشارع فور، حيث كان يأتيهم المعلم ثلاث مرات أسبوعيًا، كــانوا يمتازون بالجرأة والشراسة وقد جعلوا بالفعل حياته غاية فى الصعوبة خاصة فى البداية، ولكنه تعلم منهم على الأقل كيف يعد إطارًا وكيف يرسم ويلــون مشروعًا. كم من مرة اقتصر غذاؤه على كوب من الشيكولاته وقطعة خبــز كى يتمكن من دفع الخمسة وعشرين فرنكا لجامع الاشتراكات! كم من ورقة عانى فى رسمها وكم ساعة قضاها بين الكتب ليدخل الكلية! كل هذا وعلــى الرغم من جهده الرهيب وعمله الدائم، كان على وشك الانهيار، فقــد كــان

يفتقر إلى الخيال. كان الامتحان النظرى عبارة عن تـصميم لكارياتييـد[1] وغرفة طعام صيفية، ولكنهما لم يكونا على مستوى جيد مما وضـعه فـى المرتبة الأخيرة ، ولكنه استطاع تجاوز هذا الأمر بفضل الاختبار الـشفوى الذى أظهر فيه نبوغًا فى حساب اللوغاريتمات وتصميم المخططات الهندسية والتاريخ، فكان بالفعل على دراية عالية بالجانب العلمى. والآن، بوصفه طالبا من المرتبة الثانية بالكلية، فعليه أن يبذل قصارى جهده ليحصل على شـهادة من المرتبة الأولى. يا لها من حياة بائسة! وكأن هذا العذاب سيـستمر إلـى الأبد! ومدد ساقيه على الوسائد وأخذ يدخن بشراهة وانتظام وهـو يقـول: " محاضرات فى المنظور ، فى الهندسة الوصفية ، فى تقطيع الأحجار، فـى الإنشاء، وتاريخ الفن، ونظل نحن نكتب حتـى اسـودت الأوراق... وتقـام مسابقة فى التصميم المعمارى كل شهر تتراوح صعوبتها بين رسـم بـسيط ومشروع كامل. لا توجد فرصة لأى تسلية إذا أردت أن تجتـاز الاختبـار بنجاح وبتقديرات عالية، خاصة وإن كنت مجبرا على العمل لتجنـى قـوت يومك... إننى أتضور جوعًا..." ثم سقطت وسادة علـى الأرض فالتقطهـا بقدميه واستأنف حديثه: "إلا أننى قد أكون محظوظا مقارنة بـالآخرين. أنـا أعرف زملاء لى لا يألون جهدا سعيا لإثبات ذواتهم ولكن دون نتيجة! أمـا أنا، فقد عثرت أمس الأول على مهندس معمارى يعمل لحساب مقاول كبير، لن تتخيلوا إلى أى مدى يبلغ جهل هذا الرجل فهو لا يتعدى مـساعد بنـاء يعجز عن نقل رسم ما حتى بشف خطوطه، ولكنه سيعطينى خمسة وعشرين

---

(١) كاريادينيد: Cariatide : تمثال امرأة يستخدم كعمود فى مبنى. (المترجمة)

مليما فى الساعة فى مقابل تصميم مبانيه... لقد جاء هذا العمل فـــى وقتـــه بالفعل، فلقد أرسلت أمى تقول لى إنها تتضور جوعًا. يا لأمى المسكينة ولكن من أين لى النقود لأرسلها لها!"

لم يعر صاندوز كلام دوبوش اهتماما، حيث كان يبدو جليًا أنه يحدث نفسه مفكرا فى شغله الشاغل والأوحد: كيف يجنى سريعا ثروة كبيرة، ففتح النافذة الصغيرة وجلس بالقرب من السقف ليتخلص من الحرارة الرهيبة التى لا تبرح المرسم، ولكنه ما لبث أن قطع حديث دوبوش بقوله: " قل لى، هـــل ستأتى يوم الخميس لتتناول العشاء؟ الجميع ســيكونون هنـــاك ، فـــاجرول وماهودو وجورى وجانيير." فى كل خميس كان يجتمع في منزل صـــاندوز جميع الأصدقاء، بعضهم من بلاسان والبعض الآخر تعرفوا عليهم فى باريس ولكنهم جميعا كانوا متمردين، يحركهم هذا الشغف بالفن.

أجاب دوبوش: "لا أعتقد، فأنا ذاهب يوم الخميس إلى حفل تقيمه إحدى العائلات."

رد صاندوز: "أتطمع فى اقتناص زوجة غنية؟"

فقال دوبوش: "يا لها من فكرة! قد تفيد بالفعل!"

ثم أفرغ محتويات غليونه فى راحة يده اليسرى، وصاح فجـــأة: "لقـــد نسيت! لقد تلقيت اليوم رسالة من بويو."

فأجاب صاندوز: "أنت أيضا... وما أخباره؟ هل لا يزال مفلسا؟ ها هو واحد منا تدهورت أحواله!"

فقال دوبوش: "لماذا تقول ذلك؟ إنه سيرث أموال والده وسيتلذذ بإنفاقها فى هدوء، كنت دائما أقول إن هذا المهرج بويو سيلقننا جميعا درسا لا ينسى... ذلك الحيوان بويو!"

غضب صاندوز وكان على وشك أن يرد عليه، ولكن قاطعه سباب كلود اليائس، والذى ظل صامتا منذ أن انهمك فى عمله، حتى بدا وكأنه لا يسمعهما: "اللعنة! إنها لا تزال سيئة... أنا بالفعل شخص أخرق، وبالتأكيد لن أحقق أى شىء!"

ثم انتابته حالة من الغضب الجنونى وأراد أن ينقض كالمسعور على لوحته ليمزقها بيديه، ولكن صاندوز ودوبوش منعاه محاولين إثناءه عن مثل هذا الغضب الطفولى لأنه بعد أن يهدأ سيندم حتى الموت على إفساده عمله.

أما هو فظل يرتجف وعاد يصوب نظرات قوية وثابتة إلى لوحته، تفضح عذابه الداخلى بسبب عجزه أمامها، لم تعد أصابعه قادرة على خلق الحياة، حتى صدر المرأة الذى كان يرسمه بدا ملطخًا بألوان ثقيلة، شعر بأنه أفسد ودنس هذا الجسد الساحر الذى يعبده، وعجز عن وضعه فى المكان الصحيح. ماذا يحدث داخل رأسه الذى ينهار دون جدوى؟ هل أصيبت عيناه فلم يعد يرى جيدا؟ يداه، ألم تعودا ملكا له ولا تطيعانه؟ كاد يجن وهو يفكر فى هذا المرض المجهول الذى يحلق به تارة فى سعادة وهو يرسم ويضربه تارة أخرى بقوة تنسيه مبادئ الرسم. يشعر بكيانه كله يختلج بالنشوة، تمتلكه تلك الرغبة فى الإبداع، وفجأة يهرب منه كل شىء ويتداعى من حوله كبرياؤه والمجد المنشود بل وجوده ذاته!

فقال له صباندوز: "اسمعنى يا عزيزى، أنا لا أوبخك ولكنك مخطئ، إنها الآن السادسة والنصف وأنت تضور جوعا ، هيا اهدأ وتعال معنا." أما كلود فأخذ ينظف لوحة الألوان ووضع فيها ألوانًا جديدةً وأجاب بكلمة واحدة دوت بقوة: "لا!"

مرت عشر دقائق وظل الجميع صامتين، وبدا كلود خارجا عن وعيه يتصارع مع لوحته، بينما تسمر صديقاه مضطربين حزانى عاجزين عن تهدئته. ثم سمع طرق على الباب، فذهب دوبوش ليفتح وصاح: "إنه السيد مالجرا!"

كان مالجرا، تاجر اللوحات، رجلا ضخما يرتدى معطفا طويلا أخضر اللون غاية فى القذارة، حتى بدا كحوذى سيئ الهندام، كان ذا شعر أبيض مدبب ووجه أحمر مائل للقرمزى من فرط الشرب. ثم قال بصوت أجش: "كنت أمر بالصدفة على رصيف الميناء أمام المنزل، فرأيتك من النافذة، فصعدت إلى هنا..." ثم توقف عن الكلام متعجبا من صمت كلود الذى التفت إلى لوحته فى سخط. ولكن مالجرا لم يهتز، بل بدا مرتاحا متسمرا على ساقيه القويتين ثم وقعت عيناه الحمراوان على اللوحة، فأخذ يتفحصها دون حرج، ثم قال بنبرة امتزجت فيها السخرية بالرقة: "إننا بالفعل أمام عمل ضخم!"

لم ينبس أحد بكلمة، فعاد يتجول فى الغرفة بخطى بطيئة، يتأمل اللوحات المعلقة على الجدران. كان على الرغم من مظهره القذر رجلا غاية فى الجرأة، حاذقا ومميزا للفن الجيد، لم يكن يذهب قط إلى الرسامين رديئى المستوى، وإنما إلى الفنانين الحقيقيين ممن لا يزالون غير مقبولين. كان ذهنه

المتوقد يستشرف المستقبل الباهر الذى ينتظرهم. كان يتمتع أيضًا بقدرة رهيبة على المساومة، ودهاء وحشى فى سبيل اقتناء اللوحات التى يريدها، ثم يعود ويتظاهر بالاكتفاء بنسبة عشرين أو ثلاثين بالمائة على الأكثر من ثمن اللوحة عند بيعها. كان يعتمد على التجديد السريع لرأس ماله، فلم يكن يشترى أى لوحة فى الصباح إن لم يعرف كيف سيبيعها فى المساء، إلى جانب قدرته المذهلة على الكذب!

توقف قرب الباب أمام مجموعة من الصور العارية رسمها كلود وهو فى مرسم بوتان، وتسمر فى صمت عدة دقائق مستغرقا فى التأمل، ولمعت عيناه الخبيرتان فى تلذذ حاول إخفاءه بجفنيه الثقيلين. تعجب من الموهبة الجبارة والإحساس المرهف بالحياة اللذين لهذا المجنون الذى يضيع وقته فى أشياء ضخمة لا يعيرها أحد التفاتا! سحره ساقا الفتاة الجميلتان وجسد المرأة البديع، ولكنه لم يكن ليشتريهما، كان اختياره قد وقع على لوحة صغيرة تصور الريف فى بلاسان، مزيجا من الرقة والعنف. تظاهر فى البداية بأنه لم يرها، ثم اقترب منها وسأل كلود بنوع من عدم الاهتمام: "ما هذه اللوحة؟ أهى إحدى لوحاتك التى رسمتها فى الجنوب؟... إنها ساطعة أكثر من اللازم، أتعلم أننى لم أبع بعد اللوحتين اللتين اشتريتهما منك المرة الأخيرة؟"

واسترسل فى عبارات مملة لا تنتهى: "قد لا تصدقنى يا سيد لانتيه ولكن هذه اللوحات لا تباع على الإطلاق. إن شقتى أصبحت تعج باللوحات

حتى إننى أخشى أن أمزق إحداها وأنا أتحرك. أقسم لك أننى أعانى لأستمر فى عملى، فعلى أن أبيع اللوحات وإلا سيقضى على... أليس كذلك؟ أنت تعرفنى جيدا وتعلم أننى طيب ولا أهتم بالنقود وليس لى هم سوى مساعدة الموهوبين أمثالك، أنا لا أكف عن التأكيد على موهبتك. ولكن ماذا تريدنى أن أفعل؟ إنهم لا يفهمون هذه الأشياء، فعلا لا يفهمونها!"

تظاهر بالانفعال وصاح كمن يقدم على عمل جنونى: "فى النهاية، أنا لن أعود فارغا... ماذا تريد مقابل هذه اللوحة؟"

كان كلود يرسم فى انزعاج مرتجفا من الانفعال فأجاب بصوت جاف دون أن يلتفت إليه: "عشرين فرنكا!"

صاح فيه مالجرا: "ماذا! أتريد عشرين فرنكًا! أجننت أم ماذا؟ لقد اشتريت منك اللوحات الأخرى بعشرة فرنكات للواحدة... لن أدفع فى هذه اللوحة أكثر من ثمانية فرنكات!"

كان كلود عادة ما يستسلم سريعا، بسبب الخجل الذى يعتريه من هذه المناقشات المرهقة والبائسة، وكان يخالجه فى الوقت ذاته شعور بالسعادة عند حصوله على هذه النقود، ولكنه تشبث برأيه هذه المرة وسب مالجرا، الذى هاجمه بدوره نافيا عنه الموهبة، موسعا إياه شتما، واصما إياه بالجحود ونكران الجميل. ثم أخرج من جيبه ثلاث قطع نقدية فئة المائة مليم وقذفها من بعيد على الطاولة، حيث سقطت محدثة رنينا عاليا بين الأطباق وقال: "قطعة، اثنان، ثلاثة... ولن أدفع مليما إضافيا أتسمعنى! فلقد أعطيتك بالفعل

قطعة زائدة وأقسم أننى سأستردها منك فى أقرب فرصة!... خمسة عشر فرنكا! حسنا لقد أخطأت يا صغيرى! إنها حيلة قذرة وستندم عليها!"

تركه كلود ينتزع اللوحة التى أخفاها فى سترته الخضراء كالساحر، أتراها انزلقت داخل جيب سرى؟ أم ترقد فى إحدى طيات المعطف؟ ولكن لم يكن هناك أى نتوء يظهر مكانها.

هدأ مالجرا فجأة بعد أن أتم صفقته واتجه ناحية الباب، ثم عدل عن رأيه وقال لكلود بلهجة طيبة: "اسمع يا لانتيه، أنا أحتاج لوحة لسرطان البحر، أنت مدين لى بهذه الخدمة بعد أن خدعتنى هذه المرة... سأحضر لك واحدا لترسمه كطبيعة صامتة، وسوف تحتفظ به كثمن اللوحة لتأكله مع أصدقائك... مفهوم، أليس كذلك؟"

لزم صاندوز ودوبوش الصمت طوال الوقت ينصتان بفضول إلى ما يجرى، ولكن ما إن سمعا هذا العرض حتى غرقا في ضحك صاخب أبهج مالجرا نفسه، الذى تفكر: "هؤلاء الرسامون الخبثاء إنهم يتضورون جوعا دون فائدة. كيف سيعيش هؤلاء الكسالى إن لم يأت إليهم السيد مالجرا من حين لآخر بقطعة لحم أو سمكة طازجة أو سرطان بحر محاطا بالمقدونس ليرسموه؟"

ثم قال: "سترسم لى الكركند يا لانتيه أليس كذلك؟ شكرا جزيلا."

وعاد ليتأمل اللوحة الكبيرة وارتسمت على وجهه ابتسامة تنم عن إعجاب تشوبه السخرية، وقال: "إننا بالفعل أمام عمل ضخم!"

أراد كلود أن يستكمل الرسم وتناول فرشاته ولوحة ألوانه ولكن خانته ساقاه وارتخت ذراعاه، وكأن هناك قوة خارقة تقيده. وفي هذا الصمت الكئيب الذى تلى جلبة الشجار، بدأ يترنح أمام لوحته بعد أن أعماه التعب وقال: "لا أستطيع، لا أستطيع ... لقد أجهز عليَّ هذا اللعين!"

كانت الساعة تدق السابعة، أى أنه عمل لثمانى ساعات متصلة دون راحة كالمحموم ودون أن يأكل شيئا سوى قطعة خبز. بدأ الظلام يخيم على المرسم بعد غروب الشمس وأضفى عليه نوعًا من الكآبة الرهيبة. فحينما تغرب شمس يوم عمل سيئ كان يشعر وكأنها لن تشرق ثانية، بعد أن أجهزت على الحياة وقتلت بهجة الألوان.

أخذ صاندوز يتوسل إليه برقة وشفقة أخوية: "تعال، تعال معنا يا عزيزى." ثم قال دوبوش: "فى الصباح ستراها جيدا، تعال الآن لنأكل شيئا."

فى البداية رفض كلود أن يستسلم وظل متسمرا فى مكانه، متجاهلا هذه الأصوات الودودة، فى نوبة من العناد الشرس.

ماذا كان عساه أن يفعل بعد أن أفلتت أصابعه المتصلبة الفرشاة؟ لم يكن يعرف بالفعل! كان فريسة رغبة عارمة فى إكمال العمل والإبداع، ولكن خانته قواه. قرر ألا يترك المرسم حتى وإن لم يعمل اليوم. ثم اعترته رعشة كمن ينتحب وأمسك سكينة رسم كبيرة الحجم ومضى يحك رأس وصدر المرأة ببطء وبعمق. شعر حينها بأنه يرتكب جريمة قتل حقيقية، واختفت كل الملامح وذابت وكأنها عجين. لم يتبق من المرأة العارية، الجالسة إلى جوار

الرجل ذى السترة المخملية والفتاتين العاريتين تحت الشمس وسط الخضرة المبهجة ساطعة الألوان، سوى جذع مشوه ومبتور وكأنها بقايا جثة بعد أن تبخر الجسد الذى طالما حلم به .

كان صاندوز ودوبوش لا يزالان على الدرج الخشبى محدثين جلبة وهما يهبطان، فلحق بهما كلود هاربا من لوحته ، يعتصره الألم لتركها هكذا مثخنة بالجراح!

الفصل الثالث

كانت بداية الأسبوع كارثة بالنسبة لكلود، الذى وقع فريسة لإحدى نوبات شكوكه التى تجعله يمقت الرسم وينفر منه كعاشق مخدوع، فيوسع الخائنة سبًا وهو لا يزال صريع عشقها. قضى ثلاثة أيام من العذاب، وحيدا فى صراع لا طائل من ورائه، جعله يحتقر نفسه حتى أقسم ألا يمسك الفرشاة مرة أخرى. وخرج يوم الخميس فى الثامنة صباحا مغلقا وراءه الباب بعنف. كانت مثل هذه النوبات تشوش تفكيره ولم يكن لها علاج سوى أن ينسى آلامه ويذهب لأصدقائه وينخرط معهم فى مناقشات حامية أو يتجول على غير هدى فى شوارع باريس حتى تصيبه الحرارة ورائحة الأرصفة بالغثيان.

كان سيذهب فى المساء لتناول العشاء عند صاندوز كعادته كل خميس حيث يجتمع الأصدقاء، ولكن ماذا يفعل حتى الموعد المحدد؟ لم يكن يطيق فكرة مكوثه وحيدا، تعذبه أفكاره وشكوكه. فكر فى الذهاب إلى صاندوز مبكرا، ولكنه تذكر أنه يكون في عمله، ثم خطر له دوبوش ولكنه تردد، خاصة وأن صداقتهما كانت قد بدأت تفتر، فلم يعد يشعر بتلك الأخوة التى كانت تربطهما فى الأوقات العصيبة، بل بات يعتقد أن دوبوش يفتقر للذكاء ويضمر له نوعا من العداء الخفى، بالإضافة إلى انشغاله الزائد بطموحاته

الأخرى، ولكن لمن يذهب الآن؟ فى النهاية حسم أمره وذهب إلى شارع جاكوب، حيث يقيم دوبوش فى شقة ضيقة بالطابق السادس فى منزل كبير بارد. لم يكد يبلغ كلود الطابق الثانى حتى صاح به الحارس بعنف يخبره أن السيد دوبوش ليس فى شقته.

هبط كلود يسير ببطء على الرصيف متعجبًا من سوء حظه الغريب ومن اختفاء دوبوش. ظل سائرًا دون هدف، ثم توقف فجأة فى أحد أركان شارع السين حائرًا أى طريق يسلك؟ وعندها تذكر ما رواه له دوبوش عن الليالى التى يقضيها فى مرسم ديكيرسونبير حينما يكون عليه تقديم عمل ما فى الكلية. فانطلق إلى شارع فور حيث يقع المرسم، الذى كان يتحاشى الذهاب إليه بسبب ما يلاقيه من سخرية واستهزاء بوصفه من الجهلاء ومدنسى الفن. ولكنه استجمع قواه، وقد منحه الفزع من الوحدة قوة جعلته على استعداد لتحمل الإهانات فى سبيل صحبة تشاركه شقاءه.

كان المرسم يحتل جزءا من منزل متصدع فى أضيق مكان فى شارع فور، ومن أجل الوصول إليه تحتم عليه عبور فناءين غاية فى القذارة، وفى الفناء الثالث كان هناك مخزن مغلق واسع وضعت فيه بعض الألواح الخشبية وبقايا البناء. فى الخارج، كانت النوافذ الأربع الكبيرة تطل على السقف العارى المغطى بالجير وكانت ألواحها الزجاجية ملطخة جميعها بالاسبيداج[١].

---

(١) ملون أبيض يستخدم فى الرسم. (المترجمة).

دفع كلود الباب وبقى بلا حراك أمام المدخل. وظهرت أمامه القاعة الواسعة التى تضم أربع طاولات كبيرة عمودية علـى النوافـذ، وطـاولات أخرى مزدوجة يجلس على جانبيها صفوف من الطلبة، وقد وضعت عليهـا قطع إسفنج مبللة وفناجين وأوعية للمياه وشمعدانات حديدية وصناديق خشبية ليضع فيها كل طالب سترته البيضاء وفرجاره وألوانه.

ثم لاح له فى أحد الأركان الموقد الذى عـلاه الـصدأ منـذ الـشتاء الماضى، وبقايا الفحم المتناثر إلى جانبه. وفى الركن الآخر، كان هناك وعاء ضخم معلق ملىء بالزنك بين منشفتين. كانت جدران هذه القاعـة الفارغـة المهملة تجذب الأنظار، فقد وضعت على الأرفف مجموعـة متفرقـة مـن القوالب تغطيها غابة من المساطر والمثلثات وأكوام من ألواح الرسم، أما ما تبقى من الأركان فكانت تغطيه النقوش والرسوم وكأنها مدونة على هوامش كتاب مفتوح. كانت الجدران مغطاة بمتعلقات الزملاء وبمقاطع لأمور مخجلة أو بكلمات بذيئة تشحب لها وجوه الجنود أنفسهم أو ببعض الجمل والعمليات الحسابية والعناوين، وبدت واضحة للعيان جملة مقتضبة وكأنها من إحـدى المحاضرات، كتبت بخط كبير فى موقع الصدارة: "فى السابع مـن يونيـو، أعلن جورجو أنه لا يعبأ بجائزة روما. الإمضاء: جودمارد."

بمجرد ظهور كلود، علت صيحات التذمر، وكأنها أصوات حيوانـات مفترسة لإخافة القادم لإزعاجها. ذهل كلود لرؤية القاعة فـى صـباح ليلـة طويلة من العمل يطلق عليها المعماريون "ليلة العربة"، حيث مكث أكثر من

ستين طالبا من ليلة أمس، سواء كانوا من "المساعدين" أى ممن لم يكن لديهم مشروعات يقدمونها بل يبقون لمساعدة الآخرين، أو المتسابقين المتأخرين الذى يتعين عليهم إنهاء عمل ثمانية أيام فى اثنتى عشرة ساعة. بحلول منتصف الليل، انقض الجميع على قطع اللحم وزجاجات النبيذ، أما التحلية فقد أحضروا ثلاث نساء من المنزل المجاور فى الساعة الواحدة، ودون أن يتوقف العمل، أصبح المجون هو سيد الموقف، كانت أدخنة الغليون تتصاعد وقد تناثرت على الأرض أوراق ملطخة بالدهون وبقايا زجاجات محطمة وبقع متعكرة تتشربها الأرضية، وقد عبقت الهواء روائح نفاذة للشموع المنطفئة فى الشمعدانات الحديدية ولعطور النساء التى اختلطت برائحة النقانق والخمر الأيرلندية.

تعالت صيحات وحشية: "اخرج!...اخرج من هنا! ماذا يريد هذا المرتعش؟... إلى الخارج!... إلى الخارج!".

ارتبك كلود لبرهة وشعر بالأرض تميد من تحت قدميه من وقع فظاظة وعنف الصيحات وقسوة الألفاظ التى صدرت بأناقة شديدة من أشخاص مميزين يتنافسون فى البذاءة. ثم تمالك نفسه وتكلم، عندها أدرك دوبوش أنه كلود. فاضطرب، خاصة وأنه يكره مثل هذه المواقف وشعر بالخجل من صديقه وأسرع إليه وقد انهالت عليه هو الآخر صيحات السخرية. وسأله متلعثما: "ماذا؟ إنه أنت! ألم أقل لك ألا تدخل هنا أبدا؟... انتظرنى فى الفناء سألحق بك."

تراجع كلوذ وقد أوشكت فى تلك اللحظة أن تسحقه عربة صغيرة يجرها رجلان ملتحيان بسرعة رهيبة. كانت هذه هى عربة الليل التى سميت ليلة العمل الطويلة تيمنا بها. لا يكف الطلبة المتأخرون عن ترديد عبارة: "الوقت يداهمنا!" منذ ثمانية أيام، ولكن ما أن تظهر هذه العربة التى تأتى فى هذا التوقيت لحمل المشروعات إلى الكلية حتى تزداد الجلبة بين صفوف الطلبة. فقد حانت الساعة التاسعة إلا الربع موعد الذهاب إلى الكلية، فحدثت ضوضاء هائلة، فالكل يحاول إنقاذ مشروعه من الاحتكاك أو الاصطدام، واكتسح تيار التدافع كل من حاول البقاء لإنهاء أو تعديل بعض التفاصيل. وفى غضون خمس دقائق، كانت المشروعات قد وضعت فى العربة، بينما تجمع الطلبة الذين انشغلوا بتبادل السباب لدفع العربة من الخلف، وعبروا الشارع محدثين ضجة عارمة وشغبا صاخبا.

أما كلود فركض بجوار دوبوش الذى كان فى نهاية الصف واقفا فى انزعاج لعدم حصوله على ربع ساعة إضافية لينتهى من تلوين مشروعه، ثم سأله: "ماذا أنت فاعل الآن؟"

فأجاب دوبوش: "لدى مشاوير طوال اليوم."

حزن كلود لضياع دوبوش من يده وقال: "حسنا! سأتركك... ولكن هل ستأتى اليوم عند صاندوز؟" أجاب: "نعم على ما أعتقد، إلا إذا دعيت للعشاء فى مكان آخر."

كانا يلهثان. وكانت العربة ومن وراءها يسيرون بسرعة معتدلة، ناشرين ضوضاءهم فى كل مكان، وما أن خرجوا من شارع فور حتى

تدافعوا بطول ميدان جوزلين وصولا إلى شارع الأيشوديه، حيث أخذت العربة تقفز وتراقص ما عليها من الاندفاع فوق الرصيف غير الممهد، ثم تزايدت سرعة الموكب مجبرًا المارة على التنحى ملتصقين بالمنازل لئلا تسحقهم العربة، بينما فغر التجار أفواههم ظانين أنها الثورة! انقلب الشارع بأكمله رأسا على عقب. وتكرر الأمر ذاته فى شارع جاكوب وتعالت صيحات مفزعة جعلت السكان يغلقون النوافذ. وما أن دخلوا شارع بونابرت، حتى أراد أحدهم أن يمزح، فأمسك بخادمة صغيرة وقفت مذهولة على الرصيف كقشة يجرفها السيل.

عندها قال كلود: "إلى اللقاء إذًا، أراك فى المساء!" فرد دوبوش: "نعم فى المساء".

توقف كلود ليلتقط أنفاسه بجوار شارع الفنون الجميلة، وظهر أمامه فناء الكلية الواسع الذى بدا وكأنه يبتلع كل شىء. ومكث برهة، ثم عاد إلى شارع السين، لاعنا حظه السيئ.

كان قد قرر ألا يعطل أيًّا من أصدقائه عن عمله، فسار ببطء حتى ميدان البانثيون دون هدف، ثم فكر فجأة فى الذهاب إلى مبنى البلدية لمدة عشر دقائق فقط ليلقى التحية على صاندوز. ولكم أغتم حينما قال له أحدهم إن صاندوز لم يأت اليوم لأن لديه حالة وفاة. كان يعلمُ أن صديقه يلجأ إلى هذه الحيلة إذا أراد أن يمكث فى المنزل لينكب على التأليف، عندها تحركت داخله عاطفة أخوة بين فنان وفنان واعتراه خجل من رغبته فى الذهاب إليه فقد رأى أن إزعاج رجل نشيط أثناء العمل جريمة من شأنها أن تثبط عزيمته أمام عمله المتمرد، وهو يدرك تماما معنى الصراع المحموم مع لوحته العنيدة.

فاستسلم كلود مجبرا، وسار على غير هدى يرزح تحت وطأة الكآبــة السوداء التى هزت أعماقه. كانت رأسه تطن من كثرة التفكير المتواصل فى عجزه عن الخلق والإبداع، حتى كلت عيناه وغشاهما ضباب منعه من رؤية نهر السين المفضل لديه. توجه إلى شارع لافام سان تات، حيث تناول الغداء فى مطعم جومار، وهو تاجر خمور. جلس وسط مجموعة من البنائين فــى ثياب العمل المتسخة بالجير، وطلب مثلهم الطبق المعتاد ذا الثمانية مليمات، جاء الحساء فى وعاء كبير معه قطعة لحم مسلوق مزينة بحبات الفاصــوليا فى طبق رطب لا تزال عليه آثار تنظيفه. وخطر له كم أن تلك الوجبة كانت أفضل من أن يستحقها شخص مثله فظ لا يجيد مهنته. كان دائما ما يحط من قدر نفسه إذا فشل فى رسم لوحة ما، مرددا أنه أقل من هؤلاء العمال الــذين يعملون بأياديهم القوية. مكث هناك حوالى ساعة قضاها وهو يستمع فى بلادة للأحاديث الدائرة على الموائد المجاورة. ثم نهض ليستأنف مسيرته ببطء.

وأثناء مروره أمام مبنى البلدية، واتته فكرة، كيف لم يخطر له الذهاب إلى فاجرول؟ كان فاجرول لطيفا ومرحا ولم يكن أحمق، على الرغم من أنه كان طالبا بكلية الفنون، فالمناقشة معه محتملة حتى وإن كان دائم الدفاع عن الرسم السيئ. توقع أن يجد فاجرول فى منزل والده فى شارع فيى دو تومبل حيث يتناولان الغداء سويا، فانطلق إلى هناك.

شعر كلود بنوع من الانتعاش بمجرد دخوله هذا الشارع الضيق. كانت درجة الحرارة مرتفعة للغاية والرطوبة تتصاعد من الرصيف الذى ظل مبللاً

من أثر أقدام المارة التى لا تكف عن السير. كان فى كل مرة يترك فيها الرصيف تجنبًا للتزاحم، توشك شاحنة أو عربة على سحقه، ولكنه كان سعيدًا على الرغم من كل شىء وهو يسير فى هذا الشارع ذى المنازل المتعرجة مسطحة الواجهات والمزينة باللافتات وبفتحات النوافذ الصغيرة التى تنبعث منها أصوات جميع المهن بالغرفة الصناعية بباريس. ثم استوقفه متجر صغير لبيع الجرائد يشغل ممرا ضيقا ، يقع بين حلاق وبائع لحوم، يعرض على الواجهة صورًا بلهاء، وترامى للأسماع قصائد وأغان عاطفية اختلطت بشتائم الحراس. وأمام هذه الصور، وقف شاب يتأمل وصبيان يتدافعان وهما يضحكان. كاد كلود أن يصفع ثلاثتهم، ولكنه حث الخطى ليعبر الشارع ليصل إلى وجهته. كان منزل فاجرول يقع فى بناية قديمة معتمة ملطخة بالطين تتصدر باقى المنازل. وظهرت فجأة عربة النقل العام، فلم يكن فى وسع كلود سوى القفز على الرصيف الضيق. كانت العربة شديدة القرب حتى لامست العجلات صدره وغمرته بالطين حتى ركبتيه.

كان والد فاجرول يصنع صورًا ونقوشًا بالزنك، وقد خصص الطابقين الأرضى والأول للورشة، ليبيع عيناته فى الغرفتين الكبيرتين المضيئتين المطلتين على الشارع، بينما يعيش هو فى منزل صغير مظلم وخانق كالكهف، حيث نشأ ابنه هنرى الذى ذاق حياة الشارع الباريسى، وعاش حياته على الرصيف بين العجلات ومجرى الماء أمام متجر اللوحات وبائع اللحم والحلاق. كان والده يريد أن يجعل منه رساما للزينة ليستعين به فى

عمله. وعندما ظهرت لدى الابن طموحات أكبر فى الفن وأعلن عن رغبته فى الالتحاق بكلية الفنون، ثارت ثورة والده وتوالت المشاجرات والصفعات ثم تلتها سلسلة من الخلافات والمصالحات مستمرة حتى الآن. وعلى الرغم مما جناه هنرى من نجاحاته الأولى، فإن والده لا يزال يعامله بقسوة لكونه الابن الذى أفسد حياته.

عبر كلود بجهد رواق المنزل المقوس العميق المؤدى إلى فناء يشبه الصهريج، غلب عليه اللون الأخضر وتنبعث منه رائحة متعفنة. ومن تحت المظلة الموجودة فى الهواء الطلق، ظهر سلم كبير ذو سور قديم متهالك بسبب الصدأ. وأثناء مروره أمام المتاجر الموجودة فى الطابق الأول، رأى السيد فاجرول من وراء باب زجاجى يفحص أعماله. دخل كلود بدافع الأدب، على الرغم من اشمئزازه من هذه الرسوم المقلدة المطلية بالبرونز بجمالها الرخيص الكاذب، وقال: "مساء الخير يا سيدى... هل هنرى لا يزال هنا؟"

انتصب السيد فاجرول، وكان رجلا ضخما شاحب الوجه، واقفا فى وسط الزهريات والأباريق والتماثيل التى يصنعها ممسكا فى يده تصميما جديدا لمقياس حرارة على هيئة لاعبة أكروبات منحنية، تجمل على أنفها الأنبوبة الزجاجية الرقيقة، وأجاب بخشونة: "لم يأت هنرى لتناول الغداء."

كان لهذا الاستقبال وقع سيئ على كلود، الذى قال فى ارتباك: "لم يأت لتناول الغداء... أنا شديد الأسف لإزعاجك. مع السلامة يا سيدى".

أجاب الآخر: "مع السلامة".

وبمجرد خروجه أخذ كلود يسب فى سره ويلعن هذا الحظ السيئ، فحتى فاجرول أفلت هو الآخر من يده. واعتراه غضب من قدومه إلى هذا المكان وانبهاره بهذا الشارع القديم الرائع، واحتدمت ثورته ضد آفة الرومانتيكية هذه التى لا تزال ترعى بداخله، فربما تكون هى سبب أزمته، تلك الأفكار الخاطئة التى تخترق رأسه وتعذبه.

عاد مرة أخرى إلى رصيف الميناء، وعندها راودته فكرة العودة ليتأكد من مدى بشاعة لوحته، ولكن هذه الفكرة وحدها كانت كفيلة بزعزعة كيانه. بدا له مرسمه كبيت رعب يستحيل العيش فيه، استقرت فيه جثة حقيقية. كان صعود الطوابق الثلاثة وفتح الباب ليجد نفسه أمام لوحته أمرًا يتطلب شجاعة كبيرة تفوق قدراته!

عبر نهر السين، ثم سلك شارع سان جاك. وماذا كان عساه أن يفعل؟ كان فى حالة من التعاسة جعلته يتوجه إلى صاندوز حتى وإن عطله عن عمله.

كانت شقة صاندوز تقع فى الطابق الرابع، وهى مكونة من غرفة طعام وغرفة نوم ومطبخ ضيق، بينما كانت والدته التى أقعدها الشلل تعيش فى حجرة على الجانب الآخر من السلم فى عزلة حزينة فرضتها على نفسها. كان الشارع مهجورا والنوافذ تطل على حديقة معهد الصم والبكم التى تتوسطها شجرة ضخمة وعلى برج أجراس كنيسة القديس جاك المربع الشكل.

دخل كلود ووجد صاندوز فى غرفته ، وقد انحنى على طاولته، مستغرقا فى التفكير أمام ورقة مكتوبة، فقال: "هل أزعجك؟"

فرد صاندوز: "لا فأنا أعمل منذ الصباح حتى أرهقت... أتتخيل أنـــى أمضيت ساعة كاملة فى إعادة تركيب جملة سيئة يؤنبنى عليهــا ضــميرى منــذ الصباح؟"

صدرت عن كلود إيماءة توحى باليأس، ففهم صاندوز حالته حينما رآه غارقًا فى الحزن، فقال: "قل لى ألا يسير الأمر معك علـــى مـــا يـــرام؟... فلنخرج ونقم بجولة طويلة لننشط أنفسنا... ما رأيك؟"

وظهرت فجأة مدبرة المنزل، وهى امرأة عجوز تأتى إليه ســاعتين فـــى الصباح وساعتين فى المساء، أما يوم الخميس فتبقى حتى فتـــرة بعـــد الظهـــر بأكملها لإعداد العشاء، واستوقفتهما وهما مجتازان أمام المطبخ وسألت صاندوز: "إذن هل هذا آخر قرار يا سيدى، سأعد سمكة وفخذ خروف وبطاطس؟"

أجاب صاندوز: "كما تريدين".

ثم سألت: "كم فرد سيأتى لأضع الأطباق بعددهم؟"

رد صاندوز: "لا أعلم ... ضعى خمسة كالمعتاد وسنرى بعد ذلـــك مـــن سيأتى. العشاء سيكون فى السابعة أليس كذلك؟ سنحاول أن نصل فى الميعاد."

انتظر كلود قلـــيلا علـــى الـــسلم، ودخـــل صـــاندوز إلـــى والدتـــه، ثم خرج من عندها فى هدوء ورقة، ونزل الاثنان فى صمت.

وقفا فى الخارج واستنشقا الهواء يمينـــا ويـــسارا وهمـــا مـــستمتعان بالطقس، ثم سارا حتى وصلا إلى ميدان الأوبزرفـــاتوار، مـــرورا بـــشارع

مونبارناس، كانت هذه هى نزهتهما المعتادة. كانا يعشقان الحركة الكثيرة والتسكع بحرية فى الشوارع الخارجية، دون كلام، مطمئنين لكونهما معا. كانا قد وصلا إلى محطة قطار الغرب حين واتت صاندوز فكرة: "ما رأيك فى الذهاب إلى ماهودو لنرى كيف يسير عمله؟ فقد علمت اليوم أنه توقف عن نحت التماثيل الدينية الصغيرة".

أجاب كلود: "لمَ لا؟ فلنذهب إذن إلى ماهودو".

وتوجها على الفور إلى شارع شارش ميدى، حيث استأجر ماهودو النحات متجرًا كان مملوكا لبائعة فواكه ولكنها أفلست، واستقر هناك مكتفيا بتغطية الزجاج بطبقة من الجير. ومن هذا المكان الواسع والخالى، بدا الشارع وكأنه يحمل طيبة الريف وهدوءه ذا النفحة الروحية، وقد انفتحت أبواب ظهر من ورائها أفنية عميقة ومتتالية، وانبعثت منها رائحة اللبن الفاترة من حظائر البقر، بينما بدا سور الدير وكأنه يمتد إلى مالا نهاية. كان متجر الأعشاب الطبيعية ملاصقًا للدير ولكنه سرعان ما تحول إلى متجر فواكه ثم حوله ماهودو بعد ذلك إلى ورشة نحت، دون أن يفكر فى تغيير اللافتة التى كتب عليها بحروف صفراء كبيرة: "خضراوات وفواكه".

فى تلك الأثناء، كاد كلود وصاندوز أن يفقدا أعينهما بسبب الفتيات اللاتى كن يقفزن الحبل. كانت هناك عائلات بأكملها تجلس على الرصيف مما اضطر كلود وصاندوز إلى السير فى الشارع. وما أن وصلا حتى لفت محل الأعشاب أنظارهما، حيث زينت واجهاته بلافتات ورشاشات مياه

وببعض الأغراض الشخصية البسيطة مغطاة جميعها بأعشاب مجففة. ومن الباب، الذى انبعثت منه روائح التوابل والأطياب، خرجت امرأة سمراء نحيفة تتفرسهما، بينما أطل من خلفها من بين الظلال، خيال شاب ممتقع يسعل وينفث دمًا. أخذ الاثنان يتدافعان ويتمازحان ولمعت أعينهما بوميض من المرح، ثم أدارا مقبض ورشة ماهودو.

كانت الورشة كبيرة للغاية وتوسطتها كتلة من الصلصال، على هيئة امرأة من كاهنات الآلهة القديمة. كان تمثالا مهيبًا، نصف مائل على صخرة، حتى إن الألواح التى تحمله قد انثنت من ثقل هذه الكتلة التى لازالت مبهمة المعالم، فلا يظهر منها سوى نهدين عملاقين وفخذين أشبه بالأبراج. كانت المياه تسيل على الأرض وتناثرت بعض الدلاء الملطخة بالطين، بينما تكدست أكوام من الجبس فى الأركان. كانت الأرفف الموجودة فى متجر الفاكهة القديم لا تزال مثبتة وقد امتلأت الآن بقوالب وتحف كساها التراب وكأنه طبقة رقيقة من الرماد. وانبعثت من الأرض رطوبة كرطوبة المغسلة ورائحة خفيفة هى رائحة الصلصال الرطب. وظهر مدى تدهور حالة الورشة وقذارتها بوضوح حينما سقطت عليها الأضواء الباهتة المنعكسة من على زجاج الواجهة الملطخ.

صاح ماهودو، الجالس أمام تمثاله المهيب يدخن غليونه: "ماذا؟ أأنتما هنا بالفعل؟"

كان ماهودو ضئيل الحجم، نحيفًا، بارز العظام وقد غزت التجاعيد وجهه وهو لم يتعد السابعة والعشرين. تدلى شعره أسود كثيفا على جبهته

المنخفضة، ووسط هذا القناع الأصفر ذى الدمامة الشرسة، بـــرزت عينـــاه الصافيتان كالأطفال، اشتعلت فيهما شقاوة وصبيانية ساحرة. كان ابنًا لنحات للأحجار الكريمة فى بلاسان، وأتى إلى باريس فى بعثة بصفته الفـــائز فـــى مسابقة متحف بلاسان، وخصصت له منحة قدرها ثمانمائة فرنك على مدار أربعة أعوام. ولكنه شعر بالغربة والضعف، وترك كلية الفنون وأنفق نقـــود المنحة فى لا شىء، حتى إنه كان يضطر، بعد انقضاء الأعوام الأربعة، إلى رهن متعلقاته عند تاجر للتماثيل الدينية، فكان يمضى عشر ســـاعات يوميـــا ينحت تماثيل للقديس جوزيف أو للقديس روك أو للمجدلية وجميـــع قديـــسى التقويم الدينى[1]،... ولكن منذ حوالى ستة أشهر التهبت طموحاته، خاصـــة بعد أن التقى بأصدقاء البروفانس القدماء، وهم جميعا من الشباب الجـــرىء كان قد تعرف عليهم فى مدرسة البنين الداخلية، وقد خلبتهم جميعا الأفكـــار الثورية، وشيئا فشيئا ازداد طموحه من جراء كثرة التـــردد علـــى الفنـــانين الشغوفين بالفن، والذين أشعلوا عقله باندفاع وحدة نظرياتهم.

ثم صاح كلود: "يا للعجب! يا لها من قطعة فنية!"

ابتهج ماهودو وسحب نفسًا طويلاً من غليونه، وأطلـــق ســـحابة مـــن الدخان، وقال: "أليس كذلك؟ سأكسوها باللحم، سأجعلها جسدًا حقيقيًا ، وليس بالدهن الذائب كما يفعل الجميع!"

ثم سأله صاندوز: "هل هى امرأة تستحم؟"

---

(١) التقويم الدينى: هناك تقويم دينى للسنة الميلادية يعطى لكل يوم من أيام السنة اسما لأحد القديسين. (المراجع)

فقال ماهودو: "لا! إنها كاهنة لأحد الآلهة القديمة، سأضيف لها بعد ذلك بعض عناقيد العنب، أتفهمنى؟"

عندها انفجر كلود بعنف وصاح: "كاهنة للآلهة القديمة! أتسخر منا؟ هل يوجد شىء كهذا الآن؟ ... اللعنة! إنها امرأة تجنى العنب، جانية عنب من العصر الحديث! مادامت هناك امرأة عارية، فيمكن أن تكون مزارعة، يجب أن نشعر بالعمل لنعطيه الحياة!"

ظل ماهودو صامتا يستمع لكلود وهو يرتجف. كان يخشاه، ويخضع لآرائه حول القوة والحقيقة، فأضاف: "نعم، نعم، هذا ما كنت أريد أن أقوله... إنها جانية عنب، سترى كيف ستدب الحياة فى هذه المرأة!"

فى تلك الأثناء، كان صاندوز يحوم حول هذه الكتلة الهائلة من الصلصال، فهتف فى عجب: "آه، انظروا إلى شاين الماكر! إنه هنا." خلف تلك الكتلة الطينية، جلس الشاب شاين الضخم يرسم فى صمت الموقد الخامد الصدئ فى لوحة صغيرة أمامه.

كانت تصرفاته تنم عن تربيته كمزارع. كان له عنق ضخم، صلب، لوحته الشمس، أما جبهته فكانت منبعجة تنطق بعناده، على عكس أنفه الصغير الذى كاد أن يختفى وسط وجنتيه الحمراوين ولحيته القاسية التى غطت فكيه القويين. كان من سكان سان فيرمين، وهى قرية تقع على بعد فرسخين من بلاسان ، وقد مكث هناك يرعى القطعان حتى واتاه الحظ وأبدى أحد البرجوازيين فى الجوار حماسًا شديدًا تجاه رءوس العصى التى ينحتها

بسكينه. ومن هنا بدأت تعاسته! أصبح هذا الرجل الطيب الهاوى للفنون راعيا لعبقريته، وتصادف أن يكون عضوا فى لجنة متحف بلاسان. وكان هو الدافع وراء حماس شاين الذى أخذ يتعلل بالأوهام ويحلق فى الآمال، حتى أخفق فى كل شيء على التوالى، الدراسة والمسابقة ومنحة المدينة...

ارتحل إلى باريس بعد أن طالب والده- وهو مزارع بائس- بنصيبه من الميراث مقدما، والمقدر بألف فرنك، انتوى أن يعيش بها فى انتظار انتصاره الموعود. لم تكفه النقود سوى عام ونصف، وعندما لم يتبق معه سوى عشرين فرنكا، جاء إلى صديقه ماهودو لينتقل للإقامة معه، لم يكن لديهما سوى فراش واحد فى خلفية المتجر المظلمة، وكانا يتقاسمان الخبز الذى يشتريانه كل خمسة عشر يوما حتى ييبس لئلا يأكلوا منه أكثر من اللازم.

وأردف صاندوز: "الموقد الذى ترسمه جميل بالفعل يا شاين!"

لم ينبس شاين بكلمة، وإنما ظهرت بين لحيته ابتسامة انتصار صامتة، أنارت وجهه. قادته نصائح راعيه الحمقاء إلى الرسم، على الرغم من ميله الحقيقى إلى النحت على الخشب، فكان يرسم كالبنائين، مفسدا الألوان ودرجاتها. كانت لديه القدرة على تشويه أكثر الألوان وضوحا وانطلاقا وإشعاعا. كانت موهبته تكمن فى دقته، تلك الدقة الساذجة المتأصلة فى الإنسان البدائى، هذا الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة الذى يسعد به الجانب الطفولى فى شخصيته التى لا تزال مرتبطة بالأرض. رسم الموقد بميل مقصود، جعله يبدو جافا محدد الملامح، ذا ألوان قاتمة كألوان الأوانى.

اقترب منه كلود، وغمره شعور بالشفقة تجاه هذا الرسم، حتى إنه – وهو الجلاد الذى لا يشفق على الفن السيئ– حاول أن يمتدحه، فقال: "لا يمكن القول بأنك فنان عالى المستوى، ولكنك على الأقل ترسم ما تشعر به. وهو أمر غاية فى الأهمية!"

وفجأة انفتح باب المتجر ودخل منه شاب أشقر جميل الملامح ذو أنف وردى كبير وعينين زرقاوين قصيرى النظر، يصيح: "أتعلمون، بائعة الأعشاب التى تسكن بجوارنا، لقد أفلست... تلك القذرة!"

ضحك الجميع ماعدا ماهودو الذى أبدى نوعًا من الامتعاض، أما صاندوز فقال وهو يصافح القادم الجديد: "أهلا بجورى ملك الحمقى!"

فهم جورى أخيرا وقال: "ماذا؟ أيضاجعها ماهودو؟ ولكن ما الذى يزعجه فى هذا؟ إنها امرأة ولن تمتنع عنه أبدا."

فقال ماهودو: "أما أنت فقد مزقتك أظافر امرأتك! لقد انتزعت قطعة من وجنتيك هذه المرة!"

انفجر الجميع ضاحكين، واحمر جورى خجلا. كان وجهه بالفعل مليئًا بالخدوش وبه جرحان غائران. كان والده قاضيا فى بلاسان ، وقد أصابه اليأس من مغامرات ابنه العاطفية، والتى تجاوزت الحدود بعد أن فر مع مطربة تغنى فى أحد المقاهى، بحجة الذهاب إلى باريس لدراسة الأدب. وها قد انقضت ستة أشهر وهما يقيمان فى أحد الفنادق المشبوهة بالحى اللاتينى.

كانت هذه الفتاة توشك علي أن تسلخه حيا فى كل مرة يخونها مع أى امــرأة يراها ويتبعها فى الشوارع، ولهذا كان دائما ما تطارده الإصابات، نزيف فى الأنف، أو أذن مشقوقة، أو عين زرقاء ومتورمة.

انخرط الجميع فى الأحاديث ماعدا شاين الذى استمر يرسم فى إصرار كالثور الذى لا يكف عن العمل. وقف جورى منبهرًا أمام تمثال جانية العنب، فقد كان هو الآخر من عشاق النساء الممتلئات، حتى إنه كان يكتب فى بداياته قصائد غنائية يحتفى فيها ببائعة لحوم جافة جميلة ممتلئة الــصدر والأرداف كانت تشعل لياليه. وبعد وصوله إلى باريس ولقائه بتلــك المجموعــة مــن الأصدقاء، قرر أن يعمل ناقدًا فنيا، فكان يكتب مقالات نقدية مقابل عــشرين فرنكًا لحساب جريدة صغيرة من صحف الإثارة تدعى" لو تامبور". حتى إن أحد مقالاته، والذى تناول فيه إحدى لوحات كلود المعروضــة لــدى الــسيد مالجرا، أثار ضجة هائلة، حين نصبه رائدا لمدرسة فنية جديــدة، مدرســة الهواء الطلق. كان جورى فى الحقيقة ذا شخصية عملية لا يعبأ بشىء سوى متعته الخاصة مكتفيا بترديد النظريات التى يسمعها من أصدقائه.

ثم صاح: "أتعلم يا ماهودو؟ سأكتب عنك مقالا، أتحدث فيه عن امرأتك الجميلة... يا لهما من فخذين! آه لو كنت أستطيع الحصول على امرأة لــديها مثل هذه السيقان!" ثم قطع حديثه وانتقل إلى موضوع آخر دون مقدمات، فقال: "بالمناسبة، أتعلمون أن أبى البخيل قد سامحنى؟ نعم، فخشية أن أتسبب له فــى فضائح تشينه، قرر أن يعطينى مائة فرنك شهريا... سأسدد كل ديونى".

فتمتم صاندوز مبتسما: "كل ديونك... كم أنت عاقل!"

كان جورى قد ورث البخل عن والده، وكان دائما ما يسخر من هـذا الأمر. لم يكن ينفق النقود على النساء ويعيش حياة مضطربة، بلا نقـود أو ديون. كانت غريزة التمتع بكل شيء دون مقابل متأصلة فيه، مقترنة بنـوع من النفاق الدائم والكذب المعتاد الذى اكتسبه من محيط عائلته المتدين، حيث يصبح أهم شيء هو إخفاء العيوب والكذب فى كل شيء وفى كل وقت، حتى بدون داع. كان لديه دائما رد جاهز ومثالى، وكأنه يصدر عن شخص حكيم عاش ورأى الكثير: " آه! أنتم لا تدرون قيمة النقود!"

تعالت هذه المرة صيحات السخرية قائلة: "يا لـك مـن برجـوازى!" وانهال عليه السباب، حتى سمعوا طرقا على الزجاج، فتوقفوا عن الصياح. ثم قال ماهودو بتبرم: "إنها بالفعل مزعجة!"

وسأل جورى: "أهى بائعة الأعشاب؟ دعها تدخل، سيكون الأمر مسليًا."

فانفتح الباب دون إبطاء، وظهرت على المدخل السـيدة جـابوى، أو ماتيلد، كما يناديها المقربون. وهى فى الثلاثينات من عمرهـا، ذات وجـه مسطح، شديد النحافة، فاضت عيناها بشغف، يحجبه جفنان منهكان ضاربان إلى اللون البنفسجى.

يقال إن كهنة الكنيسة قاموا بتزويجها إلى السيد جابوى الابن، وهو أرمل ميسور ماديا، يدر عليه متجر الأعشاب الذى يمتلكه دخلا واسعا بفضل الزبـائن

الأتقياء المقيمين فى الحى. وفى بعض الأحيان، كانت تلوح ظلال الكهنة داخل هذا المتجر العجيب الذى تفوح منه رائحة البخور. كان الجميع يكن لهذا المكان احترام كبيرا فكانوا يدخلون لشراء القنانى وكأنهم على أعتاب أحد الأديرة أو الكنائس لتلقى مسحة المرضى، ويتكلمون بصوت منخفض كما لو كانوا يمارسون سر الاعتراف، أو يطرقون برءوسهم فى حياء وهم يدسون فى حقائبهم الأنابيب التى يشترونها. ولسوء الحظ، بدأت الشائعات تتداول حول فشل المتجر، ويرجح الأشخاص سديدو الرأى أنها لا تعدو كونها وشاية من بائع الخمور صاحب المتجر المقابل لهم، والذى أرجع تدهور العمل فى متجر الأعشاب إلى زواج السيد جابوى من ماتيلد، فذبلت الأعشاب وتساقطت كالتراب وفرغت الأوعية، حتى زوجها لم ينج من تأثيرها؛ فكان يسعل حتى يكاد يلفظ أنفاسه وتدهورت صحته، ونحل جسده. وهكذا، فعلى الرغم من تدين ماتيلد، فإن الزبائن الأتقياء هجروا متجرها، حيث عابوا عليها كثرة حديثها مع الشبان، بعد أن أفلس زوجها وانهارت صحته.

وقفت ماتيلد ساكنة تتفحص بسرعة أركان الحجرة، وقد فاحت منها رائحة قوية عبقت المكان، هى رائحة الأعشاب والنباتات الطبيعية التى صبغت بها رداءها وخضبت بها شعرها الدهنى الأملس. كانت خليطا من حلاوة نبات الخبازى الباهتة وحموضة السرو ومرارة الراوند ورائحة النعناع المتبل المشتعلة، كانت أنفاسها تفوح بهذا الخليط الدافئ الذى تلهب به أنوف الرجال.

تصنعت الدهشة، وصاحت: "يا إلهى! لم أكن أعلم أنك لست بمفردك! سأمر عليك لاحقا...".

فأجاب ماهودو حانقا: "نعم! فأنا ذاهب الآن! تعالى يوم الأحد لنستكمل جلسة النحت.".

ظل كلود مذهولا يتأمل ماتيلد وتمثال جانية العنب، ثم صرخ: "كيف هذا؟ هل قمت بنحت كل هذه القوة والعضلات نقلاً عن هذه المرأة؟ عجبا! أنت تظهرها أسمن بكثير!"

وانطلقت الضحكات مرة أخرى، بينما تلجلج ماهودو محاولا تقديم تفسيرات: "لا! لا! لم أكن أنقل جسدها ولا ساقيها وإنما رأسها ويديها وبعض التفاصيل الأخرى فقط ليس أكثر".

ضحكت ماتيلد مثلهم ونمت ضحكاتها عن جرأة شديدة. دخلت وأغلقت الباب، وبدأت تتصرف على طبيعتها كما لو كانت فى منزلها، سعيدة بوجودها فى وسط هذا الحشد من الرجال، فكانت تتعمد الاحتكاك بهم ومداعبتهم. كشفت ضحكتها عن فتحات سوداء فى فمها، نتيجة فقدها لبعض أسنانها، كانت بالفعل دميمة لدرجة مفزعة، بعد أن يبست بشرتها ولصقت بعظامها.

كان جورى- الذى تراه لأول مرة- أكثر من حظى بإعجابها بنضارته وشبابه وأنفه الوردى الكبير الواعد، فأخذت تلكزه بمرفقها، رغبة فى إثارته بأى شكل، وفى النهاية ذهبت فجأة لتجلس على ركبتى ماهودو بعفوية فتاة صغيرة. أما هو فقال وهو ينهض:

"لا اتركينى الآن، لدى أشياء كثيرة، أليس كذلك يا رفاق؟ ألا ينتظرنا الجميع هناك؟" ثم غمز لهم بعينيه، خاصة وأنه كان يتوق للخروج والتسكع.

فقال الجميع: "نعم! إنهم ينتظروننا." ثم ساعدوه فى تغطية تمثاله بقطع القماش القديمة الملقاة فى الدلو.

ولكن ماتيلد- التى بدا عليها الخضوع واليأس- لم تذهب، بل ظلت واقفة واكتفت بتغيير مكانها، بينما تدافعوا للخروج. توقف شاين عن الرسم وجلس يلتهمها بعينيه الكبيرتين من وراء لوحته، وقد سيطرت عليه هذه الشهوة الدفينة، ثم قطع صمته الطويل، وسأل ماهودو: "هل ستعود هذه الليلة؟"

أجاب الآخر: "نعم ولكن فى ساعة متأخرة. تناول عشاءك ثم اخلد إلى النوم! ... مع السلامة".

بقى شاين وماتيلد بمفردهما فى الورشة الرطبة تحوطهما أكوام الصلصال وبقع المياه وقد أشرق من حولهما هذا الضوء الساطع المتسلل من الزجاج المتسخ والذى أضاء بوضوح هذا المكان البائس المهمل.

فى الخارج، تقدم كلود وماهودو المسيرة، وتبعهما صاندوز وجورى الذى أخذ يصيح عندما مازحه صاندوز مؤكدا له أن ماتيلد قد وقعت فى حبه، وقال: "لا! لا! إنها بشعة، إنها فى عمر والداتنا! إنها كالكلبة العجوز، انظروا فمها الخالى من الأسنان!... إنها تهين فن العطارة وتركيب الأدوية بهذا الشكل".

ضحك صاندوز من رد فعله المبالغ فيه، واكتفى بهز كتفيه، ثم قال: "دعنا من هذا، أنت تعرف نساء لا يختلفن عنها كثيرا".

أخذ جورى يدافع عن نفسه: "أنا! متى حدث هذا؟ ... أؤكد لك إنها انقضت الآن على شاين، منتهزة فرصة خروجنا. يا لهما من قذرين! عليهما

أن يظلا معا!". كان ماهودو منغمسًا فى مناقشة جادة مع كلود، ولكنه قطـــع فجأة الحديث معه والتفت إليهما قائلا: "وهذا لا يعنينى!" ثـــم عـــاد يـــستكمل حديثه مع كلود. وبعد بضع خطوات، التفت إليهم ثانية، وقال: "كما أن شاين أحمق للغاية!" ثم توقفا عن الخوض فى هذا الموضوع.

ظل الأربعة أصدقاء يتجولون وكأنهم احتلوا طريق "ليزانفاليد" بأكمله. ازداد عددهم بالتدريج، فكان ينضم إليهم بعض الزملاء فى الطريق، حتـــى بدوا وكأنهم سرية متوجهة للقتال، كانت لديهم جرأة وقوة الشباب، ومـــضوا بعرض الرصيف. كانوا ما أن يسيروا معا حتى تخترق مـــسامعهم أبـــواق النصر وكأنهم أمسكوا باريس فى قبضة يدهم ووضعوها فى جيوبهم ببساطة، كانت فرحة الانتصار أكيدة! كانوا يسيرون مرتدين أحذيتهم القديمة ومعاطفهم البالية، مترفعين عن هذه التفاهات البائسة سعيا إلى بلوغ هـــدف واحـــد: أن يصبحوا هم السادة. كان الاحتقار والازدراء التام هما مصير كل شىء بعيد عن فنهم، الثروة، العالم وخصوصا السياسة. فما فائدة هذه الترهات الحقيرة التى لا تجتذب سوى البلهاء؟ كانوا يتحركون تحت تأثير هذا الظلم المجحف، والتجاهل المتعمد لضروريات الحياة الاجتماعية، هذا الحلم المجنون بتكريس حياتهم للفن. فى بعض الأحيان كانوا يبدون أغبياء لتصديق هـــذه الأوهـــام، ولكن كانت هذه العاطفة وهذا الشغف هما مصدر قوتهم وشجاعتهم.

عاد لكلود إيمانه فى قدرة وحرارة هذه الآمال المشتركة وانتعش مـــن جديد، بعد أن زالت آثار عذابه فى الصباح ولم يبق منهـــا ســـوى خمـــول

ضعيف ، فعاد يتحدث مع ماهودو وصاندوز عن لوحته وهــو يقــسم بأنــه سيمزقها غدا. كان جورى والذى يعانى بشدة من قصر النظر، يتأمل السيدات العجائز بازدراء غريب، ثم أخذ يردد أمامهم بعض النظريات عن الإبــداع الفنى، مثل ضرورة التعبير عما نشعر به للوهلة الأولى، فهو لم يكن يعيــد ترتيب أفكاره أبدًا.

استغرق الأربعة فى مناقشات طويلة، أثناء سيرهم فى الطريق الواسع، شبه الخالى إلا من صفوف الأشجار الجميلة الممتدة على مدى البصر، كــان هذا الشارع مكانًا مثاليًا لتدور فيه حواراتهم التــى ســرعان مــا اشــتعلت وازدادت حدتها بوصولهم عند الساحة الواسعة، حيث توقفوا عــن الــسير، وخرج كلود عن طوره ناعتا جورى بالأحمق: "أليس من الأفضل تدمير هذه اللوحة بدلا من إنتاج عمل دون المستوى؟ كم هى مقــززة ، تلــك التجــارة بالفنون!" كما انخرط صاندوز وماهودو هما الآخران فى حديث حتى علــت أصواتهما. وفجأة بدأت حشود البرجوازيين السائرين تتجمع حولهم فى قلــق ليروا ماذا يفعل هؤلاء الشبان الغاضبون الذين أوشكوا على الاقتتال. ولكــن خابت آمال هذا الجمع الذى انصرف غاضبا من هــذا المــزاح الــصاخب، فهؤلاء الذين كانوا على شفا الفتك ببعضهم بعضا، عادوا فجأة إلى هــدوئهم ومضوا كالأصدقاء يتأملون بإعجاب مربية ترتدى ملابس خفيفــة بــشرائط طويلة كرزية اللون، صائحين: "يا لجمالها! يا لروعة الألوان! هــذا شــىء يستحق الرسم!" ومضوا يغمزون بعيونهم وهم يتابعون المربية تحت الأشجار وكأنهم استيقظوا فجأة ليجدوا أنفسهم معها. سحرتهم الساحة الشاسعة بهدوئها.

كانت السماء بأكملها مكشوفة ولم يكن يظهر فى الأفق سوى طيف مبنى ليزانفاليد البعيد، كان لديهم متسع من الوقت لفعل أى شيء. ثم وقفوا ليلتقطوا أنفاسهم، بعد أن كانوا دائمى الشكوى من ضيق المساحات فى باريس، التى لا يجدون بها هواء كافيا ليتنفسوه.

ثم سأل صاندوز جورى وماهودو: "هل لديكما مكان تذهبان إليه؟"

أجابا: "لا! سنبقى معكما. إلى أين تذهبان؟"

غمغم كلود وقد شردت عيناه: "لا أعلم ... لنذهب من هنا."

وتوجهوا ناحية رصيف أورساى حتى وصلوا إلى ميدان كونكورد وأمام مبنى المجلس التشريعى، توقف كلود وصاح فى غضب: "يا له من مبنى قبيح!"

فقال جورى: "أتعلمون أن جول فافر[1] ألقى خطابًا منذ بضعة أيام أفحم به روويه[2]." ولكنه لم يكمل حديثه بعد أن منعه أصدقاؤه، واشتعل الشجار من جديد، فمن هو فافر؟ ومن هو روويه سوى أحمقين، سيكون مصيرهما النسيان؟ ولن يتذكرهما أحد بعد عشر سنوات من موتهما!

استمروا فى عبور الجسر وهم يهزون أكتافهم فى شفقة، وبوصولهم عند ميدان الكونكورد كان الصمت هو سيد الموقف. كسر كلود السكون متأملا الميدان: "أما هذا، فهو أبعد ما يكون عن الحماقة!"

---

(١) Jules Favres (1809-1880) : محام وسياسى فرنسى شهير فى عصر الإمبراطورية الثانية.

(٢) Rouher, (1814-1884) : رجل قضاء، وسياسى فرنسى فى عصر الإمبراطورية الثانية.

دقت الساعة الرابعة، وشارف هذا اليوم الجميل على الانتهاء، وقاربت الشمس على المغيب. وبدأت ظلال المنازل البعيدة المصطفة ذات اليمين وذات اليسار، سواء ناحية كنيسة لامادلين أو ناحية المجلس التشريعى، تتراقص بوضوح فى الأفق متقاطعة تحت السماء، وتجلت حدائق قصر التويلورى المتدرجة، الحافلة بأشجار الكستناء ذات القمم المستديرة، وامتد على مدى البصر ممر الشانزيليزيه تحفه من الجانبين أسوار من الأشجار الخضراء، وفى نهايته قوس النصر الذى يؤدى إلى طريق طويل وكأنه لا ينتهى. كانت الجموع تتدفق كالنهر على جانبى الطريق، وعلا ضجيج العربات وتصاعدت موجات الأتربة أثناء مرورها تعكس لوحاتها ومصابيحها أضواء ساطعة. احتشد الناس فى الميدان الواسع ذى الأرصفة العريضة والطرق الشاسعة، التى تخترقها السيارات من كل الاتجاهات، بينما تلألأت نافورتان أضفتا جوًا من النضارة والانتعاش خفف من حدة وعنف الحركة.

فارتجف كلود وصاح: "باريس... إنها ملك لنا! ... لا ينقصنا سوى اقتناصها".

اضطرمت فيهم شعلة الحماس، ولمعت أعينهم ببريق الرغبة فى المجد، الذى يحلق حولهم وهم واقفون فى هذا المكان المرتفع المشرف على المدينة بأسرها. كانت باريس أمامهم، وهدفهم هو اقتحامها.

وقال صاندوز بإصرار: "سنغزوها، ستكون لنا!"

وأقسم جورى وماهودو على ذلك أيضًا. ثم عادوا إلى السير واستمروا فى التجوال، حتى وجدوا أنفسهم فى شارع ترونشيه المؤدى إلى ميدان

الهافر، وسأل صاندوز: "أنحن ذاهبون إلى بودوكين؟" تعجب الآخرون، ثم قالوا: "ولما لا! إلى بودوكين إذن!" ثم سألهم كلود: "فى أى يوم نحن؟ الخميس أليس كذلك؟ إذن سنجد فاجرول وجانيير هناك أيضًا..."

عبروا شارع أمستردام. كانوا قد قطعوا باريس كلها سيرا على الأقدام فى جولة من جولاتهم الطويلة المفضلة، كانوا يتخذون طرقًا أخرى فى بعض الأحيان، فيسيرون بمحاذاة الكورنيش أو يعرجون نحو جزء من القلاع بغابة سان جاك وصولا إلى مولينو، أو يصعدون إلى منطقة لوبير لاشيز، ثم يهبطون إلى الطريق الدائرية المحيطة بالمدينة. كانوا يتجولون فى الشوارع والميادين والتقاطعات، ويقضون أياما كاملة فى السير حتى تخور قواهم وكأنهم يقتحمون ويغزون منطقة تلو الأخرى، يقذفون واجهات المنازل بنظرياتهم الرنانة، كأنهم يمتلكون الأرصفة التى داستها أقدامهم كما لو كانت أرض المعركة، التى تتصاعد منها رائحة النصر لتسكرهم حتى الثمالة وتنسيهم رتابة الحياة.

كان مقهى بودوكين يقع فى شارع باتينيول على ناصية شارع دارسيه، وقد وقع عليه اختيار الأصدقاء ليكون مكان تجمعهم، دون سبب واضح، خاصة وأن جانيير هو الوحيد الذى يقطن فى هذا الحى. كانوا يجتمعون مساء كل أحد، كما اعتاد أن يذهب إليه هؤلاء الذين لم يكن لديهم عمل مساء يوم الخميس. كانت جميع الطاولات الموجودة فى الخارج تحت المظلة مشغولة، حيث يجلس الجميع للاستمتاع بالشمس الدافئة فى صفوف مزدوجة تملأ الرصيف. كان الأصدقاء ينفرون من الازدحام والتواجد وسط كل هذا الجمع من الناس، فشقوا طريقهم بصعوبة حتى دخلوا الصالة الهادئة الرطبة.

صاح كلود: "ها هو فاجرول جالس بمفرده!" توجهوا إلى طاولتهم المعتادة ليصافحوا فاجرول. كان شابا نحيفا شاحبا، ذا وجه أشبه بوجه فتاة، وسطه عينان رماديتان لامعتان تنطقان بسخرية مشوبة بقسوة.

جلس الجميع وطلبوا أكواب الجعة. وقال كلود: "اليوم ذهبت إلى والدك لأبحث عنك! ما أشد الترحاب الذى استقبلنى به!"

فضرب فاجرول على فخذيه بأسلوب اللصوص والسوقة وقال: "يا لهذا الرجل العجوز! إنه يزعجنى بالفعل ... لقد هربت منه هذا الصباح بعد وصلة من التوبيخ . إنه يريدنى أن أرسم له بالزنك على التفاهات التى يصنعها؟ ألا يكفينى هذا الكم من الزنك فى الكلية!"

كانت طريقة سخريته من معلميه تبهجهم، حتى أصبح معشوقهم الذى يسليهم بطباعه الصبيانية ونفاقه ونميمته. كانت ابتسامته المقلقة تتنقل بين جميع أصدقائه، بينما ترسم أصابعه المرنة الماهرة بالفطرة تكوينات معقدة بقطرات الجعة المتناثرة على الطاولة. كان الفن بالنسبة له أمرا سهلا وسلسا، بفضل يديه الماهرتين اللتين تتقنان كل حركة.

وعندها سأله ماهودو: "وجانيير، ألم تره؟"

فرد: "لا! أنا هنا منذ ساعة ولم أر أحدًا".

بينما كان جورى يلكز صاندوز بمرفقه فى صمت، ليريه فتاة تجلس مع رجل علي طاولة فى آخر الصالة، حيث لم يتبق سوى ضابطان منهمكان

فى لعب الورق. كانت الفتاة أقرب إلى الطفلة. كانت من عـاهرات بـاريس اللاتى يظهر عليهن وهن فى الثامنة عشرة من عمرهن ملامح النضوج الفج. تهدل شعرها على جانبى وجهها وتطايرت شعيراتها الـشقراء علـى أنفهـا الرقيق وفمها الكبير الضاحك الذى يتوج وجهها الوردى. انشغل الرجل فـى احتساء كأس من الخمر المصنوعة في جزيرة ماديرا، أثناء تصفحها لجريدة مصورة، كانت ترسل لهم باستمرار نظرات مرحة من وراء الجريدة.

فصاح جورى وقد تـوهج حماسًـا: "إنهـا لطيفـة. ألـيس كـذلك؟ إلى من تنظر يا ترى؟ إنها ترمقنى أنا بلا شك!"

فقاطعه فاجرول بشدة: " لا، هى لى أنا! ... إذا كنت تظن أننى هنا منذ ساعة لأنتظركم، فأنت مخطئ!"

فضحك الجميع، وبدأ يروى لهم بصوت خفيض قـصة إيرمـا بيكـو العجيبة. كان والدها يمتلك متجرا للبقالة فى شارع مونتورجوى، وكانت فتاة متعلمة، درست العهد القديم والحساب والإملاء فى المدرسة المجاورة حتـى سن السادسة عشرة. كانت تؤدى فروضها المدرسية بين أكيـاس العـدس، وأتمت دراستها بسهولة على الرغم من حياتها فى الـشارع وسـط الزحـام والتدافع، واستقت معلوماتها عن الحياة أثناء عملها من نميمـة الطاهيـات، فكانت تنصت وهى تزن الجبن إلى أحاديثهن التى لا تنقطع، فاضحين مفاسد الحى بأكمله. توفيت والدتها، وانشغل والدها بمضاجعة الخادمات، بدلا مـن إنفاق النقود فى الخارج، ولكنه سرعان ما انغمس في هذه المتع وتـدهورت

تجارته، فيبست الخضراوات وفرغت أوانى التخزين وأدراج الحلوى. فى هذه الأثناء كانت إيرما لا تزال تذهب إلى المدرسة، حتى اعتدى عليها صبى فوق صندوق من التين وهى تغلق المتجر، وبعد ستة أشهر، أفلس المتجر تماما ومات والدها نتيجة نزيف فى المخ، فانتقلت للإقامة عند إحدى قريباتها الفقراء التى كانت تضربها فكانت تهرب مع شاب يسكن أمامها ثم تعود لثلاث مرات فعاقبتها قريبتها بشدة، حتى جاء يوم، فرت فيه نهائيا لتنطلق فى حانات مونمارتر وباتينيول.

غمغم كلود فى ازدراء: "إنها عاهرة!"

نهض الرجل الجالس مقابلها فجأة، فأخذت تراقبه حتى تأكدت من خروجه، وقامت مسرعة كتلميذة هاربة وجلست على ركبتى فاجرول، ثم قالت: "أترى؟ إنه مزعج للغاية... هيا قبلنى بسرعة قبل أن يعود." وأطبقت على شفتيه وقبلتهما، وأخذت بعدها رشفة من كوبه، ثم أرادت أن تعطى الآخرين فرصتهم، مثيرة إياهم بضحكاتها المغرية. كانت شديدة الولع بالفنانين، وتأسف لكونهم فقراء عاجزين عن اقتناء النساء والإنفاق عليهن.

كان جورى- الذى سلط عليها عينيه الملتهبتين- أكثر من حظى باهتمامها، ولاحظت هى مدى استثارته، فانتزعت سيجارته من فمه ووضعتها فى فمها، دون أن تتوقف عن الثرثرة الخليعة: "أنتم جميعا رسامون. أليس كذلك؟ يا له من أمر مسلٍ!... ما بالكم عابسين هكذا؟ سآتى إذن لأدغدغكم! سأريكم أنتم الثلاثة!" تقصد صاندوز وكلود وماهودو الذين جلسوا فى ذهول وقد اكتسبت وجوههم بملامح جادة.

كانت الفتاة ترهف السمع، وما أن شعرت بعودة الرجل، حتى التفتت إلى فاجرول قائلة: "إذا أردت تعال وقابلنى مساء الغد فى حانة بريدا." ثم أعادت السيجارة الرطبة إلى فم جورى، وجرت مسرعة ملوحة بيديها كالمهرجين. وحينما عاد الرجل بوجهه الشاحب وملامحه الرصينة، وجدها ساكنة تتأمل نفس الصور فى الجريدة.

دار هذا المشهد العجيب بسرعة غريبة، أعجزت الضابطين، اللذين استغرقا فى لعب الورق، عن كتم ضحكاتهما.

احتلت إيرما جل تفكيرهم، فأعلن صاندوز أن اسم بيكو يصلح للرواية، بينما تسأل كلود إذا ما كانت تريد أن تجلس أمامه ليرسمها، أما ماهودو فقد رأى أن جسدها يصلح لتمثال يتهافت الكل على شرائه. وبعد قليل، مضت وهى ترسل لهم من وراء الرجل وابلاً من القبلات أشعلت جورى. أما فاجرول، فلم يعد يبادلها القبلات، فقد شغلته فكرة أسعدته، فقد شعر برابطة بينهما من نوع خاص، فهى مثله عاشت حياة الشارع وانحرافاتها.

دقت الساعة الخامسة، وطلبوا المزيد من الجعة. وبدأ توافد الزبائن المعتادين من سكان الحى، وازدحمت الطاولات المجاورة بالبرجوازيين الذين أخذوا يرمقونهم بنظرات احتقار مشوبة بنوع من القلق. كان الجميع هناك يعرفهم، فقد كانوا أشبه بالأسطورة فى هذا المقهى. وبدءوا يتجاذبون أطراف الحديث حول أشياء ليست ذات أهمية، مثل الطقس وصعوبة إيجاد مكان فى

حافلة الأوديون أو اكتشاف أحدهم لبائع جديد للخمر يقدم معه لحمًا جيدًا. ثم حاول أحدهم فتح مناقشة حول مجموعة اللوحات الرديئة التى وضعت فى متحف لوكسمبورج، وأجمعوا كلهم على أنها لا تساوى ثمن الإطارات المثبتة فيها، ثم انقطع الحديث. كانوا فقط يدخنون مكتفين بتبادل بعض الكلمات القليلة والضحكات الخبيثة.

ثم سأل كلود أخيرا: "أنحن هنا فى انتظار جانيير؟"

هاج الجميع باعتراض قائلين إن جانيير ممل للغاية، كما أنه سيأتى بمجرد أن يشم رائحة الحساء.

فقال صاندوز: "هيا إذن، فسنأكل اليوم شواءً، هيا لنصل فى الموعد!" طلبوا دفع الحساب ودفع كل واحد حسابه ومضوا.

أحدث خروجهم جلبة فى المقهى، حتى إن بعض الشباب، يرجح أنهم من الرسامين، أخذوا يتطلعون إلى كلود كما لو كان زعيمًا لمجموعة من البلطجية يهابه الجميع! كان هذا تأثير المقال الشهير الذى كتبه جورى، الذى جعل الجمهور يتعاطف معه ويخلق مدرسة الهواء الطلق، التى لا يزال يسخر منها أصدقاؤه، مازحين حول الشرف العظيم الذى ناله المقهى حينما اختاروه ليكون مهدًا لتلك الثورة الفنية.

واصل الخمسة، بعد انضمام فاجرول، رحلة العودة، مجتازين باريس مرة أخرى وهم يسيرون ببطء وثبات الفاتحين، كلما ازداد عددهم، استطاعوا

ملء الطريق والاستمتاع بالحرارة المتصاعدة من الأرض. ساروا فى شارع كليشى، ثم طريق أنتين وحتى شارع ريشوليو، مجتازين جسر الفنون الذى يعبر فوق نهر السين ويؤدى إلى متحف الفنون الذى انهالوا عليه بالسباب. ولما وصلوا إلى شارع السين، توقفوا ليتأملوا بإعجاب إعلانا ملوناً ساطع الإضاءة عن وصول السيرك المتجول. وبحلول المساء، تباطأ توافد الحشود، وخيمت الرتابة على المدينة التى تنتظر حلول الظلام، وكأنها امرأة متلهفة لرجل قوى يختطفها بين ذراعيه.

وعند وصولهم إلى منزل صاندوز فى شارع دينفير، دخلوا إلى المنزل، بينما توجه هو إلى حجرة والدته، حيث مكث عدة دقائق وخرج فى صمت وعلى وجهه تلك الابتسامة الهادئة الحانية التى دائما ما تعلو وجهه بعد زيارة والدته.

وسرعان ما غرقت الغرفة فى ضوضاء عارمة ما بين ضحكات ومناقشات وصيحات. ثم نهض صاندوز ليساعد مديرة المنزل التى أخذت توجه لهم عبارات لاذعة تؤنبهم فيها على التأخير، فلقد أتوا فى السابعة والنصف، بعد أن برد الشواء الذى أعدته. جلس الخمسة على الطاولة ليتناولوا حساء البصل اللذيذ، وعندها دخل ضيف جديد.

صاح الجميع فى صوت واحد: "إنه جانيير!"

مكث جانيير برهة أمام المدخل يتأمل الجميع بعينيه الخضراوين. كان شابًا ضئيل الحجم، يكتنفه شىء من الغموض، تعلو وجهه النضر ملامح

الدهشة وتغطيه لحية خفيفة شقراء. كان من ميلون، وهو ابن أحد كبار البرجوازيين، ورث عنه منزلين هناك. تعلم الفن بنفسه من طول بقائه في غابة فونتينبلو، حيث كان يرسم مناظر طبيعية بإتقان وإصرار متناهيين، وإن ظلت الموسيقى عشقه الأوحد. كان ولعه بها أشبه بالجنون مما سهل عليه الاندماج مع هذه المجموعة من الثائرين.

فسألهم بهدوء: "أبقى لى مكان هنا؟"

فصاح صاندوز: "بالطبع ، تفضل!" وأحضرت مدبرة المنزل طبقًا إضافيًا.

فقال كلود: "أنحضر طبقًا لدوبوش؟ فقد أكد لى أنه سيأتى الليلة."

ولكنهم سخروا جميعا من دوبوش كثير التردد على سيدات المجتمع. فروى جورى أنه رآه ذات يوم فى عربة ومعه سيدة عجوز وابنتها، وكان دوبوش يحمل مظلتها على ركبتيه.

ثم سأل فاجرول جانيير: "أين كنت حتى الآن؟"

أجاب الثانى وهو على وشك تذوق الحساء: "كنت فى شارع لانكرى حيث يعزفون موسيقى الحجرة... ما أروع أعمال شومان[1] التى عزفوها هناك! لن تتخيل مدى روعتها! إنها تخلق لديك شعورا لا يوصف، وكأن هناك

---

(١) Robert Schumann: مؤلف موسيقى ألمانى (١٨١٠-١٨٥٦). (المترجمة)

امرأة تداعب عنقك بأنفاسها، إن تأثيرها أفضل من القبلة! أقسم لك أنى كدت أموت من التأثر..." عندها اغرورقت عيناه وشحب وجهه من فرط السعادة.

فقال ماهودو: "أكمل طعامك الآن، واحك لنا فيما بعد."

جاءت السمكة الكبيرة تصحبها زجاجة الخل لتقوية نكهة الزبد الأسود عديم الطعم. افترس الجميع طعامهم، وسرعان ما اختفى الخبز، كانوا يأكلون على طبيعتهم دون تأنق. ثم مزجوا زجاجات النبيذ بالماء تجنبا للتبذير. وما أن ظهر الشواء حتى تعالت هتافات الفرح، وتولى صاندوز مهمة تقطيعه. وفى تلك الأثناء ، سمع طرق على الباب، وماجت الغرفة من شدة صيحات الاحتجاج والاستنكار: "لا! لا! لا تدخل أحدا ... إنه ذلك المهمل!"

وقف دوبوش يلهث من أثر الجرى مأخوذًا من حدة الصراخ، ثم أطل بوجهه الشاحب فى محاولة لتبرير تأخيره: "أقسم لكم أننى لست السبب فى التأخير، صدقونى إنها الحافلة... انتظرتها طويلا فى شارع الشانزليزية".

فصاح الجميع: "إنه يكذب! لن يأكل من الشواء! إلى الخارج".

ولكنه دخل مرتديا بنطالاً ومعطفًا أسودى اللون غاية فى الأناقة ورابطة عنق وحذاء أنيقًا. كان باختصار في كامل هيئته، حتى بدا بمظهره المتأنق كبرجوازى مدعو إلى تناول العشاء فى المدينة.

تعمد فاجرول ممازحته، فقال: "انظروا! لقد فاتته دعوة العشاء! ألا ترون أن سيدات المجتمع اللاتى يلقاهن أطلقوا سراحه اليوم فجاء ليأكل معنا هذا الفخذ لأنه لم يعرف إلى أين يذهب!"

احمر دوبوش خجلا، وقال متلعثما: "ما أسوأ أفكارك! أنت شرير بالفعل!... فقط دعنى وشأنى!"

ظل صاندوز وكلود يبتسمان فى صمت ، ثم دعاه الأول: "أحضر طبقا وكوبا وتعال واجلس بينى وبين كلود، سيدعوك حينها وشأنك".

ولكن استمر المزاح والسخرية حتى أثناء الأكل، واشترك معهم دوبوش نفسه كالطفل الصغير مستمتعا بالحساء والسمك الذى أحضرته مديرة المنزل.

كان يتصنع الجوع وانقض بنهم على طبقه حتى أنهاه، ثم روى قصة امرأة كانت قد رفضت زواجه من ابنتها لأنه مهندس معمارى!

كان العشاء صاخبا، والجميع يتكلمون فى وقت وأحد. لاقت التحلية ترحيبًا كبيرًا وهى قطعة من جبن البرى الطرى، فلم يتبق منها شىء، وأوشك الخبز أيضًا على النفاذ. أما النبيذ فقد نفذ وشرب الجميع المياه عوضا عنه وسط ضحكات عالية.

وبعد أن فرغوا من الطعام، توجهوا إلى غرفة النوم وقد توردت وجوههم وانتفخت بطونهم وغمرتهم غبطة وسعادة بسبب تلك الوجبة الدسمة.

ما أمتع تلك السهرات التى يقضونها عند صاندوز، فحتى فى أشد الأيام بؤسا يصر على الاحتفاظ بقطعة لحم ليتقاسمها مع أصدقائه. كان وجوده وسطهم يشعره بالسعادة بسبب الصداقة التى تربطهم، والأفكار المشتركة التى يؤمنون بها. كان فى مثل عمرهم، ولكنه كان يشعر تجاههم بنوع من الأبوة

الحانية، فما أشد فرحته وهم مجتمعان حوله، يدا فى يد، غارقين فى الآمال والأحلام حتى الثمالة.

كانت شقته عبارة عن غرفة واحدة ضيقة مخصصة للنوم ، ولذا اضطر بعضهم إلى الجلوس على الفراش. اعتادوا فى تلك الليالى الصيفية الحارة، أن يفتحوا النافذة، ولم يكن يظهر منها فى هذا الظلام الشديد سوى طيف برج كنيسة القديس جاك والشجرة الكبيرة التى تتوسط حديقة معهد الضم والبكم.

كانت تظهر الجعة فى تلك اللقاءات فقط فى أوقات اليسر والرخاء. أحضر كل منهم تبغه وسجائره وسرعان ما عبق الدخان الغرفة حتى استحالت الرؤية. كانوا يتحدثون دون أن يرى أحدهم الآخر، بينما خيم صمت كئيب على هذا الحى البعيد، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل.

كانت الساعة التاسعة عندما أتت مديرة المنزل قائلة: "ها قد أنهيت عملى، هل لى أن أنصرف؟"

أجاب صاندوز: "بالطبع! ... لقد تركت الماء على الموقد، أليس كذلك؟ سأعد الشاى بنفسى".

ثم نهض صاندوز وراء المرأة وغاب لأكثر من ربع ساعة. كان قد ذهب دون شك إلى غرفة والدته، حيث اعتاد أن يعد لها الفراش كل ليلة قبل أن تخلد إلى النوم.

وفى أثناء ذلك، ارتفعت أصواتهم، ومضى فاجرول يروى لهم بعض النوادر:

"أتدرون يا أعزائى! أن المعلمين فى الكلية يجرون تعديلات على العارضات أنفسهن... فذات يوم، اقترب منى مازيل قائلا:

"إن فخذى العارضة ليست متساويتين". فأجبت: "ولكن فخذيها ليست متساويتين بالفعل على الطبيعة!" كانت فلور بوشان، أنتم تعرفونها بالتأكيد، فما كان منه إلا أن قال: "إذا لم يكن فخذاها متساوتيين، فهى مخطئة إذن!"

ضحك الجميع وأكثرهم كلود، خاصة وأن فاجرول قد روى تلك القصة لينال إعجابه. كان معجبا به أشد الإعجاب، ومهتمًا بتلك اللوحات العنيفة التى تصور المناظر الطبيعية التى تضج بالحياة كما هى فى الحقيقة، على الرغم من أسلوبه فى الرسم الذى يقوم على مهارة وإتقان الحواة. ولكن هذا لم يمنعه أيضًا من السخرية من رسامى الهواء الطلق الذين يشوهون لوحاتهم كمن يرسم بمغرفة الطعام.

وحده دوبوش لم يضحك، بل شعر بأنه أهين، فقال بجرأة: "ولماذا تبقى إذن فى الكلية مادمت ترى أنهم يفسدون عقلك؟ اتركها ببساطة... أنا أعلم أنكم جميعا تخالفونى الرأى، لأنى أدافع عن الكلية. ولكننى أرى أنه مادمنا نريد أن نمارس مهنة، فيجب أن نتعلمها".

عندها تعالت صيحات الاستنكار الشرسة، واضطر كلود إلى استخدام كل قوته، ليظهر صوته فى وسط تلك الجلبة وقال:

"إنه محق، علينا أن نتعلم المهنة التى نمارسها، ولكن ليس علينا أن نتعلمها تحت سيطرة معلمين يملؤن عقولنا عنوة بآرائهم الخاصة...هذا المدعو مازيل ليستا سوى شخص أحمق! كيف يجرؤ! كيف يجرؤ أن يتهم فلور بوشان بأن فخذيها ليسا متساويين! إنهما غاية فى الروعة! أنتم تعرفونهما جيدا تلك الأفخاذ التى لفلور، تلك المنحلة الشرسة!"

تمدد على الفراش وعيناه معلقتان فى الهواء، واستأنف حديثه بصوت محموم: "الحياة! الحياة! إن السبيل الوحيد لنكون كالآلهة هو أن نشعر بالحياة، أن نحبها كما هى، أن نصورها فى كامل حقيقتها! أن نبحث فى داخلها عن الجمال الحقيقى، الخالد والمتغير، ألا نتصور بحماقة أننا نستطيع تجميلها أو تشريفها! أن نفهم أن القبح المزعوم ليس سوى ما يظهر من الطباع! أن نخلق بشرا ونمنحهم الحياة فى لوحاتنا!"

كان قد استرد إيمانه بعد تلك الجولة الباريسية، وعاد إليه شغفه بالجسد وبالحياة، أما الآخرون فأخذوا ينصتون له فى صمت.

بدا كمن انتابه مس من الجنون، ولكنه سرعان ما هدأ وقال: "يا إلهى! كل لديه أفكاره، ولكن من فى المعهد لا يعرفون سوى التصلب، إنهم متعصبون لآرائهم أكثر منا! ... ولجنة التحكيم فى المعرض ستكون منهم، أنا متيقن من أن هذا الأحمق مازيل سيرفض لوحتى".

وعندها انهال وابل من اللعنات، فلجنة التحكيم كانت سببًا دائمًا للثورة والغضب، فمضى كل واحد منهم يعطى تصوره عن الإصلاحات، ويقدم

حلولا جاهزة، بدءا من الاقتراع العام لاختيار أعضاء متفتحين للجنة التحكيم وحتى الحرية الكاملة، أو المعرض الحر المفتوح لكل العارضين.

وفى خضم تلك المناقشات، جذب جانيير ماهودو ناحية النافذة المفتوحة وقال بصوت منخفض وعينين تائهتين فى الظلام: "كل هذا لا يعنى شيئا، إنهم لا يرون فى اللوحة سوى مقاسها ونوع الطلاء. أما أنا فلا يعنينى سوى ما بداخلها! اللوحة بالنسبة لى هى منظر طبيعى شارد، ركن حزين من الشارع يظهر فيه ظل شجرة غير مرئية، أو تمر به امرأة غامضة، لا تظهر سوى من الجانب، ثم تختفى إلى الأبد..."

فى تلك اللحظة، صاح فاجرول: "قل لى يا جانيير ماذا سترسل إلى المعرض هذه السنة؟"

ولكنه لم يسمعه واستطرد حديثه وقد أسكرته النشوة: "فى موسيقى شومان تجد كل شيء، إنه اللانهائى... وفاجنر[1] الذى هتفوا ضده يوم الأحد، فيا لروعته!"

أيقظته بغتة نداءات فاجرول، فقال مفزوعا: "ماذا؟ ماذا سأرسل للمعرض؟ ... ربما لوحة صغيرة لمنظر طبيعى ، لمنطقة فى السين. إنه أمر صعب هذا الاختيار، فيجب أن أرضى أنا أولا عن العمل".

ثم خيم عليه نوع من الخجل والقلق. كان يعشق الإتقان فى عمله، حتى إنه أمضى شهورا يرسم لوحة صغيرة فى حجم راحة اليد. فعلى غرار كبار

(١) فاجنر : Richard Wagner: موسيقى ومؤلف أوبرالى ألمانى (١٨١٣-١٨٨٣). (المترجمة)

رسامى المناظر الطبيعية فى فرنسا، هؤلاء العمالقة الذين غزوا الطبيعة، كان جانيير يبدى اهتماما كبيرا بصحة الألوان وبدقة ملاحظة النسب والأحجام، حتى أفقده اهتمامه بالنظريات، جانبا من تلقائيته وإبداعه ، وفى لجة ولعه بالأفكار الثورية، ظل عاجزا عن المخاطرة بوضع نغمة قوية تدوى وسط تلك التعاسة الباهتة.

فقال ماهودو: "أنا أشعر بسعادة غامرة عند التفكير فى أنى سوف أبهرهم جميعا بتمثال المرأة الذى رأيتموه".

رفع كلود كتفيه وقال: "سيقبلون تمثالك بالتأكيد، فالنحاتون فى المعهد أقل تشددا من الرسامين، كما أن تمثالك جميل بالفعل، لديك على الأقل شيء قد يحظى بالإعجاب ... فجانية العنب ستكون مليئة بالمفاتن!"

اكتسى وجه ماهودو بالجدية، فقد كان يقصد من تمثاله إظهار القوة، كان يجهل، بل يحتقر النعومة والرقة، اللتين تظهران فى أعماله، رغما عنه وعن أصابعه الضخمة كأصابع العمال، وتتفتحان كزهرة عنيدة تشق طريقها وسط الأرض الصلبة، حيث زرعتها الرياح.

كان فاجرول خبيثا، فلم يكن ليعرض لوحاته، خوفا من إغضاب أساتذته. كان يهاجم المعرض الذى أصبح متجرا رديئا تتعفن فيه اللوحات الجيدة إلى جانب الرسومات التافهة، بينما كان حلمه الحقيقى هو الحصول على جائزة روما للفنون، والتى كان يسخر منها ظاهريا مع باقى أصدقائه.

وقف جورى فى وسط الغرفة ممسكا بكوب الجعة، يرتشف منه ببطء حتى أنهاه، ثم قال: "إن لجنة التحكيم هذه تزعجنى بالفعل!... أتريدوننى أن

أدمرها تماما؟ ابتداء من العدد القادم، سأشرع فـــى نـــسفها! ستــساعدوننى بالطبع، أليس كذلك؟ وسنطرحها أرضا...سيكون ذلك مضحكا للغاية".

أظهر كلود نوعا من الاهتمام، تبعته عاصفة من الحمـــاس الجمـــاعى: "نعم! يجب القيام بحملة ضدها!" غلبتهم جميعا النشوة لهذا الإحساس بالتعـــاون والاتحاد فى سبيل الثورة. لم يكن أحد ليبخل فى تلك اللحظة، بنـــصيبه مـــن المجد، كانوا جميعهم كلاً لا يتجزأ، على الرغم من اختلافاتهم الخفية.والتنافس بينهم الذى سيصطدمون به فى يوم ما. ألم يكن نجاح أحـــدهم هـــو نجـــاحهم جميعا؟ أخذتهم فورة الشباب، كانوا يزخرون بالتفانى والإخلاص فى العمـــل ، عادوا يتدلهون فى هذا الحلم الخالد بغزو العالم. كل منهم كان يبذل قـــصارى جهده، يشجع أحدهما الآخر ، ليرتفعوا سويا إلى نفس المقـــام. كـــان كلـــود، زعيمهم المختار، يعلن الانتصار ويهديهم الأكاليل، حتى فاجرول، على الرغم من سخريته ومزاحه، كان يؤمن بضرورة الاتحاد، بينمـــا اكتفـــى جـــورى، أكثرهم غلظة وعجزًا، بالانغماس فى صداقة غيـــر مفيـــدة وبترديـــد بعـــض العبارات المسروقة ليعد بها مقالاته. أما ماهودو، فكان يبالغ فى عنفه المقصود والمتشنج وكأنه سيعيد تشكيل الكون بقبضته، فى الوقت الذى يعمل فيه جانيير، مبتهجا، متحررا من قتامة لوحاته، على الارتقاء بالمشاعر حتى وإن تلاشـــت أمامها الأفكار؛ لم يكن دوبوش، باعتقاداته الرصينة، يقدم سوى كلمات حـــادة وعنيفة فى خضم الكثير من العقبات، مكث صاندوز مغتبطا وسط هـــذا كلـــه، سعيدا برؤيتهم متحدين مترابطين، ثم أفرغ زجاجة جعة وصاح:

"ها نحن قد قاربنا بلوغ مبتغانا، لا تدعوا مكانا لليأس... فلم يتبق لنـــا سوى هذا أن نسمع آراء بعضنا بعضا، وليلعن الله الحمقى!" أفزعه جــرس الباب بعد أن حل الصمت فجأة، فقال: "من هذا الذى جاء فى تلــك الــساعة المتأخرة؟ إنها الحادية عشرة!"

وذهب ليفتح، ثم صاح فرحًا فاتحًا الباب على مصراعيه وقــال: "مــا أرق اهتمامه بنا! إنه بونجراند أيها السادة قد أتى ليفاجئنا!"

تقدم الرسام الكبير، بعد تلك التحية الحميمة، مادا يده، فــانتفض الجميــع بحماس، سعداء بتحية تلك اليد الكبيرة الودودة. كان بونجراند رجلا ضخما فــى الخامسة والأربعين، وتتدلى شعره الرمادى الطويل على وجهه المعــذب. كــان حديث الانضمام إلى المعهد، ومثبتا زرا ورديا تابعا لضباط جوقة الشرف، فــى عروة سترته المصنوعة من وبر البكة،. كان يعشق الشباب، ويمــضى أفــضل أوقاته من حين لآخر هنا يدخن وسط هؤلاء المبتدئين مشتعلاً بحماستهم.

صاح صاندوز: "سأعد الشاى".

وعند عودته من المطبخ حاملا إبريق الشاى والأكواب، وجد بونجراند جالسا على أحد المقاعد فاتحا ساقيه يدخن غليونه القصير وســط الــضجيج الذى سيطر مرة أخرى، ومضى بونجراند نفسه يثرثر بصوت جهير. كــان جده مزارعا، بينما كان والده برجوازيا، بعد أن هذبت والدته الفنانة الرقيقــة هذا الجانب القروى فيه. كان ثريا، فلم يكن فى حاجة لبيع لوحاته، فاستطاع أن يظل محتفظا بذوقه وآرائه البوهيمية. فأخذ يهاجم لجنة التحكيم قائلا:

"تلك اللجنة! إننى أفضل الموت جوعا عن الانضمام إليها! أيظنوننى جلادًا حتى أطرد الرسامين الصغار الذين يعانون فى سبيل كسب معيشتهم؟"

فقال كلود: "ولكنك قد تؤدى لنا خدمات جليلة إذا دافعت عن لوحاتنا".

فرد بونجراند: "أنا! دعكم منى! فأنا سأشوه سمعتكم... أنا لا شىء. أنا لا أحسب."

احتج الجميع وقال فاجرول بصوت حاد: "كيف هذا؟ فماذا سيكون مصيرنا إذا كان صاحب لوحة "زفاف فى القرية" لا يحسب؟"

هب بونجراند غاضبا وقد صعد الدم إلى وجنتيه وقال: "دعونى وشأنى! ودعكم من "زفاف فى القرية"! فقد بدأت تزعجنى بالفعل، أنا أحذركم جميعا... فقد أصبحت كابوسا يطاردنى منذ أن وضعت فى متحف لوكسمبورج".

كانت لوحة "زفاف فى القرية" هى أشهر أعماله وأجملها، وتصور زفافا يتم فى وسط حقول القمح، كان الفلاحون مرسومين بعناية ودقة وواقعية متناهية، وقد أضفى عليهم مظهرا ملحميا كأبطال هوميروس(١). أحدثت هذه اللوحة طفرة، وأدخلت صيغة جديدة إلى مجال الرسم والتصوير، على غرار دولاكروا وكوربيه. كانت اللوحة محملة بشحنة رومانتيكية فى إطار منطقى

---

(١) هوميروس: Homere : شاعر إغريقى قديم، مؤلف الإلياذة والأوديسة.

تغلبت فيه دقة الملاحظة ومحاولات بلوغ الكمال، دون أن تظهر الطبيعة بفجاجة كما هو الحال فى مدرسة الهواء الطلق، التى يدعى روادها تأثرهم بهذه اللوحة.

قال كلود: "ولكن ليس هناك أجمل من تصويرك الرائع لعازف الكمان وللعروس والفلاح العجوز".

فصاح ماهودو: "أنسيت أيضًا الفلاحة الكبيرة التى تنادى أحدهم بالإشارة!... لقد أردت بالفعل أن أصنع منها تمثالا".

وأضاف جانيير: "والهواء الذى يحرك القمح، والصبى والفتاة المتدافعين من بعيد!"

ظل بونجراند يسمعهم بشىء من التبرم وقد علت وجهه ابتسامة تنم عن المعاناة، ثم سأله فاجرول عن آخر لوحاته، فقال وهو يهز كتفيه: "يا إلهى! لا شىء... لا شىء سوى لوحات صغيرة. لن أعرض شيئا هذه المرة. أنا أبحث عن شىء جديد... ما أسعدكم أنتم الذين لا تزالون عند سفح الجبل، فى بداية طريقكم! فعندها تكونون شجعانا وأقوياء، قادرين على الصعود. ولكن بمجرد وصولكم للقمة، لا يعود بوسعكم شىء، وتبدأ المضايقات! فالصعود بالفعل شاق، عذاب حقيقى ومجهود لا ينتهى خوفا من السقوط السريع!... صدقونى! ستفضلون البقاء فى السفح حيث الحرية... اضحكوا الآن كما شئتم، فسترون يوما ما!".

ضحك الجميع بالفعل، ظانين أنها مزحة أو تناقض يوقعهم فيه هذا الرجل الشهير، ولكنهم التمسوا له العذر. ولكن أليست السعادة المطلقة هى أن يعتبرهم الناس من الرواد مثله تماما؟ قرر التزام الصمت وعقد ذراعيه على مسند المقعد وجلس ينصت إليهم مدخنا غليونه فى هدوء.

هب دوبوش لمساعدة صاندوز فى تقديم الشاى بينما استمر الحديث، فروى فاجرول نادرة من نوادر مالجرا المضحكة، حينما قرر تأجير قريبة زوجته للفنانين ليرسموها عارية. ثم تطرقوا إلى العارضات. كان ماهودو أشدهم انفعالا بسبب اختفاء صاحبات البطون الجميلة قائلا: "أصبح الآن شبه مستحيل أن تجد فتاة بجسد وبطن جميل".

ثم ارتفعت أصواتهم وهم يحيون جانيير على المعجب الذى قابله فى الحفل الموسيقى الذى أقيم فى القصر الملكى، وهو من الأثرياء المهووسين بالرسم، وكانت تسليته الوحيدة هى شراء اللوحات، عندها استغرق الجميع فى الضحك طالبين عنوانه. كانوا يسخرون من كل تجار اللوحات، فكم هو أمر محزن أن يفقد التاجر ثقته فى الرسام، حتى يسعى جاهدا لإيجاد وسيط فى سبيل تخفيض الثمن.

كانت مسألة النقود تثيرهم، فصاح كلود بازدراء: "إنهم ينهبوننا ولكن ماذا يهم؟ ما الذى يزعج فى هذا مادمنا نعمل ونبدع ولدينا ما يكفينا؟" ولاقى جورى هجوما ساخطا عندما أعلن عن أفكاره المتعلقة دائما بالربح والنقود، وصاح الجميع: "اخرج أيها الصحفى!" وأمطروه بالأسئلة الهجومية: "أتقبل أن

تبيع قلمك وآراءك؟ أتفضل أن تتوقف عن الكتابة على أن تناقض أفكارك؟"
دون أن يتيحوا له فرصة للإجابة. كانوا شبه محمومين، تأخذهم فورة جنون الشباب واحتقار العالم أجمع، لم يكن يعنيهم شيء سوى أعمالهم الفنية التى تترفع عن كل آفات وعيوب البشر وتتجلى واضحة كالشمس. ما أقوى تلك الرغبة! رغبتهم فى الانصهار فى هذا الجمر من الأفكار والأحلام المشتعلة بحماسهم وحميتهم.

بدرت عن بونجراند، الذى ظل ساكنا حتى هذه اللحظة، إيماءة تنم عن الحسرة إزاء هذه الثقة غير المحدودة وهذا الفرح الصاخب. كان قد نسى مئات اللوحات التى صنعت مجده وتاريخه ولم يعد يذكر سوى الألم والمعاناة التى سببتها له لوحة صغيرة تركها على المسند قبل نزوله. ثم نزع الغليون من فمه وقالوا قد ترقرقت دموع الشفقة فى عينيه: "يا للشباب! الشباب!"

كان صاندوز يضع المزيد من المياه الساخنة فى الإبريق، حينما دقت الساعة الثانية صباحا. غرق الحى بأكمله فى سكون تام تحت وطأة النعاس، ولم يعد يسمع سوى صوت قطة اجتاحها مس من الجنون. أما باقى الأصدقاء، فقد استمروا فى الهذيان، بعد أن أسكرتهم العبارات وانجرحت أصواتهم من الكلام والتهبت أعينهم من السهر.

وعندما قرروا الانصراف، أخذ صاندوز المصباح لينير لهم السلم، ثم قال لهم: "لا تحدثوا ضجيجا، فوالدتى نائمة." أخذت أصواتهم فى الخفوت وهم يهبطون حتى تلاشت وعاد الهدوء مرة أخرى إلى المنزل.

كانت الساعة الرابعة، واستأنف كلود وبونجراند حديثهما أثناء سيرهما فى الشوارع الخالية. لم يرد كلود أن يخلد للنوم، بل تاق بفارغ الصبر إلى شروق الشمس ليعود مرة أخرى إلى لوحته. كان على يقين من أنه سينجح فى جعلها تحفة فنية، بعد هذا اليوم الجميل مع الأصدقاء.

وتخيل نفسه عائدا مرة أخرى إلى لوحته، كمن يعود إلى معشوقته، بقلب يعتصره الحزن على هذا الفراق الذى دام يوما كاملا، وكأنه دهر من الزمان، لتحقيق حلمه المنشود فى جلسة رسم واحدة.

ومع ذلك كان بونجراند يجذبه من أزرار سترته ليتوقف، بعد بضع خطوات، تحت ضوء القناديل المرتجفة، ويقول له مكررا: "إن الرسم ليس سوى مهنة لعينة!" ولذا لم يجد مكر بونجراند، ولكنها كانت الحقيقة في تلك المهنة لسبر أغوارها، فعند البدء فى أى لوحة، كان يرهق نفسه حتى يضنيه التعب دون فائدة.

شارف الفجر على البزوغ، وبدأ المزارعون فى التوجه إلى عملهم، واستأنف كلود وبونجراند سيرهما وأحاديثهما الصاخبة، تغطيهما النجوم التى تحتضر فى الضوء.

الفصل الرابع

مرت ستة أسابيع، وفى صباح أحد الأيام، كان كلود يرسم يغمره ضوء الشمس الساطع الذى تسلل من زجاج نافذة المرسم. أفسدت الأمطار المستمرة جو أغسطس الجميل، ولكن بعد أن صفت السماء، استجمع كلود شجاعته واستأنف العمل. كان يمضى أيامٍ طويلة فى صمت، يرسم فى عناد وإصرار، دون إحراز أى تقدم يذكر فى لوحته.

وفجأة، سمع طرقا على الباب، ظن فى البداية أنها السيدة جوزيف، حارسة العقار، جاءت لتعطيه طعامه، ولكن ظل المفتاح فى الباب دون حركة، فصاح ببساطة: "ادخل!"

وانفتح الباب، وسمع أصواتا خفيفة، ثم ساد الصمت. استمر كلود يرسم، ولكن سرعان ما انتابه القلق إزاء هذا السكون المرتعش والأنفاس المختلجة. فالتفت وعقدت الدهشة لسانه حين رأى امرأة ترتدى ثوبا فاتح اللون تغطى جزءا من وجهها بغلالة بيضاء، تحمل باقة من الزهور. لم يعرف من هى تلك المرأة للوهلة الأولى.

وإذا به يقول: "أهذه أنت يا آنسة!... يا إلهى لقد كنت أفكر فيك!"

كانت هى كريستين التى شغلت ذكراها جل تفكيره فى أول الأمر. ولكن مع مضى الأيام– حيث انقضى شهران دون أن تتصل به– تحولت إلى ذكرى شاردة مفقودة لوجه ساحر ذهب إلى الأبد إلى غير رجعة.

قالت: "نعم يا سيدى، إنه أنا... فقد شعرت أنه ليس من اللائق ألا أعبر لك عن شكرى..."

اكتست بحمرة الخجل، وتلعثمت، عاجزة عن إيجاد الكلمات. أنهكها صعود الدرج، وتسارعت دقات قلبها. نازعتها الأفكار حول مدى لياقة هذه الزيارة التى استغرقت وقتا طويلا لتقتنع بأنه من الطبيعى القيام بها. كان أكثر ما يؤرقها أنها قد ابتاعت لهذا الشاب باقة من الزهور من على رصيف الميناء كوسيلة رقيقة للاعتراف بالجميل، وأزعجها الأمر بصورة رهيبة، فكيف ستعطيها له؟ وماذا سيظن هو أنها فاعلة؟ اعترتها كل هذه الهواجس الوجلة بمجرد أن انفتح الباب.

أما كلود، فى اضطرابه المحموم، فأخذ يبالغ فى رقته. وترك ملونه، وقلب المرسم رأسا على عقب ليخلى لها أحد المقاعد.

وقال: "تفضلى يا آنسة من فضلك!... يا لها من مفاجأة... كم أنت رقيقة بالفعل..."

جلست كريستين وبدأت السكينة تسرى فيها. بدا كلود غريبا بحركاته التائهة، وشعرت هى أيضًا بمدى خجله، فابتسمت وقدمت له الباقة بشجاعة قائلة: "تفضل! لكى تعرف أننى لست ناكرة للجميل".

ظل كلود مأخوذا وقد ألجمته الدهشة يتأملها حتى تأكد أنها لا تسخر منه، فشد على يديها بقوة حتى كاد يعتصرهما. وقام سريعا ليضع الزهور فى إناء مملوء بالماء، وقال: "يا لك من امرأة طيبة!... أتعلمين أننى لم أجامل من قبل أى سيدة! أقسم لك!"

ثم عاد وسألها وعيناه مثبتتان فى عينيها: "ألم تنسينى بالفعل؟"

فأجابت ضاحكة: "أنت ترى".

- "ولماذا انتظرت إذن كل هذا الوقت، فقد مضى أكثر من شهرين؟"

احمر وجهها مرة أخرى وشعرت بحرج شديد، ثم قالت: "أنت تعلم أننى مشغولة... السيدة فانزاد امرأة طيبة وتحسن معاملتى، ولكنها عاجزة عن الحركة ولا تخرج أبدا، وأنا أيضًا لم أكن أستطيع الخروج ما لم تطلب هى منى ذلك خوفا على صحتى، وها قد رأت أنه من الضرورى أن أخرج للسير فى الهواء".

لم تتطرق إلى الخجل الذى شعرت به حيال مغامرتها على رصيف بوربون، فمنذ أن وطأت قدماها منزل السيدة العجوز ولم تنفك ذكرى تلك الليلة التى أمضتها مع رجل غريب تقض مضجعها بسبب عذاب الضمير كإثم ارتكبته، ظنًا منها أنها بذلك تمحو ذكرى هذا الرجل من فكرها، وكأنه كابوس تلاشت ملامحه. وفجأة، فى وسط هذا الهدوء الذى عرفته حياتها الجديدة ودون أن تعرف السبَب، بزغت صورته مرة أخرى، وتملكتها كهاجس يعذبها دون توقف، وفكرت فى السبب الذى تريد نسيانه من أجله، فلم تجد! فهو لم يوقع بها أى ضرر، بل على العكس أسدى لها معروفا كبيرا. وسيطر عليها هاجس الذهاب لرؤيته، بعد طول مقاومة. كانت فى كل ليلة، تجلس وحيدة فى غرفتها تعذبها رغبة مجهولة فى رؤيته، ولم تهدأ حتى بررت هذه الرغبة الجامحة بضرورة الاعتراف بالجميل. كانت الوحدة

تخنقها فى هذا المنزل الذى لا يعرف سوى الملل، بينما تدفعها فورة وانطلاقة الشباب إلى البحث عن الصداقة!

واستأنفت حديثها: "هكذا انتهزت فرصة خروجى لآتى إلى هنا، خاصة وأن الجو كان جميلا للغاية هذا الصباح بعد تلك السيول الكئيبة!"

غمرت كلود نشوة وسعادة واعترف هو الآخر أمامها: "لم أكن أجرؤ حتى على التفكير فيك... بديت لى كجنية من إحدى القصص الخيالية تخرج من الأرض وتخترق الجدران دون أن يتوقعها أحد. وقلت، قد انتهى الأمر، فربما لم تكن حقيقة وربما لم تطأ قدماها هذا المرسم... ولكن ها أنت الآن! كم أنا سعيد!..."

احتفظت كريستين بابتسامتها، وإن اعتراها نوع من الحرج، فأدارت رأسها تتأمل ما حولها. وسرعان ما انقشعت ابتسامتها بمجرد أن وقعت عيناها على هذا الفن العنيف فرأت لوحات الجنوب المشتعلة التى تميزت بدقة التشريح لدرجة أزعجتها كما حدث فى المرة الأولى. وأحست برعب وفزع حقيقيين، فقالت وقد تغير صوتها: "يبدو أننى أزعجك، سأذهب الآن".

فصاح كلود مانعا إياها من النهوض من على المقعد: "لا! لا! لقد أضنانى العمل، أنا سعيد بالحديث معك ... يا لهذه اللوحة اللعينة! إنها تعذبنى بالفعل!".

رفعت كريستين عينيها تتأمل اللوحة الضخمة التى عجزت عن رؤيتها المرة الفائتة. كانت خلفية اللوحة، أى الغابة التى تتخللها أشعة الشمس

لا تزال عبارة عن خطوط عريضة، بينما كانت الفتاتان الصغيرتان الجالستان فى الشمس على وشك الاكتمال ساطعتين بألوانهما النضرة. وفى المقدمة، ظهر السيد فى حالة يرثى لها بعد أن أعيد رسمه أكثر من ثلاث مرات. كان كلود مهتمًا على الأخص بصورة المرأة التى تتوسط اللوحة، ولكنه لم يكن أعاد رسم الرأس مركزا على الجسد، فكان يأتى كل أسبوع بعارضة ثم يصرفها حتى يئس من إيجاد عارضة مناسبة، لدرجة أنه شرع فى استكمال عمله دون عارضة، وهو الذى كان دائم التفاخر بأنه لا يخترع شيئا وإنما يعمل من وحى الطبيعة.

عرفت كريستين وجهها على الفور، كانت هى الفتاة الجالسة على العشب وذراعها تحت رقبتها، كانت تلك هى ابتسامتها وأجفانها المغلقة. وشعرت بثورة تغلى بداخلها، فتلك الفتاة العارية تحمل وجهها، وكأن هذا هو جسدها، وهناك من نزع الثياب عنها بكل عنف ووحشية. كان أكثر ما آلمها هو عنف ونزق اللوحة، حتى أحست بجسدها يرقد جريحا تحت وطأة هذا العنف. لم تكن تفهم هذا النوع من الرسم، بل تعتبره مقيتًا، وشعرت تجاهه بكراهية غريبة، الكراهية الغريزية التى تكنها للعدو.

نهضت وقالت باقتضاب: "سأذهب الآن".

ظل كلود يتبعها بعينيه المذهولتين والحزن يعتصره بسبب هذا التغير المفاجئ وتساءل: "كيف تمضى بهذه السرعة؟".

نهض هو الآخر وتوجه إلى الباب، حيث وقفت ثم أمسك يدها وسألها أخيرا: "متى سأراك مرة أخرى؟".

شعرت بيدها الصغيرة تذوب في يده، وترددت برهة ثم قالت: "لا أدرى. فأنا مشغولة للغاية!".

ثم فرت ومضت، سريعا وهى تقول: "سآتى إذا استطعت، سآتى يوما ما... الوداع!".

تسمر كلود على مدخل الباب فى حيرة، لا يدرى سبب هذا التحفظ المفاجئ والانزعاج الخفى.

أغلق الباب، ومشى محركا يديه، عاجزا عن إدراك القول أو الفعل الذى صدر عنه وتسبب فى مضايقتها إلى هذا الحد. واعتراه الغضب وبدأ يلعن الفراغ، ثم هز كتفيه سعيا إلى طرد هذا الفكر السخيف من رأسه. يا للنساء! لا أحد يعلم فيما يفكرن! ثم نظر إلى باقة الورد الموضوعة فى الماء، فهدأه عبيرها الذى فاح فى الغرفة بأكملها. ثم استأنف عمله فى صمت.

مر شهران، قضى كلود أولهما فى حالة ترقب وانتظار، ومع أقل ضجة تحدثها حارسة العقار لتعطيه طعامه أو بريده، كان يدير رأسه بانفعال ليستطلع من القادم ثم تعلو وجهه علامات خيبة الأمل والإحباط. لم يكن يغادر المرسم إلا بعد الساعة الرابعة، وأصابه الذعر حينما أبلغته حارسة العقار ذات مساء بأن هناك فتاة مرت به نحو الساعة الخامسة، ولم يهدأ حتى عرف أن تلك الزائرة لم تكن سوى العارضة زويه بيديفير. وبمرور الأيام، استولت عليه حمى العمل، فحتى أصدقاؤه لم يستطيعوا الوقوف أمام اندفاعه وحميته. كان على استعداد أن يزيل العالم كله بحركة واحدة، لم يعد يفكر

سوى فى الرسم الذى فى سبيله قد يضحى بوالديه وبأصدقائه وبكل النساء! وبعد الحماس المشتعل هوى فجأة إلى يأس عميق وصرعه شعوره بالعجز والشك. كان أسبوعا من العذاب المستمر حتى ظن أنه قد أصيب بالبله.

ثم تعافى، وعاد إلى عمله المعتاد وإلى صراعه المنفرد ضد لوحته.

فى يوم غلفه الضباب قرب نهاية شهر أكتوبر، شعر كلود بكيانه يهتز، فترك ملونه وركض نحو الباب. لم يكن هناك طرق، ولكنه سمع خطوات مألوفة على الدرج، ففتح الباب وكانت هى أخيرًا!

ارتدت كريستين معطفا واسعا من الصوف الرمادى يغطيها كلها، وقبعة مخملية صغيرة غامقة اللون. وقد رصع الضباب غطاء وجهها المصنوع من الدانتيل الأسود بقطرات متلألئة.

بدت عليها السعادة، على الرغم من البرد، واعتذرت عن إرجائها للزيارة كل هذه المدة. وبابتسامة اعترفت أنها ترددت كثيرا قبل مجيئها حتى أوشكت على عدم القدوم. وبدأت تطلعه على أفكارها. لم يكن يفهم هذه الأفكار ولم يطلب أن يفهم، يكفيه أنها هنا الآن، وأنها لم تغضب منه فى المرة الأخيرة، وقررت أن تزوره من حين لآخر كالأصدقاء! لم يكن هناك شرح أو تفسير واحتفظ كل لنفسه بذكرى العذاب والصراع اللذين عانياهما فى الأيام الماضية. أمضى الاثنان ما يقرب من ساعة فى الثرثرة دون أسرار أو ضغائن، وكأن تفاهمًا عجيبًا نما بينهما دون أن يعلما. فلم تعد ترى أمامها

هذه اللوحات المعلقة على الحائط. وتوقفت عيناها للحظة على اللوحة الكبيرة وتأملت المرأة العارية النائمة على العشب تحت أشعة الشمس الذهبية، واكتشفت أنها لم تعد تحمل وجهها ولا جسدها، وتعجبت من مجرد التفكير في وجودها في هذه اللوحة المرعبة متداخلة الألوان. واختلطت مشاعر الصداقة لديها بنوع من الشفقة والحنان الودود على هذا الشاب الجاد الذى لم يعد يشبه ذاك الذى قابلته فيما مضى.

عند رحيلها، توقفت أمام المدخل مادة يدها إليه بحرارة قائلة: "سأعود".

فقال: "نعم، أبعد شهرين؟ أليس كذلك؟"

فردت: "لا! بل الأسبوع المقبل... أراك يوم الخميس".

جاءت كريستين يوم الخميس فى موعدها، ومنذ ذلك الحين لم تتوقف تلك الزيارة الأسبوعية. فى البداية، لم يكن لها موعد ثابت، ولكنها استقرت على يوم الاثنين، حيث سمحت لها السيدة فانزاد بالخروج للمشى والاستمتاع بالهواء الطلق فى غابة بولونيا، على أن تعود فى الساعة الحادية عشرة، فكانت تحث الخطى لتصل إليه وقد احمر وجهها من أثر الركض، خاصة وأن المسافة بين مقاطعة باسى وكورنيش بوربون لم تكن هينة.

حتى خلال أشهر الشتاء الأربعة، من أكتوبر إلى فبراير، كانت تأتى إليه كل أسبوع، تحت الأمطار الغزيرة وسط الضباب الذى غلف نهر السين، لا تدفئها سوى أشعة الشمس الشاحبة ضعيفة التأثير.

كانت تفاجئه فى بعض المرات فى غير موعدها، حينما تسنح لها فرصة الخروج بحجة مشاهدة أحد السباقات الباريسية. لم تكن تمضى عنده أكثر من دقيقتين، فكانت تصعد لتحييه، ثم تركض مسرعة على الدرج لئلا تتأخر.

استطاع كلود أن يتعرف عليها جيدا. كان بطبعه شديد الارتياب خاصة تجاه النساء، وظلت الشكوك تساوره بشأنها وبشأن ملابسات انتقالها من بلدتها الأصلية، وعما إذا كانت بسبب مغامرة عاطفية، ولكنه سرعان ما انهزم أمام هاتين العينين الرقيقتين والابتسامة الصافية، التى استشعر فيهما براءة طفولية.

كانت كريستين تشعر لديه بالراحة، ولم يعد يساورها أى حرج بعد أن توطدت صداقتهما، فما أن تدخل حتى تسترسل معه فى أحاديث لا تنتهى. روت له أحداث طفولتها فى كليرمونت أكثر من عشرين مرة، خاصة قصة إصابة والدها الضابط هالوجران بأزمته المرضية الأخيرة، وسقوطه من على مقعده، أثناء وجودها مع والدتها فى الكنيسة، متذكرة جيدًا عودتهما فى تلك الليلة الرهيبة، حين رأت والدها الضخم القوى ممددا على الفراش وقد برز فكه السفلى. لم تحتفظ ذاكرتها الطفولية سوى بتلك الصورة لوالدها. ورثت عنه فكيه، كما كانت تقول والدتها حين تعجز عن السيطرة عليها: "يا لك من عنيدة! لديك ذقن والدك المعقوف! أنت مثله تماما!".

كم كانت مسكينة والدتها، وكم أتعبتها كريستين بألعابها العنيفة وجنونها الصاخب! كانت كريستين تراها دائما من بعيد امرأة ضئيلة ورشيقة، جالسة أمام النافذة ترسم فى هدوء على المراوح. لم ترث كريستين عن والدتها شيئا

سوى عينيها الهادئتين، كما يقول الجميع مجاملة للأم: "إن لها نفس عينيــك!" فكانت والدتها تبتسم فى سعادة لأنها استطاعت أن تترك على الأقل أثرا رقيقا فى وجه ابنتها. اضطرت الأم- بعد وفاة الأب- للعمل حتى ساعات متأخرة حتى كلت عيناها، فمعاش الأب لا يزيد عن ستمائة فرنــك تكفيــان بالكــاد احتياجات ابنتها.

مرت الأعوام، وكريستين ترى والدتها تزداد شحوبا ونحافة مــع الوقــت حتى أصبحت ظلا باهتًا، واعتصرها تأنيب الضمير لكونها سبب خيبــة آمــال والدتها لحماقتها وعدم تفانيها فى العمل، ففى بداية كل أسبوع كانت تبــدأ معهــا أعمال جميلة وتقسم أن تنهيها لتساعدها فى جنى النقود، ولكن سرعان ما تخونها ساقاها وذراعها على الرغم مما تبذله من جهد، كانت دائما ما تمرض إذا انكبت على العمل فى هدوء. وفى صباح أحد الأيام، مرضت والدتها وماتــت وظلــت عيناها الواسعتان المغرورقتان بالدموع شاخصتين ناحية كريستين.

فى مرات أخرى، حينما كان كلود يسألها عن كليرمونت، كانت تنسى تلك الذكريات الحزينة، وتطلق العنان للذكريات المبهجة، فكانت تضحك بشدة من محل إقامتها فى شارع إكــلاش ومــن بقــائهم، هــى المولــودة فــى ستراسبورج، ووالدها الجسقونى ووالدتها الباريسية فى هذا المكــان الــذى يمقتونه جميعا. كان شارع إكلاش ضيقا ورطبا يؤدى إلى حديقة النباتــات. كان كقبو أو سرداب كئيب، خال من المتاجر والمارة، ليس به سوى واجهات المنازل المعتمة ذات النوافذ المغلقة. وحدها نوافذ منزلهم المطلة على الأفنية

الداخلية، هى التى تتمتع بالشمس الساطعة عند الظهيرة. فحتى صالة الطعام، كانت بها شرفة من الخشب زاخرة بنباتات عملاقة، حتى اختفت ملامحها تحت هذه الخضرة.

ظلت كريستين حبيسة هذا المكان مع والدها العاجز، ثم مع والدتها التى لم تعد تقدر على الخروج. لم تكن تعلم شيئاً عن المدينة أو ضواحيها حتى إنها كانت تبتسم مع كلود حينما لا تجيبه إلا برد واحد: "لا أعلم!" يسألها عن الجبال، فتجيب: "نعم، كانت هناك جبال، كنت أراها فى نهاية الشارع، أما على الصف المقابل، فامتدت حقول شاسعة. ولكننى لم أذهب قط إلى هناك، فالمسافة كانت طويلة". لم تكن تعرف شيئا فى المدينة سوى كنيسة "بوى دو دوم" بقبتها المستديرة الناتئة. كان فى استطاعتها أن تصل إلى هناك وهى مغمضة العينين، سائرة فى ميدان جود لتسلك شارع جرا؛ فتجد نفسها أمام الكنيسة. لم تكن تعرف أكثر من هذا، كانت المدينة تبدو لها وكأنها مجموعة من الشوارع والأزقة المتداخلة، وكأنها أكوام من الحمم السوداء المنحدرة. كانت الأمطار تهطل بغزارة وتجرى كالأنهار وسط دوى الصواعق. وظل هذا الصوت العاصف يطن فى أذنيها، لدرجة أنها كانت ترتجف عند ذكره! فما زالت تتذكر منظر مانع الصواعق المثبت فوق المتحف، وكيف كانت تراه من غرفتها دائم الاشتعال.

كانت قد خصصت لنفسها نافذة كبيرة فى غرفة الطعام، التى كانت تستخدم أيضًا للجلوس، عبارة عن تجويف كبير وضعت أمامه طاولة لتعمل

عليها. فقد علمتها والدتها القراءة على هذه الطاولة، وكانت كريستين تنام عليها وهى تستمع لمعلميها من فرط الإرهاق والملل. لكم تضحك الآن من جهلها، فكيف عساها أن تكون آنسة مثقفة وهى لا تعلم حتى أسماء ملوك فرنسا وتاريخ توليهم الحكم! أو أن تكون موسيقية وهى لا تعزف سوى أغنية "القوارب الصغيرة"! أو أن تكون رسامة فذة وهى عاجزة عن رسم الأشجار بسبب صعوبة رسم الأوراق!

ثم حدثته عن الخمسة عشر شهرا التى قضتها فى دير الزيارة المقدسة بعد وفاة والدتها، الدير الضخم ذى الحدائق رائعة الجمال الذى يقع خارج المدينة. كانت حكايات الراهبات لا تنضب ما بين مشاحنات وحماقات وسذاجات مذهلة. كانت تتعلم الدين المسيحى لكنها لم تكن سعيدة فى الدير، لشعورها بأن حياتها قد انتهت. وذات يوم، جاءتها رئيسة الدير، وكانت تحبها حبا جما، لتنقذها من هذه الحياة حينما عرضت عليها العمل عند السيدة فانزاد. واندهشت كريستين وتعجبت من بصيرة رئيسة الدير، كيف شعرت بما يدور فى داخلها؟ وبالفعل، منذ وصولها إلى باريس انقطعت كريستين عن ممارسة الطقوس الدينية وغلب عليها اللامبالاة.

أراد كلود أن يعرف كيف تعيش الآن. فما إن نضبت ذكريات كليرمونت، حتى سألها عن منزل السيدة فانزاد وماذا تفعل هناك؟ كانت تأتيه كل أسبوع بمزيد من التفاصيل عن منزل باسى الهادئ المنعزل. كانت الحياة هناك روتينية لا يخترقها سوى صوت دقات الساعات القديمة، وقد خلا

المنزل سوى من خادم وطاهية، يعملان هناك منذ أربعين عاما، ويسيران فى صمت وسط الحجرات الخاوية كالأشباح. لم يكن يزورها أحد سوى لواء فى الثمانين من عمره على فترات متباعدة، وقد بلغ به النحول والشحوب حتى بدا وكأنه عديم الوزن. كان المنزل يشبه بيت الأشباح، ولا تدخله الشمس إلا من خلال فتحات شيش النافذة المغلقة.

كانت السيدة فانزاد حبيسة غرفتها، لم تغادرها منذ أن أصيبت قدماها وفقدت بصرها. كانت تسليتها الوحيدة هى قراءة الكتب الدينية. كانت كريستين تضيق بالفعل من هذه القراءات التى لا تنتهى، وتمضى تتحسر على جهلها. فيا ليتها أتقنت مهنة ما! كم كانت ستكون سعيدة إذا كانت تعلم كيف تقص ثوبا، أو تصنع قبعة، أو تطرز الأقمشة بالورود! يا ليتها كانت تستطيع القول إنها تعرف كل شىء وتعلمت كل شىء! كانت تعانى حقا فى هذا المنزل المغلق المتصلب الذى تفوح منه رائحة الموت. كانت وهى صغيرة تصاب بالدوار إذا ما حاولت أن تعمل لترضى والدتها، وكأن روح التمرد التى تثور بداخلها تمنعها من العمل، فتصرخ وتقفز بعد أن أثملها حب الحياة.

كانت السيدة فانزاد تحنو عليها، فلم تكن تبقيها معها كثيرا وتدعها تذهب إلى غرفتها وتسمح لها بالنزهات، مما ضاعف من عذاب ضميرها إذا ما اضطرت للكذب لتبرر تأخيرها، مختلقة القصص حول غابة بولونيا أو حول الكنيسة التى لم تدخلها قط! ازداد حب السيدة فانزاد لها يوما فيوما، فكانت تغدق عليها بالهدايا، ثوب حريرى، أو ساعة صغيرة قديمة أو بعض

المفارش. كانت كريستين هى الأخرى تحبها بشدة، حتى بكت ذات مرة حينما نادتها بابنتى، وأقسمت على ألا تتركها أبدا. كانت تشعر بشفقة كبيرة وهى تراها ضعيفة ومسنة إلى هذه الدرجة.

وفى إحدى المرات قال لها كلود: "إنها ستكافئك بالتأكيد، قد تجعلك وريثتها".

اندهشت كريستين، وقالت: "أتعتقد؟ يقولون إن لديها ثلاثة ملايين... ولكننى لم أفكر فى هذا من قبل، ولا أريده. فما عسانى أن أكون؟".

التفت إليها كلود وقال بصوت واضح: "ستكونين ثرية!... ولكنها ستزوجك بالتأكيد قبل كل شىء". عندها انفجرت ضاحكة، وقالت: "نعم! لتزوجنى واحدا من أصدقائها المسنين! لعله هذا اللواء ذو اللحية البيضاء... يا لك من مضحك!".

كانت العلاقة تتوطد بينهما كالأصدقاء القدامى. كان كلود أيضًا حديث العهد بكل شىء، قليل الخبرة مثلها تماما. فلم يكن يعرف من النساء سوى فتيات الهوى، ويعيش فى عالم نسجه خياله يغرق فيه فى قصص الحب الرومانسية والخيالية. بدت علاقتهما طبيعية وبسيطة، تقوم على الصداقة وتخلو من كل غزل أو إطراء إلا السلام بالأيدى عند وصولها وعند رحيلها. لم يعد كلود يتساءل حول مدى معرفتها، وهى الفتاة البريئة الساذجة، بالحياة أو بالرجال. كانت هى التى أدركت مدى خجله وهى ترقبه بثبات، فتشعر باضطرابه الناتج عن تلك العاطفة التى لا يعلم عنها شيئا. غير هذا لم تكن

هناك تصرفات انفعالية تعكر صفو لقائهما واستمتاعهما بالحديث معا، فكانا يتطرقان إلى كل المواضيع ويناقشانها بابتهاج، كانا يحتدان فى بعض المرات، واثقين من أن أحدهما لن يغضب من الآخر بحكم صداقتهما التى امتلكتهما تماما ولم يعودا قادرين على الافتراق.

كان كلود ينزع المفتاح بمجرد وصولها كما طلبت منه حتى لا يزعجهما أحد. فقد استطاعت أن تسيطر على المرسم بعد بضع زيارات، وشعرت كأنها فى منزلها. وأرقها هاجس وهو ترتيبه. كانت تتألم من هذا الإهمال الفظيع. ولكن مهمتها لم تكن سهلة، فكلود كان يمنع حارسة العقار من الكنس حتى لا تتطاير الأتربة على اللوحات الرطبة، وحتى حينما حاولت كريستين أن تضفى على المكان قدرا ولو ضئيلا من الترتيب، ظل كلود يتبعها بنظرات قلقة ومتوسلة. كان لا يؤمن بجدوى ترتيب الأشياء أو تغيير مكانها، فلماذاً التغير ما دام يجد كل ما يريده أمامه بسهولة؟ ولكنها تمسكت برأيها، حتى أذعن كلود حينما رأى مدى سعادتها وهى تلعب دور ربة المنزل. وبالفعل بدأت فى العمل بمجرد وصولها، فخلعت قفازيها وشبكت تنورتها بدبوس لئلا تتسخ وبدأت تحرك كل شىء لترتب الغرفة الواسعة، فأزالت أكوام الرماد المتكدسة أمام الموقد ووضعت الستار لتغطى الفراش والتسريحة، ثم نظفت الأريكة بالفرشاة ولمعت الدولاب حتى عاد له بريقه ورفعت الأوانى من على الطاولة الخشبية وأزالت بقع الألوان، ونظمت المقاعد بتماثل، وأسندت الحوامل إلى الحائط، اعتنت بالساعة الخشبية

الضخمة فتجلت ألوانها ونقوشها حتى بدت وكأنها تصدر أصواتا أعلى وأوضح. أصبحت الغرفة رائعة الجمال، لم تكن هى نفس غرفته التى عهدها من قبل. ذهل كلود وهو يتأملها تروح وتجيء وهى تغنى. ألم تكن هى تلك الفتاة الكسولة التى تصاب بصداع لا يحتمل إذا ما قامت بأى عمل؟ ضحكت كريستين موضحة أن التفكير هو ما يتعبها أما الجهد البدنى فلا تشعر به على الإطلاق وإنما يعطيها مزيدا من القوة، واعترفت أن حبها للأعمال المنزلية كان يحزن والدتها التى كانت ترى أن التعليم الأمثل هو الفنون الجميلة من رسم وموسيقى وغيرها من الأعمال الراقية كالمعلمة ذات الأصابع الرقيقة التى لا تلمس شيئًا. فكانت تؤنبها كلما دخلت عليها فجأة لتجدها تكنس أو تنظف أو تطهو باستمتاع! يا ليتها تقدر أن تمارس هوايتها وتقاتل الأتربة عند السيدة فانزاد، على الأقل لن يقتلها الملل! ولكن ماذا سيقول الناس حينها؟ لن تعود سيدة محترمة وإنما خادمة تسير منهكة على كورنيش بوربون وعيناها تملأهما الحسرة والندم.

سعد كلود وهو يشعر لأول مرة بعناية امرأة. كان– فى محاولة لإبقائها معه– يعطيها أسورة قميص لترتقها أو طرف سترة لتخيطه. ثم عرضت عليه أن تصلح أغطية الفراش والملاءات ليس بدافع حبها للخياطة أو التطريز، فلم تكن بارعة فيهما من البداية، وإنما لأنه جزء من مسئوليتها.

أصبح المرسم غاية فى النظافة والجمال وكأنه معرض، بينما ظل كلود فى ثيابه الرثة! كانا يضحكان معًا من هذا المنظر العجيب المتناقض.

ما أجمل الشهور القى قضياها معًا! أربعة شهور من البرد القارس والمطر قضياها داخل المرسم أمام الموقد الأحمر الذى يصدر أصواتا كأنابيب الأرغن! زاد الشتاء من عزلتهما، فكست الثلوج الأسطح المجاورة، فلم يعد يراهما أحد سوى الطيور التى تضرب بأجنحتها على الزجاج. كانا يتبادلان الابتسامات فى سعادة لكونهما يحظيان بالدفء بعيدا عن الجميع فى وسط سكون المدينة الكبيرة. لم يكن لديهما مكان آخر سوى هذا الركن، حتى سمحت له أخيرا أن يسير معها عند عودتها، بعد أن كانت تسير بمفردها لمدة طويلة خوفا من أن يراها أحد تتأبط ذراع رجل. تطلب الأمر أن يهطل المطر بشدة فى أحد الأيام، لتوافق أن يصحبها ليحمل المظلة. وما إن توقف المطر عند نهاية جسر لويس فيليب حتى أرغمته على العودة. لم يظلا هناك سوى دقائق قليلة أمام سور الجسر يتأملان المنتزه العام فى سعادة غامرة لكونهما معا تظللهما السماء الصافية. أما فى الأسفل، على ضفة النهر، فكانت السفن تنقل التفاح مصطفة فى أربعة صفوف متقاربة وكأنها ألواح مثبتة، وقد صنع الأطفال ممرات بينها يركضون فيها تحيط بهم أمهاتهم. كانا سعيدين بهذا المشهد، بتساقط الفاكهة وبالجموع المتكدسة على حواف النهر وبتلك السلال المستديرة المسافرة... وفى أثناء ذلك تصاعدت رائحة قوية ومقززة، هى رائحة خمر التفاح التى فاحت مع الرياح الرطبة التى هبت على النهر.

فى الأسبوع الذى تلاه، سطعت الشمس وظل كلود يلح عليها ممتدحا فى جمال الكورنيش فى جزيرة سان لويس حتى وافقت على أن يتنزها معًا.

فسارا على كورنيش بوربون وانجو، يتوقفان بين الحين والآخر ليتأملا نهر السين المفعم بالحياة الملىء بكاسحات الطمي التى لا يتوقف صرير دلائهـا وبقوارب تدور على متنها الشجارات وينشغل ركابها بتفريغ شحنات القوارب الكبيرة المسطحة.

اندهشت كريستين: أيعقل أن يكون كورنيش ديزورم الفائض بالحيوية وكورنيش هنرى الرابع بحافته الهائلة وشاطئه الذى يلعب الأطفال والكـلاب فى رماله وكل هذا الأفق المزدحم جزءا من تلك المدينة الملعونة الملطخـة بالدماء كما رأتها أول مرة عند وصولها؟

ثم غيرا وجهتهما وأبطآ خطواتهما للاستمتاع قدر الإمكان بالهدوء الذى فرضه وجود هذه الفنادق القديمة. وشاهدا المياه تتخبط بعنف خلف الحـاجز المصنوع من الأغصان، وسارا بمحاذاة كورنيش بيتون واورليان، واقتربـا حتى احتضن أحدهما الآخر وهما واقفان يشاهدان هذا التدفق الهائل. جالـت أعينهما حتى استقرت ناحية منطقة لوبوراوفان وحديقة النباتات، بينما لاحت فى الأفق، بعض القباب الأثرية الباهتة. وعندما وصلا إلى جسر سان لويس، أشار كلود إلى كاتدرائية نوتردام، التى لم تكن تعرفها بالطبع. كانت مهيبـة وهى تتوسط دعامات الجدران ويعلوها برجان عاليان مزينان بالنقوش. كان أهم ما اكتشفاه هو الطرف الغربى من الجزيرة، الذى يشبه مقدمـة السـفينة يظن كل من يقف عليه أنه يرى باريس دون أن يدركها فعلا. ثم هبطا سلما شديد الانحدار، فوجدا جرفا منعزلا تحوطه أشجار عاليـة وكأنـه مهـرب

أو ملجأ بعيد عن الناس. ففى خضم تلك الحركة والضوضاء التى ابتلعت باريس بموانيها وجسورها، مكث الاثنان على الشاطئ وقد أسكرتهما نشوة الوحدة والانعزال عن الجميع. ومنذ ذلك الحين، أصبحت هذه البقعة مخصصة لهما، حيث يجلسان معًا فى الهواء الطلق، تدفئهما أشعة الشمس بدلا من الموقد الأحمر القديم ذى الحرارة الخانقة والأصوات الرعدية المخيفة.

كل هذا وكريستين ترفض أن تدعه يسير معها إلى ما بعد المنتزه، فكانت دائما ما تصرفه عند كورنيش ديزورم، وكأن المدينة بسكانها لن تراهما فى الأماكن التى تسبق الرصيف. وكانت المسافة طويلة جدا، وكانت تضيق بالسير بمفردها، فوافقت شيئا فشيئا على أن يصطحبها فى البداية حتى مبنى البلدية، ثم إلى بون نوف، وأخيرا حتى حدائق التويلورى. تناست كل خطر حتى اعتادت فى نزهاتهما التى لا تنقطع أن تتأبط ذراعه دون خوف وكأنهما حديثا الزواج. كانا يقطعان نفس الطريق بخطوات بطيئة، وفى كل مرة كانا يقعان تحت تأثير المكان الساحر والسعادة التى لم يعهداها من قبل. كان ينتمى أحدهما للآخر دون حتى أن يدريا. وغلفهما برقة كل ما يحيط بهما وسكب عليهما حنانًا سطرته العصور على الأحجار.

منذ حلول شهر ديسمبر واشتداد البرد القارس، قصرت كريستين زياراتها على الظهيرة، لترحل قرب الساعة الرابعة عصرا مع غروب الشمس، فيمسك كلود ذراعها ويسيران معًا. فى الأيام التى تصفو فيها السماء، كانا بمجرد أن يصلا إلى جسر لويس فيليب ينكشف أمامهما هذا

الأفق الواسع الذى تتقاطع فيه الأرصفة والموانئ. وقد ألقت أشعة الشمس بضوئها الذهبى على المنازل الموجودة على الضفة اليمنى، بينما غرقت الضفة اليسرى فى ظلمة خفيفة تنطق بروعة الغروب. وبين هذا الجانب المشرق والآخر المعتم، يظهر نهر السين المزركش بانعكاسات الأنوار اللامعة وقد قطعته حواجز عرضية رفيعة ، هى الجسور الممتدة فوقه مثل جسر نوتردام وأركول وشانج وبون نوف وغيرها من الجسور التى تلقى بظلالها على المياه الزرقاء وقد تخللها ضوء قوى وكأنه انعكاس مرآة. وفى أطراف ألوان الغروب البديعة، ظهرت أبراج قصر العدالة[1] المدببة وكأنها مرسومة بالفحم فى الفراغ. ثم برز منحنى ممتد شارد ناحية اليمين، هو مبنى فلور الذى بدا من بعيد كقلعة أو قصر خيالى بلونه الضارب إلى الزرقة الباهتة وسط الأبخرة الوردية فى الأفق. لم يحتملا هذا البريق الساطع، فأدارا أعينهما وهما واقفان تحت الأشجار عديمة الأوراق لتنفذ أشعة الشمس من خلال أغصانها الفارغة. كانت تبهجهما نفس المشاهد، خاصة مجموعة المنازل العتيقة المطلة على المنتزه ومتاجر الخردوات وأدوات الصيد فى الطابق الأول الذى تعلوه شرفات تزينها الورود وإكليل الغار وكروم العنب، وتظهر من خلفها منازل أكثر ارتفاعا، وقد تدلت الثياب من على نوافذها، كان المشهد عبارة عن مزيج من المنشآت المتنافرة وتداخل بين الأخشاب والمبانى، والجوائط المتصدعة والحدائق المعلقة التى تزينها الكرات الزجاجية المضيئة.

---

(١) قصر العدالة: Palais de Justice: مبنى يضم المؤسسات القضائية العليا فى فرنسا. (المترجمة)

لم يعبآ أثنـــاء ســـيرهما بالمبـــانى الـــضخمة مثـــل مبنـــى البلديـــة أو الثكنة العسكرية، وإنما سيطر على ذهنهما الجانب الآخر من النهر حيـــث قلب المدينة نفسها المحفوف بجدران مستقيمة ناعمة. ارتفعت أبراج كاتدرائية نوتردام اللامعة من وراء المنازل المظلمة، وكأنها طليت من جديـــد بمـــاء الذهب. أما حواجز الجسر فقد غطتها صناديق بائعى الكتب، بينما بقى زورق محمل بالفحم يصارع ضد التيار القوى أثناء عبوره أسفل جسر نوتردام. مكثا طويلا فى هذا المكان وقت إقامة أسواق الزهور، على الرغم من قسوة الجو، ليستنشقا أريج البنفسج والقرنفل الغضة التى قطفـــت مبكـــرا. أمـــا الـــضفة اليسرى، فبدت شاسعة، تحيط فيها مزارع الفلفل بقـــصر العدالـــة، وتظهـــر منازل صغيرة باهتة اللون على كورنيش أورلوج والأشجار الكثيفة تغطـــى السهل. كلما تقدما، اكتشفا أماكن أخرى غطاها الضباب مثل كورنيش فولتير ومالاكيه وقبة معهد الفنون ومبنى لامونييه المربع الشكل، إلى جانـــب خـــط رمادى طويل من واجهات المنازل التى يصعب التمييز بين نوافـــذها، وقـــد تداخلت أسقفها حتى إن المداخن الخزفية بدت من بعيد وكأنها جزء من جرف صخرى يتوسط بحرا لامعا ومتألقا. وتجلى مبنى فلور فى الواجهـــة كحلـــم تتراقص حوله آخر خيوط أشعة الشمس. أحاطت بهما الآفاق الواسعة من كل جانب وظهر عند نهايتها شارعا سيباستوبول والقصر والمبانى الحديثة على رصيف ميجيسورى كمقر الشرطة وجسر بون نوف القديم وتمثاله الذى بـــدا كبقعة حبر سوداء ومتحف اللوفر وحدائق التويلورى، بينما ظهـــرت- فـــى العمق فوق جسر الجرونيل فى الفراغ البعيد الممتد على مدى البصر- تلال

مقاطعة سيفر والحقول التى تلمع تحت أشعة الشمس البراقة. لم يسبق لكلود أن ذهب إلى أبعد من ذلك، فدائما ما كانت تمنعه كريستين لتتركه قبل جسر رويال قرب الأشجار الضخمة عند بركة فيجيه، حيث يسلم أحدهما على الآخر وهما ينظران إلى الخلف لتلك الحمرة التى خلفتها الشمس الذهبية ليريا جزيرة سان لويس، حيث أتيا على الجانب الشرقى وقد اكتنفها الظلام واتشحت سماؤها بالسواد.

ما أجمل لحظات الغروب التى شهداها أثناء نزهاتهما الأسبوعية! وكأن الشمس تصحبهما فى جولتهما السعيدة التى يتهلل لها رصيف الميناء، فكانا يمران على نهر السين بانعكاسات أنواره المترّاقصة، متمتعين بالوقوف أمام المتاجر الدافئة ليشاهداها الزهور عند تاجر البذور أو أقفاص العصافير عند تاجر الطيور، وقد أضفت الضجة ومزيج الألوان والأصوات على المدينة طابع الشباب المتجدد إلى الأبد. اكتست السماء بالحمرة مع مرور الوقت وأسفلها خطوط المنازل السوداء. مالت الشمس ببطء، نحو الأسقف البعيدة المقابلة للنهر، وكأنها تنتظر عبورهما لجسر نوتردام. لم يحظيا بأيام أجمل أو أزهى من تلك التى قضياها فى ركنهما الخاص خلف معهد الفنون، لم تكن هناك غابة قديمة أو طريق جبلى أو حتى مزارع سهلية تنافس روعة هذا المكان الذى يريا منه باريس وهى تنام فى أوج مجدها. كان مشهد الغروب يتغير فى كل نزهة، وكأن هناك مزيدا من النار المستعرة تتجمع كلها مضاعفة اشتعال هذا الأتون الملتهب.

ذات يوم، هطلت الأمطار فجأة، وبُعد أن أشرقت الشمس مـن جديـد أشعلت السحاب كله ولم يعد يتبقى من المطر سوى بعض القطرات الدافئـة بألوان قوس قزح. وفى الأيام التى تصفو فيها السماء، كانت الشمس تـشبه كتلة من النار تذوب بجلال وعظمة فى بحيرة من الياقوت الأزرق، تبدو من وراء قبة المعهد، التى اقتطعت جزءًا منها، وكأنها قمر أوشك أفوله. وما هى إلا لحظات حتى يبتلع الظلام تلك الكتلة النارية الدامية.

مع حلول شهر فبراير، تغير المسار، لتسقط الشمس مباشرة فى نهـر السين وتحوله إلى الغليان. إلا أن أكثر المشاهد سحرا لم تتألق سـوى فـى الأمسيات المليئة بالسحب التى تشكلها الرياح كيفما أتفق، فقد تكـون بحـارا تتكسر أمواجها على أحجار قرمزية، أو هى قصور وأبراج ومبان متهدمـة تنفذ من بين فتحاتها سيول الحمم الملتهبة. وفجأة تخترق الشمس تلك السحابة من البخار التى توارت خلفها، بأشعتها المضيئة التى تنتـشر بـين جنبـات السماء كسهام ذهبية. وبعد انقضاء الغروب، كانا ينفصلان وهما واقعان تحت تأثير روعة هذا المشهد وجمال باريس الأخاذ مصـدر تـلك السعـادة التى لا تنضب مهما تكررت نزهاتهما عند نفس السور الحجرى القديم.

وفى ذات يوم، وقع ما كان يخشاه كلود دون أن يصرح به، بعـد أن اطمأنت كريستين أنه لا يمكن لأحد أن يراهما، خاصة وأن لا أحد يعرفهـا. كانت تنتاب كلود رجفة خفيفة عند مجرد التفكير فى أن يراه أحد من زملائه أو معارفه. اعتراه خجل شديد وألم رهيب عندما فكر فى أنهم قـد يرونهـا،

ويتحدثون عنها، أو يضحكون منها. وفى ذلك اليوم، تحققت أكبر مخاوف كلود. كانا يسيران سويا وهو ممسك بذراعها عند جسر الفنون، وهناك وجد صاندوز ودوبوش يهبطان على الدرج. كان من المستحيل تفاديهما، فقد كانا واقفين أمامه وجها لوجه. بالتأكيد رأوه، فقد ابتسما له. غاص قلبه داخله وشعر بضياع كل شىء عندما رأى دوبوش يشير ناحيته، ولكنه استمر فى السير. وعندها تدخل صاندوز ومنع دوبوش من التقدم ناحيته واصطحبه وسارا كما لو كانا لا يعرفانه حتى أختفيا فى فناء متحف اللوفر دون أن يلتفتا. عرفا أخيرا من هى صاحبة الرأس المرسوم بالباستيل الذى أخفاه كلود عن أعينهم بغيرة العاشق. أما كريستين فلم تلحظ أى شىء فى غمرة سعادتها، بينما خفق قلب كلود بشدة وظل يجيبها بكلمات شاردة لتأثره لدرجة البكاء بموقف صديقيه.

وبعد عدة أيام، تعرض كلود لهزة أخرى، لم يكن ينتظر كريستين، وإنما اتفق مع صاندوز على المجىء إليه. ولكنها أتت لتمضى معه بعض الوقت. أسعدته المفاجأة ونزع المفتاح من الباب كعادته حينما تأتى إليه. وبعدها سمع صوت طرقات مألوفة على الباب، عرف على الفور أنه صاندوز! لأشد ما كان اضطرابه فى تلك اللحظة، حتى كان يتعثر ويصطدم بالمقاعد، لم يكن يستطيع ألا يجيب ويفتح الباب. ولكن كريستين ظلت ترمقه بنظرات الاستعطاف وقد شحب وجهها ترجوه ألا يفتح، فوقف ثابتا، وقد تقطعت أنفاسه. استمر الطرق على الباب وسمعه ينادى: "كلود! كلود!" أما هو، فلم يتحرك وقد ابيضت شفتاه وأغلق عينيه. وفجأة توقف الطرق وحل الصمت وسمع خطوات صاندوز وهو

يهبط درجات السلم الخشبى . اغتم كلود واجتاحته تعاسة رهيبة، حتى شعر بأنه قد يموت من فرط تأنيب الضمير، فمع كل خطوة من خطوات صاندوز البعيدة، شعر كلود وكأنه يتنكر لكل هذه الأعوام من الصداقة مع رفيق الطفولة. ثم حدث ذات يوم أن سمعا طرقات على الباب، فقال لها كلود فى يأس: "المفتاح لا يــزال فى الباب!"

كانت كريستين قد نسيت أن تنزعه عند دخولهــا. فأصــابها الفــزع وهرعت تختبئ وراء الحاجز، وجلست على طرف الفراش وقد غطت فمها بمنديل لتخفى صوت أنفاسها.

اشتدت الطرقات وتعالت ضحكات فى الخارج، فصاح كلود مضطرا: "ادخل!"

كانت للزيارة وقع الصاعقة على كلود، كان جورى ومعه إيرما بيكــو يعد أن تنازل له عنها فاجرول منذ خمسة عشر يوما، أو لعله قرر موافقتهــا على تلك النزوة خشية أن يفقدها للأبد. فكانت تنتقل من مرسم لآخــر وفقــا لرغباتها، وتحزم ملابسها القليلة وتنتقل أسبوعيا من مكان إلى آخر مع وعد بالعودة إذا أرادت.

قال جورى موضحا سبب الزيارة: "لقــد أرادت أن تــرى مرســمك، ووافقت على مرافقتها."

أخذت إيرما تتجول بحرية فى المكان وتبدى آراءها: "كم هذا غريب؟ ما أغرب هذا الرسم! من فضلك أرنى كل لوحاتك وكل شىء هنا، أرنى أين تنام."

كاد كلود أن يموت قلقا، خوفا من أن تحرك الحاجز فترى كريستين جالسة وراءه. لكم تأسف أيضًا مما قد تسمعه فى هذا الحوار!

استأنف جورى حديثه فى ابتهاج: "أتعلم أنها طلبت أن تراك؟ ألا تذكر أنت ماذا قلت؟ ألم تعد بأن ترسمها؟... وها هى على استعداد أن تجلس لك كيفما شئت. أليس كذلك يا عزيزتى؟"

فأجابت: "بالطبع من الآن إذا شئت!"

فرد كلود فى حرج: "إنى مشغول بشدة الآن، فلوحتى تستغرق كل وقتى للحاق بالمعرض ... كما أننى أعانى فى رسم تلك المرأة التى فى اللوحة ولا أستطيع أن أتركها الآن!"

قامت إيرما ووقفت أمام اللوحة الكبيرة وقد رفعت أنفها الصغير وقالت: "أتقصد تلك المرأة العارية الجالسة على العشب... قل لى إذن كيف يمكننى أن أساعد فى رسمها؟"

تحمس جورى فجأة وقال: "يا لها من فكرة! ألا تبحث عن فتاة جميلة ولا تجد؟ ... انزعى ملابسك يا إيرما يا عزيزتى ليرى بنفسه!"

فنزعت قبعتها بيد وانشغلت الأخرى فى فك أزرار صدارها على الرغم من مقاومة كلود ورفضه الحازم مرددًا: " لا! لا داعى لذلك! ... فأنت صغيرة الحجم... لست مناسبة للوحة!"

فقالت: "ولماذا الانزعاج؟ فأنت سترى فى جميع الأحوال!"

ازداد إصرار جورى وقال: "دعها تفعل كما تريد... فهى تبغى إسعادك... أتعلم أنها عادة لا تجلس للرسم، فهى ليست فى حاجة إلى ذلك، ولكن تلك هى عادتها، أن تظهر نفسها!... أنها على استعداد أن تحيا بدون ملابس... هيا يا عزيزتى أريه صدرك فقط مادام يخشى أن تأكليه!"

استطاع كلود أن يمنعها من نزع ملابسها، ومضى يقدم مبررات، فتحجج بأنه سيسعد بالأمر لاحقا، أما الآن فهو يخشى أن تشوش أى امرأة تفكيره أو تلهيه عن لوحته. واكتفت إيرما بهز كتفيها وهى ترمقه بعينيها الجميلتين الجريئتين وقد لاح فيهما نوع من الازدراء دارته بابتسامة.

ثم تطرق جورى إلى أحوال الأصدقاء، وسأله عن سبب تغيبه عن عشاء صاندوز الخميس الماضى، وكيف أن دوبوش يتهمه بأنه على علاقة بإحدى الممثلات لتنفق عليه! وروى له عن المشادة التى وقعت بين فاجرول وماهودو حول بعض تفاصيل النحت! وعن جانيير وكيف أصيبت عيناه فى حفل فاجنر الأخير! وأخيرا عن المشاجرة التى كاد أن يتورط هو فيها بسبب آخر مقالاته فى جريدة "لوتامبور"، التى هاجم فيها الفنانين رديئى المستوى أصحاب الشهرة الزائفة! فالحملة التى يشنها ضد لجنة تحكيم المعرض قد أحدثت ضجة شديدة، وكيف أنه يعلق عليها آمالا عريضة فى القضاء على هؤلاء المتاجرين بالفن الذين يمنعون الطبيعة من الانطلاق. ظل كلود يسمعه بنفاد صبر، فأمسك ملونه وأخذ يروح ويغدو أمام لوحته حتى فهم جورى أنه منشغل فقال: "سنتركك الآن لتعمل!"

استمرت إيرما تحدق فى كلود وارتسمت على وجهها ابتسامة تعجب من حماقة هذا الأبله الذى رفضها، لم يعد يشغل تفكيرها سوى الرغبة فى امتلاكه ولو رغما عنه. كان مرسمه حقيرا، وهو أيضًا لم يكن يتمتع بالجمال، فلماذا يتصنع الفضيلة؟ كانت فتاة ذكية ورقيقة تحمل فى داخلها قحة وجرأة الشباب. وقفت عند الباب وعرضت نفسها مرة.أخرى حين قالت وهى تضغط بقوة وببطء على يده بيدها الدافئة: "متى شئت!"

مضى الاثنان، وهرع كلود ليزيح الحاجز ليجد كريستين جالسة على حافة الفراش، وقد خارت قواها حتى لم تعد تقوى على النهوض. لم تحدثه بشأن تلك الفتاة واكتفت بالقول بأنها خافت بشدة ومضت على الفور وهى ترتعد خوفا من قدوم شخص آخر، وقد لاح فى عينيها اضطراب شديد حرصت على أن تتكتم أسبابه.

كان المرسم، موطن الفن الجرىء، يسبب لها ألما صريحًا بما يحويه من لوحات عنيفة، فلم تتأقلم بسهولة على تلك الرسوم العارية أو على الواقعية الفجة التى رسمت بها اللوحات الريفية، بل تستشعر تجاهها نفورا حقيقيا، خاصة وأنها لم تكن تفهمها، بعد أن تربت على تذوق نوع آخر من الفن أكثر عذوبة ورقة مثل رسومات والدتها المائية على المراوح الرقيقة التى تبدو وكأنها رسومات خيالية من الأحلام تصور زهور الليلك التى تحيط بها حدائق تميل إلى الزرقة. كانت لوحاتها التى رسمتها فى طفولتها عبارة عن مناظر طبيعية تتكرر دائما، سواء أكانت بحيرة تتجلى خلفها الأطلال

أو طاحونة تضرب بألواحها فى مياه النهر أو كوخ تحوطه الأشجار المكسوة بالثلوج. كان أكثر ما تتعجب له هو كيف لشاب ذكى مثل كلود أن يرسم لوحات خرقاء وقبيحة إلى هذه الدرجة؟! فكانت ترى أن هذه اللوحات تتجاوز حدود القبح والوحشية بل تخرج عن نطاق أى حقيقة أو واقع! لا بد إذن أن يكون مجنونًا ليرسم هكذا!

وفى أحد الأيام، طلب كلود أن يرى مجموعة رسوماتها القديمة فى كليرمونت التى طالما حدثته عنها. وبعد أن تمنعت طويلا، قررت إحضارها أخيرا، يدفعها الفضول حول ماذا سيكون رأيه فيها؟ ظل يتصفحها بابتسامة، فغمغمت: "أنت تراها سيئة، أليس كذلك؟"

أجاب: "بالطبع لا! إنها بريئة."

أرعدتها الكلمة، على الرغم من طريقته الطيبة والودودة فى نطقها، فقالت: "نعم! فأنا لم أتلق من والدتى سوى دروس قليلة!... فأهم شىء أن تكون اللوحة جيدة لتنال إعجاب الجميع."

عندها انفجر كلود فى الضحك، ثم قال: "اعترفى أن لوحاتى تؤلمك بالفعل، فأنا قد لاحظت رد فعلك تجاهها ، فتضمين شفتيك وتديرين عينيك فى فزع... إنها لوحات لا تناسب النساء وخاصة الفتيات الصغيرات مثلك... ولكنك ستعتادين عليها، عليك فقط أن تدربى عينيك، وسترين فى النهاية إن ما أفعله هو الصحيح والحقيقى."

وبالفعل، اعتادت كريستين تدريجيا على هـذه اللوحـات. لـم تكـن النظريات الفنية تعنى لها شيئا، خاصة وأن كلود لم يكن يعتد بآراء وأحكـام النساء، فلم يهتم بتعليمها هذه الأمور، بل كان يتجنب الحديث معها عن الفن أو الرسم وكأنه أراد أن يفصل بين حب حياته الحقيقى وتلك العاطفة الجديدة التى تجتاحه. ومع الوقت، بدأت كريستين تبدى اهتماما بهذه اللوحات البشعة بعد أن أدركت مدى أهميتها وما تعنيه لكلود. ثم بدأت تتعاطف مـع جنـون العمل الذى ينتابه والتفانى المطلق الذى يبديه، وتساءلت: "أليس هذا مـؤثرا؟ بل إنه أمر رائع بالفعل" ظلت تلاحظ نوبات الفرح والحزن التـى تعتريـه وتقلب كيانه بعد جلسة رسم مثمرة أو فاشلة، وشعرت بأنها تـشاطره نفـس مشاعره، فتحزن إذا رأته حزينا وتهش فرحا إذا رأته مبتهجًا، حتى أصـبح هذا هو شغلها الشاغل، هل عمل كثيرا اليوم؟ هل هو سعيد بما أنجز؟

مع نهاية الشهر الثانى، كانت قد تملكتها هذه اللوحات، فكانـت تقـف أمامها دون خوف، حتى وإن لم تتذوقها أو تفهمها. التقطت بعـض كلمـات كلود حول الفن ، فكانت تعلق على اللوحات قائلة: "إنها لوحة قوية، أو إنهـا مرسومة بجرأة ، أو إنها تظهر جيدا فى الضوء..."

كانت تحبه بشدة، وتراه طيبًا للغاية، حتى إنها بعد أن اتهمته بتـشويه الرسم وارتكاب فظائع فنية، عادت لتجد فى تلك اللوحات الفظيعـة بعـض ملامح الجمال لدرجة جعلتها تعجب بها.

كانت اللوحة الكبيرة التى يعدها للمعرض هى أصعب لوحة بالنـسبة لكريستين، فلم تقبلها بسهولة، خاصة وأنها كانت تنزعج بـشدة مـن تلـك

الرسومات العارية الصغيرة التى رسمها فى مرسم بوتـــان، ومـــن لوحـــات بلاسان، فما بالك بتلك المرأة العارية المستلقية على العــشب. كانـــت تكـــن تجاهها مزيجا من الكراهية والضغينة والخجل لكونها اعتقدت ولو للحظة أنها هى تلك المرأة، فكانت تستشعر ضيقا وتبرما خفيين إزاء هذا الجــسد الــذى زالت عنه ملامحها تدريجيا.

فى البداية، كانت تدير عينيها فى احتجاج، أما الآن فأصبحت تتفرسها فى صمت وبعينين ثابتتين لدقائق كاملة. ثم بدأت تتساءل كيف اختفـــى هـــذا الشبه بينها وبين تلك المرأة بالتدريج؟ فكلما ازداد انهماك كلود فى العمـــل، زال هذا الشبه، خاصة وأن كلود كان دائم السخط على عمله حتى كان يعيد رسم الشىء الواحد أكثر من مائة مرة. وفجأة، شـــعرت بـــالحزن، دون أن تدرى السبب، ودون أن تجرؤ على الاعتراف بذلك، لتلاشى كل ملامحها من اللوّحة، بعد أن أغضبها حياؤها فى البداية. ولكنها شعرت فى الوقت ذاته أن صداقتهما قد تتداعى بسبب هذا الأمر، فمع كل خط يزيله مـــن صـــورتها، كانت تشعر بأنها تبتعد عنه، ووقعت فريسة عذاب الحيرة: " ألا يحبهـــا إذن؟ كيف استطاع أن يخرجها بكل بساطة من لوحته؟ ومن هى تلك المرأة الجديدة المجهولة التى جاءت لتحتل مكانها؟"

ظل كلود فى حيرة- بعد أن أفسد الرأس- حول ما إذا كانت تقبـــل أن تجلس أمامه لبضع ساعات ليعيد رسمها، لن يحتاج منهـــا ســـوى الجلـــوس لإصلاح بعض التفاصيل ليس أكثر. ولكنه تراجع أمام فرط انزعاجها، بعـــد أن خشى أن يثير غضبها. فقرر أن يتوسل إليها بلطـــف، ولكنـــه لـــم يجـــد الكلمات، واجتاحه خجل شديد وكأنه يطلب منها أمرا غير لائق.

ولكن فى أحد الأيام، انفجر أمامها فى نوبة غضب عنيفة، لم يستطع كبحها حتى فى وجودها. كان أسبوعا سيئًا، فلم يحرز أى تقدم يذكر فى لوحته، فأخذت تراوده الأفكار حول مسحها، ثم مضى يسير فى انفعال وهو يتخبط فى الأثاث. وفجأة، أمسكها من كتفيها ووضعها على الأريكة واستعطفها: "أتوسل إليك، اسدى لى هذه الخدمة! أقسم لك! أننى أتعذب!"

قالت وقد عجزت عن فهمه من شدة الفزع: "ماذا؟ ماذا تريد؟" فرأته يمسك فرشاته وعندها قالت بشرود: "ولماذا لم تطلب منى من قبل؟"

فاعتدلت على الوسادة وأسندت رأسها على ذراعها. ولكنها سرعان ما اضطربت وحاولت تصنع الجدية لتخفى دهشتها من موافقتها السريعة، ولكنه لم يكن قرارها، لو كان بيديها لأقسمت ألا تجلس أمامه أبدا.

صاح كلود وقد غمرته الفرحة: "هل وافقت فعلا؟ لا أصدق!... أقسم لك أنى سأجعل منك أجمل امرأة!"

ولكنها قالت بدون تفكير: "سترسم الرأس فقط!"

فأجاب متلعثما خوفا من أن يكون قد تمادى: "بالطبع! بالطبع! الرأس فقط!"

سيطر عليهما جو من الحرج، فمكثا صامتين، ومضى يرسم، وظلت هى ساكنة وحلقت عينيها فى الهواء، فى اضطراب بسبب جملتها، بعد أن أخجلتها كياسته. وتملكها الندم والذنب بسبب موافقتها على أن يوضع رأسها على هذا الجسد العارى الساطع تحت أشعة الشمس.

أنهى كلود الرأس فى جلستين فقط، وتهلل فرحا مؤكدا أنها أفضل قطعة رسمها فى حياته. وكان محقا بالفعل، فلم يسبق له أن صور وجها مثل هذا فائضا بالحيوية فى وسط تلك الإضاءة الرائعة. سعدت كريستين لرؤيته فرحا، وانفرجت أساريرها عندما رأت صورة وجهها. أدهشتها قدرة كلود على التعبير حتى وإن لم تكن تشبهها تماما. ثم رجعا إلى الوراء والتصقا بالحائط وظلا يتأملان اللوحة طويلا. ثم قال كلود: "والآن لا يبقى لى سوى أن أجد عارضة لأستكمل الجسد... كم ستكون جميلة تلك اللوحة!" غمرتهما فرحة طفولية، فأمسك كريستين ومضيا يرقصان سويا ما أطلق عليه "رقصة النصر". كانت كريستين تضحك بشدة دون أن تبدى هذه المرة أى اضطراب أو خجل أو تبرم.

مع حلول الأسبوع الجديد، انغمس كلود فى كآبته، فبعد أن اختار زويه بيدفير لتكون هى عارضته، لم تستطع تلك أن تعطيه ما أراد، فرأس كريستين رقيق للغاية لا يتناسب مع هذين الكتفين العريضين. ولكنه استمر فى العمل، يمحى ويرسم من جديد. وغرق تماما فى اليأس. وفى أحد الأيام فى منتصف يناير، ترك لوحته ووضعها ناحية الحائط. وبعد أسبوعين، حاول مرة أخرى استئناف العمل، واستدعى عارضة أخرى هى جوديت العظيمة مما أرغمه على تعديل درجات بعض الألوان وازداد الوضع تدهورا، فطلب زويه مرة أخرى وقد أعياه القلق والشك. كان أسوأ شىء هو أن صورة المرأة هى فقط ما يعانده، فقد أنهى باقى اللوحة على نحو مُرضٍ، فالأشجار والفتاتان

الصغيرتان والرجل ذو السترة المخملية مرسومون جيدا. ومع انتهاء شهر فبراير كانت الكارثة، فلم يتبق سوى بضعة أيام على موعد تسليم اللوحات للمعرض.

وفى أحد الأيام، انتابته نوبة غضب ومضى يسب أمام كريستين، وقال: "ما الذى أنا فاعله! أيعقل أن نضع رأس امرأة على جسد امرأة أخرى؟ كان من الأفضل أن أقطع يدى!"

كان الهاجس الوحيد الذى يطارده الآن هو كيف يجعل كريستين تقبل أن تجلس أمامه ليرسمها كاملة. كانت فى البداية مجرد فكرة مرفوضة وسخيفة، ثم تحولت إلى حوار صامت متكرر حتى أصبحت رغبة حقيقية حادة وملحة. تملكته صورة صدرها الذى لم يره سوى لدقائق وسكنت أعماقه. كان يراها ممتلئة بنضارة الشباب وإشعاع الصبا. وقرر أنه إذا لم يرسمها، لن يستكمل لوحته، فلن ترضيه أى امرأة أخرى سواها. جلس على المقعد لساعات يتعذب بسبب عجزه عن الرسم. واتخذ قرارات بطولية، عند دخولها سيمطرها بعبارات مؤثرة يكشف لها فيها عن عذابه لعلها تقبل فى النهاية. ولكن ما أن دخلت بابتسامتها الودودة وثوبها المحتشم الذى لا يكشف من جسدها شيئا، حتى تهاوت شجاعته وأدار عينيه سريعا قبل أن تلحظه وهو يحاول أن يخترق صدارها ليرى خطوط وملامح جسدها. لم يكن يقدر أن يطلب منها هذه الخدمة، لم يكن ليجرؤ على قولها.

وفى ذات مساء، بينما كان يستعد لاصطحابها فى رحلة العودة، رفعت ذراعيها لتعدل وضع قبعتها والتقت أعينهما لثوانٍ. ارتجف أمام هذين النهدين

المرفوعين وكأنهما على وشك أن يخترقا ملابسها، فشحب وجهها واكتسى بطابع الجدية، وشعر بأنها خمنت ما كان يفكر فيه.

تحدثا بالكاد فى طريق العودة ، فقد ظل هذا الأمر بينهما. غربت الشمس وذابت فى سماء نحاسية اللون. قرأ فى عينيها أكثر من مرة أنها تعرف أفكاره التى تعذبه. فمنذ أن بدأ هو يفكر فى الأمر، راودتها هى الأخرى نفس الأفكار رغما عنها استنادا إلى تلميحات عفوية لا إرادية. خطرت لها تلك الأفكار فى البداية، ولكنها حاولت تجاوزها، فقد بدت لها مستحيلة تفوق كل خيال، بل شعرت بالخجل لمجرد تفكيرها فى الأمر. لم يراودها الخوف حيال طلبه، فكانت تعلم أنه لم يكن ليجرؤ. كانت تعرفه جيدا، وكانت قادرة على أن توقفه بنظرة ، قبل أن ينطق بكلمة واحدة، حتى فى ظل نوبات غضبه الجامحة. كان ببساطة مجنونا! ولكنها لن تقبل، مستحيل! مستحيل!

انقضت عدة أيام، ونمت تلك الفكرة دون أن يتكلما، فكلما تقابلا عجزا عن طرحها جانبا. لم يتحدثا بشأنهما، ولكن صمتهما كان أبلغ من الكلام. فنطقت حركاتهما وابتساماتهما بهذا الشىء الذى يستحيل المجاهرة به. وسرعان ما بدأت صداقتهما تتفتت، فكلما نظر إليها شعرت بنظرته تعريها، وأصبحت الكلمات البريئة تحمل لها معانى أخرى، حتى التحية باليد، كانت تسبب لها رجفة يرتعد جسدها كله بسببها. أيقظت تلك اللوحة العارية جانبًا جديدًا فى علاقتهما طالما تجنباه خوفا من إفسادها، وهو كونه رجلا وكونها

امرأة، واكتشفا تدريجيا حرارة خفية لم يكونا يعلمان عنها شيئا. كانا يحمران خجلا وتصعد الدماء إلى وجوههما إذا تلامست أصابعهما. وفى ظل هذا الاهتياج الذى يعذبهما، تفاقمت حدة التفكير فى هذا الأمر الكئيب الذى ملأ قلبيهما بالغم والتنهد.

وفى أحد الأيام فى منتصف شهر مارس، دخلت كريستين لتجده جالسا أمام لوحته وقد سحقه الحزن. لم يسمعها وهى تدخل، وظل ساكنا، وشردت عيناه الفارغتان أمام لوحته غير المكتملة. كان آخر موعد لتقديم اللوحات للمعرض بعد ثلاثة أيام.

ألجمها يأسه، فاقتربت منه بلطف وقالت: "كيف الحال؟"

انتفض، ثم التفت وقال: "كيف الحال؟ أنا هالك لا محالة، لن أتقدم للمعرض هذه السنة... لكم كنت أعول عليه!"

غرق الاثنان فى صمت مربك، اضطربت فيه جميع أفكارهما. ثم صاحت كريستين: "لا يزال أمامنا متسع من الوقت."

فقال: "أى وقت؟ أنا فى حاجة إلى معجزة! من أين لى أن أجد عارضة فى تلك الساعة... أنا أعانى منذ الصباح، حتى إنى فكرت أن أذهب إلى إيرما بيكو، تلك الفتاة التى أتت عندما كنت هنا. أعلم أنها ضئيلة الحجم ولها جسد مختلف، وسأضطر إلى تغيير كل شىء من أجلها، ولكنها صغيرة... سأذهب إذن لأجرب..."

قطع حديثه فجأة، ونطقت عيناه المشتعلتان بكل ما يدور فى داخله دون أن يتكلم: "أرجوك! لم يتبق لى سواك! أنت معجزتى المرتقبة! أنت انتصارى الأكيد! يا ليتك تسدين لى تلك الخِدمة العظيمة!... أتوسل إليك، بوصفك صديقة أعشقها لا يضاهيها أحد فى جمالها وعفتها!"

ظلت كريستين ساكنة وقد شحب وجهها وكأنها تسمع كل كلمة بالفعل. كانت نظراته المتوسلة تحدث فى نفسها أثرا رهيبا. وفجأة، خلعت قبعتها ومعطفها، ومضت فى هدوء تنزع صدارها ومشدها، ثم تنورتها وقميصها الذى سقط من على جانبيها، فى وجوم وكأنها فى عالم آخر، عالم من الأحلام، تغرق فيه بحريتها كما لو كانت فى غرفتها وتنزع فيها ثيابها دون تفكير. فلماذا إذن تدع غريمة لها تعطيه صورة جسدها، بينما أعطته هى وجهها؟ أرادت أن تكون حاضرة بأكملها وبكامل رقتها فى تلك اللوحة، عندها فقط أدركت سبب الانزعاج الذى كان يسببه لها هذا الوحش الغيور منذ فترة طويلة. ثم توجهت إلى الأريكة، واستلقت مغمضة العينين واضعةً ذراعها خلف رأسها وقد اكتسى جسدها العارى بستار من العفة.

ظل كلود مدهوشا، وقد عقدت الفرحة لسانه وهو يشاهدها تنزع ثيابها، أخيرا وجد ضالته المنشودة! هاهو يراها على الطبيعة بكامل حيويتها. غلفتها طفولة رقيقة، ونضحت بنضارة الشباب، وتساءل فى نفسه: "كيف أخفت هذا الصدر الفائر تحت ثيابها؟"

توقف عن الكلام، وأخذ يرسم فى صمت. انهمك فى العمل على مدار ثلاث ساعات طويلة فى صراع عنيف حتى استطاع أن يضع الرسم الأولى

للجسد كله. لم يسبق لجسد أى امرأة أن أثمله إلى هذا الحد، كان قلبه يدق وكأنه أمام جسد مقدس. لم يقترب منها، وأقعدته المفاجأة وهو يرى هذا التحول الرائع للوجه، وكيف تلاشت ملامح هذا الفك الضخم الشهوانى فى وسط هدوء وملاحة الجبهة والوجنتين. انقضت ثلاث ساعات دون أن يتحرك كلود أو تتنفس كريستين وقد تملكها الحياء ولكن دون رجفة أو ضيق. ثم شعرا بأن الحديث سيزيد من حرجهما، فآثرا الصمت. كانت فقط من وقت لآخر تفتح عينيها الصافيتين لتحملق فى الفراغ للحظات ، دون أن تدعه يدرك ما يدور بخلدها، ثم تغلقهما مرة أخرى وقد غرقت فى سكون تام تخللته ابتسامة غامضة لا تتغير.

أشار لها كلود بأنه انتهى، ثم قام مضطربا وهو يتعثر فى المقاعد ليعطيها ظهره بسرعة، فنهضت كريستين من على الأريكة محمرة خجلا. وارتدت ملابسها بسرعة وهى ترتجف، وقد بدا عليها التأثر فأغلقت قميصها على عجلة كيفما اتفق وهى تشد أكمامه وتغلق ياقته لكيلا تترك قطعة واحدة مكشوفة من جسدها، ثم غاصت فى معطفها. بينما لصق كلود وجهه بالحائط ليتجنب النظر إليها. ثم التفت إليها وراحا يرمقان أحدهما الآخر وقد اضطرمت داخلهما عاطفة مشبوبة منعتهما من الحديث، لعلها كانت التعاسة، تلك التعاسة الرهيبة اللاشعورية، فامتلأت أعينهما بالدموع كمن أضاع عمره أو كمن وصل إلى أقصى درجات البؤس.

غلب كلود إحساس من الرقة الممزوجة بالحزن، فلم يجد ما يقوله، وظل عاجزا حتى عن شكرها، مكتفيا بطبع قبلة على جبهتها.

الفصل الخامس

فى الخامس عشر من شهر مايو، عاد كلود إلى منزله بعد أمسية طويلة قضاها عند صاندوز امتدت حتى الثالثة صباحا. كانت الساعة التاسعة، حينما أيقظته حارسة العقار التى صعدت لتعطيه باقة من زهور الليلك البيضاء أحضرها غلام. فهم كلود أنها كريستين تريد أن تحتفل مقدما بنجاح لوحته. كان اليوم مهما بالنسبة له، فهو افتتاح " معرض المرفوضين"[1] الذى ينظم لأول مرة هذا العام ووافق على عرض لوحته بعد أن رفضت لجنة التحكيم قبولها فى المعرض الرسمى.

تركت اللفتة الرقيقة والزهور اليانعة التى أيقظه عبيرها أثرا عميقا فى نفسه، بل شعر بأنها فأل حسن وبشرى بيوم جميل. قام بثياب النوم، حافى القدمين ليضعها على الطاولة فى إناء مملوءة بالماء. كانت آثار النوم لا تزال واضحة عليه وتورمت عيناه من شدة النعاس، ولكنه انتفض فجأة وهرع ليرتدى ملابسه متذمرًا من استيقاظه متأخرًا، حيث كان قد اتفق مع دوبوش وصاندوز أن يمر بهما فى تمام الساعة الثامنة ليذهبا سويا إلى " قصر

---

(١) معرض المرفوضين: Le Salon des Refuses : معرض أقيم فى باريس عام ١٨٦٣، بمبادرة من الإمبراطور نابليون الثالث ويتميز بعرض لوحات حديثة تعارض الذوق الرسمى أو الأكاديمى. (المترجمة)

الصناعة والفنـــون"[1]، حيث ينتظرهم باقى الأصدقاء. وهـا هـو يـستيقظ فى التاسعة!

لم تكن مهمة ارتداء ملابسه بالأمر الهين، فمنذ رحيل لوحته والمرسم كله فى حالة فوضى عارمة، فلم يكن يستطيع الوصول إلى ما يبحـث عنــه بسهولة، حتي استغرق بحثه عن الحذاء أكثر من خمس دقائق وجلس علــى ركبتيه ليبحث خلف الإطارات القديمة، وتطاير فى وجهــه غبــار الــذهب المتكدس. كان كلود قد عجز عن تدبير المال اللازم لشراء إطار للوحته، فقام بإعداد أربعة ألواح خشبية عند نجار يعرفه ثم قام بتذهيبها بنفسه بمــساعدة كريستين التى فشلت تماما فى مهمتها. انتهى أخيرا من ارتداء ملابسه وقــد تناثر على قبعته اللبادية غبار الذهب، واستعد للذهاب، ثم راودته فكرة خيالية ولكنه شعر بضرورة العودة إلى الزهور ليقبلها، فعدم تقبيلها بدا له إهانــة، فقبلها وامتلأ أنفه بعطرها الربيعى القوى.

نزل وكعادته أعطى مفتاحه لحارسة العقار، وقال: "سأبقى بالخــارج طوال اليوم يا سيدة جوزيف."

وفى غضون عشرين دقيقة، وصل كلود إلى شارع دينفير حيث منزل صاندوز، الذى تأخر هو الآخر بسبب توعك والدته، لم يكن مرضـا شــديدا وإنما وعكة عابرة ولكنها أحدثت لديه اضطرابا شديدا. بعد أن اطمأن عليها،

---

(١) قصر الصناعة والفنون: Palais de l'Industrie et des Arts: قصر شيد فى الشانزليزيه خصيصا لإقامة المعرض الكبير عام ١٨٥٥ وتم تدميره بالكامل ما بين ١٨٨٧ و ١٩٠٠. (المترجمة)

نزل مع صديقه وروى له أن دوبوش كتب له ألا ينتظراه لأنه سيلحق بهما هناك. وفى الساعة الحادية عشرة، قرر الاثنان التوقف لتناول الطعام فى مطعم صغير خال تماما فى شارع سان أونورية، حيث تدفقت فى ذهنيهما ذكريات الطفولة وامتزج لديهما شعور بالتعاسة والحنين وسط رغبتهما المحمومة فى رؤية ومعرفة كل شىء.

كانت الساعة تدق الواحدة أثناء مرورهما فى شارع الشانزليزية. كان يوما رائعا وتجلت السماء فى كامل صفوها تتخللها رياح باردة تزيد من صفائها. وتلونت الشمس المشرقة بلون القمح الناضج، وألقت أشعتها على صفوف شجر الكستناء بأوراقه الخضراء الجديدة اللامعة. وأضفت أحواض الزهور زاهية الألوان والمروج الخضراء المستوية على الأفق جوا من الأناقة والفخامة. ومن حين لآخر، مرت بعض العربات، واحتشد الجمهور المزدحم فى الممرات الهائلة المؤدية إلى قصر الصناعة والفنون.

انتابت كلود رعشة خفيفة بمجرد أن وطأت أقدامهما البهو العملاق الشبيه بالكهف فى الرطوبة المنبعثة من أرضيته التى تشبه أرضية الكنائس. نظر يمينا ويسارا إلى السلالم الأثرية، وسأل صاندوز فى ازدراء: "أسنضطر للمرور بين جنبات المعرض القذر المملوء بالحماقات؟"

فأجاب صاندوز: "بالطبع لا! دعنا نسير عبر الحديقة ومنها إلى السلم المؤدى إلى معرض المرفوضين."

مرا وهما يرمقان الطاولات الصغيرة التى وضعت عليها كتيبات التعريف بالمعرض ولوحاته باحتقار، حتى ظهرت الحديقة من بين فتحة الستائر الحمراء المخملية فى نهاية رواق طويل مظلم.

كانت الحديقة شبه خالية فى هذا الوقت من اليوم، تجمع الجميع تحت الساعة الكبيرة فى المطعم، لتناول الغداء، بينما تكدس الباقون فى الطابق الأول حيث القاعات. فخلت الحديقة سوى من تماثيلها البيضاء التى تفصل بين الرمال الصفراء والأجزاء الخضراء المغطاة بالعشب، كجماهير من الرخام الأبيض غمرتهما أشعة الشمس الساطعة.

مع حلول الظهيرة، وضعت ستائر من القماش لتغطى جزءا من الجناح، اصفرت من أثر الشمس وسقطت عليها انعكاسات الزجاج الملون بالأحمر والأزرق. جلس الزائرون المنهكون على المقاعد الجديدة اللامعة ليستريحوا، وحلقت الطيور التى تسكن الأغصان المتشابكة محدثة أصواتا خفيفة.

تظاهر كلود وصاندوز بحث الخطى وسارا دون أن يلتفتا حولهما، ولكن أثارهما تمثال برونزى لرأس أحد أعضاء معرض الفنون ظهرت عليه سيماء القوة والنبل. وأثناء سيرهما وسط صفوف غير متناهية من التماثيل النصفية، رأيا بونجراند يدور وحيدًا متأملا تمثالاً مهيبًا نابضًا بالحيوية لامرأة نائمة. ذهبا لإلقاء التحية، فهتف مصافحا إياهما: " إنه أنتما! كنت أتأمل تمثال صديقكما ماهودو، حمدا لله أنهم تمتعوا بقدر من الذكاء ووافقوا على عرضه فى مكان جيد..." سألهما: "أأنتما نازلان؟"

فأجاب كلود: "لا قد وصلنا للتو."

حدثهما بونجراند بحماس عن معرض المرفوضين، وعن مدى سعادته بتلك المغامرة على الرغم من كونه من أعضاء المعهد، حيث إنه لا يشاطر زملاءه الرأى. ثم تطرق إلى قضايا أخرى مثل استياء الرسامين وعدم رضائهم المستمر، والحملة التى تقودها بعض الصحف الصغيرة على غرار لوتامبور على المعهد والمعرض والاحتجاجات والمطالبات التى لا تنتهى مما أزعج الإمبراطور[١] وجعله يقوم بهذا الانقلاب الفنى وانزعاج وقلق الجميع من هذا المعرض الجديد والضجة التى أحدثها فى الأوساط الفنية... إلخ.

فقال: "أنتم لا تدرون شيئا عن مدى سخط أعضاء لجنة تحكيم المعرض الرسمى!... الكل أصبح فى غيابى يشكك فى نواياى ولكنهم يصمتون فى حضورى!... أكثر من يثير حنقهم هم أتباع المدرسة الواقعية الفظيعة على حد قولهم، فدائما ما يغلقون أمامهم كل الأبواب. ولكن بسببهم أعطى الإمبراطور فرصة الحكم للجمهور، وقد انتصروا بالفعل فى النهاية... أنا أسمع الكثير من الأخبار الجيدة يا عزيزى!" كان يضحك بشدة فاتحا ذراعيه كمن يريد أن يحتضن هذه الطاقة الشابة التى تشق طريقها.

فقال كلود: "إن طلابك يبالغون."

صدرت عن بونجراند إيماءة جعلته يصمت وقد بدا عليه الضيق. لم يقدم شيئا هذا العام، وطغى عليه شعور بالندم وهو يسير وسط هذه اللوحات

---

(١) الإمبراطور: الإمبراطور نابليون الثالث (١٨٠٨-١٨٧٣). (المترجمة)

والتماثيل، وسط هذا الإبداع الإنسانى، لا بدافع الغيرة، فلم يكن من المتعالين أو المغرورين وإنما بسبب شعوره الدفين بالخوف من الانحدار البطىء، هذا الشعور الخفى الذى يلاحقه باستمرار بأنه سيفقد القدرة على الإبداع.

فسأله صاندوز: "كيف يسير الحال فى معرض المرفوضين؟"

أجاب: "إنه يسير بشكل رائع! هيا نذهب لنرى."

ثم التفت إلى كلود قابضا على يديه: "أما أنت يا عزيزى، فقد أصبحت شهيرا... أتعلم أننى قد أضحى بعشرة أعوام من عمرى لأرسم امرأة كتلك التى رسمتها فى لوحتك."

تأثر كلود بشدة من هذا المديح الغالى الصادر عن شخص مثل بونجراند، وشعر بالفعل بأنه حقق النجاح المنشود! ولكنه عجز عن إيجاد كلمات تعبر عن عرفانه وشكره، فانتقل فجأة إلى موضوع آخر ليخفى انفعاله وتأثره، فقال: "يا له من فنان ماهودو! إن تمثاله رائع بالفعل... إنها امرأة جميلة، أليس كذلك؟"

أخذ يدور مع صاندوز حول التمثال ليرياه من جميع جوانبه، بينما اكتفى بونجراند بالابتسام، ثم قال: " نعم! نعم! هى بالفعل ممتلئة الصدر والأرداف، ولكنه استطاع أن يربط بين الأطراف بطريقة رائعة، إنه تمثال رقيق وجميل بالفعل... والآن وداعا! سأترككما لأجلس قليلا، فساقاى متعبتان."

رفع كلود رأسه منصتا إلى ضوضاء عالية لم تفاجئه في البداية، ولكنها تعالت في الهواء محدثة ضجة متواصلة وكأنها عاصفة تدوى على أحد الشواطئ أو أصوات هجوم مستمر لا ينتهى، فقال لصاندوز: "أتسمع؟ من أين يأتى هذا يا ترى؟"

فقال بونجراند وهو يسير مبتعدا: "إنها أصوات الجمهور فى القاعات!"

عبر الصديقان الحديقة، ثم صعدا إلى القاعات المخصصة لمعرض المرفوضين.

كانت القاعات مجهزة جيدا، فلم يسبق للوحات المعروضة أن وضعت بمثل هذه الفخامة، زينت الأبواب بستائر من الأقمشة العتيقة بحليات ونقوش من الصوف الأخضر، وضعت مقاعد من المخمل الأحمر، وستائر من القماش الأبيض لتغطى الفتحات الزجاجية بالسقف. كانت لكل القاعات نفس الملامح والسمات وقد زخرت جميعها باللوحات الجديدة ذات الأطر الذهبية والألوان القوية الساطعة. طغى على المكان جو من البهجة المميزة وانطلاق وفورة الشباب، وإن لم يكن من السهل تمييزه للوهلة الأولى. كان الجمهور يزداد تدافعا وازدحاما مع الوقت، خاصة وأن الكل كان يمقت المعرض الرسمى، فأتوا بدافع الفضول لمشاهدة اللوحات التى رفضها المحكمون ليقيموها وطربت قلوبهم لرؤية هذه اللوحات "المسلية". كان الجو حارا للغاية،

وقد بلغت الحرارة ذروتها بحلول الساعة الرابعة، حتى أوشك الجميع على الاختناق خاصة مع الأتربة التى تتصاعد من الألواح الخشبية.

صاح صاندوز: "عجبا! لن يكون من السهل التجول فى الداخل لنجد لوحتك."

كان متلهفًا لرؤيتها وقد غمرته عاطفة أخوية تجاه كلود، فلم يعد يشغله فى هذا اليوم سوى لوحة صديق طفولته ونجاحه. فهتف به كلود: "اهدأ قليلا! لا داعى للعجلة، فاللوحة لن تطير!"

حاول كلود تصنع عدم الاهتمام، على الرغم من رغبته العارمة في الركض للبحث عن لوحته. كان يرفع رأسه لينظر حوله فى الخفاء. وبعد قليل، ترامت إلى أذنه أصوات ضحكات خفيفة لا تنقطع وسط ضوضاء الجمهور ولكن سرعان ما اختفت فى خضم المناقشات وأصوات الأقدام. ثم رأى بعض الزوار وهم يسخرون من بعض اللوحات المعروضة مما أزعجه بشدة وأثار قلقه، خاصة وأنه كان يتمتع بسذاجة ورهافة حس شديدة يخفيها بخشونته وانفعالاته الثورية، وإن كان دائم الشعور بالألم تجاه الرفض والسخرية التي يتعرض لها باستمرار. ثم غمغم: "يبدو أنهم سعداء هنا!"

فأجاب صاندوز: "نعم! فلديهم ما يضحكون عليه، انظر لهؤلاء الأشرار المبالغين!"

أثناء وقوفهما أمام القاعة الأولى، اصطدم بهما فاجرول دون أن يقصد، فلم يكن قد رآهما، فانتفض منزعجا من هذا اللقاء. ولكنه قال لهما بود: "ها! لقد كنت أفكر فيكما... أنا هنا منذ ساعة."

فسأله صاندوز: "أتعلم أين وضعوا لوحة كلود؟"

كان فاجرول قد أمضى أكثر من عشرين دقيقة أمام هذه اللوحة متأملا إياها ومتابعا لرد فعل الجمهور ولكنه تردد، ثم قال:

"لا أعلم! دعونا نسير سويا ونبحث عنها."

انضم إليهما بعد أن تخلى هذا اليوم عن تصرفاته السوقية ومزاحه الساخر القاسى، وظهر على وجهه طابع من الجدية يتناسب مع ملابسه الأنيقة، وإن امتعضت شفتاه كغلام صغير، ثم قال لهما برزانة واقتناع: "أتعلمان أننى نادم على عدم تقديم شيء هذه السنة! كنت سأصبح معكم وأحظى بنصيب من النجاح... المكان يزخر بالأعمال المذهلة يا عزيزى مثل هذه الجياد..." وأشار إلى لوحة كبيرة معلقة أمامهم وقد احتشد أمامها الجمهور وهو يضحك. كانت لوحة رسمها أحد المحاربين القدامى لمجموعة من الجياد الطليقة فى أحد المراعى، ولكنها لم تكن جيادا عادية وإنما جياد خرافية بالألوان الأزرق والبنفسجى والوردى، أظهر فيها ببراعة روعة تكوينها الجسمانى.

فقال كلود وقد ساوره الارتياب ناحيته: "قل لى! أتسخر منا؟"

تصنع فاجرول الحماس، وقال: "كيف هذا؟ اللوحة مليئة بالجمال! فالرجل يعرف جواده حق المعرفة! إن رسمه ردىء دون شك، ولكن ما أهمية أن ينقل عن الطبيعة مادام متفردا!"

ظلت ملامحه الرقيقة محتفظة برصانتها وإن لمعت عيناه الصافيتان بنظرة ساخرة. ثم التفت إلى كلود معطيا تلميحا شريرا لم يفهمه أحد سواه حين قال له: "دعك من الحمقى الذين يضحكون، لا تتأثر بهم، فسترى الكثير منهم حالا!"

مضى الأصدقاء الثلاثة بصعوبة بالغة وسط هذا الحشد الهائل من البشر، حتى دخلوا القاعة الثانية، ثم مروا بأعينهم على الحوائط ولكنهم لم يجدوا لوحة كلود هناك. أتت إيرما بيكو بصحبة جانيير وقد استندا إلى أحد النقوش البارزة فى الحائط وأخذ جانيير يتأمل لوحة صغيرة، بينما رفعت إيرما رأسها الوردى سعيدة بهذا التدافع ومضت تضحك للمارة.

فصاح ساندوز متعجبا: "كيف هذا؟ أهى مع جانيير الآن؟"

شرح فاجرول بهدوء: "إن الأمر لا يتعدى نزوة عابرة... إنها قصة غريبة... أنت تعلم أن هذا الماركيز الأحمق- الذى تتحدث عنه الصحف- أعطاها شقة فاخرة مفروشة بأفخم أنواع الأثاث، أتتذكره؟ ولكنها تتمادى بالفعل... لطالما قلت هذا! فمهما حظيت بفراش فاخر، تحن دائما إلى الفراش البسيط، حتى تشتهى فى بعض الأيام الإقامة بحجرة ضيقة فى منزل أحد الرسامين. وهكذا تركت كل شىء وذهبت يوم الأحد إلى مقهى بودوكين نحو الساعة الواحدة، ولم يبق بعد أن انصرفنا جميعا سوى جانيير نائما على الطاولة أمام كأسه، فقررت مرافقته!"

رأتهم إيرما وأشارت لهم من بعيد فـي تحيـة رقيقـة، فاضـطروا للاقتراب. لم يبد على جانيير أى أثر للمفاجأة عندما التفت، بشعره الباهـت ووجهه الأمرد الصغير الذى شحب بصورة غير عادية، ليراهم واقفين خلفه مباشرة. كان يغمغم: "هذا غريب!"

فسأله فاجرول: "عما تتحدث؟"

أجاب: "عن هذه اللوحة الصغيرة الرائعة... إنها مطابقة للواقع وبريئة ومقنعة!"

كان يتحدث عن لوحة صغيرة جذبت انتباهه، كانت لوحـة طفوليـة للغاية، وكأن صاحبها صبى لا يتعدى الرابعة من عمره، عبارة عن منـزل صغير يقع على حافة الطريق وقد خرج من السقف خيط لولبى من الدخان، وإلى جواره رسمت شجرة حددتها خطوط سوداء.

بدرت عن كلود إيمـاءة عـصبية، بينمـا قـال فـاجرول ببـرود: "إنها رقيقة للغاية... وأنت أين وضعت لوحتك يا جانيير؟ "

فأجاب: "لوحتى؟ إنها هناك."

كانت لوحته موضوعة إلى جانب لوحة أخـرى صـغيرة وجميلـة، وتصور منظرا طبيعيا عند شاطئ السين، وقد اكتست بلون رمادى متلألـئ جميل على الرغم من قوته. كانت اللوحة متوازنـة، خاليـة من أى عنـف أو اندفاع ثوريين.

صاح كلود وهو يقترب بحرص منها: "أبلغت بهم الحماقة ليرفضوا تلك اللوحة! ولكن لماذا؟ أنا أسألك!"

لم يكن هناك مبرر مقبول لرفض لجنة التحكيم. ولكن فاجرول صاح بصوت حاسم، لم يبين نواياه أيسخر من اللجنة أوِ من اللوحة: "رفضت لأنها واقعية!"

فى تلك الأثناء، ظلت إيرما ترقب كلود بعينين ثابتتين، دون أن يلحظها أحد، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة لا إرادية بسبب العنف الأحمق الذى لهذا الشاب. كيف يجرؤ على القول بأنه لم يفكر فى رؤيتها؟ شعرت بأنه مختلف هذه المرة، فقد بدا غريبا ومنهكا وقد تغير لونه كمن أصيب بحمى قوية. لكم آلمها عدم التفاته إليها، فحاولت جذب انتباهه بلمس يده فى إيماءة ودودة، وهى تقول: "أليس هذا الذى أمامنا هو أحد أصدقائكم؟ إنه يبحث عنكم!"

كان هذا هو دوبوش. كانت تعرفه، فقد رأته مرة فى مقهى بودوكين. كان يخترق الجماهير بصعوبة وقد تاهت عيناه وسط هذا الجمع المهول. وبينما حاول كلود أن يجعله يراهم، أعطاه دوبوش ظهره ليحيى ثلاثة أشخاص واقفين، كان الأب سمينا قصيرا ذا وجه شديد الحمرة، والأم شاحبة الوجه نحيلة للغاية من أثر فقر الدم، وابنتهما هزيلة هى الأخرى، حتى بدت كطفلة على الرغم من بلوغها الثامنة عشرة.

عندها غمغم كلود: "هاِ هو مدع وبارد كعادته، أيخجل منا أم ماذا هذا القذر؟ من أين له بمثل هذه التصرفات؟"

فقال جانيير بهدوء إنه يعرف تلك العائلة من بعيد، إنه السيد مارجايان وهو مقاول كبير فاحش الثراء جمع ثروته من أعمال البناء الضخمة فى باريس، حتى إنه تولى بنفسه إنشاء شوارع كاملة. بالتأكيد تعرف عليه دوبوش عن طريق أحد المعماريين الذين يعمل لديهم. أما صاندوز فقد أثار شفقته هزال ونحافة الفتاة، واكتفى بالقول: "يا لها من مسكينة تلك الصغيرة! ما أصعب هذا المنظر!"

فصاح كلود بشراسة: "دعك من هذا! إنهم يحملون على وجوههم سمات جرائم البرجوازية، إنهم يقطرون قذارة وحماقة. والآن، ها هو صديقنا الجبان يسير معهم. لا أصدق كيف بلغت به البلاهة؟ إذن رحلة سعيدة! هيا ودعه يبحث عنا!"

لم يكن دوبوش قد رأى أصدقاءه، فمد يده فى لياقة مبالغ فيها للسيدة مارجايان وسارا سويا، وهو يشرح لها بعض اللوحات.

فقال فاجرول: "هيا نحن! دعونا نستكمل جولتنا!" ثم التفت إلى جانيير وقال: "أتعلم أين وضعوا لوحة كلود؟"

فأجاب: "لا! لا أعلم، ولكنى كنت أبحث عنها... سأسير معكم."

سار معهم ونسى إيرما بيكو فى المكان الذى تركها فيه. كانت هى من طلبت أن تأتى معه إلى المعرض، ولكنه لم يكن معتادا على اصطحاب النساء فى النزهات، حتى كان يغفل عن وجودها فينساها ويسير بمفرده فى الطريق، بل ويفاجأ من رؤيتها بجانبه، لا يدرى كيف أو لماذا يسيران سويا؟

فركضت وتأبطت ذراعه لتلحق بكلود الذى دخل قاعة أخرى مع صـــاندوز وفاجــرول.

وهكذا سار الخمسة بصعوبة وسط الحشود، فيتفرقون تارة ويتجمعون تارة أخرى وفقا للتيار المتدفق من البشر. وفجأة، استوقفتهم لوحـــة بـــشعة لشاين يصور فيها السيد المسيح وهو يغفر للمرأة الخاطئة، عبارة عن صور وأشكال جافة منحوتة فى الخشب اليابس ملونة بالطين. بينما وضعت بجانبها لوحة رائعة أثارت إعجابهم جميعا تصور امرأة من ظهرها وقد برز حقواها والتفتت برأسها. واستمر الحال هكذا، فكانت جدران المعرض تحمل أجمـــل اللوحات وأردأها جنبا إلى جنب، وتمزج بين أعمال العـــابثين مـــن أتبـــاع المدرسة التاريخية وأعمال الواقعيين المجانين المدفونة وسط أعمال مـــدعى الأصالة. فوضعت لوحة " موت إيزابيل" التى تحللت من طول تخزينها فـــى كهوف كلية الفنون إلى جوار لوحة "السيدة التى ترتدى الأبيض" وهى لوحة مميزة لفنان كبير، ووضعت لوحة "راعى يتأمل البحر" الضخمة فى مواجهة لوحة "مجموعة من الإسبان يلعبون الراحية"، وهى لوحة صغيرة ذات إضاءة قوية ومبهرة. كانت مظاهر الفن الردىء متنوعة بداية من اللوحات العسكرية ذات الجنود المصنوعين من الرصاص، وحتى اللوحات التاريخيـــة الباهتـــة ولوحات العصور الوسطى المطلية بالقار.

ولكن، وسط هذه الفوضى، ظهرت لوحات جميلـــة لمنـــاظر طبيعيـــة وبورتريهات مختلفة تفوح منها رائحة الشباب والإقدام والـــشغف. يقـــال إن

المعرض الرسمى يخلو من اللوحات السيئة، ولكن الحقيقة هى أن اللوحة المتوسطة هناك فى الواقع أكثر ابتذالا ورداءة من تلك الموجودة الآن. فهنا فى معرض المرفوضين، يشعر الجميع وكأنه فى معركة، ولكنها معركة مبهجة مليئة بالحمية، فمع بزوغ الصباح، تضرب الأبواق ويزحف الجميع نحو العدو متيقنين من قدرتهم على هزيمته قبل غروب الشمس.

كان هذا الجو من الحمية والصراع يسعد كلود ويثير حماسته، ولكنه انزعج فجأة عند سماع صوت ضحكات الجمهور كدوى الرصاص. كانت أصوات الضحكات خافتة فى البداية، فأخذوا يتقدمون حتى تعالت الضحكات بوضوح بمجرد دخولهم القاعة الثالثة. لم تعد النساء تخفى هذه الضحكات بمناديلهن، بل أغربن فى الضحك الصاخب، بينما كاد الرجال أن يختنقوا من فرط القهقهة. انتشر هذا المرح كالعدوى بين الجمهور الذى جاء ليستمتع. فكانوا ينفجرون ضاحكين أمام كل لوحة، خاصة اللوحات الجيدة. فقد نالت لوحة شاين سخرية أقل من تلك التى لاقتها لوحة المرأة بحقويها البارزين كما لو كانت لوحة ساخرة غير عادية. كما ضحك الكل أيضًا من لوحة " المرأة التى ترتدى الأبيض"، فتدافعوا أمامها فاغرين أفواههم وانفجروا فى الضحك. هكذا لاقت كل لوحة نجاحا من نوع خاص، وأخذوا ينادون بعضهم بعضا من بعيد لرؤية تلك اللوحات"الظريفة". ولكن أشد ما أغضب كلود عند دخوله القاعة الرابعة هى همهمات الاحتجاج التى صدرت عن سيدة عجوز حتى أوشك على صفعها. ثم التفت إلى الآخرين وقال: "يا لهم من حمقى! إنهم يجعلونك ترغب فى أن توسعهم ضربا!"

انفعل صاندوز هو الآخر، بينما استمر فاجرول فى مدح اللوحات الرديئة بصوت عال مما زاد من المرح والتهريج. فى تلك الأثناء، كان جانيير يشق طريقه بصعوبة وسط الحشود ماسكا بيد إيرما بيكو التى كانت تنورتها تلتف حول أقدام الرجال السائرين.

وفجأة، وجدوا أمامهم جورى بأنفه الوردى الكبير ووجهه الصبيانى الأشقر، مخترقا الجماهير بعنف وقد انفرجت أساريره كمن حقق نصرا شخصيا. فأخذ يصيح عندما رأى كلود: "إنه النجاح!"

فقال كلود: "أى نجاح؟"

أجاب جورى: "إنه النجاح الذى تلاقيه لوحتك!... تعال معى، يجب أن ترى بنفسك! إنه مذهل!" هش وجه كلود من فرط الفرح الذى اجتاحه، فها قد تحققت نبوءة بونجراند، واعتقد بالفعل أنه عبقرى، ولكنه تصنع البرود واللامبالاة. واستمر جورى يحيى باقى الأصدقاء. ثم التف هو وجانيير وفاجرول حول إيرما وكأنها طفل صغير وسط عائلته، كما كانت تقول

فصاح به صاندوز وقد نفد صبره: "أين هى إذن؟ قدنا إلى مكانها!"

سارت المجموعة كلها، يتقدمها جورى، حتى وصلوا إلى القاعة الأخيرة المزدحمة بالناس حتى اضطروا إلى التدافع ليدخلوا. وقف كلود فى المؤخرة، وترامت إلى أذنه أصوات الضحكات والضوضاء المتصاعدة كالأمواج المتلاطمة. ثم دخل ورأى مجموعة هائلة من الناس يتزاحمون أمام لوحته منهمكين فى ضحك متواصل ساخرين منها!

فقال جورى بزهو: "ما رأيك إذن؟ ها قد نجحت لوحتك!"

فغمغم جانيير وهو يرتعد خجلا كمن تلقى صفعة على وجهه: "إنه الكثير من النجاح... أنا كنت أفضل شيئا آخر."

فصاح جورى بمبالغة: "لا تكن أبله! هذا هو النجاح!... ماذا يضيره من ضحكاتهم؟ ولكن ها نحن قد أثبتنا وجودنا، فجميع الصحف ستتكلم عنا غدا!"

قال صاندوز بصوت مختلج والألم يعتصره: "إنهم حمقى!"

بينما ظل فاجرول صامتا متصنعا عدم الاهتمام الذى يليق بصديق العائلة الذى يسير فقط فى ركابها. وحدها إيرما ظلت باسمة، ثم أخذت تربت برفق على كتف كلود الذى يسخر منه الجميع، وهمست فى أذنه: "لا داعى للغضب يا عزيزى! ليست هذه كلها سوى حماقات، فالجميع يستمتع على الرغم من كل شىء."

خيم سكون قاس على كلود، وشعر ببرودة قارسة تجمده فى مكانه. كم هى مؤلمة خيبة الأمل، حتى شعر بقلبه يتوقف للحظة عن الخفقان. اتسعت عيناه من الصدمة وثبتهما بقوة على اللوحة ليتأملها من جديد. لأشد ما كانت دهشته وهو يراها هذه المرة، تعرف عليها بالكاد وهى تتوسط القاعة، وقد اصفرت من أثر الإضاءة الباهتة المسلطة عليها، وبدت أقل حجما وأكثر عنفا وصعوبة ربما من أثر اللوحات المجاورة لها، أو ربما بسبب تغيير مكانها. ولكن من الوهلة الأولى قفزت كل عيوبها أمام ناظريه، بعد أن أمضى أمامها

شهورا دون أن يراها. كان بإمكانه تعديلها وتوضيح الخلفيات وإظهار بعض الأجزاء أو تغيير بعض الألوان. فالرجل ذو السترة المخملية كان سيئا للغاية وقد اختلطت ألوانه وبدا وضعه فى اللوحة غريبا، وحدها يده كانت جميلـــة. وفى الخلفية، بدت الفتاتان الشقراء والسمراء فى حاجة إلى تعديلات كثيـــرة لإضفاء مزيد من التماسك والصلابة على صورتيهما، فلم يدرك أحد جمالهما سوى كلود بعينى الفنان. ولكنه كان راضيا عن الأشـــجار وعـــن المكـــان المشمس الذى اختاره لأبطال لوحته، أما المرأة العارية المستلقية على العشب فبهره جمالها وتألقها ، حتى شعر بأنها تجاوزت حدود موهبته وكأن شخصا آخر قام برسمها.

فالتفت إلى صاندوز وقال ببساطة: "لديهم كل الحق ليضحكوا، فاللوحة ناقصة... ولكن لا يهم، فالمرأة رائعة! لم يكن بونجراند يسخر منى."

حاول صاندوز أن يصطحبه إلى الخارج، ولكنه أصر على الاقتراب، فمادام قد قيم لوحته بنفسه، فلا ضير من الاستماع إلى رأى الجمهور. كانت موجة الضحكات مستمرة بل متزايدة. ومن أمام الباب، ترامت إلى أســـماع الجميع قهقهات الزوار الذين يحدقون فى اللوحة مصدرين صفيرا وضـــجيجا عاليا، حتى النساء كانت تصدر عنهن ضحكات حادة ساخرة. وفـــى جانـــب القاعة، رأى مجموعة من الشباب وقد أنهكهم الضحك كما لو كان هناك من يدغدغهم دون توقف. وشاهد سيدة تتهاوى على المقعد، ولم تعـــد ركبتاهـــا تقدران على حملها تحاول التقاط أنفاسها من فرط القهقهة. ركـــض الجميـــع

لينادوا باقى الزوار من القاعات المجاورة ليروا هذه اللوحة العجيبة، وبالفعل تدفق الجمهور المتدافع متسائلين: "أين هى؟ أتقصدون تلك اللوحة إنها أقرب إلى المزحة!"

وانهالت الكلمات الحادة والجارحة، فكانوا يسخرون من موضوع اللوحة نفسه: " لا نفهم، فاللوحة سخيفة وغير معقولة إلى درجة لا تحتمل! فمادامت المرأة تشعر بالحر الشديد، فلماذا يرتدى هذا الرجل سترة من المخمل كمن يخشى أن يصاب بالزكام! ... ولماذا تبدو المرأة ضاربة إلى الزرقة هكذا؟ ربما يكون قد انتشلها لتوه من إحدى البرك، ثم جاء ليستريح بعيدا عنها سادًا أنفه!... إنه يفتقر للياقة! ألم يكن من الممكن أن يرينا وجهه؟ أنا اعتقد أنها نزهة لمجموعة من فتيات المدرسة الداخلية، أترون الفتاتين تلعبان وتقفزان؟ ولكن لماذا ازرق لونهما؟ مثلهما مثل الشجر وكل شىء فى اللوحة!"

بينما وقفت مجموعة أخرى تتميز غضبا من هذه الزرقة، من هذه الدرجة الجديدة من الإضاءة التى اعتبروها إهانة للفن. لوح رجلان مسنان بالعصا فى انفعال ضد من يسيئون للفن. وسمع كلود رجلا آخر بدا عليه الوقار يمضى مغتاظا مؤكدا لزوجته أنه يكره هذا النوع من المزاح والدعابة. ثم وقف رجل دقيق يبحث فى الفهرس عن أى شرح أو تفسير لهذه اللوحة ليتلوه على المرأة التى معه، فقرأ عنوانها بصوت عال "الهواء الطلق"، وعندها انهالت عليه الصيحات والسخرية. وانتقلت الكلمة على الألسنة ومعها التعليقات الساخرة: "الهواء الطلق! أيعنى هذا أن يظهر كل شىء فى الهواء؟ أم ماذا؟"

تحول الأمر إلى فضيحة، وتدفقت الجماهير واحتقنت وجـوههم مـن الغضب، ومضى هؤلاء الجهال ينتقدون لوحته فى سخرية لاذعة، واصمين إياها بكل أنواع الحماقة والشذوذ والبلاهة. تماما كما يفعـل البرجوازيـون الحمقى أمام الأعمال القيمة والجيدة!

فى تلك اللحظة، رأى كلود دوبوش ومعه السيد مارجايان وعائلتــه. وما أن وقعت عيناه على اللوحة، حتى انتابه شعور بالحرج والخجل، فعمـد إلى الإسراع متجاهلا رؤية اللوحة وأصدقائه. جحظت عينا السيد مارجايان وتسمرت قدماه القصيريان فى الأرض عند رؤية اللوحة، وسـأله بـصوت أجش: "قل لى إذن من هو هذا الأحمق الذى ارتكب هذا الفعل؟"

لاقى هذا التعليق العنيف الصادر عن هذا البرجوازى الثـرى قبـولاً واسعًا بين الجمهور؛ مما أدى إلى تفاقم الضحكات. أسعده هذا القبول فمضى يسخر من غرابة اللوحة وهو يقهقه ويطلق ضحكات قوية مغالية غطت على باقى الأصوات وكأنها الحركة الختامية لمقطوعة موسيقية! ثم همست زوجته فى أذن دوبوش: "اصطحب ابنتى بعيدا عن هنا!"

هرع إلى ريجين، التى أغمضت عينيها، ليأخذها من وسط الجمهـور مستخدما قوته، كما لو كان ينقذها من خطر مميت محدق بها. واصـطحبهم جميعا إلى الباب وحياهم بحرارة ولياقة خليقة برجل من النبلاء، ثم عاد إلى أصدقائه وقال بحدة لصاندوز: "ماذا تريد؟ إنه ليس خطئى!... لقد قلت له من قبل إن الناس لن تفهمه... فهذا الرسم ردىء! نعم! كان عليكم أن تقولوا له، هذا الرسم سيئ!"

قاطعه صاندوز غاضبا جامعا قبضة يده: "سخروا أيضًا من دولاكروا وكوربيه! هؤلاء الحمقى الأغبياء! هؤلاء الجلادون!"

شاطره جانيير أيضًا هذا الحقد على الجهال بوصفه فنانا هو الآخر، وتأثر لذكرى المعاناة التى يلاقيها الموسيقيون بمسرح بادولو فى كل يوم أحد لتقديمهم الموسيقى الحقيقية. فقال: "إنهم نفس النوعية! إنهم الذين يسخرون من فاجنر! أنا أعرفهم جيدا... انظروا لهذا الشخص الواقف هناك..."

منعه جورى من استئناف حديثه. كان يستمتع بهيجان الجمهور مرددا أنه قد يجنى حوالى مائة ألف فرنك فقط من الدعاية التى قد يحصل عليها هنا. التقت إيرما بصديقين لها من صغار المضاربين فى البورصة، وكانوا من أشد الساخرين قسوة وحدة فى التعليق، فحاولت تهذيبهما وحملهما على تذوق اللوحة ضاربة على أصابعهما بخفة. لم ينبس فاجرول بكلمة طوال هذا الوقت، وانشغل بفحص اللوحة ملقيا بصره من حين لآخر على الجماهير. استطاع بفضل فطنته الباريسية ونفاذ بصيرته أن يعرف سبب سوء التفاهم، فقد أدرك ما ينقص اللوحة قبل أن يصبح بمقدورها أن تغزو الجميع. كان من الضرورى إضافة بعض الحركات الخادعة أو تخفيف بعض الألوان وترتيب عناصر اللوحة. كان لا يزال واقعا تحت تأثير كلود، واخترقه فن هذا الفنان تاركًا فيه علامات لا تمحى، ولكنه كان يعتبره مجنونا للموافقة على عرض مثل هذه اللوحة، أليست قمة الغباء هى الثقة فى ذكاء الجمهور؟ فما فائدة وضع تلك المرأة العارية إلى جوار هذا الرجل ببذلته الكاملة؟ كان

يعرف أن كلود يعتقد أنه رائد فى فنه، وأن لوحته تحمل سمات لا توجد فى أى لوحة أخرى فى المعرض. وشعر بازدراء شديد لهذا الفنان ذى الموهبة الفذة، الذى يسخر منه الجميع كما لو كان أقل من أسوأ الرسامين. واشتد به هذا الشعور حتى لم يعد يقدر على إخفائه، فقال لكلود بصراحة مفرطة: "اسمع يا عزيزى، أنت الذى اخترت. إن الأحمق هنا هو أنت!"

التفت إليه كلود فى صمت وهو يشيح بنظره عن الجمهور. لم يفت الأمر فى عضده، ولكنه شحب تحت وطأة الضحكات وانعقدت شفتاه فى حركة عصبية خفيفة، خاصة أنه لم يكن هناك من يعرف أنه هو صاحب اللوحة، كانت هى وحدها من ينهال عليها وابل السخرية. ثم تحول عن لوحته وأجال بصره ببطء بين اللوحات الأخرى المعروضة. وفى خضم هذا الألم الذى أصاب كرامته الجريحة بعد زوال كل هذه الأوهام، انتابته فجأة نفحة من الشجاعة الممزوجة بالقوة والطفولة ألهمته إياها لوحته الجريئة وجعلته يرغب فى مهاجمة هذا الروتين العتيق بشغف لا يعرف الحدود. شعر فجأة براحة وقوة تدب فى أوصاله، وزال عنه كل ندم وتأنيب ضمير، وامتلأ برغبة قوية فى مواجهة صادمة للجمهور. كانت اللوحة يشوبها بالطبع بعض نقاط الضعف وبعض الملامح الطفولية، ولكن كانت بشكل عام لوحة جميلة زاخرة بإضاءة قوية رقيقة كالفضة ومنتشرة فى كل مكان تتراقص فيها الانعكاسات المشرقة فى وسط الهواء الطلق. كانت كنافذة انفتحت فجأة فى منتصف مطبخ قديم غطاه القار، نافذة اخترقت أعواما من التقاليد الجوفاء،

فدخلت الشمس وهشمت الجدران فى الصباح الربيعى! كانت الألوان القوية فى لوحته وهذه الزرقة التى غلفتها التى سخر منها الجميع هى سبب سطوع وإشعاع لوحته وسط باقى اللوحات. ألم يكن هذا هو الفجر الجديد الذى يعلن بزوغه عن عصر جديد فى الفن؟ رأى أحد النقاد يتأمل لوحته دون أن يضحك، كما التف حولها رسامون معروفون، محتفظين بوقارهم على الرغم من دهشتهم، حتى السيد مالجرا، بقذارته المعهودة، كان يتجول وينتقل من لوحة إلى أخرى يتأملها بحس الذواقة، ولكنه تسمر مذهولا أمام لوحته. فى تلك اللحظة، التفت إلى فاجرول- الذى اندهش من رد كلود المتأخر- وقال: "مادمنا نستطيع يا عزيزى سنبقى حمقى، ومن المرجح أن أظل أحمق كما أنا... فهنيئا لك حسن التفكير!"

ربت فاجرول على كتفه بحركة أخوية ليعلمه بأنه كان يمزح، بينما أمسك صاندوز بذراع كلود واصطحبه للخارج ووراءه المجموعة كلها، وقرروا أن يمروا بقاعة التصميم المعمارى، خاصة وأن دوبوش كان يرجوهم بنظرات متوسلة أن يأتوا ليشاهدوا مشروعه الذى قبله المتحف، فلم يريدوا أن يخذلوه.

وما أن دخلوا حتى صاح جورى فى مرح: "ما أبرد الجو هنا! أخيرا نستطيع أن نتنفس."

دخل الجميع ماسحين جبهاتهم بارتياح، وكأنهم وجدوا مظلة يلجئون إليها بعد سباق طويل فى الشمس الحارقة. كانت القاعة شبه فارغة، والسقف

مغطى بقماش أبيض يضفى إضاءة متساوية وهادئة ولكنها كئيبة، كمياه راكدة فى أحد الينابيع، بينما لمعت الأرضية كالمرآة. عرضت المشروعات على الأربعة جدران، وغلب عليهم اللون الأحمر الباهت. كانت هناك مشروعات صغيرة وأخرى كبيرة وحددت أطرافها بلون أزرق خفيف لتزين هذه الجدران بدهانات من الأصباغ المائية. وفى المنتصف، وقف رجل ملتح بمفرده وسط القاعة، يتأمل باهتمام مشروع دار للأيتام. ثم مرت ثلاث سيدات مسرعات واختفين فى لمح البصر.

فى هذه الأثناء، شرح دوبوش مشروعه لأصدقائه، وهو عبارة عن قاعة صغيرة وبسيطة فى المتحف، ولكنها صممت بتأثير طموح جامح على عكس القواعد وضد رغبة أستاذه، الذى قرر قبولها فى المعرض بدافع النزاهة على الرغم من رفضه لها . فسأله فاجرول دون ضحك: "أصممت متحفك هذا لتعرض فيه لوحات مدرسة الهواء الطلق؟"

كان جانيير مستغرقا فى التأمل محركا رأسه، بينما أخذ يفكر فى شيء آخر. أخذ كلود وصاندوز يفحصان المشروع مبديين نوعا من الاهتمام، بدافع الصداقة، فقال كلود: "إنه جيد يا عزيزى، النقوش قد تبدو قديمة قليلا، لكن لا بأس به!"

قاطعه جورى وقد نفد صبره: "ألم يحن موعد الرحيل؟ هيا بنا فسأصاب بالرشح من شدة البرد."

تأهبوا للرحيل، وأصابتهم الكآبة لكونهم مجبرين على المرور بقاعات المعرض الرسمى كلها فى طريق الخروج، فاستسلموا بتذمر، بعد أن كانوا

قد أقسموا ألا تطأ أقدامهم هذا المكان ثانية. وهكذا مروا بمحاذاة القاعات كلها وهم يشقون طريقهم بخشونة بين الجمهور، ولم يمنعوا أنفسهم من إلقاء نظرات غاضبة يمينا ويسارا أثناء سيرهم. لم تكن اللوحات المعروضة هنا تشبه لوحاتهم المبهجة التى أثارت فضيحة فى معرضهم بإضاءتها الساطعة وألوانها المباشرة، بل عبارة عن أطر ذهبية تتوسطها ظلال قاتمة وأشياء مؤلمة سوداء، حتى الصور العارية اصفرت من أثر التخزين، كانت كل اللوحات التاريخية والطبيعية التى تحمل عبق الإرث الكلاسيكى مغلفة بسواد تقليدى. تتضح جميعها بالملل والجمود، حتى ألوانها كانت تشبه البقع الطينية خالية من أى إحساس فنى. أخذوا يحثون الخطى ليفروا من هذا المكان الذى يسيطر عليه السواد، منددين بنوع من التعصب بهذا الفن، مؤكدين أن هذا المكان لا يضم شيئا واحدا ذا قيمة!

خرجوا وتوجهوا إلى الحديقة، حيث قابلوا شاين ومهاودو الذى ارتمى على كلود مهنئا إياه بلوحته قائلا: "يا لها من لوحة رائعة يا عزيزى!"

فبادله كلود التحية مادحا تمثال "جانية العنب": "وأنت أيضًا! فقد قدمت قطعة فنية أدهشت الجميع!"

أثارت شفقته رؤية شاين الذى سار بمفرده دون أن يبدى أحد أى رأى بشأن لوحته واغتم بسبب هذه اللوحة الرديئة وتحسر على حياة هذا الريفى التى ضاعت بسبب آراء أحد البرجوازيين التقليديين. فقرر أن يجامله ليسعده، فهزه كلود بود وقال: "لوحتك أنت أيضًا جميلة... يا لك من جرىء، ألا يخيفك الرسم؟"

احمر وجهه من الزهو وانفرجت أساريره تحت لحيته الكثيفة وقال: "بالطبع لا!"

انضم ماهودو وشاين إلى المجموعة، ثم سألهم ماهودو إذا كان أحدهم قد رأى تمثال "الزارع" لشامبوفارد، فهو التمثال الوحيد الذى قبله المعرض. فاصطحبهم ليروه سائرين خلفه وسط الحديقة التى بدا زحف الجمهور إليها.

توقف ماهودو فى منتصف الممر الرئيسى وقال: "ها هو شامبوفارد يقف أمام تمثاله!"

كان رجلا سمينا، ذا ساقين ممتلئتين ووجه مليح وممتلئ كوجه بوذا. كان واقفا يتأمل تمثاله فى زهو. يقال إنه ابن أحد المحاربين القدامى فى ضواحى أميان. بحلول عامه الخامس والأربعين، كان قد صنع أكثر من عشرين عملا فنيا، وهى تماثيل بسيطة زاخرة بالحيوية، كان عبقريا ماهرا دون مغالاة، يشبه الأرض في إنتاجها، فيكون جيدا مرات وأخرى لا، خاصة وإنه لا يعلم أبدا ماذا يصنع؟ كان لا يتمتع بحس نقدى، حتى لم يكن يميز بين أعماله الرائعة المجيدة وبين التماثيل الرديئة التى يصنعها فى بعض الأوقات. كان يعمل دائما بحمية عصبية دون أن يساوره أى شك فى موهبته، بل كان دائم الثقة والثبات، حتى صور له كبرياؤه أنه فى مصاف الآلهة.

غمغم كلود: "هذا التمثال مدهش! ما أروع ملامحه وتكوينه!" لم يلتفت فاجرول إلى التمثال ومضى يضحك من منظر شامبو فارد ومن مجموعة طلبته الذين يصحبهم معه دائما فاغرين الأفواه من فرط الانبهار

بتحفه الفنية، فقال ساخرا: "انظروا كيف يقفون مدهوشين أمام التمثال؟ وانظروا إليه وهو يتأمل ذاته فى خيلاء؟"

حلق شامبو فارد بعيدا عمن حوله مزهوا بقدرته على التمخض عن عمل بمثل هذه الروعة، فمكث يتأمله كأنه يراه للمرة الأولى والأخيرة. وارتسمت السعادة على وجهه العريض وانفجر ضاحكا وهو يحرك رأسه مكررا لعشرات المرات: "إنه مضحك... إنه مضحك..." غشى على كل طلبته من فرط الضحك، بينما ظل هو عاجزا عن التفكير فى شىء آخر سوى إعجابه غير المتناهى بنفسه.

أقبل بونجراند عاقدا ذراعيه خلف ظهره، وجال بنظراته فى كل جنبات المكان حتى وقع بصره على شامبوفارد، فحدث ارتباك وسط الطلبة الذين أفسحوا الطريق وهم يتهامسون منشغلين بمشاهدة هذا اللقاء الذى يجمع بين الفنانين الشهيرين اللذين تبادلا عبارات ودودة مثل: "دائما ما تقدم الروائع!... وأنت ألم تقدم شيئا؟ عجبا!... لا لم أقدم شيئا فقد قررت أن أستريح هذا العام، فلازلت أبحث... دعك من هذا إن الإبداع يأتى وحده... وداعا!... وداعا!"

ومضى شامبوفارد ومعه طلبته بخطوات بطيئة وسط الحشود فى فخر جعله يشعر كأنه ملك يحيا فى سعادة وهدوء. فى تلك الأثناء، اقترب بونجراند من كلود وأصدقائه وأشار لهم فى حركة عصبية بيديه المرتعشتين إلى شامبوفارد وقال: "ها هو فنان مقدام! لكم أحسده! ما أسعده بهذا الشعور، الشعور بأنه لا يبدع إلا أعمالا رائعة!"

أبدى بونجراند إعجابه بتمثال ماهودو. كان الجميع يشعر بأبوته بسبب زهده وطيبته الشديدة، كان مثالا للعجوز الرومانسى المنظم والمرتب. ثم التفت إلى كلود وقال: "ألم أقل لك؟ أرأيت كيف جعلوا منك رائد مدرسة جديدة؟"

فأجاب كلود: "نعم! إنهم يحاولون تصنيفى... ولكن لا يوجد معلم لنا سواك."

صدرت عن بونجراند إيماءة توحى بالمعاناة وقال: "دعك من هذا! أنا لست حتى معلما لنفسى!" وبعد لحظات، كانوا يسيرون فى الحديقة فى طريقهم لرؤية تمثال ماهودو مرة أخرى، عندها لاحظ جورى أن إيرما بيكو لا تتأبط ذراع جانيير الذى وقف فى حيرة من أمره متعجبا كيف أضاعها؟ ولكنه اطمأن عندما روى له فاجرول أنه رآها تسير وسط الجمهور بصحبة رجلين تعرفهما، ثم استكمل طريقه بخفة مع أصدقائه شاكرا حظه السعيد.

لم يعد بإمكانهم التقدم من شدة تزاحم الناس الذين انقضوا على المقاعد وسدوا الطرق أمام الزوار السائرين دون توقف حول التماثيل البرونزية والرخامية الناجحة. عج مكان الأكل بالبشر وبأصوات الأطباق والملاعق، وعادت الطيور إلى أغصانها الكثيفة مصدرة أصواتا حادة تودع بها الشمس التى تغرب تاركة حرارة خفيفة على الزجاج. ساء الطقس، وزادت الرطوبة وتوقف الهواء المعبق برائحة التربة الرطبة. وغرقت الحديقة فى الضوضاء الصادرة عن القاعات وصرير الألواح الحديدية تحت وقع الأقدام كعاصفة هوجاء تزلزل المكان.

وحده كلود استطاع أن يميز هذا الضجيج من الأصوات الصاخبة المتلاطمة التى تعصف بأذنيه، كانت أصوات ضحكات الساخرين من لوحته.

فانتابته حركة عصبية، ثم صاح: "ماذا نفعل هنا الآن؟ لن أتناول شيئا هنا، فكل شيء في هذا المكان تفوح منه رائحة المعهد. هيا نتناول كأسا في مكان آخر!"

خرج الجميع وقد أعياهم التعب وعلا وجوههم تعبير عن الازدراء والاشمئزاز. وبمجرد خروجهم، مضوا يستنشقون بتلذذ هواء الطبيعة الربيعي. لم تتجاوز الساعة الرابعة، وألقت الشمس بأشعتها المائلة على الشانزليزيه فألهبت العربات وأوراق الشجر اليانعة وأحواض الزهور وكأنها تنثر حبيباتها الذهبية على كل شيء. ساروا على غير هدى حتى وصلوا إلى مقهى صغير على يسار ميدان الكونكورد يدعى: "جناح الكونكورد". كانت الصالة ضيقة للغاية فاضطروا إلى الجلوس بمحاذاة الشارع الجانبي على الرغم من البرودة التي تشع من الأشجار السوداء الكثيفة. ورءوا في نهاية الصفوف الأربعة من شجر الكستناء بظلالها المائلة للخضرة شارعا طويلا مشمسا بدت من خلاله باريس في أوج مجدها، فسطعت عجلات السيارات كالنجوم والحافلات الصفراء تشبه عربات الآلهة بالأساطير اليونانية يتطاير منها شرر براق وركابها كالفرسان، بينما تحولت هيئة المارة من أثر بريق ولمعان الضوء.

أمضى كلود ما يقرب من ثلاث ساعات أمام كأسه الممتلئة يتحدث ويتناقش وقد استبدت به حمى متنامية وأضناه التعب من كثرة ما شاهد من لوحات. كانوا يخرجون سويا كالمعتاد بعد المعرض، ولكن ما ألهب حماستهم هذه المرة هو القرار الليبرالي الذي اتخذه الإمبراطور، واستغرقوا في

صياغة النظريات وتبادل الآراء المتشددة التـــى لا يكفـــون عـــن ترديـــدها مدفوعين بولعهم بالفن الذى يؤجحه شبابهم.

وفجأة صاح: "وماذا إذن؟ أيضحك الجمهور؟ لا يهم، فمهمتنا تعليمه... ولكننا فى النهاية قد حققنا نجاحا. فمعرضنا كان أفضل من المعرض الرسمى بلوحاته الغليظة. على الأقل واتتنا الشجاعة والجرأة، فنحن المستقبل ... نعم سنرى لاحقا، سنقضى على معرضهم وسندخله كالفاتحين بفـــضل أعمالنـــا القيمة... فليضحكوا إذن حمقى باريس حتى يقعوا فى أيدينا!"

وأشار فيما يشبه النبوءة إلى المستقبل المنتصر، حيث سيتمرغون فى الشمس والرفاهية والسعادة التى ستقدمها لهم المدينة. ومـــضى يـــشير إلـــى الشوارع حتى ميدان الكونكورد الذى ظهر من خلفـــه - تحـــت الأشـــجار والنافورات المتلألئة والأسوار الجميلة- تمثالان يرمز أحدهما لمدينة رويـــن والآخر لمدينة ليل. واستكمل حديثه: "أيسخرون من الهواء الطلـــق؟ لـــيكن! فليسخروا كما شاءوا! إنها مدرسة الهواء الطلق! ...لم تكن موجودة بالأمس وانحصر وجودها بيننا وهم من أطلقوا عليها هذا الاسم! هم من أسسوها فى الواقع! ... لكم أود أن أذهب الآن إلى مدرسة الهواء الطلق!"

أخذ جورى يضرب على فخذه قائلا: "ألم أقل لك؟ لقد كنت على يقـــين من ذلك، كنت أعرف أن مقالاتى سيكون لها أثر على هؤلاء الحمقى! مـــن الآن فصاعدا، علينا أن نزعجهم ونثير غضبهم!"

تغنى ماهودو هو الآخر بالنصر وهو يتحدث عن تمثاله " جانية العنب"، ومضى يشرح ابتكاراته الجديدة التى وضعها فى هذا التمثال لـــشاين، الـــذى

جلس صامتا يستمع إليه وحده. بينما وصل جانيير– فى غمرة إغراقه في النظريات الخالصة– إلى الحديث عن إعدام المسئولين عن المعهد بالمقصلة، كذلك كان حال صاندوز الذى تفاعل معهم بحكم تعاطفه، ودوبوش أيضًا انتقلت إليه عدوى الثورة من أصدقائه، فاشتعل حديثهما وهما يضربان على الطاولة وكأنهما يلتهمان باريس بأكملها مع كل رشفة من كأسيهما. احتفظ فاجرول بهدوئه وابتسامته، ولكن سرعان ما اندمج معهم فى الحوار تدفعه متعة إقحام أصدقائه فى مزحات كثيرا ما تنقلب عليه. وبينما كان يلهب روح الثورة والتمرد لديهم، اتخذ فى هذا اليوم قراره الحاسم بالسعى نحو الحصول على جائزة روما، فقد رأى أنه من الحماقة كبت موهبته أكثر من ذلك.

أوشكت الشمس على الغروب، ولم يبق هناك سوى مجموعة من العربات عائدة من الغابة كساها لون ذهبى باهت. أغلق المعرض أبوابه، وخرجت جموع الزوار ومن بينهم مجموعة من النقاد يحملون كتيبات عن اللوحات.

تحمس جانيير فجأة وقال: "ها هى لوحة لكورا جو! إنه من أفضل من رسم المناظر الطبيعية! أرأيتم لوحته" بركة جانيه "الموجودة فى متحف لوكسمبورج؟"

فصاح كلود: "إنها رائعة! ها قد مر عليها حوالى ثلاثين سنة ولم ير أحد لوحة بمثل هذه الصلابة... لماذا يبقونها فى متحف لوكسمبورج؟ يجب أن توضع فى اللوفر."

فقال فاجرول: "ولكن كوراجو لا يزال حيا."

تعجب الجميع وقالوا: "كيف هذا؟ لا يزال حيا؟ ولكننا لا نراه أو نسمع عنه شيئا."

واندهش الجميع حينما أكد فاجرول أن كوراجو رائد رسم المناظر الطبيعية، والبالغ من العمر سبعين عاما لا يزال حيا يقيم فى مكان ما بالقرب من مونمارتر، معتكفا فى منزل صغير وسط الدجاج والبط والكلاب. وشعروا بأنه فى إمكانهم الصمود مثله، فلكم كان يحزنهم نسيان الجميع للفنانين الكبار حتى قبل موتهم. صمت الجميع، واعترتهم رجفة عند رؤية بونجراند وهو يسير مع صديق له وقد احتقن وجهه وحياهم بحركة مضطربة، وظهر خلفه شامبوفارد وهو يسير ضاحكا وسط طلابه وقد ترسخ لديه شعور يقينى بكونه معلما خالدا لا يُنسى.

سأل ماهودو شاين الذى كان يهم بالنهوض: "ماذا أستتركنا؟"

تمتم الآخر بعبارات غير مفهومة ومضى بعد أن سلم على الجميع باليد.

فقال جورى لماهودو: "أتعلم أنه ذاهب للقاء امرأتك، بائعة العشب المتعفن... أقسم بأننى رأيت عينيه تلمعان فجأة، وانتفض كمن أصابه ألم مبرح فى أسنانه! انظر إليه وهو يركض الآن!"

حرك ماهودو كتفيه فى لامبالاة وسط ضحكات أصدقائه. لم يسمع كلود شيئا مما قيل، وإنما دخل فى مناقشة مع دوبوش حول الفن المعمارى. لم تكن قاعة المتحف التى عرضها فى مشروعه سيئة بالطبع، ولكنها لم تقدم

أى جديد وكأنها مجرد تجميع لما تعلمه فى كلية الفنون! أليس من المقدر أن يحظى الفن المعمارى بنصيب من التطور الذى طال الأدب والرسم والموسيقى؟ فمادام الفن المعمارى الخاص بكل قرن له أسلوب خاص به، فيجب عليه إذًا أن ينتقل إلى التعبير عن القرن الجديد فهو أرض ممهدة قابلة لإقامة أى شىء، وحقل صالح لتقبل البذور لينضج عليها شعب جديد. فلتسقط إذن المعابد اليونانية التى لا مجال لها الآن وسط مجتمعنا! ولتسقط الكاتدرائيات القوطية مع تداعى الاعتقاد فى الأساطير! ولتسقط الأعمدة الرفيعة المزينة بنقوش عصر النهضة، التى أنشئت على أنقاض تراث العصور الوسطى ولم تعد صالحة الآن! كان يريد، بل يطالب بعنف بإيجاد صيغة معمارية تناسب العصر، حيث يعبر الحجر عن الحياة المعاصرة من خلال المبانى الضخمة والقوية التى تكون فى نفس الوقت بسيطة وكبيرة. يجب أن تتضح ملامح هذا الفن العصرى فى محطات القطارت والقاعات التى تجمع بين الأناقة والصلابة والجمال الراقى الذى ينطق بعظمة انتصاراتهم. تأثر دوبوش بحماسته وقال: "نعم! نعم! وهذا بالفعل ما أنوى تحقيقه، وسترى فى يوم ما... فقط أعطنى مهلة للوصول لمبتغاى، وعندها...!"

خيم الظلام، واشتد انفعال كلود واهتاجت مشاعره واستغرق فى أحاديث طويلة بليغة لم يعهدها منه أصدقاؤه الذين تحمسوا جميعا للاستماع إليه، وقد طربت قلوبهم لكلماته الرنانة التى أمطرهم بها، فحتى عندما تطرق

إلى لوحته، تحدث عنها بسعادة غامرة وسخر من البرجوازيين الذين شاهدوها، مقلدًا ضحكاتهم. لم يعد يظهر في الطريق المظلم سوى ظلال لعربات قليلة، بينما لف الظلام الدامس الشارع الجانبي واشتد البرد القارس. وسمع صوت غناء بعيدا خلف الأشجار صادرا عن مجموعة من العازفين في حفل الأورلوج الموسيقي يتمرنون، وترامى إلى أذانهم صوت رقيق لفتاة تتدرب على بعض الأغاني العاطفية.

فصاح كلود: "يا لهؤلاء الحمقى! لقد أمتعوني بالفعل! لن أفسد يومي مهما حدث!" ثم صمت وقد أنهكه الإرهاق. لم يعد أحد منهم قادرا على الكلام، فساد الهدوء ولم يسمع سوى صوت رعشاتهم عند هبوب رياح شديدة البرودة. فسلموا على بعض وافترقوا وكأنهم غائبون عن الوعي. فمضى دوبوش ليلحق بحفل عشاء في المدينة، وفاجرول بموعد خاص به. حاول جوري وماهودو وجانيير أن يصطحبوا معهم كلود إلى أحد المطاعم الرخيصة يسمى "فوكار"، ولكنه اعتذر وأمسك صاندوز بذراعه وقد أقلقه مرحه الزائد، فقال: "هيا معي، فلقد وعدت والدتي أن أتعشى معها، ستتعشى معنا أنت أيضًا. سيكون لطيفا أن ننهي السهرة سويا."

سار الاثنان بمحاذاة رصيف الميناء وحدائق التويلوري، وقد اقتربا من بعضهما بطريقة أخوية. عند جسر سانبير، قرر كلود الرحيل، فقال صاندوز: "أستتركني؟ تعال لتتعشى معي!"

أجاب كلود: "شكرا لك، ولكن رأسي يؤلمني بشدة... أريد أن أخلد للنوم." وتمسك برأيه.

فابتسم صاندوز فى النهاية وقال: "حسنا! حسنا! ولكنى لا أفهمك، أنت لغز كبير! ...اذهب إذاً يا عزيزى، لن أزعجك أكثر من ذلك."

كظم كلود انفعاله وترك صديقه يعبر الجسر، واستكمل سيره وحيدا وهو يحرك ذراعيه خافضا عينيه، كمن يسير وهو نائم تقوده غريزته حتى وصل إلى رصيف بوربون عند باب منزله، فرفع عينيه متعجبا من هذه المركبة الموجودة على الرصيف وتعوقه عن السير. دخل إلى حارسة العقار بحركة آلية ليأخذ منها المفتاح. فصاحت من داخل غرفتها: "لقد أعطيته لتلك المرأة التى تنتظرك بالأعلى."

فسألها مذعورا: "أية امرأة؟"

أجابت: "إنها تلك الشابة التى تأتى باستمرار... أنت تعرفها جيدا."

لم يفهم عمن تتكلم، فصعد مسرعا وقد تدافعت الأفكار المضطربة داخل رأسه. فتح الباب وأغلقه متمهلاً. وقف ساكنا لبرهة، فقد اكتنف الظلام جميع أرجاء المرسم، واكتسى الأثاث بظل بنفسجى ينبعث من الزجاج أضفى على المكان كآبة وقتامه شديدة. لم يكن قادرا على رؤية الأرضية أو الأثاث أو لوحاته التى غرقت فى ظلمة وصمت وكأنها ترقد فى قاع أحد المستنقعات. لاحظ ظلا خفيفا لامرأة جالسة على الأريكة، تختلج من القلق واليأس والانتظار الطويل فى الظلام.

كانت هى كريستين!

مدت إليه يدها وتمتمت بصوت منخفض ومتهدج: "انتظرتك هنا وحدى منذ ثلاث ساعات... خرجت من هناك لا أفكر سوى فى المجىء إليك والعودة بسرعة... ولكن ها قد أمضيت الليل كله هنا، ولم أستطع الرحيل دون أن أراك."

روت له كيف رغبت فى رؤية اللوحة وكيف ذهبت إلى المعرض لترى نفسها فريسة لضحكاتهم؟ كانوا يسخرون منها ويهزءون من جسدها العارى ويبصقون عليه . كانت طريقته العنيفة فى رسمها هى ما عرضها لسخرية المدينة بأكملها. كانت فزعة ومرتعبة، وامتزج داخلها الألم بالخجل وكأن هذه الضحكات تلهبها وتدميها كسياط تنهال على جسدها العارى. ولكنها شعرت الآن بأنها لم تعد تذكر أيًا من هذا، فلم تعد تفكر سوى فيه هو، تعذبها فكرة كونه حزينا بسبب ما حدث، فشعرت بمرارة شديدة بسبب هذا الفشل الذى حرك داخلها كل مشاعر المرأة إلى جانب شعور دفين بالشفقة تجاهه، فقالت له: "لا تغتم يا صديقى!... أردت فقط أن أراك لأقول لك إنهم يحسدونك، فاللوحة رائعة. أنا فخورة وسعيدة بمساعدتى لك فيها وبكونى ولو جزءا صغيرا منها..."

ظل كلود صامتا يستمع إلى كلامها الرقيق، وفجأة انهار أمامها وألقى برأسه بين ركبتيها باكيا. تحولت كل حماسته وسعادته وعنفه وشجاعته فى تقبل السخرية، التى تظاهر بها هذا المساء إلى نوبة من البكاء الحار وتنهدات خنقت أنفاسه. فمنذ أن انهال عليه وابل الضحكات فى قاعة المعرض، وهو

يشعر بطنينها فى أذنه دون توقف وكأنها عواء مستمر يلاحقه سواء فى الشانزليزيه وفى طريق عودته عند نهر السين وحتى فى منزله، فلا يزال يسمعها ويشعر بها تنهشه من وراء ظهره. خارت كل قواه، وأصبح مثل طفل صغير وظل يردد محركا رأسه كالتائه وقد انحشر صوته: "يا إلهى! ما أقسى عذابى!"

أمسكت كريستين برأسه بين يديها ورفعته حتى شفتيها وقبلته بشغف وشعر بأنفاسها الحارة تخترق قلبه، وهى تقول: "اصمت! اصمت! أنا أحبك!"

كانا يعشقان أحدهما الآخر. اتخذت صداقتهما منحى آخر بعد هذا التصريح المفعم بالحب على تلك الأريكة بسبب اللوحة التى جمعتهما سويا. اكتنفهما الظلام الدامس وظلا محتضنين أحدهما الآخر، وقد أضناهما التعب والبكاء وإن كللتهما سعادة الحب الأولى. وبالقرب منهما مكث إناء الزهور الذى أرسلته إليه هذا الصباح معبقا الغرفة بعبيره الذكى. وفى وسط هذا الظلام لمعت بقايا غبار الذهب المتناثرة فى أنحاء الغرفة كنجوم متلألئة فى كبد السماء.

الفصل السادس

حل المساء، وهى لا تزال بين ذراعيه، فقال لها متوسلا: "إبقى!"

قالت وهى تفلت منه بصعوبة: "لا أستطيع... دعنى أمضى الآن وسأعود غدا."

صاح قائلا: "ولكن غدا هذا بعيد!... حسنا، إلى الغد!"

فى السابعة من صباح اليوم التالى، كانت هناك وقد غمرها الخجل، بعد أن كذبت على السيدة فانزاد لتأتى إلى هنا، فادعت أن صديقة لها من كليرمونت أتت اليوم، وعليها أن تلقاها عند محطة القطار وتمضى باقى اليوم بصحبتها.

فى الغد، كاد كلود يطير فرحا عندما علم أنها ستبقى معه اليوم بأكمله، فقرر أن يأخذها إلى الريف لتكون له وحده فى هذا اليوم المشمس. أسعدتها تلك الفكرة بالفعل، فانطلقا كالمجانين حتى وصلا إلى محطة سان لازار واستقلا القطار المتوجه إلى الهافر. كان كلود يعرف قرية صغيرة بعد مانت تدعى بينكور بها نزل صغير للفنانين أمضى به الكثير من الوقت برفقة أصدقائه. وعزم أن يصحب كريستين إلى هناك غير عابئ بالمسافة التى سيقطعونها، والتى قد تتجاوز الساعتين. لكم كان يرغب فى أن يمضى بها إلى أبعد مكان!

سعدت كريستين بتلك الرحلة الطويلة، فكانت مستعدة أن تمضى معه حتى إلى نهاية العالم! وبدت لهما فكرة حلول المساء وانتهاء اليوم غير واردة.

وصلا إلى بونيير نحو الساعة العاشرة، وركبا قاربا صغيرا متهالكا ليصلا إلى بينكور الواقعة على الجانب الآخر من نهر السين. كانا فى شهر مايو وكان الجو رائعا، قد تألق كل ما يحيط بهما، فانعكست أشعة الشمس الذهبية اللامعة على القوارب الصغيرة، بينما زينت الأوراق الجديدة الخضراء السماء الصافية، وانكشفت أمامهما مجموعة من الجزر الصغيرة تناثرت فى قلب النهر. كان النزل الريفى الصغير يشع فرحا وسعادة، وبه متجر بقالة بسيط وقاعة واسعة تفوح منها رائحة الغسيل، بينما امتلأ فناؤه بالبط الذى يلعب محدثا ضجة عالية.

بعد أن دخلا، صاح كلود: "أيها السيد فوشور! نريد أن نتناول الغداء... احضر لنا بيضا ونقانق وبعض الجبن."

فسأله السيد فوشور: "هل ستمضيان الليل هنا يا سيد كلود؟"

أجاب: "لا! فى المرة القادمة... أحضر أيضًا نبيذا أبيض أو نبيذا ورديا يدغدغ الحلق!"

تبعت كريستين السيدة فوشور إلى الحظيرة، وعادتا تحملان البيض. ثم سألت السيدة فوشور كلود وقد زينت وجهها ابتسامة ماكرة: "أرى إذًا أنك تزوجت يا سيد كلود، أليس كذلك؟"

فأجاب كلود بلطف: "بالتأكيد نعم ، مادمت هنا مع زوجتى!"

كان الطعام ممتعا، بيضا مقليا ونقانق دسمة وخبزا جافا، حتى اضطر إلى مساعدتها فى تقطيع خبزها لكيلا تؤلم يدها. احتسيا زجاجتين من النبيذ، وشرعا فى شرب الثالثة، وقد غمرتهما سعادة صاخبة، ومادت بهما القاعة الفارغة. التهبت وجنتا كريستين من فرط الثمالة، وأكدت أنها أول مرة ينتابها هذا الشعور العجيب، وطفقت تضحك حتى عجزت عن تمالك نفسها. وقالت أخيرا: "هيا نخرج لنستنشق الهواء."

قال كلود: "نعم! هيا نتمشى قليلا... فلن نغادر قبل الساعة الرابعة، لا يزال أمامنا ثلاث ساعات لنقضيها هنا."

سارا ما يقرب من كيلومترين بمحاذاة بينكور بمنازلها الصفراء الممتدة بطول المزارع.

كانت القرية مليئة بالحقول الواسعة. لم يقابلا أثناء سيرهما سوى ثلاث بقرات تقودها فتاة صغيرة. شرع كلود يشرح لها معالم القرية وبدا كمن يعرف أين يذهب، فعندما وصلا إلى آخر بيت، وهو مبنى قديم على شاطئ السين فى مواجهة تلال جوفوس، أخذ يدور حوله حتى وصلا إلى غابة كثيفة من البلوط. كانت تلك هى نهاية العالم التى بحثا عنها، فهى أرض خضراء لها رقة وعذوبة المخمل، وشكلت أوراق الشجر ملجأ معزولاً عن كل شيء، فحتى الشمس لم تكن تتخللها سوى فى صورة سهام نارية رفيعة. والتقت شفتاهما فى قبلة حارة ومتلهفة. استسلمت كريستين، وامتلكها هو بقوة

وأسكرتهما رائحة العشب النضر الذى تناثر حولهما. مكثا فى هذا المكان مدة طويلة فى هدوء رقيق لم يقطعه سوى عبارات قليلة وخافتة، وأصوات أنفاسهما تداعبهما مفعمين بالنشوة أمام هذه النقاط الذهبية المتلألئة بأعماق أعينهما البنية.

خرجا من الغابة بعد ساعتين، وارتعدا فجأة لرؤية مزارع واقف عند باب المنزل الكبير يراقبهما بعينيه الصغيرتين كعينى الذئب. احمرت كريستين خجلا، وصاح كلود ليخفى حرجه: "أهذا أنت أيها السيد بواريت... أهذا هو منزلك؟"

أخذ العجوز يروى مغالبًا دموعه كيف رحل المستأجرون دون أن يسددوا الإيجار تاركين أثاثهم، ودعاهما للدخول، قائلا: "هيا تعاليا وشاهدا، فربما تعرفان أناسا من الموجودين! ... فهناك أشخاص قادمون من باريس ربما يعرفونكما ويسعدون برؤيتكما!... أقول لكما فكرا قليلا، فإيجار المكان بأثاثه لا يتجاوز ثلاثمائة فرنك فى العام، إنها صفقة رابحة أليس كذلك؟"

دخلا بدافع الفضول. كان المنزل على هيئة مصباح ضخم كأنه منحوت تحت سقيفة، فى الأسفل، كان هناك مطبخ شاسع، وقاعة فسيحة تشبه قاعات الرقص، أما الطابق العلوى، فكان مكونا من غرفتين واسعتين للغاية. والأثاث عبارة عن فراش فى إحدى الغرف وطاولة وأدوات منزلية فى المطبخ. أمام المنزل، كانت هناك حديقة مهملة مليئة بأشجار المشمش الرائعة وبمجموعات من الزهور العملاقة، وحقل صغير فى الخلف مزروع بالبطاطس محاط بسياج وممتد حتى غابة البلوط.

قال السيد بواريت: "سأترك البطاطس للمستأجر!"

تبادل كلود وكريستين نظرات ذات معنى وقد اشتدت بهما رغبة مضنية فى الوحدة والانعزال عن الجميع، وتخيلا كم ستكون حياتهما سعيدة فى هذا المكان! كم سيغدو حبهما أروع فى هذه البقعة المنعزلة! ولكن لم يكن ذلك فى مقدورهما، فكان ما تبقى من وقت يكفيهما بالكاد للحاق بالقطار والعودة إلى باريس. فى ذات الوقت، اصطحبهما المزارع العجوز، وهو والد السيدة فوشور، فى سيرهما بين المزارع، حتى أوصلهما إلى القارب، ثم قال لهما بعد صراع داخلى مرير: "أتعلمان؟ سأجعل الأجرة مائتين وخمسين فرنكا! فقط ائتيانى بزبائن!"

وصلا إلى باريس، وسار كلود مع كريستين حتى منزل السيدة فانزاد. غلبهما حزن شديد، وتبادلا نظرات صامتة يائسة ممسكين أحدهما بيد الآخر، دون أن يجرؤا على العناق.

وبدأت رحلة من العذاب، فخلال خمسة عشر يوما لم تستطع المجىء سوى ثلاث مرات. كانت تأتيه راكضة تلهث لئلا تضيع الدقائق القليلة التى تمضيها معه بعد أن ازدادت طلبات وإلحاحات السيدة فانزاد. كان يتعجب فى قلق من سبب قدومها فى تلك الحالة من الشحوب والعصبية، وعيناها تلمعان من الحمى. ولكنها لم يسبق لها أن لاقت هذا القدر من المعاناة فى هذا المكان المنغلق، فى هذا القبو الخالى من النور أو الهواء، حيث يفترسها الملل. فعاد إليها دوارها القديم، وأضعفتها قلة الحركة.

وفى أحد الأيام، اعترفت له أنها قد أغمى عليها ذات مساء فى غرفتها وكأن يدا من الرصاص قد أطبقت عليها وخنقتها. لم تكن تشتكى من السيدة فانزاد، بل تشفق عليها، فهى عجوز ضعيفة وطيبة تدعوها ابنتها! ففى كل مرة تتركها لتذهب إلى حبيبها كلود، كانت تشعر بالذنب لهذه الفعلة الشنيعة.

مر أسبوعان، ولم تعد تحتمل الأكاذيب التى ترويها للسيدة فانزاد لتحصل على حريتها ولو لساعة واحدة، فكانت تعود وهى ترتعد من الخجل إلى هذا المنزل، حيث يتحول حبها إلى وصمة تحاول إخفاءها، بعد أن سلمت نفسها لحبيبها، لكم أرادت أن تفصح عن هذا بأعلى صوت ولكنها تضطر لإخفائه كما لو كانت خطيئة وللكذب بخسة، وكأنها خادمة تخشى الطرد.

وفى مساء أحد الأيام، كانت كريستين فى مرسم كلود، وعندما حل موعد رحيلها، ارتمت بين ذراعيه وهى تنتحب من فرط الألم والحب، وقالت: "لا أستطيع العودة إلى هناك... أبقنى هنا معك، امنعنى من العودة إلى هناك!"

أمسك بها بشدة وقبلها بقوة حتى كادت أن تختنق، وقال: "أتحبيننى فعلا إلى هذا الحد؟ لو تدرين كم أحبك!... ولكننى لا أملك شيئا، ستخسرين كل شىء. لا أستطيع أن أقبل أن تضحى أنت بكل شىء من أجلى!"

تعالى صوت نحيبها واختنقت عباراتها المتلعثمة من كثرة الدموع، ثم قالت: "أتقصد أموال السيدة فانزاد؟ أتعتقد أننى أهتم بمثل هذه الحسابات؟ أنا لم أفكر قط فى هذا الأمر، أقسم لك! أنا لا أبقى على شىء أو على شخص، فليس لى أهل، ولى كل الحق فى أن أفعل ما يحلو لى! أنا لا أطلب منك أن تتزوجنى ولكنى أريد فقط أن أظل معك دائما..."

ثم صمتت وقالت وقد اعتصرها الألم: "معك حق، من الخطأ أن أترك السيدة فانزاد المسكينة! لكم أحتقر نفسى، يا ليتنى كنت أقـوى!... ولكننـى أحبك بشدة وأتألم بشدة أيضًا... سأموت بالفعل!"

صاح بها كلود فجأة: "إبقى معى! إبقى! وليمت الآخرون، لا يهمنى سوانا!"

أجلسها على ركبتيه وأخذا يبكيان ويضحكان فى آن واحد، وأقسما بين قبلاتهما بأنهما لن ينفصلا أبدا عن بعض.

كان أمرا جنونيا، تركت كريستين العمل عند السيدة فانزاد، وفى اليوم التالى عادت إلى المرسم حاملة حقيبتها. وتذكرا على الفور المنزل الخالى فى بينكور بأزهاره العملاقة وغرفه الفسيحة، فقررا الذهاب دون إبطاء للعـيش هناك فى أبعد بقعة على الأرض محتفلين بفرحة اجتماعهما. أخذت كريستين تصفق فى سعادة، وأراد كلود- الذى لم يفارقه ألم ومرارة الفشل الذى منـى به فى المعرض- أن يجمع شتات نفسه ويبتعد عن الجميـع للارتمـاء فـى أحضان الطبيعة، حيث الهواء الطلق الحقيقى الذى يحلم به وسيمكنه العمـل وسط الحقول حتى يبدع أعمالا لا مثيل لها.

أنهيا كل استعداداتهما خلال يومين، وأغلق المرسم مؤقتا ونقلا الأثاث بالقطار. حالفهما الحظ بعد أن دفع السيد مالجرا خمـسمائة فرنـك مقابـل عشرين لوحة انتشلها من وسط فوضى الانتقال. كانت بانتظارهما حياة تشبه حياة الأمراء، فلا يزال كلود ينتفع بعائده المقدر بألف فرنك، كما أحـضرت كريستين كل مدخراتها إلى جانب بعض الملابس. كان هروبا حقيقيـا، فلـم

يبعثا حتى بخطاب إلى معارفهما أو أصدقائهما ليعلنا لهم خبر الرحيل، غادرا باريس غير نادمين شاعرين بكثير من الراحة.

بنهاية شهر يونيو، هطلت الأمطار بشدة فى أول أسبوع من انتقالهما. اكتشفا أن السيد بواريت استولى على نصف أدوات المنزل قبل أن يوقع معهما على العقد، ولكنهما لم يتضايقا أو يختلفا. وسارا يتعثران فى لذة وسعادة، وهما يسيران وسط هذه السيول لما يزيد عن ثلاثة فراسخ حتى وصلا إلى فيرنون لشراء بعض الأطباق والأوانى، ويعودا بها فى انتصار. شعرا فى النهاية بأنهما فى منزلهما. شغلا غرفة واحدة من الغرفتين، بينما تركا الأخرى للفئران، وحولا الصالة الضخمة إلى مرسم واسع، واكتفيا بتناول الطعام فى المطبخ بسعادة كالأطفال، على منضدة خشبية بجوار الموقد حيث تتراقص الطواجن. واستعانا بفتاة من القرية لتساعدهما فى أعمال المنزل، تدعى ميلى، تأتى فى الصباح وتذهب عند حلول المساء. كانت ميلى – ابنة أخ فوشور– بلهاء وهو ما أثار إعجابهما، فلم تكن هناك فتاة تفوقها سذاجة فى المدينة كلها.

توقفت الأمطار وأشرقت الشمس مرة أخرى، وتوالت أيام جميلة وشهور كاملة وهما غارقان فى تلك السعادة والنشوة الرتيبة. لم يشعرا أبدا بالزمن وكانا يخلطان بين أيام الأسبوع، فيستيقظان فى وقت متأخر من الصباح على الرغم من الأشعة الحارقة التى تلهب جدران الغرفة البيضاء من خلال فتحات النافذة. وبعد تناول الطعام، كانا يسيران على غير هدى فى

الهضاب المزروعة بالتفاح وبين الطرقات الريفية المغطاة بالعشب. كانت جولاتهما تمتد بطول نهر السين، وسط المراعى وحتى لاروش جيون مكتشفين أماكن جديدة وبعيدة، وقاما برحلات إلى الجانب الآخر من المجرى المائى وسط حقول القمح فى بونيير وجوفوس. ابتاعا قاربا قديما من أحد البرجوازيين اضطر إلى السفر مقابل ثلاثين فرنكًا، وامتلكا بذلك النهر أيضًا! كانا مولعين بالمياه حتى استطاعا المكوث فى عرض النهر أيامًا كاملة يجدفان فى سبيل اكتشاف أراض جديدة مختفية وراء المزارع وظلال الأشجار السوداء.

عثرا- فيما بين الجزر المتناثرة وسط المياه - على بلدة غامضة عامرة بالحركة ومكونة من شبكة من الطرقات الصغيرة مرا بها فى هدوء، تداعبهما الأغصان المنخفضة، يصحبهما الحمام البرى والطيور الغريبة. وأحيانا، كان كلود يقفز على الرمال بساقيه العاريتين ليدفع القارب، بينما تحاول كريستين أن تجدف لتتجاوز التيار مزهوة بقوتها.

وفى المساء، يأكلان حساء الكرنب فى المطبخ ويضحكان من حماقات ميلى التى لا تتعلم أبدًا، ثم يذهبان نحو الساعة التاسعة إلى الفراش الواسع الذى يكفى عائلة بأكملها، حيث يمضيان أكثر من اثنتى عشرة ساعة، يلعبان بالوسائد، وينامان محتضنين أحدهما الآخر.

كل ليلة، كانت تقول له: "الآن يا عزيزى عدنى أنك ستعمل غدا."

فيقول: "أقسم لك! سأبدأ غدا فى العمل."

ثم تضيف: "أتعلم؟ سأغضب بالفعل إن لم تعمل، فأنا أشعر بأننى السبب!"

فيرد: " أنت؟ يا لها من فكرة غريبة! ... لقد جئت إلى هنـا لأعمـل! سترين غدا!"

وفى الغد يستقلان القارب، وترتسم على شفتيها ابتسامة منزعجة بمجـرد أن تلمح أنه لم يأخذ معه لا لوحات ولا ألوانا. ثم تقبله ضاحكة، وقد انتشت فـى أعماقها لتأكدها من مدى حبه لها وتأثيرها عليه، وإن تأثرت بشدة بهذه التضحية المستمرة التى يقوم بها من أجلها. كانت تؤنبه برفق من جديد، ويعدها هو الآخر بأنه سيعمل فى الغد! أيتحتم عليها أن تقيده إلى لوحته لكيلا يتركها؟

شرع كلود فى العمل، وبدأ يرسم لوحة لأحد التلال فى جوفوس وقـد ظهر السين فى المقدمة. صحبته كريستين إلى الجزيرة التى اختارها ليرسـم عليها، وتمددت على العشب إلى جواره وقد انفرجت شفتاها وتألقت عيناهـا وسط هذه الزرقة، حتى بدت لا تقاوم وقد أحاطت بها هذه الخضرة، وغلفها الصمت الذى لم تعد تخترقه سوى أصوات المياه. فترك لوحة ألوانه ومضى ليستلقى إلى جانبها وشرد الاثنان وشعرا وكأن الأرض تتمايل لتدللهما.

ذهب هذه المرة إلى إحدى المزارع القديمة فى بينكور أغرته بأشجار التفاح العتيقة والضخمة التى بدت كأشجار البلوط، فأتى إليها يـومين علـى التوالى، وفى اليوم الثالث اصطحبته كريستين إلى سوق بينكور لشراء بعض

الدجاج، ثم ضاع اليوم الذى يليه، حتى جفت اللوحة. حاول كلود مرارا أن يستأنف العمل فيها ولكنه فشل فتركها فى النهاية.

مر الصيف، دون أن ينجز كلود شيئا، وإنما شرع فى بعض اللوحات وتركها دون مبرر أو مثابرة. شعر وكأن شغفه القديم بالعمل، والحمية التى كانت تبقيه واقفا منذ الفجر يتصارع مع لوحته المتمردة قد ذهبت أدراج الرياح وحل مكانها شعور بالكسل واللامبالاة. كان كمن يمضى فترة نقاهة إثر مرض شديد، متلذذاً بالخمول والسعادة التى يلاقيها مع كريستين.

لم يعد أمامه سوى كريستين، تشعله بأنفاسها الحارة حيث تتلاشى كل رغباته وطموحاته الفنية. ولدت امرأة جديدة داخل تلك الفتاة الصغيرة منذ تلك القبلة المتلهفة والعفوية التى طبعتها على شفتيه فى المرسم، كانت هى تلك المرأة المعشوقة التى انتصرت على الفتاة العذراء ومدت شفتيها الممتلئتين لتقبله. فى تلك اللحظة، كشفت عما كان يختفى فى داخلها خلف قيود الالتزام والاحتشام، فهى امرأة مفعمة بالعاطفة ذات جسد شهى يختلج ويضطرب بعد أن ظل طويلا حبيس الخجل والحياء.

ودون معلم، تعلمت الحب وزاد من حدته اندفاع ونزق براءتها وعدم معرفتها. فعرف الاثنان سويا، وهما حديثا العهد بالحب، طعم النشوة وقد سحرتهما تلك التجربة المشتركة التى يخوضانها سويا. بدأ يلوم نفسه على احتقاره للنساء وتجنبهن، ألم يكن مغفلا عندما حرم نفسه من هذه المتع وتلك الملذات؟ من الآن، لم يعد ميله لجسد المرأة، الميل الذى طالما انهمك فى

عمله ليسكت صرخاته، يؤلمه ويعذبه، فلم يعد يميل سوى إلى جسد واحد يفور بالحيوية والنعومة، جسد أصبح الآن من ممتلكاته: كريستين! كان قديما يظن أنه يتمتع بتلك الأيام التى استغرق فيها فى رسم النهود الحريرية والأرداف المستديرة العنبرية والبطون الصافية الوثيرة! كم كان واهما هذا الحالم المسكين! فها هو الآن يمسك بها بين ذراعيه وقد أسكرته نشوة الفوز بحلمه الذى كان يفر من بين يديه العاجزتين. استسلمت له، وامتلك كل ما فيها، وغزاها بقوة من رأسها وحتى قدميها. كان يضمها بقوة بين ذراعيه ليجعلها ملكا له، ليدخلها إلى جسده، ليصبحا واحدا. أما هى، بعد انتزاعها لمكانة فنه وتربعها على عرش قلبه، انغمست فى السعادة والمتعة تنهل منها كما شاءت. فذراعاها المستديرتان وساقاها الناعمتان هم ما يبقونه فى الفراش حتى ساعات متأخرة وكأنه مقيد بالأغلال، ولكنها أغلال السعادة.

على القارب، لم يكن يشغله شىء سوى رؤيتها كالثمل وهى تجدف وحقواها يتمايلان. كان يمضى أياما مشدوها بجمالها يتأمل عينيها وهما مستلقيان على العشب فى الجزر، شعر وكأن قوته قد فارقته ومعها قلبه ودماؤه. فكانا فى كل وقت وفى كل مكان يتطارحان الغرام فى ظمأ متلهفين إلى المرة القادمة.

تفاجأ كلود حينما رآها تحمر خجلا إذا ما بدرت منه لفظة بذيئة، فكانت تحكم تنورتها حولها وتبتسم فى انزعاج وتدير رأسها لتتجنب تلميحاته الجريئة. لم تكن تحب مثل هذه الأمور، حتى لقد وصلا ذات مرة إلى حافة الشجار بسبب أحد تعليقاته.

كانا يذهبان إلى غابة البلوط الصغيرة خلف منزلهما، ليتذكرا تلك القبلة التى تبادلاها فى أول زيارة لهما إلى بينكور. كان يسألها أحياناً، بدافع الفضول، عن حياتها فى الدير، فيمسكها من خاصرتها ويدغدغها بأنفاسه خلف أذنيها ليحملها على الكلام ليعرف معلوماتها عن الرجال هناك؟ فيما كانت تتحدث هى وصاحباتها بشأنهم؟ كيف كان تصورها عنهم؟ فكان يقول: "هيا يا عصفورتى، احكى لى... أكنت تفكرين فى هذه الأشياء؟"

فتضحك فى ضيق محاولة التملص من الإجابة، ثم تقول: "أأنت أحمق؟... دعنى!... فما فائدة هذه الأسئلة؟"

أجاب: "إنها تسلينى..."

صدرت عنها حركة مضطربة وقد اكتست وجنتاها بالحمرة: "يا إلهى! كنا نتحدث مثل باقى الفتيات... عن أشياء..." ، ثم أخفت وجهها فى كتفيه وقالت: "ولكننا نفاجأ!"

انفجر ضاحكا وضمها إليه بجنون وأمطرها بوابل من القبلات. ولكنه حين ظن أنه قد غلبها وأراد أن يعرف جميع أسرارها كما يفعل مع أصدقائه، تهربت بعبارات متذمرة وجلست صامتة وقد غلفها الغموض. فلم تسر إليه بشىء أكثر مما روته على الرغم من كونها مدلهة بحبه. فلم يعد يتبق لها شىء لتقوله سوى عن شعورها الأول بالرغبة، هذه الذكرى التى تظل مدفونة شبه مقدسة، ولا تبوح بها حتى أكثر الفتيات جراءة. فحتى وإن استسلمت له، فقد احتفظت بجزء منها لنفسها.

شعر كلود لأول مرة فى هذا اليوم بأنهما لا يزالان غريبين، واعتراه شعور بالجمود والبرود أمام هذا الجسد الآخر. وتعجب كيف لا يمتزج كل شيء بينهما وسط عناقهما المحموم وذراعيهما اللتين تذوبان معا متلهفين إلى ما هو أكثر من امتلاك أحدهما للآخر؟!

مرت الأيام دون أن يشعرا بالوحدة أو بالحاجة إلى التسلية أو زيارة واستقبال أحد الأصدقاء. لم يستطع شيء أن يخرجهما من اندماجهما الواحد بالآخر. كانت كريستين تمضى وقتها إما نائمة بجواره، فى حضنه، أو تشغل نفسها بأعمال المنزل، قالبة المنزل كله رأسا على عقب لتنظيفه بمساعدة ميلى، مشرفةً على عملها وقد استبدت بها ثورة من الحماس والنشاط كانت تجعلها تتصارع فعليا مع أوانى المطبخ. كانت الحديقة هى أكثر ما يشغلها، فعنيت بتقليم الأزهار بمقص البستانى، وتمزقت يداها بسبب الأشواك، وشعرت ببعض الآلام أثناء جنى المشمش الذى باعته بعد ذلك مقابل مائتى فرنك للإنجليز الذين يأتون إلى البلاد كل عام. كانت شديدة الفخر والزهو بمهارتها، حتى إنها أرادت أن تعيش من إنتاج حديقتها. لم يكن كلود من هواة الزراعة، ولكنه نقل الأريكة الضخمة إلى الصالة التى تحولت إلى مرسم ليتمدد عليها ويراقبها من النافذة الكبيرة المفتوحة وهى تزرع وتبذر.

كانا يعيشان فى سكينة وسلام مطلق، واثقين من أن أحدا لن يأتى ليزعجهما فى أى وقت من اليوم، مبالغين فى خوفهما من الخارج ومن الآخرين، متجنبين حتى المرور أمام نزل فوشور خوفا من أن يجدا أحد

الأصدقاء القادمين من باريس. مر الصيف بأكمله ولم يظهر إنسان، وكـان كلود يقول دائما قبل أن يخلد للنوم: "إنه حظ غريب."

كان هناك جرح واحد يعكر صفو هذه السعادة المطلقة، فبعد هروبهما من باريس، عرف صاندوز عنوانهما وكتب إلى كلود يسأله إذا مـا أراد أن يسمح له بزيارتهما، ولكن كلود لم يجبه، وتخاصما من وقتهـا، وأصـبحت صداقتهما القديمة تحتضر. حزنت كريستين لأنها شعرت بأنه انقطـع عـن أصدقائه بسببها، فكانت تتحدث إليه دوما بشأنهم مطالبة إياه بمراسلتهم. كان فى كل مرة يعدها بأنه سيهتم بالأمر ولكنه لم يكن يفعل شيئًا، كان كل شىء قد انتهى، فلماذا ننظر للماضى؟

قارب يوليو على الانتهاء ومعه نقودهما، فاضطر إلى السفر لبـاريس ليبيع السيد مالجرا ست لوحات قديمة. جعلته كريستين يقسم، وهى تودعـه على محطة القطار، بأنه سيذهب ليقابل صاندوز. وعندما عادت إلى المحطة فى المساء لتستقبله، سألته: "ارو لى، أرأيته؟ هل قبلتما أحدكما الآخر؟"

استمر يسير إلى جانبها وقد أبكمه الحرج، ثم قال بصوت جاف: "لـم أجد متسعا من الوقت لزيارته."

فنظرت إليه فى حزن وقد تدفقت الدموع إلى مقلتيها وقالـت: "أنـت تسبب لى كثيرا من الألم."

سارا وسط الأشجار، وتوقفا وقبلها فى وجهها باكيا هو الآخر، متوسلا إليها ألا تضاعف من عذابه. أفى مقـدوره أن يغير العالـم ويبـدل الحياة؟ ألا يكفيهما أنهما معًا؟

لم يلتقيا بأحد طوال الشهور الأولى سوى مرة واحدة، أثناء سيرهما فى بينكور ناحية روش جيون. كان الطريق خاليا مليئا بالشجار، وفجأة رأيا أمامهما عائلة برجوازية مكونة من ثلاثة أفراد الأب والأم وابنتهما. كانا يعتقدان أنهما بمفردهما، كعاشقين نسيا العالم ، فانحنت هى عليه تاركة له شفتيها، بينما ضمها إليه مقبلا إياها. كان وقع المفاجأة شديدا فلم يقدرا على تغيير وضعهما، فمضيا متعانقين بخطوات بطيئة. وقف أفراد العائلة مشدوهين من المفاجأة، كان الأب سمينا وبدا كمن عانى من سكتة دماغية، أما الأم، فكانت نحيفة كالسكين، كذلك الابنة التى بدت كطائر مريض منزوع الريش. كان الثلاثة غاية فى القبح تبدو عليهم علامات طبقتهم البرجوازية الفاسدة. نظروا إلى كلود وكريستين بوصفهما عارا يلطخ جمال الطبيعة فى وضح النهار. وفجأة دفع الأب والأم ابنتهما التى وقفت تراقب هذا القدر من الحب بعينين مذهولتين، وقد بدا على والديها الغضب والسخط بسبب هذه القبلة المنحلة، ومضيا يتساءلان عما إذا كانت هناك شرطة مسئولة عن هذه الأمور فى الريف. بينما واصل الحبيبان طريقهما بهدوء وقد غمرتهما نشوة المجد والانتصار.

كان كلود متأكدا من أنه رأى هؤلاء الأشخاص من قبل ولكن أين؟ أين رأى تلك الوجوه الكئيبة المكتنزة بالملايين التى جنوها من وراء الفقراء؟ وعندها تذكر عائلة مارجايان المقاول الذى يعمل معه دوبوش، والذى كان يسير بصحبته فى معرض المرفوضين. كان هذا الشخص هو الذى سخر من لوحته وأطلق ضحكات مدوية حمقاء.

بعد حوالى مائتى خطوة، وصل كلود وكريستين إلى نهاية الطريق الخالى، ووجدا نفسيهما أمام مبنى أبيض محاط بأشجار جميلة. وهناك علموا من فلاحة عجوز أن منزل لاريشوديير كما يطلقون عليه أصبح ملكا لعائلة مارجايان منذ ثلاث سنوات، بعد أن اشتروه مقابل مائة وخمسين ألف فرنك ثم أنفقوا على تزيينه وتجميله أكثر من مليون فرنك.

فقال كلود وهما فى طريقهما إلى بينكور: "لن نأتى أبدا إلى هذا المكان مرة أخرى. إن هؤلاء الوحوش يلوثون المكان!"

فى منتصف شهر أغسطس، طرأ حدث مهم غير حياتهما، اكتشفت كريستين أنها حاملا فى الشهر الثالث. كان للأمر وقع غريب عليهما، فكان أمرا يصعب تصديقه، فلم يسبق لأى منهما أن فكر فى أنه قد يحدث. حاولا أن يفكرا فى الأمر بعقلانية، فلم يشعرا بالسعادة فى البداية، واضطرب كلود حينما فكر فى هذا المخلوق الصغير الذى سيزيد حياته تعقيدًا، أما هى فقد أخذها ذعر غير مفهوم خشية أن يكون هذا الأمر هو سبب انتهاء حبهما. لكم بكت مستندة على عنقه، ولكم حاول أن يهدئ من روعها ولكن دون جدوى، وقد بدت عليه ملامح التعاسة رغما عنه.

وبمرور الوقت، اعتادا الأمر وتقبلا الفكرة، بل شعرا بنوع من الشفقة والحنان تجاه هذا الكائن الصغير، الذى صنعاه فى هذا اليوم الأليم فى المرسم المظلم. سيكون إذن ابن المعاناة والشفقة، ثمرة السخرية وضحكات الجمهور.

لم يكونا شريرين، ولذا فقد غلبتهما الشفقة تجاه هذا الكائن المسكين، بل انتظرا مجيئه بفارغ الصبر واستغرقا فى الاستعداد لاستقباله.

كان الشتاء قارس البرودة، وظلت كريستين حبيسة المنزل بسبب الزكام الشديد الذى أصابها، خاصة وأن المنزل لم يكن دافئًا. كانت تصاب بوعكات بسبب الحمل، فتضطر إلى الجلوس أمام المدفأة فى سخط لأن كلود كان يخرج بمفرده ليقوم بجولاته الطويلة فوق الثلوج.

أعطته جولاته التى يقوم بها وحيدا بعد شهور من الرفقة فرصة ليتأمل فى عجب كيف اتخذت حياته منحى غريبا رغما عنه. فلم يكن يرغب فى تكوين أسرة، حتى مع كريستين، بل كان هذا أسوأ مخاوفه. لو أن أحدًا أخذ رأيه! ولكن الآن لا يمكن التخلص من الأمر! فحتى وإن لم يكن هناك طفل، فقد كان كلود واحد ممن تعوزهم الشجاعة والقوة للانفصال.

كان هذا هو قدره الذى ينتظره، كما أنه يجب أن يتمسك بالمرأة الوحيدة التى لم ترفضه أو تخجل منه. كان يسمع وقع قدميه على الأرض الصلبة المغطاة بالثلوج، وقطعت الرياح الباردة أحلامه وأفكاره الشاردة، فهو رغم كل شىء محظوظ لالتقائه بفتاة محترمة، وبدأ يفكر فى كل ما كان سيلاقيه من قسوة وانحطاط لو أنه ارتبط بإحدى العارضات التى أنهكها التنقل من مرسم إلى آخر. وشعر بحنان جارف تجاه كريستين وركض عائدا لكى يضمها بذراعيه المختلجتين وكأنه على وشك أن يفقدها، ولا يقلقه سوى محاولتها للإفلات من يديه وهى تصيح فى ألم: "كفى! لا تضمنى بقوة! أنت تؤلمنى!" كانت تمسك بطنها، ويراقبها هو فى دهشة يشوبها خليط من التلهف والاضطراب.

حان موعد الولادة نحو منتصف شهر فبراير، فجاءت القابلة من فيرنون وسار كل شيء على ما يرام. استردت كريستين عافيتها بعد ثلاثة أسابيع، وولد الطفل قويا ونهما، فكانت تستيقظ أكثر من خمس مرات في الليل لترضعه لكيلا يبكي ويوقظ كلود.

أحدث الطفل ثورة في المنزل، اكتشفت كريستين، على الرغم من موهبتها في الأعمال المنزلية، أنها مربية فاشلة. لم تكن تشعر بأنها أم صالحة، فعلى الرغم من طيبتها واضطرابها أمام أي ألم يعانيه الطفل، إلا أنها كانت تمل سريعا وتثبط همتها، فكانت تنادي ميلي لتزيد الوضع سوءا ببلاهتها وحماقاتها، فكان على كلود أن يسارع لإنقاذ الموقف في تبرم واستياء.

انعكس نفور كريستين من أعمال الخياطة وباقي المهام النسائية على مظهر الطفل، فكان سيء الهندام، لديه نزعة إلى المغامرة، خاصة وأنه كان يُترك وحيدا في الحديقة، أو في الغرف المهملة المزدحمة بأقمطته القديمة والنفايات وألعابه المكسورة والأغراض المهشمة من آثار المذبحة التي خلفها عبث هذا السيد الصغير الذي تنبت أسنانه.

كلما ازدادت الأمور سوءا، هرعت إلى كلود لترتمي في أحضانه، كان هو ملجأها الوحيد ومصدر راحتها وسعادتها. لم تكن تعرف سوى أن تكون حبيبة، فكانت دائما ما تعطي الطفل لوالده. فبعد الولادة، شعرت بنوع من الحمية والحماسة، وكأن هناك طاقة حب جديدة قد تفجرت داخلها تجاه كلود، فبدت كحبيبة تبحث عن نفسها وتستعيد حريتها وجمالها المزدهر، لم تلتق به أبدا من قبل بمثل تلك الرغبة المرتعشة.

استأنف كلود عمله، فبعد انقضاء الشتاء لم يجد كلود ما يفعله فى تلك الأيام المشمسة بعد انشغال كريستين بجاك- كما أسمياه تيمنا بجده لوالدته وإن تقاعسا عن تعميده- فقرر العودة إلى الرسم. كان يجلس فى الحديقة بدافع الملل ليرسم لوحة لممر بين شجر المشمش وأخرى للزهور، ثم رسم لوحات للطبيعة الصامتة، فرسم أربع تفاحات، ثم زجاجة وإناء من الصلصال موضوعة على مفرش. كلها بغرض التسلية.

ولكن سرعان ما استعاد حمى العمل، وسيطرت عليه فكرة لوحة جديدة يصور فيها امرأة مرتدية ثيابها وسط ضوء الشمس الساطع. وكانت كريستين هى ضحية هذه الفكرة التى امتلكته، فقبلت برضا وقد طربت لكونها تسعده، ولم تكن تفهم أنها تقيم منافسة خطيرة لها.

رسمها كلود أكثر من عشرين مرة، ملبسا إياها الأبيض تارة والأحمر تارة أخرى، وقد أحاطت بها الخضرة، كان يرسمها سائرة ثم واقفة ثم نصف ممدة على العشب، مرتدية قبعة ريفية ضخمة ثم عارية الرأس، وهى تحمل مظلة كرزية اللون تضفى على وجهها ظلا ورديا. لكنه لم يرض قط عن رسمه، فكان يمسح اللوحة بعد جلستين أو ثلاث، ليبدأ فيها من جديد متمسكا بفكرته. وإن كانت بعض اللوحات الساحرة القوية قد نجت من يده، فلم يمسحها وإنما علقها على جدران غرفة الطعام. وبعد أن انتهى من كريستين جاء دور جاك، فكانا يضعانه عاريا وتحته غطاء ليحميه من سخونة الأيام الحارة، ويجبرانه على السكون، ولكنه كان بالطبع أمرًا مستحيلا! فكانت

أشعة الشمس تدغدغه، فيضحك محركا قدميه الصغيرتين الورديتين فى الهواء وهو يتدحرج ويتقلب فى مرح. كان كلود يضحك قليلا، ثم يثور من هذا الطفل المزعج الذى يعجز عن البقاء ثابتًا لدقيقة واحدة، فالرسم ليس لعبة! فكانت كريستين تحاول تهدئتهما، ثم تمسك بجاك لتثبته حتى يرسمه كلود بسرعة. مرت أسابيع وهو يحاول أن يرسمه، مذهولاً من جمال هذا الجسد الصغير وألوانه الرائعة، لم يعد ينظر إليه سوى بعينى الفنان، وأصبح يرى فيه موضوعا رائعا للوحة عظيمة. وبدأ بالفعل ينفذ خطته، فكان يمضى أياما كاملة يحدق به، ويتميز غضبا أمام عناد هذا الطفل الصغير ورفضه للنوم، فلم يكن من الممكن رسمه إلا وهو نائم.

وفى أحد الأيام، ظل جاك يبكى بحرقة رافضا أن يجلس أمام والده ليرسمه، فقالت كريستين بهدوء: "يا عزيزى، أنت ترهقه، إنه لا يزال طفلا صغيرا!"

فغضب كلود، وشعر بالذنب قائلا: "معك حق! فأنا أحمق، برسوماتى تلك... الأطفال ليسوا مخلوقين لذلك."

مر الربيع والصيف أيضًا فى هدوء وعذوبة، وقد ندرت نزهاتهما، وأوشكا على نسيان القارب الذى ساءت حالته، خاصة وأن اصطحاب الطفل معهما فى جولة على الجزر سيكون أمرا شاقا. وإن كانا يتجولان ببطء من وقت لآخر على شاطئ نهر السين دون أن تتجاوز جولاتهما أكثر من كيلومتر واحد. فقد سأم كلود من المناظر الطبيعية المتكررة فى الحديقة وقرر الرسم على ضفة النهر، فكانت تأتيه كريستين وجاك ليجلسا بجواره يشاهدانه

يرسم حتى ينتهى ليعودوا سويا بخطوات مسترخية، وقد ظللتهم أضواء الغروب الخافتة.

وفى أحد الأيام، اندهش كلود حينما رآها تحمل مجموعة رسوماتها القديمة، فأوضحت له أن رؤيته يرسم جعلتها ترغب هى الأخرى فى استعادة ذكرياتها. كان صوتها مرتعشا، لأن الحقيقة هى أنها أرادت أن تندمج فى عمله الذى شعرت بأنه يأخذه منها يوما بعد يوم. وهكذا بدأت ترسم وأنجزت بالفعل لوحتين أو ثلاثا بألوان المياه بدقة وإتقان التلاميذ، ولكنها سرعان ما أدركت أن التوافق بينهما لن يتحقق هكذا، وتراجعت تحت تأثير ابتساماته، متخلية عن رسوماتها بعد أن انتزعت منه وعدًا بأن يعلمها الرسم لاحقًا إذا ما تسنت له الفرصة.

بدت لها لوحاته الأخيرة غاية فى الروعة، تغيرت نظرته واتضحت ملامحها بعد هذا العام من الراحة وسط الطبيعة الريفية الجميلة، وتجلت هذه الرؤية الجديدة فى ألوانه المبهجة والصاخبة، فتخلى تماما عن الانعكاسات الصامتة والصور الحقيقية للكائنات والأشياء، وغمر لوحاته نقاء وصفاء طاغيان. فأصبحت تبدى إعجابها الحقيقى بلوحاته وقد أسعدتها هذه الألوان المتناسقة، وإن أبدت نوعا من التحفظ فى بعض الأوقات أمام سهل من زهور الليلك أو شجرة زرقاء تقلب كل مفاهيمها الجامدة حول الألوان، حتى إنها تجرأت فى أحد الأيام وانتقدت شجرة صفصاف زرقاء، ولكنه جعلها تشاهد بنفسها هذه الظلال الزرقاء الرقيقة كما هى فى الطبيعة الحية. كانت الشجرة

زرقاء فعلا! ولكنها لم تستسلم، وأدانت الطبيعة فليس من المنطقى أن تكون الأشجار زرقاء.

كانت تتحدث بجدية ورصانة عن لوحاته المعلقة على الجدران. أصبح الفن جزءًا لا يتجزأ من حياتهما، حتى بدأت تألفه وتحبه. كانت كلما رأت كلود حاملا حقيبته وأدواته ومظلته، تتعلق بعنقه وتقول: "قل لى، أتحبنى؟

فيقول فى عجب: "أحمقاء أنت؟ لماذا عسانى لا أحبك؟"

فتحتضنه قائلة: "إذن قبلنى بكل قوتك، قبلنى بقدر حبك لى! هيا اقو! اقو!"

ثم تسير معه حتى بداية الطريق وتودعه قائلة: "هيا اعمل جيدًا اليوم... أنت تعلم أننى لم أمنعك قط عن العمل... هيا، هيا، أنا أفرح وأنا أراك تعمل."

ساور القلق كلود مع حلول الخريف الذى محا الخضرة عن الأوراق حاملا معه بوادر البرد، كان الجو مريعا بالفعل، واستمرت الأمطار تهطل بغزارة لخمسة عشر يوما على التوالى، مما عطله عن العمل وألزمه المنزل. ثم ساد الضباب وأفسد كل جلساته، فكان يجلس أمام المدفأة وقد اغتم وجهه، لم يكن يتحدث عن باريس ولكنه رآها أمامه وقد اكتست بالثلوج وتوهجت أضواؤها منذ الساعة الخامسة، وتذكر اجتماعاته مع الأصدقاء والمنافسات المشتعلة بينهم، وأيضًا حياته الماضية التى كان يرسم فيها بنشاط وتوهج تعجز تلك الثلوج عن إخماده.

فى خلال شهر واحد، ذهب إلى باريس أكثر من ثلاث مرات، بحجة مقابلة مالجرا الذى باعه بعض اللوحات الصغيرة. لم يعد يتجنب المرور أمام نزل فوشور، بل وبدأ يتردد على السيد بواريت ليحتسى عنده كأسا من النبيذ الأبيض وهو يجول بعينيه فى أنحاء القاعة عسى أن يجد، على الرغم من سوء الطقس، أحد أصدقائه القدامى. وينتظر طويلا حتى ييأس من الوحدة، فيعود وقد أعيته حالة الغليان الخانقة التى كانت تعتمر فى داخله، وقد سأم كونه وحيدا، لا يجد من يحدثه عما يشعر به أو يفكر فيه.

انقضى فصل الشتاء، أحس كلود بنوع من العزاء حينما استطاع أن يرسم بعض اللوحات تظهر فيها آثار الجليد الرائعة. مر عامان على هروبهما وها هما فى مطلع الثالث، حتى حدث شيء أبهج كلود. فى هذا الصباح صعد إلى أعلى الهضبة بحثا عن موضوع للوحته بعد أن سأم ضفاف نهر السين، فمضى يسير بين الطرقات حتى تسمر كالأبله أمام دوبوش الذى كان سائرا بين أسوار الشجر وقد ارتدى سترة أنيقة وقبعة سوداء، فصاح كلود: "لا أصدق أنه أنت!"

انتفض دوبوش وتلعثم من فرط الانزعاج: "نعم! لقد كنت فى طريقى لزيارتك... الريف ممل أليس كذلك؟... ولكن ماذا عسانا أن نفعل؟ فنحن نضطر إلى الانتقال... وأنت؟ أين تقطن؟... أنا أعلم... أقصد أننى سمعت من بعض الناس... ولكننى ظننت أنك تسكن فى مكان أبعد أقصد الناحية الأخرى..."

تأثر كلود من اضطرابه، وحاول أن يخلصه من هذا الحرج، فقال: "لا عليك يا عزيزى، أنا المخطئ، أنا المذنب... لقد مضى وقت طويل منذ آخر مقابلة لنا!آه، لو تتخيل ما شعرت به عندما رأيتك!"

أمسك بذراعه واصطحبه وهو يضحك فى سعادة، بينما سار دوبوش وقد شغلته ثروته التى جعلته يتكلم عن نفسه وعن مستقبله دون توقف. كان قد أصبح طالبا من الدرجة الأولى فى الكلية بعد أن حصل بمعاناة شديدة على التقديرات اللازمة. ولكن هذا النجاح كان محيرا بالنسبة له، فامتنع والداه عن إرسال النقود إليه، شاكين ضيق ذات اليد ليرغماه هو على إعالتهما، وتخلى عن فكرة الترشح لجائزة روما واثقا من خسارته، متلهفا لجنى مزيد من الأموال. كان قد ضاق بحياته الحالية، بكونه بديلاً للمهندسين، بقبوله بفرنك وربع فى الساعة مقابل العمل عند مجموعة من الجهلاء يرهقونه بمعاملاتهم الملتوية. كيف يختار؟ أيهما أقصر الطرق للنجاح؟ سيترك الكلية وسيتلقى توبيخا من معلمه ديكيرسونيير القدير، الذى كان يحبه لكونه طالبا مطيعا. يا ترى ما هى الآلام التى تنتظره؟ أو المجهول الذى يتوعده؟ كان يشكو من الكليات الحكومية التى تجبره على أن يكد ويشقى لسنوات طويلة دون أن توفر له فى المستقبل أى عمل أو منصب.

وفجأة توقف فى منتصف الطريق، وقد لاح أمامهما من وراء السهل المنبسط منزل لاريشودبير يتوسط الأشجار الضخمة. فصاح كلود: "ماذا؟ أهذا حقيقى؟ لم أفهم... أأنت ذاهب لهذا الكوخ الحقير؟ لهؤلاء الأوغاد؟"

تضايق دوبوش من انفعال كلود، وقال محتجًا وقد بدا عليه الاستياء: "هذا لا يمنع أن السيد مارجايان، حتى وإن بدا لك أحمق، هو رجل مرموق فى مجاله. يكفى أن تراه فى مواقع العمل وسط المبانى لترى كيف يعمل بهمة جهنمية وحس إدارى مذهل، ومعرفة خارقة بالطرقات التى تبنى والمواد التى تشترى. فلا أحد يجنى الملايين دون أن يكون رجلا حقيقيا... وماذا تريدنى أن أفعل معه؟ يجب أن أكون مهذبا تجاه أى شخص قد يكون نافعا لى فى المستقبل!"

كان دوبوش قد سد الطريق الضيق أمام صديقه ليمنعه من المرور، خوفا من أن يراهما أحد معا ولكى يفهمه بطريقة غير مباشرة أنهما يجب أن يفترقا هنا.

أوشك كلود على أن يسأله عن أصدقائهما فى باريس، ولكنه آثر الصمت، فلم ينطق أمامه بأى شىء يتعلق بكريستين. واستسلم لرغبة الآخر وتركه، ثم مد إليه يده ليحيه قبل رحيله وعندها أفلتت شفتاه المرتعشتان بسؤال خرج رغما عنه: " كيف هى أحوال صاندوز؟"

أجاب دوبوش: "كل شىء على ما يرام! لم أعد أراه إلا نادرًا... ولكنه حدثنى عنك آخر مرة فى الشهر الماضى. إنه لا يزال حزينا لأنك قررت أن تنسانا جميعًا."

فصاح كلود وقد خرج عن شعوره: "ولكننى لم أنسكم قط! ولكن أرجوك تعالوا لتزورونى! سأكون سعيدا بتلك الزيارة!"

فقال دوبوش: "اتفقنا! سنأتى إليك، سأقنعه بالمجىء، أعدك!... والآن وداعا يا عزيزى، فأنا متعجل."

انطلق دوبوش باتجاه لا ريشودبير، وتابعه كلود بعينيه، وهو يكاد يختفى بين المزارع، حتى لم يعد يظهر منه سوى قبعته الحريرية اللامعة وسترته التى بدت كبقعة سوداء فى الأفق البعيد.

ثم عاد بخطوات متثاقلة إلى منزله وقد اغتم قلبه وغشيته كآبة لا يعرف سببها. وتكتم أمر هذا اللقاء حتى عن كريستين. بعد ثمانية أيام، ذهبت كريستين إلى عائلة فوشور لتبتاع بعض الشعرية، ثم توقفت فى طريق عودتها لتتجاذب أطراف الحديث مع جارة لها، وهى حاملة طفلها على ذراعها، وفجأة سألها رجل نازل من قارب: "أهنا منزل السيد كلود لانتيه؟"

انتفضت فجأة، ثم أجابته ببساطة: "نعم، اتبعنى إذا أردت لأريك إياه."

سارا جنبا إلى جنب لمئات الأمتار، بدا الرجل وكأنه يعرفها وارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة سرعان ما تلاشت أمام اضطرابها الذى حاولت إخفاءه بتصنع الجدية والإسراع فى طريقها.

ثم وصلا، ففتحت الباب وأدخلته إلى الصالة ثم نادت: "كلود! هناك ضيف يريد أن يراك."

ندت عن الرجلين صيحة تعجب، ثم تعانقا بحرارة. وقال كلود: "يا عزيزى بيير! كم أنت طيب لأنك قبلت بالمجىء!... وأين دوبوش؟"

فقال صاندوز: "كان قادما معى، ولكن طرأت ظروف منعته من المجىء فأرسل إلى رسالة لآتى إليك وحدى."

أضاف كلود: "كما توقعت!... ولكن ها أنت معى! يا إلهى لا أستطيع أن أصف مدى سعادتى!"

التفت إلى كريستين، التى وقفت تبتسم فى سعادة وقال: "ألم أرو لك؟ لقد قابلت دوبوش منذ بضعة أيام، وكان فى طريقه إلى هؤلاء الوحوش..."

ثم توقف وصاح فيما يشبه الجنون: "يا لى من أحمق! أنا لم أقدم لك صاندوز!... ها هو يا عزيزتى صديقى القديم بيير صاندوز... نحن أكثر من إخوة فى الحقيقة... وأقدم لك يا عزيزى كريستين امرأتى! هيا قبلا أحدكما الآخر."

أخذت كريستين تضحك ومدت له وجنتها بطيب خاطر، فقد نال صاندوز إعجابها منذ اللحظة الأولى، وراقت لها طيبته وصداقته الأمينة ونظراته الأبوية التى كان يغمرهما بها، حتى إن عينيه امتلأتا بالدمع حينما وضع يديها بين يديه قائلا: "كم أنت طيبة ورقيقة لتحبى كلود، ولا بد من أن يحبك هو إلى الأبد، فهذا هو أجمل ما فى الوجود."

ثم انحنى ليقبل جاك الصغير الذى حملته على ذراعها: "لقد أنجبتما طفلا!"

أجاب كلود، فيما يشبه التبرير أو التفسير: "إنهم يكبرون دون أن تنتبه!"

جلس كلود وصاندوز فى الصالة وشرعت كريستين فى إعداد الطعام. ثم حكى له قصتهما باختصار وحدثه عن كيف التقاها وعن الظروف التى

جعلته يكوّن هذه الأسرة. ولكنه اندهش حينما سأله صاندوز عن السبب وراء عدم زواجهما حتى الآن. فلم يسبق لهما أن تطرقا إلى هذا الأمر، فلم يشعر كلود بأهمية الأمر، خاصة وأن كريستين لم تلح عليه بشأنه، فهو لن يزيد أو ينقص من سعادتهما، فهو فى النهاية أمر لا طائل من ورائه.

فقال صاندوز: "أنا شخصيا لست منزعجا من هذا الوضع، ولكنك فتاة شريفة، فكان عليك أن تتزوجها."

فأجاب كلود ببساطة: "وقتما تشاء هى سأتزوجها يا عزيزى! فلست أنوى أن أتركها هكذا بطفلها بالتأكيد."

ثم أبدى صاندوز إعجابه باللوحات المعلقة على الجدران، مؤكدا لكلود أنه استطاع بالفعل أن يستثمر وقته ويستفيد به، فما أروع تلك الألوان وتلك الإضاءة الباهرة! ظل كلود يستمع إلى تعليقاته وهو يضحك فى زهو، ثم سأله عن أحوال باقى الأصدقاء، وعندها قاطعتهما كريستين: "هيا سريعًا، لقد أعددت البيض!"

تناول الجميع الطعام فى المطبخ. كانت بالفعل وجبة استثنائية مكونة من سمك صغير مقلى وبيض، ثم قطعة لحم متبلة مع خضراوات، وأخيرا سمكة كبيرة مقدمة مع البطاطس. كانت رائحة شواء السمك الذى تعده ميلى على النار شهية ونفاذة للغاية، وفى النهاية قدمت القهوة الموضوعة فى المصفاة بالقرب من الموقد. وانخرطوا فى أحاديث لا تنتهى مستندين على الطاولة يتناولون التحلية المكونة من قطع الفراولة الطازجة مع الجبن القادم من متجر الألبان المجاور.

تعجب كلود من أحوال الأصدقاء فى باريس، فلم يتغير أى شىء وبقوا جميعا على عهدهم! يقضون الوقت فى التضارب بالأيدى، ويتنافسون حول من سيكون الفائز. كان الغائبون على وجه الخصوص مخطئين، كان ينبغى أن يبقوا حتى لا يصبحوا طى النسيان. ولكن أليست الموهبة باقية؟ ألا يمكن استنهاضها دائما حينما تكون هناك الإرادة والقوة؟ ولكن ألم يكن حلمه هو أن يعيش فى الريف ويملأ جعبته بالأعمال الفنية التى تخوله غزو باريس وسحقها ذات يوم؟

وفى المساء، بينما كانا يسيران إلى محطة القطار، قال له صاندوز: "بالمناسبة، أريد أن ائتمنك على سر... أعتقد أننى سأتزوج عما قريب."

انفجر كلود ضاحكا وصاح: "يا لك من مهرج! الآن علمت لماذا كنت تعظنى عن الزواج هذا الصباح!"

ثم استكملا حديثهما وهما ينتظران قدوم القطار، ومضى صاندوز يستعرض آراءه عن الزواج، الذى يعتبره ببساطة نوعا من العمل الجيد والكفاح المنظم والقوى يجمع بين الأزواج المستقبليين.

فصورة المرأة التى تدمر الرجل، التى تقتل الفنان وتسحق فؤاده وتفترس عقله لم تعد سوى رؤية رومانتيكية قديمة أثبتت الوقائع خطأها. كان يشعر بأنه فى حاجة إلى عاطفة قوية تبث فيه الراحة والاطمئنان الداخلى الذى يهيئ له المناخ المناسب للإبداع ولبلوغ غايته المنشودة ألا وهى كتاباته العملاقة التى يحلم بها. ثم أكد أن الاختيار هو أهم مرحلة، ولقد اجتازها

بالفعل، فقد وقع اختياره على شابة يتيمة فقيرة جميلة وذكية. استقال صاندوز من وظيفته كموظف وأطلق لنفسه العنان فى مجال الصحافة التى أصبح يجنى من ورائها مالا وفيرا، حتى ابتاع منزلا صغيرا لوالدته فى باتينيول يكفى لأكثر من ثلاثة أفراد وينوى أن يقيم هناك بعد الزواج ليحيا مع المرأتين اللتين تعشقانه تملآن حياته بأكملها.

فقال كلود: "تزوج يا عزيزى! يجب أن نفعل ما نشعر به وما يمليه علينا قلبنا... ها قد آتى القطار، وداعا إذًا... لا تنس، لقد وعدت أن تأتى لتزورنى ثانية!"

وبالفعل تعددت زيارات صاندوز، فكان يأتى كلما سنحت ظروف عمله، خاصة وإنه لم يكن سيتزوج قبل حلول الخريف القادم. كانا يمضيان سويا أوقات سعيذة، ويقضيان أمسيات كاملة فى الحديث عن أسرارهما وذكرياتهما القديمة حول أحلام المجد والانتصار المشترك.

وفى ذات يوم، ذهبا إلى إحدى الجزر وتمددا على العشب جنبا إلى جنب وقد شردت أعينهما فى زرقة السماء، وباح صاندوز لكلود بأسمى طموحاته: " أتعلم أن الجريدة التى أعمل بها ما هى إلا ساحة قتال، وعليك أن تقاتل لتحيا... ولكن على الرغم من مساوئ العمل هناك، إلا أن الصحافة قوة وسلطة مقدسة، فهى سلاح لا يقهر فى يد أى شخص جرىء مؤمن بما يقدمه... ولكننى مضطر إلى الاستمرار بها على الرغم من أننى لست متيما بها، فأنا لا أفكر سوى فى مشروعى الخاص، نعم فأنا لا أحرص سوى على

كتاباتى التى تسكن كيانى... أنا أبحث عنها، أبحث عن شىء أغرق فى ثناياه، حتى وإن لم أخرج منها..."

وساد الصمت وتوقف حفيف الأشجار من شدة الحرارة، واستأنف حديثه بعبارات قاطعة: "أريد أن أصور الإنسان كما هو، لا تعنينى تلك التفاهات الميتافيزيقية، وإنما حقيقة الإنسان الفسيولوجية التى تحددها بيئته وترسم بها ملامحه وأعضاءه... أليس من العبث دراسة مخ الإنسان بصورة مستمرة وحصرية بحجة أنه العضو الأكثر سموا؟... فالتفكير هو نتاج الجسد بأكمله، وليس المخ وحده. فهل يفكر المخ بمفرده؟ وماذا عن سمو المخ، إذا ما كان الجسد مريضا؟... لا فائدة له! هذه حماقة، فكيف لا تتقابل الفلسفة مع العلم؟ نحن نقول إننا وضعيون[١] وتطوريون[٢] ولكننا لا زلنا نحتفظ بنفس النموذج الأدبى الكلاسيكى الذى يقدس فكرة المنطق المجرد! فمن يقول إنه عالم نفسى يكون خائنا للحقيقة، فعلم النفس وعلم الجسد لا ينفصلان، فهما الآن علم واحد يسعى لبحث آليات ووظائف الإنسان التى تخلق منه كلاً لا يتجزأ... فصيغتنا الثورية الجديدة لا تقوم سوى على التخلص من الإرث المجتمعى القديم، وميلاد مجتمع جديد يكون تربة لبزوغ فن وعالم جديدين... وسنرى بالتأكيد هذا الأدب الجديد، أدب القرن المقبل نتاجا للعلم والديمقراطية!"

---

(١) وضعيون: positivistes : من أتباع مذهب الفلسفة الوضعية. (المترجمة)

(٢) تطوريون: evolutionnistes : من أتباع نظرية التطور أو النشوء والارتقاء. (المترجمة)

تعالت صيحاتهما واضمحلت فى السماء الواسعة، ثم صمتا تماما، ولم يعد يسمع سوى أصوات النهر الخافتة. والتفت فجأة إلى كلود قائلا:

"لقد اكتشفت ما أحتاجه بالفعل، ليس بالأمر العظيم، فلست فى حاجة سوى إلى ركن هادئ، أحيا به فى سبيل تحقيق طموحاتى العظيمة، تكفينى أسرة واحدة لأدرس أفرادها جميعا، من أين أتوا؟ وإلى أين يمضون؟ كيف يؤثر كل منهم على الآخر؟ وكأننى أدرس البشرية كلها ولكن على مقياس أصغر، أى كأننى أدرس كيف يحيا البشر ويتصرفون؟... بالطبع، سأختار لشخصياتى حقبة تاريخية معينة، مما سيحدد الظروف والبيئة التى يحيون فيها... أتفهم؟ سأكتب سلسلة من الكتب خمسة عشر أو عشرين كتابًا تتوالى فيها الأحداث، وسيكون لكل منهم إطار خاص به!... ستكون سلسلة من الروايات أعكف على كتابتها أياما طويلة حتى تسحقنى!"

ثم استلقى على ظهره ومد ذراعيه على العشب كمن يريد اختراق الأرض، وهو يضحك ويمزح مع صديقه:

"أيتها الأرض الطيبة، خذينى! أنت أمنا كلنا، أنت مصدر الحياة الوحيد! أنت الخالدة التى تخلق حياة العالم، تلك الحيوية التى تسرى حتى فى الأحجار، والتى تجعل من الأشجار أشقاء ساكنين!... لكم أريد أن أذوب فيك، فأشعر بك فى داخلى تعانقيننى وتلهبيننى! سأجعلك فى روايتى القوة المطلقة، ستكونين أنت الوسيلة والغاية، أنت من تحيا فيك الأشياء بنفحة من البشر!"

بدأت هذه المناجاة بسخرية تعمد فيها المبالغة الغنائية، ولكنها انتهت بصرخة حادة أطلقها من فرط انفعاله العميق كشاعر، اغرورقت عيناه بالدموع وإن حاول إخفاءها بحركة كأنه يحتضن الكون، وقال بصوت عنيف: "أليست هذه حماقة؟ أن يكون لكل منا حياة، بينما لدينا جميعا تلك الحياة العظيمة!"

لم يحرك كلود ساكنا، وإنما غاص فى العشب، وبعد فترة صمت طويلة قال: "حسنا يا عزيزى، أفنهم جميعا!... ولكنك ستضنى نفسك دون جدوى".

أجاب صاندوز الذى وقف ليتمدد: "ولكننى قوى، لن يقدروا على هزيمتى... هيا نعود كيلا يفوتنى القطار".

شعرت كريستين نحوه بصداقة عميقة، وأعجبتها استقامته وصلابته فى مواجهة الحياة، حتى تجرأت على أن تطلب منه أن يكون إشبين[1] جاك. لم تكن كريستين ترغب فى أن تدخل الكنيسة، ولكنها رأت أنه الأفضل للطفل أن يكون له إشبين عاقل ومتزن مثل صاندوز ليكون سندا له. فى البداية تعجب كلود لقرارها ولكنه استجاب لطلبها فى لا مبالاة. و، تمت المعمودية، واختاروا له إشبينة من بنات الجيران. ثم أقاموا احتفالا، قدمت فيه كريستين طبق سرطان البحر أحضر خصيصا من باريس.

فى ذلك اليوم، انفردت كريستين بصاندوز، وقالت إليه متوسلة: "ستأتى قريبا، أليس كذلك؟ إنه يمل سريعا بمفرده".

---

(١) إشبين: بديل عن الأب والأم يتعهد بتنشئة الطفل دينيا ويكون مسئولا عنه فى حال غيابهما. (المراجع)

كان كلود بالفعل تنتابه نوبات من التعاسة والكآبة الشديدة، فيتوقف عن الرسم ويخرج ليتجول بمفرده، ليجد نفسه يحوم رغما عنه حول نزل فوشور بالقرب من القارب المؤدى إلى الضفة الأخرى- إلى باريس- وكأنه يراهـا كاملة أمامه مرة أخرى. استحوذت باريس على جل تفكيره، فكان يذهب إليها شهريا ليعود حزينا عاجزا عن العمل. ثم جاء الخريف، يليه الشتاء. وكـان شتاء رطبًا ملبدًا، أصابه بنوع من الفتور الكئيب، كذلك كان الحال بالنـسبة لصاندوز، الذى بعد أن تزوج فى أكتوبر الماضى، لم يعد فى مقدوره القدوم بكثرة إلى بينكور. لم يكن كلود يفيق من هذه النوبـات سـوى عنـد قـدوم صاندوز، فيقضيان الوقت فى إثارة وأحاديث محمومة لا تنضب حول أحوال باريس ومن فيها.

فى البداية، أخفى كلود عن كريستين حنينه إلى باريس، ولكنه أصـبح يمطرها نهارا ومساء بالأحاديث حول جمالها وحول الأشياء التى لم ترهـا والأشخاص الذين لم يتسن لها الوقت لمقابلتهم. كانت تعليقاته وذكرياتـه لا تنتهى، فلم يكن يتوقف عن الحديث، وهما جالسان أمام المدفأة وإلى جوارهما جاك نائما. كان يتحدث بشغف لم تعهده من قبل، وكان عليها أن تتفاعل مـع رواياته وتبدى رأيها بشأنها. ألم يكن جانيير مخطئا فى أن يتدله فى عـشق الموسيقى ويهمل موهبته فى كونه رسامًا بارعًا للمناظر الطبيعية؟ أتعلمـين؟ يقال إنه يتلقى دروسا فى عزف البيانو عند إحدى المدرسات! تخيلـى فـى عمره هذا ويتلقى دروسًا فى العزف! ما رأيك؟ إنه بالفعل مفتون بالموسيقى!

وجورى الذى لا يفكر سوى فى إيرما بيكو منذ أن امتلكت نزلا صغيرا فى شارع موسكو! أنت تعرفينهما أليس كذلك؟ ولكن أكثرهم خبثا هو فاجرول، لكم يرغب فى أن يواجهه بحقيقته عندما يراه! لقد تقدم إلى جائزة روما ولكنه خسرها فى النهاية، هذا الجبان! كم كان يسخر من كلية الفنون ويتحرق شوقا إلى تدميرها! ولكن تلهفه على النجاح والحاجة إلى التفوق على أصدقائه لينال إعجاب مجموعة من الحمقى جعلته يرضى بارتكاب تصرفات حقيرة! ثم انتظر كلود ليرى هل ستدافع عنه كريستين؟ ولكنها لم تكن برجوازية منافقة لتدافع عنه! وعندما أبدت وجهة نظره وتحاملت على فاجرول، انفجر كلود ضاحكا متطرقا إلى قصة ماهودو وشاين اللذين قتلا السيد جابوى زوج ماتيلد بائعة الأعشاب الشنيعة، نعم قتلاه! ففى أحد الأيام، أصيب هذا العجوز المريض بالسل بحالة إغماء، فجاء الاثنان بناء على طلب ماتيلد وحاولا إفاقته بقوة حتى مات!

لم تضحك كريستين على هذه القصة، فقال كلود بصوت خشن: "ماذا؟ أنت لا يعجبك شىء! كيف لا تضحكين؟... هيا ننام أفضل."

كان لا يزال يعشقها، ويجتاحه شوق يائس تجاهها كشوق الحبيب الذى يرجو من الحب كل شىء، نسيان الحاضر والماضى، السعادة المطلقة. ولكنه لم يعد يتجاوز القبلة، لم تعد كريستين تكفيه، وقد امتلكه عذاب وشوق جديد لا يقهر.

مع حلول الربيع، بدأ القلق يساور كلود بشأن المعرض، على الرغم من أنه كان قد أقسم بدافع الاحتقار على ألا يعرض لوحاته هناك. فكلما رأى

صاندوز استجوبه حول ما أرسله الأصدقاء إلى المعرض. وفى يوم الافتتاح، سافر إلى باريس وعاد فى نهاية اليوم، مرتعشا من شدة التوتر، فلم يكن هناك سوى تمثال نصفى من أعمال ماهودو، كان جيدا ولكن ليس ذا قيمة ولوحة صغيرة جميلة مشرقة الألوان لجانيير تم قبولها وسط المجموعة. لم يكن هناك شىء آخر سوى لوحة فاجرول التى يصور فيها ممثلة وأمامها كأس. لم يحك كلود لكريستين عن هذه اللوحة فى البداية، ثم تحدث عنها باقتضاب تشوبه ضحكات ساخطة على فاجرول المخادع الذى واتته الجرأة الآن على التقدم للمعرض بعد أن أفلتت منه الجائزة، فأصبح الآن فى مقدوره تجاهل الكلية، كانت لوحته تنم عن مهارة ومراوغة، فاللوحة تعطى الإيحاء بالجرأة والواقعية، ولكنها تخلو من أى تجديد أو تميز! ولقد لاقت بالفعل نجاحا بين صفوف البرجوازيين! لابد من ظهور فنان حقيقى فى وسط هذا العبث الكئيب الذى يزخر به المعرض، فى وسط هؤلاء الماكرين والحمقى! إنه المكان الذى ينتظرنى!

استمعت له كريستين دون انفعال، ثم قالت بتردد: "إذا أردت، يمكننا العودة إلى باريس."

فصرخ: "من قال هذا؟ ألا يمكن للواحد أن يتحدث معك دون أن تختلقى المشاكل؟"

مرت ستة أسابيع ، ثم ورد إليه نبأ زواج دوبوش من الآنسة ريجين مارجايان، ابنة مالك لاريشودبير. أحزنه هذا الخبر وشغل باله لأكثر من ثمانية أيام.

كانت القصة طويلة ومعقدة، أدهشته وأسعدته تفاصيلها فى نفس الوقت. كان دوبوش القذر قد نال ميدالية عن مشروع صمم فيه جناح وسط متنزه تقدم به إلى المعرض، ولكن أطرف ما فى الموضوع أن المشروع، قيل إنه من تصميم معلمه ديكيرسونيير، ولذلك فقد منحته لجنة التحكيم الذى يترأسها هو ميدالية أحسن تصميم. أما قمة السخرية، فتكمن فى أن هذه الميدالية كانت هى سبب الزواج! أترين أنها صفقة جيدة! فالسيد مارجايان وأمثاله يسعون إلى إيجاد صهر يساعدهم فى أعمالهم تتوافر فيه سمات محددة: شهادات حقيقية وثياب أنيقة. ووقع اختياره منذ فترة طويلة على دوبوش، الطالب الشاب فى كلية الفنون، والذى يمدحه كل معلميه لتفوقه وتميزه. فما أن رأى السيد مارجايان الميدالية حتى وافق على تزويجه ابنته، ليضمن بقاء هذا الشاب الذكى الذى سيجلب إليه الملايين. وهكذا ستحظى ريجين المسكينة، معتلة البدن، بزوج جيد حسن الهندام.

أخذ كلود يكرر على مسامع كريستين: "أتصدقى هذا؟ أيمكن لأحد أن يحب النقود لدرجة تجعله يتزوج تلك الفتاة العليلة؟"

هبت كريستين للدفاع عنها بدافع الشفقة، فقال: "أنا لا أهاجمها هى، فخير لها إن لم يتم هذا الزواج، فقد تلقى حتفها بسببه! فهى بالتأكيد بريئة من خطط طموحات والدها– هذا العامل، الذى دفعه طمعه إلى الزواج من فتاة برجوازية لتكون ريجين هى ثمرة هذا الزواج، فورثت عنه القبح والدم الفاسد بسبب الأجيال المتعاقبة من السكارى، وعن والدتها ضعف واعتلال الصحة

وجميع الأمراض التى تفترس جسدها المسكين- يا له من انحطاط! أصبحت تلك هى بالفعل الطريقة التى يلجأ إليها النـاس لكـسب الأمـوال وتكـوين الثروات!"

اشتد به الانفعال والاهتياج، حتى هرعت كريستين لتحتضنه وتـضمه بين ذراعيها وهى تقبله ضاحكة عله يعود كلود القديم الذى يتحول بين يديها إلى طفل صغير. حتى هدأ قليلاً وثاب إلى رشده، ورأى أنه من المنطقى أن يتزوج دوبوش وأيضًا صاندوز ولماذا لا؟ ألم يتخذ هو الآخر امرأة لنفـسه؟ كم هى غريبة تلك الحياة!

انقضى الصيف، كان هذا رابع صيف يمر عليهما فى بينكور. لم يكـن يسعهما أن يعيشا فى سعادة تفوق هذه السعادة، كانت حياتهما عذبة وبسيطة فى تلك القرية الهادئة. فمنذ أن سكنا هنا، لم تعوزهما النقود قط، فكانـت الألـف فرنك التى يحصل عليها كلود سنويا بالإضافة إلى اللوحات التى يبيعها تغطى جميع احتياجاتهما، بل كانا يدخران منها أيضًا وينفقان علـى تجديـد المنـزل وشراء الأقمشة الجديدة. حتى جاك، البالغ من العمر عامين ونـصف، كـان يعشق الريف، فكان يمضى اليوم كله يلعب في الأرض، وقد تمزقـت ثيابـه وتلطخ وجهه، لم تكن كريستين تعرف كيف تمسك به لتنظفه قليلا وتزيل عنه آثار اللعب. ولم تكن تشغل بالها به مادام قد أكل جيدا ونـام مطمئنـا، وإنمـا كرست جل عنايتها ورقتها لطفلها الكبير الفنان، لرجلها الغالى، لكلـود الـذى كانت نوبات الكآبة والسوداوية التى تجتاحه تملأ قلبها بـالحزن والانزعـاج.

ازداد الوضع سوءا يوما فيوما، بعد أن عاشا قبلا فى هدوء دون داعٍ للحــزن. واستمرا يغرقان شيئا فشيئا فى الضيق والكآبة التى تسببت لهم فى ألمٍ مستمر.

كانت أيام سعادتهما الأولى فى الريف قد تلاشــت، وفــسد قاربهمــا الصغير وامتلأ بالثقوب حتى جرفه التيار إلى أعماق نهر السين. فقدا الرغبة فى كل شيء، فلم يفكرا حتى فى استخدام قارب عائلة فوشور، بعد أن سئما النهر وغلبهما الفتور، فكانا يرددان من حين لآخر وهما جالسان فى بعــض الأماكن التى تذكرهما بالماضى نفس العبارات القديمة، التى فقدت معناهــا، كما فقدت جولاتهما بين المزارع سحرها وجاذبيتها، فأصبحا يتضرران مــن حدة الشمس فى الصيف، ومن البرد القارس فى الشتاء. وبدت لهما الهــضبة بأراضيها الفسيحة المزروعة بالتفاح وكأنها بلاد أخرى بعيــدة، لا تــستحق المغامرة بالذهاب إليها. حتى منزلهما أصبح مصدرا للإزعاج، وكأنه ثكنــة عسكرية يأكلان فيه أسوأ أنواع الأطعمة، واكتشفا أن غرفتهما شديدة البرودة وملتقى للرياح من جميع الاتجاهات. ازداد الوضع تــدهورا، مــع تراجــع محصول المشمش، وذبول الزهور العملاقة. أصبحت كل عاداتهما القديمــة تثير فى نفوسهما شجنًا وكآبة، فكيف تتحمل الطبيعة إذًا هذا التكــرار وهــذا الشبع والامتلاء دون أن تضيق بالآفاق التى لا تتغير؟

كان أسوأ ما فى الأمر، هو أن الفنان بداخله لم يعد يجد ما يثيره فــى هذا المكان، الذى خلا من أى موضوعات للرســم، فكــان يقطــع الحقــول بخطوات حزينة، ويسير فى هذا الفراغ الذى أفنى حياته بين جنباته، فلم تعد هناك شجرة أو أى تأثيرات ضوئية إلا ورسمها.

انتهى كل شيء، وتجمدت موهبته، لن يستطيع التقدم فى هذا المكان الرهيب!

جاء أكتوبر بسمائه المبللة، وفى أولى الليالى الممطرة، ثار كلود فى غضب لأن العشاء لم يكن قد أعد بعد، فرمى الطعام الذى أعدته ميلى وصفع جاك الذى كان جالسا على ركبتيه يلعب.

وقفت كريستين باكية، ثم احتضنته وقالت: "هيا نعود! هيا نذهب إلى باريس!"

نزع عنه ذراعيها، وقال بغضب عارم: "ألم نتحدث بهذا الشأن من قبل؟... لن نعود أبدا! أتسمعين؟"

توسلت إليه: "افعلها من أجلى، أنا الذى أطلب منك أن نرحل! إذا ذهبنا هناك سأكون سعيدة."

فسألها متعجبا: "ألا يعجبك الوضع هنا؟"

أجابت: "لا! سأموت من شدة الملل والضيق إذا بقينا هنا!... كما أننى أريدك أن تعمل، أنا أشعر أن مكانك هناك. إن بقاءك هنا جريمة! أنت تدفن نفسك!"

فقال: "لا! دعينى وشأنى!"

كان يرتجف من الانفعال، كانت باريس تناديه، باريس التى تشتعل فى الشتاء، حيث لا يزال يسمع صوت أصدقائه ويترقب أعمالهم، ويتوق للعودة حتى لا ينتصروا بدونه، لكيلا يفوته النصر العظيم، ليستعيد مكانته كرائد ومعلم، خاصة وأن أحدًا منهم لم تتوافر له القوة أو الكبرياء لينصب نفسه زعيما.

وفى خضم هذه الهلوسة والرغبة الملحة التى تعتصره فى الذهاب إلى هناك، ازداد تشبثا برفضه للسفر، بدافع من تناقض لا إرادى ينهش أعماقه، لم يستطع أن يبرره حتى لنفسه. أهو الخوف الذى يزلـزل أعمـاق أشـجع الرجال؟ أو ربما هو الصراع بين السعادة ومعاندة القدر؟

وفجأة قالت كريستين بعنف: "اسمع! سأعد الحقائب وسآخذك إلى هناك!"

وبعد خمسة أيام توجهوا إلى باريس بعد أن حزموا الحقائب وأرسلوها بالقطار. كان كلود فى طريقه إلى المحطة حاملا جاك، بينما خطر لكريستين بأنها نسيت شيئا، فعادت بمفردها إلى المنزل لتراه فارغا. أخذت تبكى وكأن هناك من ينتزعها من جذورها، وكأنها تترك جـزءًا منهـا دون أن تـدرى ماهيته. لو كان بإرادتها لبقيت هنا! فكم تمنت أن تقضى باقى أيام حياتها فى هذا المكان! ولكنها هى التى أصرت على الرحيل، على العودة إلى المدينـة المشبوبة بالعواطف، وقد انقبض قلبها كمن تصنع بإرادتهـا منافـسة لهـا! استمرت فى البحث عما نسيته، وقطفت وردة أخيرة تجمدت من شدة البـرد من أمام نافذة المطبخ. ثم أغلقت الباب ومن خلفها الحديقة الجرداء.

الفصل السابع

بمجرد أن وطأت قدما كلود شوارع باريس، سرت فى أوصاله حمى الضوضاء والحركة، واجتاحته الرغبة فى الخروج والتسكع فى المدينة ورؤية أصدقائه. بدأ يتجول منذ الصباح الباكر تاركا كريستين وحدها ترتب المرسم الجديد مكان إقامتهما بشارع دواى بالقرب من شارع كليشى.

بعد يومين من وصولهما، توجه كلود إلى ماهودو فى الثامنة صباحا. كان يوما باردا ومظلما، وتحتم عليه أن يستجمع كل قواه لينهض من النوم.

وعندما وصل إلى شارع شارش ميدى، حيث تقع ورشة النحت، وجدها مفتوحة، ووجد ماهودو يفتح النوافذ وهو يرتعش ووجهه شاحبا من قلة النوم، وما أن رأى كلود حتى صاح: "ماذا؟ أهذا أنت؟... لقد تعلمت الاستيقاظ مبكرا فى الريف أليس كذلك؟... ما الذى جاء بك إلى هنا؟ أستعود للإقامة هنا دائما؟"

أجاب كلود: "نعم! لقد وصلت أول أمس."

فصاح: "جميل! إذاً سنتقابل كثيرا... ادخل، فالبرد أصبح قارسا."

دخلا، وشعر كلود ببرودة الجو داخل الورشة المتجمدة، فرفع ياقة معطفه ودس يديه فى جيوبه وهو يرتجف متأملا الجدران التى كستها

الرطوبة وبقع الطين وسيل الماء المنهمر الذى يقطر علـــى الأرض. وكـــأن رياح البؤس قد مرت بالمكان، فعصفت بالقوالب والتماثيل القديمة وحطمـــت المقاعد والدلاء التى ربطت بالحبال فى محاولة لحفظها. ثم وقع بصره على أحد الأركان تعمه الفوضى ممتلئ بالصلصال. وعلت زجـــاج البـــاب بقـــع جيرية، كانت فى الأصل رسومات بالأصابع، تـــصور الـــشمس المـــشرقة يتوسطها وجه ضاحك.

قال ماهودو: "انتظر! سأشعل نارا لنستدفئ. فهذه الورشة اللعينة تتجمد على الفور!"

واستدار كلود، فرأى شاين جالسًا على ركبتيه منهمًا فى إفراغ القـــش من أحد المقاعد ليشعل به المدفأة، فقال له: "صباح الخير!" وصـــدرت عنـــه همهمة غير مفهومة دون أن يرفع رأسه ليرى من الزائر؟

فالتفت كلود إلى ماهودو قائلاً: "وأنت يا عزيزى؟ ماذا تعمل حاليـــا؟"

فرد: "ليس بـــالأمر الـــضخم! فهـــذه الـــسنة كانـــت بالفعـــل ســـيئة، بل أسوأ من سابقتها!... ليس لدى ما أنحته! يبـــدو أن مـــصادر الإلهـــام قـــد نضبت!... لقد مررت بأيام صعبة... طوال كل هذا الوقت لم أفعل سوى هذا."

ورفع الأقمشة من على تمثال نصفى، بوجه طويل أضفى عليه الغرور والحماقة قبحًا وحشيًا.

ومضى يشرح لكلود: "أنه لمحامٍ يقطن بالقرب من هنا... قبيح ألـــيس كذلك؟ ولكنه يزعجنى برغبته فى تعديل فمه وتجميله!..."

كانت لديه فكرة تمثال رائع يحتفظ بها للمعرض، عبارة عن امرأة تستحم وتتساقط من قدميها قطرات الماء. كان التمثال يعطى شعورا بالنضارة والحيوية تضاعف من جمال المرأة، ثم أخرج لكلود تمثالا مصغرًا متصدعًا لهذه المرأة، فأخذ يتأمله فى صمت ودهشة، حزينًا على الحال الذى وصل إليه صديقه وعلى التنازلات التى اضطر لها. كان جمال التمثال المتفجر يخفى نوعًا من المبالغة فى التكوين، وميلا إلى إضفاء انطباعات مهيبة وجليلة رغبة فى نيل الإعجاب. وأشد ما أحزنه، أن هذا التمثال لا يزال فكرة، يلزمه هياكل حديدية باهظة الثمن وقاعدة ومعدات كاملة. ثم ماذا عن المرأة؟ أسيحاول ماهودو أن ينحتها نائمة على شاطئ النهر؟

ولكن ماهودو ألح عليه بالأسئلة: "ما رأيك؟... أتجدها جيدة؟" فأجاب كلود: "ليست رديئة... إنها رقيقة بعض الشيء على الرغم من ساقيها الضخمتين، ولكنها لن تظهر إلا بعد أن تنتهى منها... فقط اجعلها واقفة يا عزيزى! لا تفسد عملك!"

وفجأة تعالت زمجرة المدفأة، ونهض شاين فى صمت، وتجول للحظة فى الورشة ثم دخل إلى الغرفة الداخلية المظلمة، حيث يوجد الفراش الوحيد الذى يتقاسمه مع ماهودو، وعاد مرتديًا قبعته، فى صمت مطبق متعمد، وأمسك بقلم من الفحم وكتب على الحائط ببطء: "سأذهب لأبتاع بعض التبغ، ضع مزيدًا من الفحم فى المدفأة" وخرج.

ظل كلود يشاهده فى ذهول، ثم التفت إلى ماهودو فى عجب: "ماذا يحدث؟"

فرد الآخر بهدوء: "نحن لا نتكلم سويا وإنما نكتب."

- "منذ متى؟"

- منذ ثلاثة أشهر."

- "ولكنكما تتقاسمان نفس الفراش؟"

- "نعم."

لم يستطع كلود أن يكتم ضحكاته العالية من هذين الصديقين العنيدين. وحاول أن يسأل ماهودو عن سبب الخلاف، فاستشاط غضبا واظهر استياءً شديدًا عند ذكر شاين. وحكى لكلود: ذات مساء، عدت على حين غرة، فوجدته مع ماتيلد، كان كل منهما يرتدى قميصا، ويتلذذان بالتهام إناء من المربى! لم أهتم عندما رأيتها دون تنورتها، فهى لا تعنينى، ولكن ما أثار حفيظتى هو إناء المربى! لن أسامحه أبدا على قيامه بشراء طعام وإخفائه، ثم التهامه خفية، بينما آكل أنا الخبز الجاف! لما لا يفعل كما نفعل مع تلك المرأة ماتيلد، نتقاسمها!

ومضت ثلاثة أشهر والقطيعة مستمرة والضغينة لا تزال فى القلوب دون تفسير أو سبب.

وأصبحت تلك هى حياتهما الجديدة، فقلصا تعاملاتهما إلى عبارات مقتضبة يتبادلانها على الحائط عند الضرورة القصوى. إلا أنهما استمرا فى معاشرة نفس المرأة، خاصة وإنهما لا يملكان سوى فراش واحد، بعد أن اتفقا

ضمنيًا على الساعات المخصصة لكل منهما. كان يخرج أحدهما كلما حان دور الآخر! يا إلهى! لماذا الحاجة إذًا إلى الكلام؟ مادام البشر يستطيعون فهم بعضهم بعضا.

في تلك الأثناء، أفرغ ماهودو ما كان يحمله في المدفأة، وجلس ليستريح ثم قال: "صدقنى إذا شئت! ولكن الصمت ليس سيئًا، خاصة وأنت تضور جوعًا! صحيح أننا نمل فى بعض الأوقات، ولكنه دواء يسكن آلام المعدة التى تصرخ... أنت لا تعلم شيئا عن طباع شاين، هذا المزارع العنيد! عندما أضاع كل أمواله دون أن يتحصل على الثروة المنشودة من وراء الرسم، انخرط فى التجارة، كان عمله قادرًا على تغطية نفقات دراسته. ذكى، أليس كذلك؟ إليك خطته الفاشلة! كان ينوى بيع زيت الزيتون القادم من قريته" سانت فيرمين" للعائلات الريفية الثرية المقيمة فى باريس، ولكنه سرعان ما فشل بسبب خشونته وفظاظته... وهكذا فقد أصبحنا نقتات على آخر وعاء من الزيت، نضع فيه خبزنا الجاف لنأكله."

وأشار إلى وعاء ملقى فى أحد الأركان، والزيت يسيل من على الحواف بينما تلطخت الجدران والأرضيات ببقع دهنية كبيرة.

توقف كلود عن الضحك أمام هذا البؤس! هذا الإحباط الذى يسحقهما ببطء! وعاد يتجول فى الورشة، دون أن يغضب من التنازلات الفنية، أو من التماثيل الرديئة الواهنة، بل تقبل تمثال المحامى الفظيع. ورأى لوحة نقلها شاين عن لوحة مانتينيا المعروضة فى اللوفر، تميزت بجفاف ودقة لا مثيل لهما.

فهتف كلود: "إنها تشبهها بالضبط!... لم يسبق له أن صنع واحدة تضاهيها جمالاً... ربما خطؤه الوحيد هو أنه ولد متأخرا أربعة قرون!"

ارتفعت حرارة الغرفة، فنزع معطفه، وقال: "لقد تأخر! أيستغرق شراء التبغ كل هذا الوقت؟"

فأجاب ماهودو وقد استأنف عمله فى تمثال المحامى: "أى تبغ؟ أنا أعرفه جيدا... إن تبغه الذى ذهب لإحضاره هنا فى الغرفة المجاورة لنا! فكلما رآنى منشغلاً مضى للقاء ماتيلد معتقدًا أنه يسرق نصيبى... يا له من أحمق! فليذهب!"

- "أعلاقتكما بها دائمة أم ماذا؟"

- "نعم! ولكنها أصبحت عادة! فلا يعنينى إذا كانت هى أم أخرى! ولكنها هى الوحيدة التى تداوم القدوم..."

ثم استكمل حديثه عن ماتيلد دون غضب، متحدثا عن مرضها منذ وفاة السيد جابوى، وكيف عاودتها نوبات التقوى، ولكنها لم تمنعها من إثارة غضب وحنق الحى بأكمله، فمتجر العطارة الذى تملكه على وشك الانهيار وإفلاسها أصبح وشيكا، فلم يعد يتردد عليها سوى بعض السيدات التقيات اللاتى يلجأن إليها لشراء بعض الأغراض الحساسة والشخصية، لتفادى حرج اللجوء إلى بائع جديد. وذات مساء نزعت شركة الغاز عدادها لعجزها عن تسديد النقود، فجاءت لتقترض منهما زيت الزيتون، الذى فشل هو الآخر فى

إضاءة مصابيحها. لم تسدد الأموال التى عليها لأى شخص، فكانت تتجنب إحضار أى عامل لإصلاح أى شيء، وإنما تلجأ إلى شاين من أجل إصلاح المحاقن والمضخات التى تحضرها إليها السيدات خفية بعد أن يلفوها بأوراق الجرائد. كان الجميع فى متجر الخمر المواجه لها يدعى أنها كانت تبيع للأديرة محاقن مستعملة. وأخيرا، كانت الفاجعة! أفلست وتهدم هذا المتجر الغامض بظلاله الشاردة وهمهماته الخافتة التى تشبه الاعتراف، وبخوره الذى يخلق جوا روحانيا، وكل ما كان يحدث بداخله بعيدا عن الأعين!

اشتد البؤس بالمكان، تحولت الأعشاب الجافة المعلقة فى السقف إلى أعشاش للعنكبوت وطفت العلقات الميتة على أسطح الأوعية.

قال ماهودو: "ها هو شاين قد أتى! وسرعان ما ستأتى هى وراءه!"

وبالفعل دخل شاين، وأخرج لفافة التبغ بحركة تمثيلية وأفرغها فى غليونه وأخذ يدخن أمام المدفأة غارقا فى صمته، وكأنه لا يوجد أحد. وفجأة دخلت ماتيلد، التى جاءت لتحييهما. لاحظ كلود أنها ازدادت نحافة وإن تضرجت الدماء تحت بشرتها. كانت عيناها تلتهبان وبدا فمها أوسع بعد أن فقدت سنتين أخريين. وفاحت روائح الأعشاب من شعرها المصبوغ، ولكنها لم تعد كما كانت، تلاشت حلاوة ونضارة رائحة الكاموميل واليانسون، وملأت الغرفة رائحة النعناع والتوابل التى بدت أسوأ، حيث أفسدها هذا الجسد المنهك الذى تفوح منه.

فصاحت: "أتعمل هكذا فى الصباح الباكر؟ صباح الخير يا عزيزى!"

قبلته دون أن تأبه بوجود كلود، ثم التفتت إليه ومدت يدها لتحييه بجرأة وكأنها تستعرض نفسها أمامه، ثم قالت: "ألم أقل لك؟ لقد وجدت علبة من حلوى الخطمى وسنأكلها سويا على الغداء... أليس ذلك لطيفا! سنتقاسمها إذاً!"

فقال ماهودو: "شكرا جزيلا ولكنها ستعيقنى عن العمل، أفضل تدخين غليونى!"

ثم التفتت إلى كلود ورأته يرتدى معطفه، فسألته: "أأنت ذاهب؟"

فقال: "نعم! فلازلت فى حاجة إلى السير لاستنشاق هواء باريس مرة أخرى."

ولكنه مكث عدة دقائق يتابع شاين وماتيلد وهما يلتهمان الخطمى بشره وقد تناول كل منهما قطعته، واستحوذت عليه الدهشة حينما رأى ماهودو يتناول قلم الفحم ويكتب على الحائط: "أعطنى التبغ الذى دسسته فى جيبك."

فأخرج شاين اللفافة دون كلام وأعطاها لماهودو الذى أشعل غليونه.

فقال كلود: "إذن أراك لاحقًا"

– "نعم... سأراك على أى حال يوم الخميس عند صاندوز"

فى الخارج، ذهل كلود حينما اصطدم برجل واقف أمام متجر العطارة منهمكًا فى مراقبة ما يحدث فى الداخل من وراء اللفائف الملطخة بالأتربة المعلقة فى الواجهة.

فصاح: "ماذا؟ أهذا أنت يا جورى؟ ماذا تفعل هنا؟" اشتد به الفزع وقال: "أنا؟... لا شىء! لقد كنت مارا بالصدفة، ثم رأيت..."

وعندها انفجر ضاحكا، وسأل كلود بصوت منخفض عما إذا كان أحد قد سمعه؟

ثم قال: "إنها مع ماهودو وشاين أليس كذلك؟ إذن سأمر عليها يوما آخر."

اصطحب كلود وأطلعه على أخبار أفزعته: فكل الأصدقاء يأتون إلى ماتيلد، ويدخل كل منهم حسب دوره، بل قد يدخل أكثر من واحد إن وجدنا أن الأمر أكثر متعة! ثم حكى له عن فظائع حقيقية تحدث بينه وبين تلك المرأة وعن أشياء فغر لها فاه وهما واقفان على الرصيف يتخبطان وسط الجموع.

فهتف به كلود ضاحكًا: "ولكنك كنت تصفها بالبشاعة والقبح!"

فأجاب جورى بلامبالاة: "ولكن ما نفعله بها! ... فاليوم مثلا كنت عائدا من محطة قطار الغرب بعد أن أوصلت أحدهم. وأثناء مرورى بالشارع هنا خطر لى أن أمر بها... أنت تفهمنى، فلا أحد يأتى إليها خصيصًا!"

كان يقدم كل هذه التفسيرات فى حرج، وفجأة صدرت عن هذا الكاذب صرخة الحقيقة: "ولكننى أراها غير عادية، إذا شئت!... ليست جميلة ولكنها ساحرة! فهى مثل تلك النساء اللاتى نتصنع تجاهلهن ولكننا فى الحقيقة على استعداد لفعل أى شىء فى سبيلهن!"

عندئذ فقط أعرب عن دهشته للقاء كلود فى باريس، وعندما علم بأنه عاد للإقامة هنا مرة أخرى، قال: "اسمع إذًا! ستأتى معى لنتناول الغداء عند إيرما!"

رفض كلود بشدة متذرعا بأنه لا يرتدى سترة مناسبة.

فصاح جورى: "وماذا يهم؟ أتعلم؟ إيرما ستطير من الـــسعادة عنـــدما تراك... يبدو أنها مبهورة بك. إنها لا تكف عن الحديث عنك... هيا! لا تكن أحمق! أؤكد لك أنها تنتظرنى منذ الصباح وستقابلنا إستقبال الأمراء!"

لم يدعه جوري يفلت من يده، ومضيا سويا فى طريقهما إلـــى إيرمـــا وهما يتحدثان. لم تكن من عادة جورى أن يتطرق إلى علاقاتـــه العاطفيـــة، تماما مثلما يتجنب السكير الحديث عن الخمر، ولكن هذه المرة، لم يتـــورع عن البوح بكل شىء فى سخرية. كان قد قطع علاقته بمطربة المقهى منـــذ فترة طويلة، تلك المطربة التى فرت معه وكانت تشوه وجهه بأظافرها. ومن عام لآخر، تنقل من امرأة إلى أخرى، على اختلاف أشكالهن، فكان يختارهن من النساء الصاخبات والغريبات، فمرة طاهية لإحدى العائلات البرجوازيـــة حيث يدعى للعشاء، أو زوجة أحد الجنود مما يـــستدعى معرفـــة مواعيـــد زوجها، أو عاملة شابة لدى طبيب الأسنان تتقاضى ستين فرنكا شهريا لتنام طوال اليوم ولا تـــستيقظ ســـوى عنـــد حـــضور أى مـــريض، وأخريـــات وأخريات... من الفتيات العاملات فى الحانات، وحتى السيدات اللاتى يبحثن عن مغامرة جديدة، والغسالات اللاتى يغسلن ثيابه والخادمات اللاتى يـــرتبن غرفته... كان يأخذ قدر ما يستطيع ويستغل أى مصادفة ليحولها إلى علاقـــة فلم يكن يختار سواء كن جميلات أم قبيحات، شابات أم مسنات، لم يكن يعنيه الكيف بقدر ما يعنيه الكم فى سبيل إرضاء رغباته. ففكرة عودته كـــل ليلـــة لفراشه البارد كانت تفزعه وتحمله على البحث عمن يؤنس وحدته، فيمضى

يسير فى الشوارع ولا يعود إلا بواحدة تمضى معه الليلة. وقد عرضه ضعف بصره للكثير من المواقف الخطيرة والمحرجة، فحكى له كيف استيقظ ذات يوم ليجد بجواره على الوسادة رأسًا يعلوه الشيب لامرأة بائسة فى الستين من عمرها كان قد أحضرها معه ظانًا من فرط تعجله أنها شقراء.

غير ذلك كانت أحواله تسير على ما يرام وكذلك عمله. فبعد أن قطع والده النقود التى كان يرسلها له لاعنا إياه لإصراره على فضائحه، لم يعد جورى فى حاجة إليه، فهو يجنى سبعة أو ثمانية آلاف فرنك من عمله فى الصحافة كمحرر وناقد فنى. انقضت أيام الفضائح والمقالات التى يكتبها بالقطعة لجريدة لوتامبور، واستقرت أحواله وانضم إلى أكثر من جريدة ناجحة، وإن ظل فى أعماقه نفس الشخص المرتاب الذى لا يطلب سوى اللذة وحب الحياة والنجاح. وأخذت مكانته فى الارتفاع فى الأوساط البرجوازية. ولازمه داء البخل الذى ورثه عن أبيه، فكان يستثمر نقوده شهريا فى بعض المضاربات البسيطة التى لا يعلم عنها أحد. لم تكن شهواته تكلفه الكثير، فحتى فى الأيام التى يصرف فيها بسخاء، لم يكن يبتاع سوى قدح واحد من الشيكولاته للنساء اللاتى أعجبنه.

وصلا إلى شارع موسكو، وسأله كلود: "إذًا أنت من تنفق على إيرما الآن؟"

فصاح جورى محتجا: "أنا؟ لا يا عزيزى، فلديها دخل يزيد عن عشرين ألف فرنك، وهى تفكر الآن فى إنشاء نزل قد يكلفها خمسمائة ألف فرنك...لا! لا! أنا آتى من وقت لآخر لتناول الغداء معها أو العشاء فقط."

فسأل كلود: "أتنام معها أيضًا؟"

أخذ جورى يضحك دون أن يجيب، ثم قال: "يا لك من أحمق! إننا ننام فى كل الأحوال... ها قد وصلنا، ادخل سريعا!"

حاول كلود المقاومة، فكريستين تنتظره على الغداء، ولكن جورى دق الجرس، ثم دفعه إلى الداخل، فألفى نفسه فى وسط البهو الكبير، وقد أخذ جورى يردد أن هذا ليس بالعذر المقبول، فيمكنه أن يبعث بأحد ليبلغها بأنه سيتأخر. وانفتح باب، وظهرت من ورائه إيرما بيكو، التى اندهشت لرؤية كلود، فقالت: "لا يمكن! أهذا أنت-أيها العصبى؟"

زال عنه الحرج بعد استقبالها الودود الذى أشعره بالارتياح وكأنهما أصدقاء قدامى، خاصة وأنه رأى أنها لم تلاحظ معطفه القديم. ولكن أشد ما أذهله هو أنه عرفها بالكاد. ففى غضون تلك الأعوام الأربعة، تحولت إلى امرأة أخرى، صففت شعرها بنوع من التكلف وضاقت جبهتها بفضل خصلات الشعر المعقوف الذى غطاها، وازداد وجهها طولا، وتحولت من شقراء شاحبة إلى صهباء فائرة. لكم تعجب من هذا التحول من فتاة تعيش فى الشوارع إلى امرأة تشبه المحظيات. كانت إيرما بنفسها تشير إلى هذا التحول فى بعض نوبات الصراحة.

كان النزل ضيقا ولكنه فخم، ولفت انتباه كلوذ عدد من اللوحات الجميلة المعلقة على الجدار، منها لوحات لكوربيه ودولاكروا. إنها ليست بلهاء أو جاهلة تلك الفتاة، على الرغم من مظهرها الذى يوحى بذلك، وعلى الرغم من تمثال القطة الردىء المصنوع من الخزف الملون الرقيق، الذى يتوسط طاولة الصالون.

ثم طلب منها جورى أن ترسل خادمًا إلى منزل كلود لتعلم كريستين بأنه سيتأخر، فصاحت إيرما فى دهشة: "ماذا؟ أتزوجت؟"

فأجاب كلود ببساطة: "نعم!"

ثم نظرت إلى جورى فوجدته يبتسم، ففهمت على الفور، فأضافت: "أتعيش إذًا مع امرأة؟ ألم يقولوا لى إنك تخشى النساء؟... إنى مستاءة منك للغاية، أأخفتك إذًا فى المرة الماضية؟ أم أنك تجدنى قبيحة لكى ترفضنى بهذه الطريقة؟"

أمسكت بيديه وضمتهما بيديها وقربت إليه وجهها الباسم، على الرغم من كرامتها الجريحة، وأخذت تتفحصه عن قرب وتنظر فى عينيه، وقد تملكتها رغبة عارمة فى نيل إعجابه. ارتجف كلود من أثر هذه الأنفاس الأنثوية التى أشعلت النيران فى لحيته. وفجأة تركته قائلة: "سنتحدث فى هذا الشأن لاحقا."

ذهب الحوذى إلى كريستين حاملا رسالة كلود، بينما دخل الخادم ليعلن أن الغداء أعد. انقضت الوجبة العذبة بسلام تحت نظرات الخدم الباردة. وتحدث ثلاثتهم عن أهم الأحداث التى شهدتها باريس، وأسعار الأراضى، وأموال البرجوازيين التى يتم استثمارها. وتغير الحال مع قدوم التحلية، فبقى الثلاثة بمفردهم أمام المائدة العامرة بالقهوة والمشروبات المختلفة، وشيئا فشيئا التهبت حماستهم وانخرطوا فى أحاديثهم القديمة كما لو كانوا على مقهى بودوكين.

قالت إيرما: "لا توجد متعة أكثر من هذه يا عزيزى أن نمـرح سـويا وننسى العالم كله!"

ثم استكملت لف سيجارتها وهى ممسكة بقنينة نبيذ شارتر وقد احمـر وجهها وتطايرت خصلات شعرها.

ثم استأنف جورى حديثه معتذرا عن نسيانه إحضار كتاب كانـت قـد طلبته منه: " كنت ذاهبا لشرائه مساء أمس نحو الـساعة العاشـرة ولكننـى التقيت فاجرول..."

قاطعته بصوت حاد: "أنت كاذب!" وقطعت عليه فرصة الاحتجـاج: " أنت تكذب! لأن فاجرول كان هنا بالأمس!"

والتفتت إلى كلود قائلة: "أليس مقززًا... لا يوجد من هو أبرع منه فى الكذب!... إنه يكذب كالنساء، للمتعة فقط، للاستمتاع بأفعاله الحقيرة التـى لا طائل من ورائها. ليس وراء حكايته سوى هدف واحد هـو تـوفير الثلاثـة فرنكات التى سيدفعها لشراء الكتاب. ففى كل مرة يضطر فيها إلى إهـدائى باقة ورد، إما يسقط الورد تحت عجلات سيارة أو تختفى الزهور من باريس بأكملها! أنا لا أعلم لماذا أحبه؟"

لم يبد على جورى الاستياء، وإنما عدل مقعده وأخذ يتأرجح عليه وهو يدخن سيجاره، وقال بسخرية: "بما أنك استعدتى علاقتك بفاجرول..."

قاطعته بغضب إيرما: "أنا لم أستعد علاقتى به علـى الإطـلاق! ... بفرض أنه حدث فهذا ليس شأنك!... أنا لا أحترمه، بل أسخر من فـاجرول

هذا! ولكنه يعلم أن لا أحد يخاصمنى أو يقاطعنى. فنحن نعرف أحدنا الآخر حق المعرفة فقد نشأنا سويا فى نفس الشارع... أتعلم؟ ليس على سوى أن أشير بإصبعى الصغير حتى يأتى أمامى يتملقنى ويقبل قدمىَّ... أنا أسرى فى عروقه!"

تعجب جورى، فقالت بحدة: "نعم فاجرول! أتعتقد أننى لا أراكما وأنتما تتملقان أحدكما الآخر، هو رغبة فى مقالات تمدحه، وأنت سعيا إلى النقود التى ستجنيها من ورائه بدعمك لفنان يحبه الجمهور؟"

اضطرب جورى واستاء من توجيه هذه الاتهامات خاصة أمام كلود، ولكنه لم يدافع عن نفسه، مفضلا تحويل الشجار إلى نوع من المزاح، فقال: "أليست مسلية حينما تغضب؟ حينما تلمع عيناها الشريرتان، ويلتوى فمها استعدادا للشجار؟ اهدئى يا عزيزتى! فقد تؤذين نفسك!"

أخذت إيرما تضحك، عاجزة أمام سخريته.

فى تلك الأثناء كان كلود جالسا فى سكينة، يحتسى كئوسًا صغيرة من الكونياك دون أن يشعر. وخيمت الثمالة والهلوسة التى اختلطت بدخان التبغ على ثلاثتهم.

شرعوا فى الحديث عن شىء آخر، عن أسعار اللوحات التى أخذت حديثا فى الارتفاع. بينما ظلت إيرما صامتة وقد تدلت سيجارتها المنطفئة من فمها وقد ثبتت عينيها على كلود، وفجأة باغتته بسؤال: "أين قابلت زوجتك؟"

لم تبد عليه المفاجأة، وتوالت الأفكار إلى ذهنه: "كانت تعيش في الريف، ثم جاءت لتعمل لدى سيدة مسنة. إنها فتاة شريفة!"

- "أهى جميلة؟"

- "إنها جميلة جدًا"

سكتت لبرهة وكأنها تحلم، ثم قالت بابتسامة: "عجبًا! يا لك من محظوظ! لم تكن تجد أى امرأة، وها قد وجدت من خلقت لأجلك."

ونهضت صائحة وهى تغادر الطاولة: "هيا يا عزيزى إنها الثالثة، سأضطر إلى طردكما فلدى موعد مع المهندس المعمارى ليرينى أرضا بجانب حديقة مونسو، فى ذلك الحى الجديد حيث يبنى الجميع."

عادوا إلى الصالون، بينما وقفت إيرما أمام المرآة وانزعجت من الحمرة التى تضرج بها وجهها.

ثم سألها جورى: "إنها أرض للنزل أليس كذلك؟ أوجدت الأموال الكافية لبنائها؟"

أخذت تمشط شعرها وتهدله على جبهتها، محاولة تخفيف حمرة وجهها الذى بدا كوجه محظية شقراء ساحرة ذكية كاللاتى يظهرن فى اللوحات، ثم التفتت إلى جورى: "لا شأن لك!"

أخذت تدفعه نحو البهو وسط ضحكات عالية، ثم أمسكت بيدى كلود وهى ترشقه بنظرات تنطق بالرغبة الدفينة.

خرجا إلى الشارع، وهناك شعر كلود بضيق شديد وآلمه ضميره لحديثه عن كريستين أمام امرأة مثل إيرما، ثم أقسم على ألا تطأ قدماه هذا المكان مرة أخرى.

قال جورى وهو يشعل سيجارة أخذها من علبة إيرما قبل رحيله: "إنها فتاة طيبة، أليس كذلك؟ لا تطالبنا بأى شيء، فنأتى للغداء أو للعشاء، ثم ننام، ويمضى كل منا إلى طريقه!"

شعر كلود بخجل شديد منعه من العودة مباشرة إلى منزله، وأسعدته رغبة جورى فى السير لمدة أطول والذهاب لإلقاء التحية على بونجراند. واتجها سويا إلى شارع كليشى.

يقطن بونجراند هناك منذ عشرين عاما، ويمتلك مرسمًا فسيحًا لا يتبع الذوق السائد الذى يقدس الأبسطة والزينة والتحف التى يتهافت على اقتنائها الرسامون الجدد لتزيين مراسمهم. فهو مرسم قديم، رمادى اللون شبه خالٍ لا تزينه سوى لوحات بونجراند نفسه المعلقة دون إطارات، وقد التصقت بعضها ببعض كصور النذور فى الكنائس. اقتصرت ملامح الرفاهية فى المرسم على تمثال ضخم ودولاب كبير مصنوع فى نورماندى ومقعدين من المخمل قادمين من أوترخت[١] أبلاهما الزمن، وفى أحد الأركان، وضعت أريكة كبيرة يغطيها فرو دب زال عنه كل الشعر. احتفظ بونجراند، بحكم نشأته التقليدية، بزى مخصص للعمل، عبارة عن سروال واسع ورداء معقود بحزام وقلنسوة تشبه قلنسوة الكهنة ليستقبل بها ضيوفه.

---

(١) أورترخت: Utrecht : مدينة هولندية تطل على قناة أمستردام. (المترجمة)

فتح لهما الباب بنفسه، ممسكا بلوحة الألوان وفرشاته، ثم صاح فرحًا: "إنه أنت!... يا لها من لفتة لطيفة أن تمرا بى... لقد كنت أفكر فيك يا عزيزى. فقد قال لى أحدهم إنك عدت، وقررت أن أراك فى أقرب فرصة."

مد يده إلى كلود أولا فى عاطفة صادقة وقوية تجاهه، ثم صافح جورى قائلا: "وأنت أيها المغرور الصغير! لقد قرأت مقالتك الأخيرة. شكرًا على كلامك اللطيف الذى وجهته إلى ... ادخلا، ادخلا! فأنتما لا تزعجانى على الإطلاق، فأنا أستطيع العمل حتى حلول الليل، فلا يسعنا القيام بشىء سوى العمل فى شهر نوفمبر اللعين!"

ثم استأنف عمله، واقفًا أمام حامل اللوحات، مثبتًا أمامه لوحة صغيرة تصور امرأتين؛ أما وابنتها منشغلتين بالحياكة أمام نافذة مفتوحة تدخل منها أشعة الشمس. بينما جلس كلود وجورى وراءه يراقبانه وهو يعمل، ثم غمغم كلود: "إنها لوحة بديعة!"

فهز بونجراند كتفيه دون أن يستدير، ثم قال: "إنها لوحة صغيرة حمقاء، ولكن يجب أن أنهيها، أليس كذلك؟... لقد نقلتها عن الطبيعة، فقد رسمت امرأتين من معارفى، وأحاول إضفاء بعض التعديلات."

قال كلود وقد غلبته حماسته: "ولكنها تحفة كاملة، إنها رائعة كل ما فيها من إضاءة وواقعية ينطق بجمالها! ولكن أجمل ما فيها هو بساطتها! إن البساطة هى ما يسحرنى!"

تراجع بونجراند فجأة وهو يفرك عينيه من الذهول قائلا: "أتراها كذلك بالفعل؟ أتعجبك؟... فقبل دخولكما كنت أنتقدها وأجدها معيبة... أقسم لكما أننى كنت على وشك الاستسلام للأفكار السوداء حتى إننى شككت فى موهبتى."

كانت يداه ترتعشان، ووقع جسده الضخم فريسة لتلك الرعدة المؤلمة التى يولدها الخلق والإبداع، فترك الفنان العجوز- ذو النجاح الباهر والمكانة التى لا ينازعه عليها أحد فى كلية الفنون- لوحة الألوان وعاد إليهما هاتفا: "ألا تصدقانى؟ تمر على أيام أعجز فيها حتى عن رسم شخص... فمع كل لوحة من لوحاتى أشعر وكأننى لازلت مبتدئًا، فيدق قلبى وينتابنى فزع يجفف حلقى ويتركنى فى حالة يرثى لها. إنه الفزع الحقيقى الذى تتظاهرون أنتم الشباب بمعرفته، ولكنكم لا تعرفونه! فإذا أخفق أحدكم فى لوحة، فله أن يحاول رسم أخرى أحسن منها، فلا أحد يقيدكم، أما نحن الكبار، نحن الذين وضعنا المقاييس، فعلينا أن نوفيها جميعا، دون خطأ، وإلا سقطنا فى النسيان... فهيا أيها الفنان العظيم الشهير اقض حياتك فى العمل المضنى واستنفد صحتك لتستكمل رحلة الصعود، وحينما تصل إلى القمة، اسعد بها وتشبث بكل قواك بتلك المكانة واحتفظ بها لأطول وقت ممكن، وإذا شعرت للحظة بأنك تهوى، فاسقط كما شئت حتى تتحطم ويأكلك ألم احتضار موهبتك التى لم تعد ملائمة للعصر، حتى تنتهى حياتك فى النسيان أنت وأعمالك الخالدة، وقد أنهكتك جهودك التى تعجز عن خلق أى شىء!"

اختلج صوته القوى ودوى كقصف الرعد، وعلت وجهه المحتقن ملامح الخوف والفزع، فأخذ يسير بطول المرسم وقد اشتد به الغضب رغما

عنه، مستكملا حديثه بعنف: "قلت لكما مرارًا إننا لا نتوقف عن البدء، وإن السعادة ليست فى الوصول إلى القمة، وإنما فى المكوث هناك، فى نشوة الصعود. ولكنكما لن تفهمانى... فعليكما تجربة هذا الأمر لتفهما!... فكرا قليلا! ستجدان إننا نحلم بكل شيء، ونأمل كل شيء، فالوقت مناسب للأوهام الجامحة، فأقدامنا قوية، تسهل أصعب الطرق، وتحكمنا رغبة فى المجد تجعل للنجاحات الأولى الصغيرة مذاقا لا يقاوم! فما أروع أن يستطيع الإنسان أن يحقق طموحاته! أن يغزو القمة. ولكن كيف له أن يحتفظ بها؟ وعندها يبدأ العذاب، بعد أن أفقنا من نشوة النجاح، التى كشفت عن وجهها الحقيقى، فهى لا تعدو كونها طريقًا مريرًا لا يساوى الجهد المبذول لبلوغها! نسير فى طريق المجهول، لنختبر مشاعر لم نعهدها من قبل، وقد اتخم كبرياؤنا من الشهرة، بعد أن أبدعنا وأنتجنا أعمالاً عظيمة لم تحقق لنا المتعة أو السعادة الحقيقية. وفى تلك اللحظة، لا يبقى أمامنا سوى الفراغ، اليأس وخيبة الأمل، لم يعد ينتظرنا سوى الموت! فنحاول التشبث والتعلق بالحياة خوفا من الفناء، ونبذل كل ما فى وسعنا للإبداع! تمامًا مثلما يسعى المسن وراء الحب وقد أدماه الألم والخجل... ألا يجب أن نتحلى جميعا بالشجاعة للموت أمام آخر عمل حقيقى نخلقه!"

كان صوته يهز سقف المرسم وقد تملكه الانفعال، وتدافعت الدموع إلى مقلتيه، وارتمى على أحد المقاعد أمام لوحته، ثم سألهما فى قلق كتلميذ يرغب فى معرفة رأى معلمه بحثًا عن نوع من التشجيع: "أتعجبكما فعلا؟... أنا لا أصدقكما. أتعلمان أن مأساتى تكمن فى أننى أمتلك أحيانا حسًا نقديًا

حادًا فى أحيان وضعيفا فى أحيان أخرى. فكلما بدأت فى لوحة، أبالغ فى مدحها، وإذا لم تلق النجاح اللازم أعذب نفسى وأتشكك فى موهبتى. يجب ألا نرى أى عيب فى لوحاتنا كما يفعل شامبوفارد، أو أن نتحلى بالحكمة ولا نرسم من البداية!... قولا لى بصراحة، أتعجبكما بالفعل هذه اللوحة؟"

ظل كلود وجورى ساكنين، مذهولين أمام هذا النحيب المعذب الذى يصدر عن مبدع كبير. أى مدى بلغت آلامه لتجعله وهو المعلم العظيم يصرخ من فرط المعاناة ويستشيرهما كزملاء؟ والأسوأ أنهما لم يستطعا إخفاء التردد الذى بدا على وجهيهما أمام نظراته المتوسلة التى استقر فى أعماقها خوف دفين من الانهيار والفشل. كان الاثنان على دراية بالشائعات التى تتردد حول موهبة بونجراند وكيف أنه لم يرسم لوحة ذات أهمية منذ لوحته الشهيرة "زفاف فى القرية". فحتى وإن حاول إعادة تثبيت أقدامه من خلال لوحات أخرى، إلا إنه ينحدر إلى نوع من التكلف والجفاف، فقد ولى النجاح المبهر، وتوالت اللوحات التى تعلن هبوطه. ولكن مثل هذه الشائعات لا يمكن مواجهته بها، فاستجمع كلود أفكاره وقال بحماس: "إنها لوحة جميلة! لم يسبق لك أن رسمت شيئًا فى قوتها!"

حملق فيه بونجراند، ثم التفت إلى لوحته فى شرود، مادًا ذراعيه الهائلين وكأنه سيشق عظامه وقال محدثا نفسه: "أقسم، إنها لوحة ثقيلة الألوان! ولكن لا يهم، سأتركها كما هى بدلا من إفسادها!"

فأخذ لوحة الألوان، واستعاد هدوءه مع أولى ضربات الفرشاة، ثم حرك كتفيه العريضين ورأسه العنيد التى لمزارع وإن شابها طابع برجوازى رقيق.

ساد الصمت، ثم قال جورى وهو يتأمل اللوحة: "أبيعت تلك اللوحة؟"

فأجاب بونجراند ببطء، وهو الفنان الذى يعمل دون غـرض الـربح: "لا... فوجود مشتر يلاحقنى، يجعلنى أعجز عن العمل ويصيبنى بشلل."

وقال ساخرا، دون إن يتوقف عن الرسم: "الآن أصبح الرسم تجارة!... لم يسبق لى، أنا العجوز، أن رأيت هذا... ولكنك أيها الصحفى الودود قد أسديت خدمة للفنانين الصغار بمقالتك التى تذكرنى فيها! ولكن من بين كل من ذكـرتهم لم يكن هناك سوى اثنين أو ثلاثة يمتلكون الموهبة ويستحقون الذكر."

ضحك جورى وقال: "نعـم! ولكـن حينمـا تمتلـك جريـدة، عليـك أن تستفيد منها، كما أن الجمهور يحب من يساعده على اكتشاف الفنانين العظام."

أجاب بونجراند: "إن حماقة الجمهور لا حدود لها، ولكننى أريـدك أن تستغلها جيدا!... فأنا أتذكر بداياتنا، لم نكن مـدللين علـى الإطـلاق، كنـا مجبرين على قضاء عشرات الأعوام من العمل والصراع، قبل أن ننـصب أنفسنا عمالقة الرسم... أما الآن، فأى متحذلق استطاع أن يرسـم شخـصا، يستحوذ بسهولة على الانتباه ويكون محط الأنظار والدعايـة. وأى دعايـة! فتدوى الضجة التى يحدثها فى جميع أرجاء فرنسا، فبدأنا نرى أسماء تظهر وتختفى بين عشية وضحاها، تومض فجأة كالبرق وسط الجماهير البلهـاء. أما أعمالهم البسيطة، فتستقبل بطلقـات المدفعيـة، اسـتقبال المنتـصرين، وينتظرها الجميع بفارغ الصبر! وهكذا يصبح هؤلاء هم الشغل الشاغل لباريس لمدة لا تدوم أكثر من أسبوع، ثم يسقطون بغير رجعة فى بحر النسيان."

فقال جورى، وهو يتمدد على الأريكة، مشعلا سيجارا جديدا: "هذه هى طريقة عمل الصحافة والدعاية، لها مساوئ ولها مميزات، ولكن على الرغم من كل شيء، فإنه يجب مواكبة الوقت والأحداث!"

حرك بونجراند رأسه، وقال بسعادة غامرة: "لا! لا! فلا يمكن أن يصبح أى رسام معلما ورائدًا بمجرد أن يرسم لوحة رديئة... أنا شخصيا أتسلى كثيرا بمتابعة هؤلاء من تطلقون عليهم روادا ومعلمين شبابًا!"

وهدأ فجأة كمن ساورته أكثر من فكرة فى وقت واحد، ثم التفت إلى كلود ليطرح عليه بعض الأسئلة: "بالمناسبة! أرأيت لوحة فاجرول؟"

أجاب كلود ببساطة: "نعم!"

استمرا يرمقان أحدهما الآخر، وارتسمت على شفتيهما ابتسامة لم يستطيعا إخفاءها، حتى قال بونجراند: "ها هو فاجرول يحاول أن يسرق مكانتك!"

شعر جورى بالحرج فخفض عينيه، متفكرًا فى إمكانية الدفاع عن فاجرول، كان من الأنفع له بالطبع أن يدافع عنه، منتهزًا الفرصة لمدح لوحته التى تصور ممثلة جالسة فى مقصورتها ولاقت نجاحًا ساحقا فى كل مكان عرضت فيه. ألم يكن موضوعها جديدًا ومعاصرًا؟ ألم تكن مرسومة جيدا؟ ألم تتحقق فيها سمات المدرسة الجديدة؟ ربما كان ينقصها فقط بعض القوة ، ولكن لكل رسام طبيعته وطريقته! كما أن السحر والتميز لا نراهما كثيرا حولنا.

حاول بونجراند بصعوبة الحفاظ على هدوئه، وانشغل بلوحته، خاصة وأنه اعتاد على توجيه المديح الأبوى لتلاميذه الشباب، ولكنه لم يستطع كظم غضبه، فصاح: "دعنا وشأننا! أنت وفاجرول! أتظنونا إذًا حمقى بالفطرة؟ ... انظر أمامك فأنت ترى الفنان العظيم الحقيقى هنا، إنه هذا الشاب الجالس أمامك! ولكن الخدعة تكمن فى تجريده من تميزه وإجباره على تقليد الفن الضعيف الذى تنشره كلية الفنون! ففاجرول رسم لوحة معاصرة ذات ألوان ساطعة، ولكنه لم يستطع التخلص من الرسم المبتذل والتقليدى والصيغ القديمة التى نعلمها هناك لينال إعجاب البرجوازيين. ثم يصفون هذا الرسم بالبساطة والسهولة! أى سهولة؟ إنه الاستسهال الردىء، هذه البساطة المستخفة التى تحقق النجاح السريع، ولكنها لن تلاقى مصيرا مبشرًا! أتسمعنى؟"

كان يلوح بلوحة ألوانه وفرشاته فى الهواء مغلقًا قبضتيه بقوة.

فقال كلود بضيق: "ولكنك متشدد قليلا يا سيد بونجراند! ففاجرول يتمتع بالفعل ببعض المميزات ويجمع بين الرقة والمهارة."

فهمس جورى: "سمعت أنه قد عقد اتفاقا خطيرا مع نوديه."

هدأت سورة بونجراند عند سماعه لاسم نوديه، فأخذ يردد وهو يحرك كتفيه: "نوديه!..نوديه!" ثم بدأ يضحكهم وهو يسخر من نوديه الذى كان يعرفه جيدا، فهو تاجر أحدث ثورة حقيقية فى مجال تجارة اللوحات فى غضون أعوام قليلة. كان أسلوبه يختلف عن مالجرا الذى يتجول دائما بمعطفه الطويل القذر ليراقب لوحات الرسامين المبتدئين بذوقه المتميز

وحدسه الثاقب ويشتريها بعشرة فرنكات ثم يبيعها بخمسة عشر، فأسلوب مالجرا يقوم أساسًا على تحقير اللوحة التى يرغب فى شرائها ليبخس ثمنها، ولكنه فى أعماقه عاشق حقيقى للفن، يعتمد عليه فى كسب عيشه البسيط ساعيًا إلى زيادة رأس ماله الضئيل من خلال صفقات محسوبة. أما نوديه الشهير فكان من المضاربين فى البورصة له مظهر النبلاء بسترته الرائعة ورابطة عنقه اللامعة، ووجهه المصقول وشعره المدهون، كان يمتلك أيضًا سيارة، ومقعدًا دائمًا فى الأوبرا وطاولة محجوزة باسمه فى مطعم بينيون، ويتردد على الأماكن الفاخرة التى تليق به. كان دائم السخرية من الفن الجيد ويدله حسه التجارى الماهر على الفنان الذى سيموله. لم يكن يختار من تظهر فيه بشائر النبوغ والعبقرية من الفنانين الواعدين، وإنما من يمتلك موهبة خادعة تزخر بالجرأة الكاذبة، والتى تضعه على القمة بين الجماهير البرجوازية. كانت تلك هى الثورة التى أحدثها فى سوق الفن، فاختفت معه صورة الهاوى المحب للفن، وتأصلت صورة الهاوى الثرى قليل الخبرة فى مجال الفن الذى يشترى اللوحة كما لو كانت سهمًا فى البورصة سواء بدافع المظاهر أو آملا فى أن تزداد قيمتها مع الوقت.

ثم شرع بونجراند، بحسه الفكاهى وحبه للمزاح فى تقليد نوديه وفاجرول: "يا عزيزى، أرى أنك رسام عبقرى! لقد بيعت لوحتك الماضية أليس كذلك؟ بكم؟"

- "بخمسمائة فرنك."

- "ماذا؟ أجننت؟ إنها تساوى ألفا ومائتى فرنك على الأقل."
- "يا إلهى! لم أكن أعلم، ألفا ومائتى فرنك! "
- "اسمعنى إذًا يا عزيزى، سآخذ هذه بألفى فرنك، ومن الآن فصاعدًا سأشترى أنا منك كل لوحاتك! لن تعمل مع أحد سواى!"
- "حسنا! وداعا"
- "وداعا يا عزيزى! ومن الآن لا تتعب نفسك، فمعى أنت فى طريقك إلى الثروة."

ثم يمضى إلى سيارته حاملا معه اللوحة التى يجول بها على كل هواة الفن زافًا لهم خبر اكتشافه لفنان فريد من نوعه. وعندما يسأله أحد عن ثمن اللوحة، يجيب خمسة آلاف فرنك!

- "ماذا خمسة آلاف فى لوحة لفنان مجهول؟ أتسخر منا؟"
- "اسمعوا! سأعرض عليكم صفقة سأبيعها لكم مقابل خمسة آلاف فرنك، وسأوقع على تعهد بأن أشتريها منكم مرة أخرى بعد عام مقابل ستة آلاف، إذا لم تعد تروق لكم!"

وهكذا يقع الهاوى فريسة الإغراءات، فما الذى سيخسره؟ لا شىء! بل إن هذه اللوحة قد تكون وسيلة جيدة لاستثمار أمواله، فيشتريها. ثم يقوم توديه بإتمام تسع أو عشر من هذه الصفقات خلال العام، فتزداد الأثمان وتتحدد الأسعار، وبدلاً من أن يعيد له الشارى اللوحة، يدفع له ثمانية آلاف إضافية.

وتستمر الأسهم فى الصعود والنقود فى التكدس، خاصة وأن مجال الفن يعد مصدرًا ذهبيًا للربح يجذب الأثرياء الذين ينفقون فى سبيله الآلاف.

استشاط كلود غضبا، بينما اعتبر جورى أن هجوم بونجراند على نوديه عنيف للغاية، وفجأة طرق أحدهم على الباب، فذهب بونجراند ليفتح. وكان نوديه!

فقال بونجراند: "إنه نوديه! ... ادخل لقد كنا نتحدث عنك."

كان نوديه فى غاية الأناقة، لم تعلق بملابسه بقعة طينية واحدة على الرغم من الطقس السيئ والأمطار الغزيرة، دخل وحيا الجميع بلياقة ، وكأنه يدخل إحدى الكنائس، ثم قال: "يسعدنى أنكم تتحدثون عنى... أنا متأكد يا عزيزى أنك كنت تمدحنى."

فقال بونجراند بهدوء: "على الإطلاق يا نوديه! على العكس، كنا نقول إن طريقتك فى استغلال الفن تخلق جيلا أو طبقة جديدة من الفنانين الرديئين ومن رجال الأعمال غير الشرفاء."

فأجاب نوديه، دون انفعال: "كلامك صعب، ولكنه ساحر! هيا، هيا، يا عزيزى، فأنا لن أغضب منك."

وقع بصره فجأة على لوحة المرأتين المنهمكتين فى الحياكة، فقال: "يا إلهى!... لم أر هذه اللوحة من قبل، إنها تحفة فنية!... كم هى رائعة الإضاءة والألوان! إنها تشبه أعمال ريمبرانت[١]... نعم ريمبرانت! اسمع

---

(١) ريمبرانت: Rembrandt Harmenszoon Van Rijn: رسام ونحات هولندى (١٦٠٦-١٦٦٩). (المترجمة)

يا عزيزى، لقد جئت فى الأساس، لكى أسدد لك ما على من نقود، ولكن يبدو أن حظى الجيد هو ما أتى بى إلى هنا اليوم... فلنعقد صفقة، فلتعطينى هذه اللوحة وسأعطيك فى مقابلها أى شىء، أنا على استعداد أن أثاقلها بالذهب!"

تضاعف غضب بونجراند مع كل كلمة ينطق بها، فقاطعه بحدة: "فات الأوان! لقد بيعت."

- "بيعت! يا إلهى! ولكن ألا تستطيع أن تتملص من هذا الاتفاق؟ قل على الأقل لمن بعتها، وأنا سأتولى الأمر... يا له من حظ سيئ! بيعت، أأنت متأكد؟ حتى ولو عرضت عليك ضعف ما أخذته؟"

- "لقد بيعت يا نوديه! وانتهى الأمر، دعك من هذا!"

استمر نوديه يتحسر وينعى حظه التعس، ثم أخذ يتجول لعدة دقائق أمام لوحات أخرى معلقة فى المرسم، مصوبا ناحيتها نظرات حادة كالمقامر الذى يغامر بحظه، ولكنه أدرك أنه لن يخرج بشىء من هنا، خاصة وأن الوقت لم يعد ملائما، فقرر الرحيل، وحيا الجميع بنوع من العرفان، واستغرق فى التعبير عن إعجابه باللوحة حتى وصل إلى الدرج.

بمجرد أن خرج نوديه، تجرأ جورى الذى وقف فى ذهول على طرح سؤال: "ولكنك قلت؟... أقصد أننى أعتقد... اللوحة لم تبع أليس كذلك؟"

لم يجب بونجراند فى البداية، وإنما عاد إلى لوحته. ثم قال بصوته الرنان، الذى حمل تعبيرا عن هذه المعاناة الدفينة وهذا الصراع الداخلى: "إنه يزعجنى! ولكنه لن يحصل على شىء من هنا! فليذهب ليشترى من أمثال فاجرول!"

وبعد ربع الساعة، قرر كلود وجورى الرحيل، ليتركاه يعمل بجد، خاصة وأن النهار قد بدأ يميل.

وافترقا ومضى كل منهما فى طريقه. لم يرجع كلود على الفور إلى منزله بشارع دواى، على الرغم من غيابه الطويل، فقد تملكته رغبة قوية فى السير والتجول فى شوارع باريس، خاصة وأن اللقاءات التى لم تدم لأكثر من يوم كانت تؤلم رأسه، وتجعله فى حاجة للسير حتى هبوط الظلام فى الطرق الباردة تحت إضاءة القناديل الخافتة التى تضىء كالنجوم وسط الضباب للتخلص من آثار هذه المقابلات.

انتظر كلود يوم الخميس بفارغ الصبر ليذهب للعشاء عند صاندوز الذى ظل على عهده، يستقبل أصدقاءه مرة أسبوعيا كعادته، فكان يوم الخميس هو يوم الأصدقاء، خاصة وإنه اليوم الذى يوافق ذكرى تخرجه، على الرغم من زواجه وتغير حياته بعد أن ارتمى فى خضم الحركة الأدبية. كان دائما يردد - للتأكيد على أن زواجهُ لم يغيرْ شيئا - أن زوجته أصبحت عضوًا إضافيًا فى مجموعة الأصدقاء.

فى ذات مرة قال لكلود صراحةً: "أتعلم ما يضايقنى يا عزيزِى؟"

- "ماذا؟"

- "إنك لست متزوجًا... أنت تعلم أن لا مشكلة لدى فى استقبال كريستين فى منزلى... ولكننى أتحدث عن مجموعة البرجوازيين الحمقى الذين يراقبوننى ويتفوهون بأقوال شنيعة..."

- "أنا أعلم يا عزيزى، ولكن لا تقلق، فكريستين كانت سترفض الحضور معى... فنحن نعى تماما الوضع الذى نحن فيه... سآتى بمفردى، لا تقلق!"

وصل كلود عند صاندوز فى تمام الساعة السادسة، فى منزله الجديد بشارع نوليه فى باتينيول، بعد بحث شاق حتى اهتدى إلى المنزل الصغير الذى يقطن فيه صديقه. فى البداية، دخل منزلاً كبيرًا يطل على الشارع، ثم سأل الحارس، الذى جعله يعبر ثلاثة أفنية، حتى وصل إلى ممر طويل، وهبط سلمًا صغيرًا، حتى وصل إلى حديقة ضيقة ظهر فى نهايتها منزل صاندوز. كان الظلام حالكًا، وكاد يتعثر على السلم، فخاف أن يستكمل طريقه لئلا يصاب، خاصة وقد ظهر أمامه كلب ضخم ينبح بعنف، وفجأة سمع صوت صاندوز الذى أتى وهدأ الكلب، وقال: "إنه أنت؟ لا تقلق، فسنضع مصباحا لكيلا يصاب أحد... هيا ادخل... اسكت يا برتران! ألا ترى أنه صديق أيها الأحمق!"

رافقهما الكلب حتى المنزل، رافعًا ذيله، نابحا فى مرح. ظهرت خادمة شابة حاملة مصباح وعلقته على الحائط لتنير السلالم الرهيبة. كانت الحديقة مكونة من قطعة أرض خضراء صغيرة زرعت فى وسطها شجرة خوخ عملاقة غطى ظلها على الأعشاب الصغيرة. بينما زينت واجهة المنزل، ذات الثلاث نوافذ بالكرم البرى، كما وضع مقعد جديد لامع أمام المنزل كنوع من الزينة منتظرا انقضاء موسم المطر وسطوع الشمس، ليجلس عليه أحد.

قال صاندوز: "ادخل!"

دخلا إلى الصالون الذى حوله صاندوز إلى مكان للعمل، وكان يقع على يمين البهو، بينما على اليسار، كانت هناك حجرة الطعام والمطبخ. كان قد خصص لوالدته، طريحة الفراش، الغرفة الكبيرة بالأعلى، بينما احتل هو وزوجته الغرفة الأخرى ودورة المياه التى تفصل بين الغرفتين. كان المنزل صغيرًا يشبه مقصورة القطار، فلم يكن يفصل بين الغرف سوى فواصل رقيقة كالورق. ولكنه كان يشع بالأمل والجهد، اللذين جعلاه يبدو واسعا أمام أحلام أصحابه الشابة، معتبرين إياه أول خطوة فى سبيل الرفاهية والفخامة.

قال صاندوز: "إنه أكثر اتساعًا من المنزل القديم فى شارع دينفير، أليس كذلك؟ سيسعنا جميعا! أرأيت؟ لدى غرفة كاملة لى وحدى لأعمل فيها، وضعت بها طاولة جديدة من خشب البلوط للكتابة عليها، بينما أهدتنى زوجتى هذه العلبة الأثرية المصنوعة فى روين... إنها أنيقة أليس كذلك؟"

فى تلك اللحظة، دخلت زوجته. كانت امرأة طويلة، لها وجه هادئ ومرح وشعر بنى خلاب، كانت ترتدى ثوبا أسود غاية فى البساطة، فوقه مريول أبيض، فكانت تتولى أمور المطبخ على الرغم من وجود خادمة. كانت مولعة بالطهو، تتفاخر بقدرتها على إعداد أصناف لا تضاهى فى روعتها.

وعلى الفور تعرفت بكلود، الذى قدمه لها زوجها: "ادعيه كلود فقط يا عزيزتى... وأنت ادعيها هنرييت... دعكما من الألقاب وإلا ستدفعان غرامة قدرها خمسة مليمات فى كل مرة يزل فيها لسان أحدكما بلقب سيدى، أو سيدتى!"

ضحك الجميع، واستأذنت هنرييت لتعود إلى المطبخ لإعداد حساء السمك الذى أرادت أن تبهر به أصدقاء زوجها. كان صاندوز هو الذى أعطاها وصفته، وأضافت هى عليه من خبرتها غير العادية فى الطهو.

قال كلود: "زوجتك رائعة، إنها تدللك بالفعل!"

جلس صاندوز على مكتبه، وقد أسند مرفقيه على صفحات كتابه، التى ألفها هذا الصباح، ومضى يحدث كلود عن أول رواية من سلسلة الروايات التى ينوى تأليفها، والتى طبعت فى أكتوبر الماضى. كم هى مسكينة هذه الرواية! فقد لاقت هجوما عنيفا عند صدورها! كانت بالفعل مذبحة! وانهالت عليه الانتقادات وسيل اللعنات كأنه ارتكب جريمة قتل. كان يضحك وهو يتذكر هذا الهجوم، بل كان يحفزه فى الواقع، فلم يكن ليغير شيئًا أو ليضعف من عزيمته، كان قويا وكاتبا يعرف إلى أين سيقوده المستقبل. ولكنه كان مندهشا من مدى حماقة من هاجموه، هؤلاء النقاد الذين يكتبون مقالاتهم على مكاتبهم القذرة، دون تكبد عناء محاولة فهم ما يريد أن يقوله فى روايته، فاكتفوا فقط بإهانته! لم يفهموا دراسته الجديدة عن النفس الإنسانية، وعن دور البيئة التى يعيش فيها فى تكوين شخصيته، وعن دور الطبيعة التى لا تكف عن الخلق والتجدد، لم يفهموا تأملاته حول شمولية الحياة التى تضم الإنسان والحيوان بعيدا عن معايير الجمال والقبح، ناهيك عن جرأة أسلوبه فى الكتابة، واعتقاده الراسخ فى ضرورة البوح بكل شىء، حتى وإن اضطر إلى استخدام ألفاظ رهيبة تثرى اللغة وتضفى عليها مزيدًا من القوة، كما عجزوا

عن تقدير الجنس، الذى هو أصل تجدد العالم، فقاوموا محاولته لإخراجه من حيز الخجل وإعادته إلى بؤرة المجد والبهاء. كان يجد أنه من الطبيعى ألا ينال إعجاب الجميع وأن يصدم البعض، ولكنه لم يرغب سوى فى أن يوليه هؤلاء النقاد بعض الاهتمام ليفهموا ما يريد ثم يثوروا بعد ذلك ضد جرأته، وليس ضد ما ادعوه عليه من حماقات أو إساءات.

أضاف: "أعتقد أنهم يفعلون هذا بدافع الجهل، لا بدافع الشر... فشكل روايتى هو ما يثير سخطهم، فهم يكرهون جملتى والصورة الحية التى تجسدها. إنها آفة كل البرجوازيين: كره الأدب!"

ثم صمت وقد غمرته التعاسة، فقال كلود، بعد فترة صمت: "لا تحزن! بل افرح، فأنت تعمل وتنتج!

نهض صاندوز وملامح الألم بادية على وجهه، وقال: "نعم! أنا أعمل، وأبذل قصارى جهدى حتى آخر صفحة ... ولكن يا ليتك تعلم مدى يأسى وعذابى! فكلما ثابرت، لن يتورع هؤلاء الحمقى عن اتهامى بالغرور والتعالى! تخيل أنا الذى يؤرقنى ويقض مضجعى شعورى بنقص أعمالى ورداءتها! أنا الذى أرفض أن أقرأ ما كتبته بالأمس خشية أن أجده سيئا، فأعجز عن استئناف العمل!... أنا أعمل دون شك! وأعمل مادمت حيًّا، لأننى لم أخلق سوى لهذا العمل! ولكننى لم أعد أسعد به، لم أعد أرضى به على الإطلاق، حتى تأتى السقطة الأخيرة لتقضى على!"

وفجأة قاطعه صوتٌ عال، كان جورى بسعادته المعتادة وحبه للحياة، حياهما ثم روى كيف اضطر إلى إعادة طبع مقالة قديمة له بعد تعديلها ليحظى ببعض الوقت يقضيه معهما. وسرعان ما حضر جانيير وماهودو اللذان تقابلا على باب المنزل وسارا سويًا يتحدثان عن نظرية توصل إليها جانيير عن الألوان أخذ يشرحها لزميله: "أنا أفرض الدرجة التى أريدها. فاللون الأحمر فى العلم يبدو باهتًا حينما تظهر فى خلفيته السماء بلونها الأزرق الذى يشوبه اللون البرتقالى المقارب للأحمر."

أثارت هذه النظرية اهتمام كلود، فأخذ يتحدث معه بشأنها، وقاطعتهما الخادمة معلنة وصول برقية.

فقال صاندوز: "إنها من دوبوش! إنه يعتذر عن التأخير، ويعد بالحضور الساعة الحادية عشرة."

حينئذ، دخلت هنرييت لتدعوهم لتناول العشاء. كانت قد نزعت المريول، وبدأت تحى الجميع بحرارة، ثم قالت: "هيا إلى الطعام! فالساعة السابعة والنصف، وحساء السمك لن ينتظر أحدا!"

قال جورى إن فاجرول قد وعد بالحضور، ولكن الجميع رفضوا انتظاره، فقد أصبح سخيفًا، خاصة بعد تقمصه دور المعلم ورائد الشاب الذى ترهقه كثرة الأعمال.

كانت حجرة الطعام صغيرة للغاية، فاضطرا، من أجل وضع البيانو، إلى فتح شق صغير فى الحائط الذى يفصل بين غرفة الطعام والغرفة

الصغيرة المظلمة المخصصة للغسيل، حتى اتسع المكان لأكثر من عشرة أشخاص جالسين حول الطاولة المستديرة، وإن سدوا الطريق أمام صوان المائدة، فعجزت الخادمة عن المرور من أمامه لتخرج طبقا أو أى شىء.

تولت هنرييت بنفسها تحضير المائدة وتقديم الطعام، بينما وقف صاندوز بالقرب من الصوان ليخرج لها ما تحتاجه من أوانٍ أو أطباق.

جلست هنرييت وسط كلود وماهودو، بينما توسط صاندوز جانيير وجورى، ثم نادت على الخادمة: "فرانسواز! احضرى رقائق اللحم المشوى! إنها على الموقد".

جاءت فرانسواز ومعها الرقائق، فأخذتها هنرييت وبدأت تضع اثنتين فى كل طبق، ثم شرعت فى صب حساء السمك، عندئذ، فتح الباب.

فصاحت: "أخيرا حضرت يا فاجرول! هيا اجلس إلى جانب كلود."

أخذ يبرر تأخيره فى أدب، مدعيا ارتباطه بموعد عمل. لم يعد كما كان فى الماضى، بل صار رجلاً أنيقا يرتدى ثيابا إنجليزية كرجال المجتمعات، وإن لازمته بعض طباعه المبتذلة.

وجلس إلى جوار كلود مصافحًا إياه بحرارة وسعادة مصطنعة: "يا عزيزى كلود! لقد أردت رؤيتك منذ فترة طويلة حتى إننى فكرت كثيرا فى الذهاب إليك هناك! ولكنك تعرف مشاغل الحياة..."

شعر كلود بالضيق أمام هذا السيل من التبريرات والحجج، فحاول جاهدًا أن يجيب بلطف وود مماثلين، حتى أنقذته هنرييت، حينما قاطعت فاجرول: "أتريد هاتين القطعتين يا فاجرول؟"

أجاب: "بالطبع يا سيدتى... أنا أعشق حساء السمك الرائع الذى تعدينه!"

التهم الجميع طعامهم بشراهة، خاصة جورى وماهودو، مؤكدين أنهما لم يتذوقا طعاما بمثل هذه الروعة فى مرسيليا نفسها. أمسكت هنرييت بالمغرفة الكبيرة لتملأ أطباق ضيوفها دون توقف، كانت السعادة تطفو على وجهها الذى تورد من حرارة الموقد. ثم نهضت وهرعت إلى المطبخ لتحضر ما تبقى من الحساء الذى نسيته الخادمة، حتى صاح بها صاندوز: "اجلسى قليلا لتأكلى! سننتظر جميعا حتى تفرغى من طعامك."

ولكنها ظلت واقفة تطمئن على ضيوفها، ثم قالت له: "دعك منى! ... مرر الخبز الموضوع وراءك على الصوان إلى جورى، فهو يحب أن يضع لب الخبز فى حسائه، وأيضًا الخبز المطلى بالزبد والمربى."

فنهض صاندوز بدوره ليساعد زوجته، بينما انشغل الجميع بالسخرية من جورى ومن حبه للعجائن المختلفة!

أما كلود، فبدا كمن يستيقظ من حلم طويل، بعد أن ألفى نفسه وسط هذه المجموعة السعيدة من الأصدقاء، فأخذ يتأملهم متعجبا كيف مرت السنوات الأربع؟ فها هو يراهم وكأنه تركهم بالأمس!

ولكنهم فى الحقيقة قد أصبحوا أشخاصا آخرين، وشعر هو بهذا التغير، فماهودو دائم السخط والتذمر من فرط البؤس الذى يحيا فيه، وجورى منغمس فى ملذات ومتع الحياة، بينما ابتعد جانيير قليلا محلقا فى عالمه

الخاص، أما فاجرول، فقد شعر كلود بمدى فتور محبته علـــى الـــرغم مـــن مبالغته فى إظهار الود تجاهه. كان تقدم السن ومصاعب الحياة قـــد أضـــفيا ملامح جديدة على وجوههم، وازدادت الهوة اتساعا فيما بينهم، فكان يـــراهم كغرباء حتى وإن جلسوا متلاصقين على نفس الطاولة. تغير المكان أيـــضًا، وأصبحت هناك امرأة تجلس فى وسطهم، أضفى وجودها سحرا وهدوءا على المكان وعلى مناقشاتهم. فلماذا يشعر هو إذًا بضرورة البدء من جديد، فـــى خضم هذا التغيير المصيرى الذى يطرأ على الأشياء فيميت ويجدد منها مـــا يشاء؟ لماذا يشعر بأن الأشياء لم تتغير، وبأنه كان هنا الخميس الماضى فى نفس المكان وسط أصدقائه؟ وأدرك فى النهاية أن وحده صاندوز هو الذى لم يتغير، بل ظل متشبثا بعاداته الحياتية والعملية، فظل على عهـــده متمـــسكًا باستقبال أصدقائه فى منزل الزوجية، كما حرص على استقبالهم فى منزلـــه الصغير القديم حيث كانوا يتقاسمون الوجبات البسيطة والهزيلة، مدفوعا قبل كل شىء بحلمه بالصداقة التى تدوم إلى الأبد، وباجتماعاتهم التى تستمر إلى ما لا نهاية، حلمه بأن يظلوا سويا إلى الأبد! فقد بـــدءوا مـــشوارهم معـــا، وسيصلون حتما إلى النصر الأكيد معا أيضًا!

بدا وكأن صاندوز أدرك ما يدور فى خلد كلود ومنعه عن المـــشاركة فى الحديث، فقال له بضحكة طيبة، ذكرته بأيام الشباب: "ما لك يا عزيزى؟ ... أنا لا أصدق أنك هنا!... لقد افتقدناك بالفعل!... ولكن كما ترى، لم يتغير أى شىء، فنحن كما تركتنا تماما... أليس كذلك؟ ما رأيكم؟"

حرك الجميع رءوسهم بالإيجاب، قائلين: "بالطبع! بالطبع!"

- "لم يتغير شيء سوى الطعام، فبالتأكيد إنه الآن أفضل مما كنا نأكله في منزلي القديم... سأجعلكم تتذوقون اليخنة!"

بعد أن أنهى الجميع حساء السمك، قدمت يخنة الأرانب ودجاجة مشوية ومعها السلاطة. أنهى الجميع عشاءهم، وظلوا جالسين حول الطاولة في انتظار التحلية الذى تأخر تقديمها. لم تلتهب مناقشاتهم كما كان الحال في الماضى على الرغم من الانتظار الطويل، فدارت بينهم أحاديث خالية من عنف وحماسة الأيام الخوالى، فمضى كل منهم يتحدث عن نفسه، وسرعان ما يصمت عندما يدرك أن لا أحد ينتبه لما يقول. ولكن عاودتهم الحماسة وانطلقوا فى الأحاديث مرة أخرى، مع تقديم الجبن والنبيذ اللاذع القادم من مقاطعة بورجونى، الذى اشتراه صاندوز وزوجته احتفالا بحصوله على المال من بيع روايته الأولى.

ثم التفت ماهودو، الذى ازداد وجهه النحيف هزالا من الجوع، إلى فاجرول وسأله: "أتعاقدت مع نوديه؟ هل سيعطيك خمسين ألف فرنك فى أول عام؟"

فأجاب فاجرول بضيق: "نعم، خمسين ألفا... ولكن لم يتم أى شيء حتى الآن، فلازلت مترددا، لأنه من الصعب الالتزام بهذه الطريقة، فأنا لست متحمسا!"

فغمغم ماهودو: "عجبا! لو عرض على أنا عشرين فرنكا فى اليوم، لوقعت على أى شيء!"

صمت الجميع ليستمعوا إلى فاجرول الذى يعيش دور الرجل الذى أنهكته كثرة النجاحات المبكرة. لم تتغير ملامحه الأنثوية الرقيقة، وإنما تهذب شعره، وأضفت عليه اللحية نوعا من الرصانة والوقار. كان يحضر إلى صاندوز على فترات متباعدة، منفصلا شيئا فشيئا عن باقى المجموعة، مفضلا التجول فى الشوارع والتردد على المقاهى ومكاتب الدعاية والصحف، سعيا وراء تكوين علاقات تفيده فى المستقبل. لم يعدو الأمر كونه خطة ونهجًا وضعه لنفسه لبلوغ النجاح بمفرده، فكان يرى أنه إذا رغب فى النجاح والمجد عليه أن يقطع صلاته بهؤلاء الثوريين، فلا يشترك معهم لا فى نفس المتجر ولا فى نفس العادات أو العلاقات. ويقال إنه يتقرب لامرأتين أو أكثر فى نفس الوقت، لا بدافع إرضاء رغباته الحسية مثل جورى، وإنما من أجل الشعور بأنه قادر على امتلاك ما يرغب فيه، مفضلا التودد إلى البارونات وسيدات المجتمع.

وفجأة ذكر له جورى مقالا بشأنه، ليقتنص لنفسه مزيدًا من الأهمية، فلم يكن يتوقف عن الادعاء بأنه هو من صنع نجاح فاجرول، كما فعل قبلا مع كلود، فقال: "قل لى، أقرأت المقال الذى كتبه فيرنييه عنك؟ إنه يكرر كل ما أقوله أنا!"

فتنهد ماهودو قائلا: "نعم! ولكنه يكتب هو الآخر مقالات خاصة به!"

أشاح فاجرول بيده فى لامبالاة، وارتسمت على وجهه ابتسامة ازدراء لهؤلاء المساكين الحمقى، الذين يتشبثون بالتفاهات، غافلين عن أسهل السبل

لكسب إعجاب الجماهير. ولكن ألا يكفيه أنه ينفصل عنهم بعد أن أفاد من أفكارهم؟ أراد أن يستغل كراهية الجماهير لهم، تلك الجماهير التى تمدح لوحاته الهادئة وتهلل لها، لتقضى تماما على لوحاتهم العنيفة الجسورة.

فعاد جورى ليسأل جانيير: "أقرأت أنت مقال فيرنييه؟ ألم يكتف بترديد ما سبق وقلته أنا؟"

فانتفض جانيير فجأة بسبب السؤال الذى أيقظه من أحلامه التى غرق فيها، كان مستغرقا فى تأمل كأسه والظلال الحمراء التى يعكسها النبيذ على المفرش الأبيض، فصاح مفزوعا: "ماذا؟ مقال فيرنييه؟"

- "نعم! أتعرف؟ تلك المقالات التى يكتبها عن فاجرول!"

فالتفت جانيير فى ذهول إلى فاجرول وقال: "ماذا؟ أيكتبون مقالات عنك الآن؟ أنا لا أعلم شيئا عن هذا الأمر!... لم أرها من قبل... لا أصدق أيكتبون مقالات عنك؟ ولكن لماذا؟"

تعالت ضحكات الجميع، بينما ابتسم فاجرول على مضض مستاءً مما ظنه مزحة سخيفة وشريرة. ولكن جانيير كان يتحدث بالفعل بطيب خاطر، متعجبا من أن يحرز فاجرول- هذا الشخص عديم القيم- مثل هذا النجاح، من أن ينال هذا المخادع إعجاب وتقدير الجميع! يا إلهى! أين ذهب الضمير؟

ألهبهم هذا المرح الصاخب فى نهاية العشاء، فتوقفوا عن الأكل على الرغم من إلحاحات هنرييت بالتهام المزيد، وقالت لصاندوز الذى بدا سعيدا فى وسط الجلبة التى يحدثها أصدقاؤه:

"يا عزيزى، تأكد من أن أصدقاءك قد شبعوا، هيـــا ادعـــوهم لتنـــاول البسكويت، إنه هناك على الصوان!"

ازداد مرح الجميع، فقرروا النهوض من على الطاولـــة، بعـــد أن ظلـــوا جالسين فترة طويلة فى انتظار إعداد الشاى ، فاستكملوا أحاديثهم وهم واقفـــون مستندون على الجدران، بينما انشغلت الخادمـــة بتنظيـــف الطاولـــة، ومـــضت هنرييت تعيد الملاحات إلى الأدراج، وصاندوز يساعد فى رفع الفرش وتخزينه.

قالت هنرييت: "تستطيعون التدخين إذا شئتم، فلا مانع لدى على الإطلاق!"

انفرد فاجرول بكلود أمام النافذة، ثم عرض عليه سيجارا ولكنه رفض، فقال فاجرول: "لقد نسيت أنك لا تدخن... أريد أن آتى لأرى ماذا أحـــضرت معك من الريف؟ بالتأكيد رسمت لوحات رائعة!... أنت تعلم رأيى فيك، فأنت أعظمنا موهبة..."

بدا عليه التواضع وصدق المشاعر، وكأنه أطلق العنان لإعجابه القديم بعبقرية كلود الذى ترك فى حياته بصمة لا تمحى، خاصة وإنه كان يعلم أنه لن يصل إلى مقدار موهبة كلود على الرغم من خططه وحساباته الخبيثـــة. ولد لديه تواضعه شعورا بالحرج والاضطراب، وانتظر من كلـــود- معلـــم شبابه- أن يبدى رأيه بشأن لوحته، فعزم على سؤاله، فقال وشفتاه ترتعشان: "أرأيت لوحتى التى فى المعرض؟ أأعجبتك؟ قل لى بصراحة!"

تردد كلود لبرهة، ثم قال بحنو: "نعم، فيها الكثير من الجوانب الجيدة."

شعر فاجرول بندم شديد على طرح هذا السؤال الأحمق، وتجلى اضطرابه للجميع، فقرر الانصراف محاولا تقديم مبررات لهذا الرحيل المبكر. شعر بالغضب تجاه نفسه بسبب حماقته، ولكنه حاول إخفاء حرجه بالضحك والمزاح، كما كان يفعل فى الماضى. فأخذ يروى النكات والقصص المسلية، حتى أغرب الجميع فى الضحك، وبكى كلود من فرط القهقهة. ثم مضى ليحيى هنرييت، قبل أن ينصرف.

فصاحت: "ماذا أتغادر مبكرا هكذا؟"

– "للأسف، يا سيدتى العزيزة، فوالدى لديه عمل مهم اليوم، ويحتاجنى لأكون بجانبه، ولقد وعدته بالحضور."

بعد أن رحل، اختفت هنرييت، بعد أن تبادلت بعض الكلمات الهامسة مع صاندوز، ثم سمع صوت خطواتها فى الطابق الأول. فمنذ زواجهما، تولت هى مسئولية الاعتناء بوالدته المسنة، فكانت تغيب قليلا عن ضيوفها ثم تعود، كما كان يفعل صاندوز من قبل.

لم يلحظ أحد من الضيوف خروجها، فانشغل جانبير وماهودو فى الحديث عن فاجرول، فى حوار غلفته المرارة والغضب الخفى، دون أى هجوم مباشر عليه، فلم يتجاوز الأمر بعض النظرات الساخرة وتحريك الأكتاف فى ازدراء صامت كالأطفال. ثم التفتوا إلى كلود، وانهالوا عليه بالمديح، مشددين على الآمال العريضة التى يعلقونها عليه! لكم سعدوا بعودته، متيقنين من أنه وحده، بموهبته الفنية العظيمة وبعزمه وصلابته،

قادر على أن يصير زعيمهم، المعلم الذى يجله الجميع. فمنذ معرض المرفوضين، بدأت مدرسته، مدرسة الهواء الطلق، فى الانتشار، وبدأ أثرها المتنامى يتجلى بوضوح، ولكن سرعان ما ذهبت الجهود أدراج الرياح، واقتصرت اللوحات على تجارب تقوم على الانطباعات السريعة. فكان عليهم انتظار رجل يتمتع بالعبقرية والموهبة اللازمة لتجسد أعماله أفكارا وصيغا لتلك المدرسة الجديدة. ما أسمى المكان الذى ينتظره! وما أعظم دوره الذى سيلعبه فى كبح جماح الجماهير، وافتتاح عصر جديد، بل خلق فن جديد!

ظل كلود يستمع إليهم، خافضا وجهه الممتقع، فقد كان هذا بالفعل هو حلمه الخفى وطموحه الدفين الذى لم يجرؤ على البوح به حتى لنفسه. ولكن فرحة المديح والإطراء شابها فزع غريب وخوف من هذا المستقبل، خاصة وأن أصدقاءه قد نصبوه زعيما كما لو كان قد انتصر بالفعل!

فهتف فى النهاية: "كفى! دعكم من هذا! هناك كثيرون مثلى وأحسن! فأنا لازلت أبحث عن ذاتى!"

جلس جورى فى صمت محاولا إخفاء ضيقه بالتدخين، وفجأة، أمام إصرار ماهودو وجانيير، لم يستطع التحكم فى مشاعره، فقال: "كل هذا يا عزيزى، لأنكم مغتاظون من نجاح فاجرول."

فصاح الجميع فى احتجاج: "ماذا؟ فاجرول؟ الزعيم الصغير؟ لا بد من أنك تمزح!"

أضاف ماهودو: "أنت لا تعبأ بنا، نحن جميعا نعرف ذلك، لن تتـورع عن التخلى عنا! وألا فلمـاذا لا تكتب ولو سطرين علـى أى شخص منـا، فلا يوجد خطر الآن؟"

فأجاب جورى، وقد بدا عليه الاستياء: "بلى يا عزيزى، فكل ما أكتبه عنكم تحذفه الجريدة!... لو كنت أمتلك جريدتى الخاصة، لكتبت عنكم دون توقف!"

ظهرت هنرييت مرة أخرى، جالت عينا صاندوز حتى التقتا عينيهـا، وكأنه يسألها، فأجابته بنظرة رقيقة باسمة مثل تلك التى كانت تلمع فى عينيه كلما خرج من غرفة والدته. ثم نادت عليهم، فالتفتوا إليها، وجلـسوا علـى الطاولة يراقبونها وهى تصب الشاى فى أقداحهم. سيطرت الكآبة على نهاية السهرة، فغلبهم الملل، فسمحوا لبرتران بالدخول وجلسوا يشاهدونه وهو يأكل الحلوى، ثم يذهب ليرقد إلى جوار الموقد وقد تعالى غطيطه.

خيم الصمت على الجميع منذ انتهاء النقاش الذى دار حول فـاجرول، وازداد الملل مع أبخرة الدخان الكثيفة المتصاعدة فى الهواء. فنهض جـانيير من على الطاولة، متوجها إلى البيانو محاولا عزف بعض المقطوعات لفاجنر بصوت خفيض. كان يفتقر إلى المهارة، فلم يعدو كونه هاويًا يـتعلم عـزف السلم الموسيقى فى الثلاثين من عمره.

وصل دوبوش أخيرا، نحو الساعة الحادية عشرة، وأضـفى وجـوده المزيد من الملل والفتور على الجلسة. فأخذ يروى كيف انصرف بـصعوبة من حفل كان مدعوا إليه، ليلبى واجبه تجاه أصدقائه القدامى. كـان يعتبـره

نوعًا من الواجب يضطر إلى أدائه. ونطقت ملابسه ورابطة عنقه البيضاء ووجهه الأبيض الشاحب، بمدى انزعاجه وضيقه لقدومه، وبأهمية التضحية التى قام بها برحيله عن الحفل، مما قد يعرض ثروته الجديدة للخطر. كان يتجنب الحديث عن زوجته حتى لا يضطر إلى إحضارها إلى عشاء صاندوز. فسلم على كلود دون أدنى تأثر أو انفعال كما لو كان معه بالأمس، ورفض احتساء الشاى، واكتفى بالحديث عن انشغاله بالانتقال إلى منزل جديد يشرف هو بنفسه على تجهيزه، وبكثرة الأعمال الملقاة على عاتقه، منذ أن أصبح مسئولا عن أعمال حمية، فهما الآن بصدد إنشاء شارع جديد بجانب متنزه مونسو.

شعر كلود بأن شيئًا ما قد تحطم! بأن الحياة قد عصفت بذكريات الماضى، وبسهراتهم القديمة، بعنفها الأخوى، حيث لم يستطع شىء أن يفصلهم، ولم يرغب أى منهم فى الاستئثار بنصيبه من النجاح والمجد! أما الآن، فقد بدأت المعركة الطاحنة بينهم فى الخفاء! كانت هى الصدع الصغير غير المرئى الذى أجهز ببطء على صداقتهم القديمة، والذى سينتهى بتحطيمهم جميعا ليتركهم أشلاء!

أما صاندوز، فى خضم أحلامه بالصداقة الأبدية، لم يشعر بشىء، أو ربما لم يرد أن يدرك ما أحس به كلود، فكان لا يزال يراهم كما كانوا يجتمعون فى منزله القديم بشارع دينفير، وهم يسيرون جنبا إلى جنب استعدادا لغزو الحياة. فلماذا نعكر صفو أجمل ما فى الحياة؟ أليست السعادة هى الفرح الذى يبقى معنا إلى الأبد؟

وبعد ساعة، قرر الجميع الرحيل، وقد أنهكهم غرور دوبوش وحديثه المستمر عن نفسه وعن أعماله، فانتزعوا جانيير المذهول من على البيانو بصعوبة. أصر صاندوز وزوجته على مرافقة الضيوف حتى نهاية الحديقة على الرغم من البرد القارس، فسلموا على الجميع، قائلين: "فى انتظارك يا كلود يوم الخميس القادم... سننتظركم جميعا!... تعالوا كلكم!"

وقالت هنرييت، رافعة المصباح لتنير السلم: "أراكم يوم الخميس!"

ضحك الجميع واستغرقوا فى المزاح، خاصة جانيير وماهودو.

خرجوا إلى الشارع، ونادى دوبوش على الفور على عربة لتقله، بينما استكمل الأربعة الآخرون مسيرتهم فى صمت وشرود حتى الشارع الرئيسى، حيث مرت فتاة أمامهم، فهرع جورى وراءها متحججا لهم بانشغاله ببعض الأعمال فى الجريدة.

وصل كلود وماهودو وجانيير أمام مقهى بودوكين الذى لمعت أنواره فى وسط الظلام، فأراد جانيير الدخول وألح على كلود لمرافقته، رفض ماهودو الدخول ومضى بمفرده فريسة لأفكاره التعسة حتى وصل إلى شارع شارش ميدى.

جلس كلود دون أن يشعر على طاولتهم القديمة، واستقر جانيير أمامه فى صمت. لم يتغير المقهى، حيث كانوا يجتمعون كل أحد، خاصة بعد أن انتقل صاندوز للإقامة فى نفس الحى، لم يعودوا يهنأون بالجلوس هناك، بعد أن استمر الزائرون الجدد فى التوافد على المقهى، من الطلاب المنبهرين بالمدرسة الفنية الجديدة الصاعدة.

كان المقهى فارغا فى تلك الساعة المتأخرة، فلم يكن هناك سوى شـاب عاطل يقيم بالقرب من المقهى غلبه النعاس أمام طبقه، وفجأة اقتـرب ثلاثـة رسامون شباب من كلود، الذى لم يكن يعرفهم، ليحيوه مصافحين إياه بحرارة.

شعر جانيير بكثير من الراحة كما لو كان فى منزلـه، متـأملا فـى لامبالاة العامل الوحيد الموجود فى المقهى الذى لم يكـف عـن التثـاؤب، مصوبًا نظرات شاردة إلى كلود، دون أن يراه فعليًا.

وفجأة سأله كلود: "بالمناسبة، ماذا كنت تشرح لماهودو هذا المسـاء؟ أقصد اللون الأحمر الذى فى العلم والذى يتحول إلى الأصـفر فـى زرقـة السماء... أتحاول تعديل نظرية تكامل الألوان؟"

ظل جانيير صامتا، ثم تناول كأسه ممسكا بها دون أن يشرب، ومضى يغمغم وقد قفزت إلى وجهه ابتسامة تنطق بالنشوة والارتياح: "أتعلم؟ هايدن[١] هو رشاقة البلاغة الموسيقية، روعة التفاصيل، وكأنها مقطوعـة موسـيقية رقيقة لسيدة عجوز... موتسارت[٢] هو العبقرية الرائدة، فهو أول من أعطى للأوركسترا وترا متفردا... وروعة هذين الموسيقيين تكمن فى أنهما مهـدا الطريق أمام بيتهوفن[٣]!... ما أعظمه بيتهوفن... إنه القدرة، إنه القوة والصلابة فى مواجهة الألم فى صمت وسكينة! إنه يذكرنى بمـا عانـاه مايكـل أنجلـو،

---

(١) هايدن: (1809 -1732) .Joseph Hayden : مؤلف موسيقى نمساوى. (المترجمة)

(٢) موتسارت: (1791 -1756) .Wolfgang Amadeus Mozart : مؤلف موسيقى نمساوى. (المترجمة)

(٣) بيتهوفن: (1827 -1770) .Ludving Van Beethoven: مؤلف موسيقى ألمانى. (المترجمة)

فنان عصر النهضة من عائلة فيدتشى الإيطالية، إنه هذا البطل العقلانى، الذى غير عقليات الجميع، فكل عظماء اليوم، إنما ساروا على خطاه فى روعته وعظمة سيمفونياته الغنائية!"

سئم العامل من الانتظار، فشرع فى إخماد قناديل الغاز بحركات متثاقلة وخطوات بطيئة. وزحفت كآبة غريبة إلى القاعة التى امتلأت بآثار البصاق وتبغ السجائر ورائحة الطاولات الملطخة ببقايا الطعام والشراب. وخيم الصمت، فلم يعد يسمع فى الشارع، سوى تنهدات شاردة صادرة عن أحد السكارى.

بينما غرق جانيير شيئا فشيئا فى أحلامه التى تتراقص أمام عينيه: "لقد ظهر فيبير[١] فى أوج الحركة الرومانتيكية، ليقود أناشيد الموتى وسط الحقول الباكية والأشجار التى تفتح أحضانها... وتبعه شوبرت[٢] وألف مقطوعات تنقلك إلى عالم ساحر، تجلس فيه تحت ضوء القمر بمحاذاة البحيرات المتلألئة... وها هو روسينى[٣] بموهبته المرحة المتفردة الطبيعية، لم يعبأ بأسلوب التعبير، فمضى يسخر من العالم، صحيح أننى لست من هواة موسيقاه، ولكن هذا لا يمنع عظمة وغزارة إنتاجه الذى يقوم على استخراج الانطباعات والأحاسيس العميقة من خلال تدفق الأصوات المجتمعة وتكرار

---

(١) فيبر: Carl Maria Von Weber, (1786- 1826): مؤلف موسيقى وعازف بيانو ألمانى، من رواد الحركة الرومانتيكية. (المترجمة)

(٢) شوبرت: Franz Schubert, (1797- 1828) : مؤلف موسيقى نمساوى. (المترجمة)

(٣) روسينى: Gioacchino Rossini. (1792- 1868) : مؤلف أوبرالى ايطالى. (المترجمة)

الجمل الموسيقية... تكاملت أعمال هؤلاء الثلاثة، حتى جاء مايربير[١] الذى استطاع أن يستفيد من كل هذه الإبداعات، محققا إنجازا بعد فيبير، دامجًا السيمفونية والأوبرا، مضاعفًا الجانب الدراماتيكى الذى أسسه روسينى دون أن يدرى. يا لها من نفحات ساحرة تتضافر فيها عظمة الماضى بالتصوف الصارم، فتعيد إحياء خدر الأساطير الخرافية، إنها صرخة العاطفة التى تخترق التاريخ! كل هذا إلى جانب شخصية كل آلة، وبراعة العرض المسرحى بمصاحبة الأوركسترا، التى هى عصب أى إبداع فنى... هو بكل تأكيد رجل عظيم جليل!"

جاء العامل ليقول: "سنغلق المقهى يا سيدى!"

لم يلتفت إليه جانبير، فمضى لإيقاظ الرجل الآخر النائم، قائلا:

"المقهى سيغلق يا سيدى!"

انتفض الرجل، ثم نهض يتحسس فى الظلام بحثا عن عصاه، ساعده العامل فى البحث حتى وجدها تحت المقعد فأخذها منه ثم رحل.

استأنف جانبير حديثه: "استطاع بيرليوز[٢] أن يمزج بين الأدب والموسيقى، فكأنك ترى شكسبير[٣]، وفيرجيل[٤]، وجوته[٥] فى تنويعات

---

(١) مايربير: Jakob Liebmannbeer Meyerbeer, (1791- 1864) : مؤلف موسيقى ألمانى. (المترجمة)

(٢) بيرليوز: Hector Berlioz (1803- 1869) : مؤلف موسيقى فرنسى من أتباع الحركة الرومانتيكية. (المترجمة)

(٣) شكسبير: William Shakespeare. (1564- 1616) : شاعر مسرحى إنجليزى. (المترجمة)

(٤) فيرجيل: Virgile. (vers 70-19 av.J.C) : شاعر لاتينى. (المترجمة)

(٥) جوته: Johann Wolfgang Von Goethe. (1749- 1832) : كاتب ألمانى. (المترجمة)

موسيقية بديعة! إنه دولاكروا الموسيقى الذى استطاع أن يلهب الأصوات بتناقضات لونية مشبوبة! وهكذا تلاقى جنون الرومانتيكية مع النفحات الروحانية لديه ورفعاه إلى القمة. لم ينجح فى تأليف الأوبرا، ولكنه برع فى المقطوعات الموسيقية، حتى كان يرهق عازفيه لدرجة التعذيب مغاليا فى شروطه وطموحاته، معلقا آمالا عريضة على شخصية كل آلة، فمثلا الكلارينيت بالنسبة له هى المرأة المعشوقة التى طالما سرت فيه رعدة عند سماع صوتها... أما شوبان[١] بأناقته ونزعته البايرونية[٢] فيقدم صورة الشاعر الذى يقع فريسة النوبات العصبية! وأيضًا مندلسون[٣] هذا الفنان المعصوم من الخطأ الذى يصور لك أعمال شكسبير مغلفة بالإيقاعات الراقصة، بألحانها الجميلة التى تشبه الجواهر!... وغيرهم ممن يجب أن نحنى لهم رءوسنا إجلالا وتعظيما..."

انطفأت جميع الأنوار، ولم يبق سوى قنديل صغير معلق فوق رأسه، بينما وقف العامل خلفه ينتظر فى الظلام الحالك والبرد القارس رحيل آخر زبونين.

تهدج صوت جانيير وغلفه الورع والمهابة كمن يتعبد فى أكثر المواقع قداسة "فى قدس الأقداس": "وشومان، ما أروعه، إنه اليأس، بل متعة اليأس! نعم نهاية كل شىء، الصرخة الأخيرة للنقاء الحزين التى تخيم على بقايا

---

(١) شوبان: Frederic Chopin. (1810- 1849) : مؤلف موسيقى وعازف بيانو بولندى. (المترجمة)

(٢) نسبة إلى الشاعر الإنجليزى بيرون. (المترجمة)

(٣) Felix Mendelssohn. (1809- 1847) : مؤلف موسيقى ألمانى. (المترجمة)

العالم!... أما فاجنر، فهو القدير الذى تتجسد فيه قرون وقرون من الموسيقى! فيجمع فى فنه شتى الفنون الأخرى، ليصور حال الإنسانية بأثرها من خلال شخصياته، التى ترسمها الأوركسترا وتغلفها بالطابع الدراماتيكى! كيف استطاع أن يطيح بالتقاليد والصيغ البائدة؟ يا له من تحرر ثورى يرنو إلى بلوغ الكمال المطلق!... أتعرف افتتاحية "تانهويزر"[1]؟ إنها التهليل والفرح الأسمى للقرن الجديد، فى دفقتها الروحانية الهادئة العميقة، وباختلاجاتها الرخيمة، التى سرعان ما تغطيها أصوات الأبواق شيئا فشيئا، معلنة انتصار المباهج والملذات، إلى أن تسيطر الكآبة والوساوس القاهرة المشوشة، فى انتظار اللحن المقدس الذى يعاود الظهور تدريجيا، هذا الشوق إلى الحرية، إلى مزيد من الفراغ الذى يعلو فوق كل الأصوات والألحان، فى تناغم بديع يحمل السامعين على أجنحة أناشيد الانتصار!"

عندها جاء العامل مرة أخرى، مكررا: "سأغلق المقهى يا سيدى!"

تظاهر كلود بالإنصات صريعا لعواطفه وأفكاره المحمومة، فأنهى كأسه، ثم صاح فى جانبير: "هيا يا عزيزى! سيغلق المقهى!"

انتفض جانبير، وتلاشت من وجهه ملامح النشوة والحبور، وارتسمت بدلا منها انقباضة تنم عن الألم، كان يرتعد كمن سقط لتوه من مكان مرتفع. فأكمل كأسه بنهم، ثم خرجا سويا إلى الشارع، وهناك صافح كلود فى صمت ثم ابتعد وقد ابتلعته غياهب الظلام.

---

(١) تنهويزر: Tannhauser: أوبرا من ثلاثة فصول لفاجنر. (المترجمة)

عاد كلود إلى منزله بحلول الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كان قد مر أسبوع على قدومهما إلى باريس وكان يقضي أيامه ولياليه يتجول في أرجائها، ليعود إلى المنزل وقد أعيته حمية النشاط والآمال. ولكنه كان منهكا بشدة هذه المرة، خاصة وأنه لم يسبق له أن تأخر إلى مثل هذا الوقت. دخل ليجد كريستين نائمة وقد غلبها التعب، فأسندت رأسها إلى الطاولة بجوار القنديل الخامد.

الفصل الثامن

انتهت كريستين من تجهيز وترتيب منزلهما الجديد فـــى شـــارع دواى، وهو مرسم صغير غير مريح، تلحق به غرفة ضيقة ومطبخ واســـع. اســـتمر كلود وكريستين يتناولان طعامهما فى المرسم حيث يمــضيان كــل وقتهمـــا ومعهما جاك يعوق حركتهما. تجنبا لمزيد من النفقات، فقد حاولت كريـــستين جاهدة أن تستغل أثاثهما البسيط الذى حملاه معهما فى تجهيز المرسم للمعيشة. ومع ذلك فقد اضطرت لشراء سرير قديم زهيد الثمن، كما تَخلت عن رغبتهـــا فى شراء ستائر بيضاء شفافة يصل سعر المتر منها إلى سبعة سنتيمات.

بدا المرسم الضيق ساحرا فى عينيها، فعنيت بنظافته وأناقته، وقررت عدم اللجوء إلى خادمة تقليلا للنفقات، خاصة وأن حياتهما الجديدة لـــم تكـــن تنبئ باليسر والثراء.

أمضى كلود الشهور الأولى لعودته فى حالة من الإثـــارة لا تنتهـــى، سائرًا فى الشوارع الصاخبة، مترددًا على أصـــدقائه، مفتونـــًا بالمناقـــشات الانفعالية الغاضبة، تصاحبه الأفكار المحمومة حتى فى منزله، مؤججة شَغفه وحماسته القديمة حتى أثناء نومه. خلبت باريس لبه، وتغلغلت فـــى أعماقـــه حتى النخاع، فكأنه ولد من جديد، أو استرد شبابه الضائع فى خـــضم هـــذا

الحماس والطموح إلى رؤية وفعل كل شيء لتحقيق ذاته وغزو الجميع. لم يسبق له أن اجتاحته حمى العمل ودفقات الأمل بمثل هذا العنف، حتى تصور أنه ليس عليه سوى أن يمد يده ليبدع أعمالا عظيمة سترفعه إلى القمة والمجد المستحق.

كان يتجول فى باريس ليرى موضوعات للرسم فى كل مكان من حوله، فأمامه المدينة بأكملها بشوارعها وتقاطعاتها وجسورها وآفاقها الزاخرة بملامح الحيوية والانطلاق، وكأنها لوحات عملاقة، تتراءى له، ولكنه يرى أنها ليست على مستوى العظمة المطلوبة، وقد أثملته الرغبة الملحة فى إبداع أعمال ضخمة مهيبة. فيعود إلى منزله مرتجفًا، تحت وطأة فوران الأفكار التى تتضارب داخل رأسه، ويجلس فى المساء ليضع الرسم المبدئى على قصاصات من الورق، عاجزا عن البدء فى أى لوحة من سلسلة أعماله العظيمة التى يحلم بها.

شكل ضيق المرسم عقبة حقيقية أمامه، فتحسر على مرسمه القديم عند ميناء بوربون، وعلى الصالة الواسعة التى حولها إلى مرسم فى منزلهما ببينكور! ولكن ماذا عساه أن يفعل؟ وكيف له أن يرسم فى هذه الغرفة التى تشبه الممر، والتى تؤجرها صاحبة العقار للرسامين، بكل وقاحة، مقابل أربعمائة فرنك بعدَ أن أحاطتها بالنوافذ الزجاجية؟ والأسوأ من هذا أن الزجاج الجديد كان محشورًا بين جدارين هائلين مما حجب ضوء الشمس، محولاً المرسم إلى كهف!

أجل كلود مشروعاته وطموحاته الضخمة مضطرًا، مكتفيا فى البداية برسم لوحات متوسطة الحجم، مؤكدا أن حجم الأعمال ليس هو المؤشر على العبقرية، ولا هو صانع النجاح.

شعر أن الوقت قد حان لظهور فنان حقيقى طال انتظاره حاملا بشائر التميز والتغيير فى ظل تداعى المدارس الفنية العتيقة! فها قد تزعزعت ركائز الصيغ الفنية القديمة، فمات دولاكروا دون أى تلاميذ ينتهجون نهجه، ولم يعد يقلد كوربيه سوى عدد ضئيل من الرسامين قليلى المهارة، ولا مكان لأعمالهما العظيمة سوى المتاحف، بعد أن انحصرت قيمتها فى كونها صورًا تعبر عن الفن فى عصر ما. بدا له أنه من السهل التنبؤ بالفن الجديد الذى ينبع منهم، هذا الاحتفاء بضوء الشمس، والإعجاب بالفجر الساطع، اللذان تسربا إلى اللوحات المعاصرة تحت تأثير مدرسة "الهواء الطلق". لم يعد هنالك مجال للشك فى أن اللوحات المضيئة الملتهبة، التى ضحك منها الجميع فى معرض المرفوضين، أصبحت تجذب العديد من الرسامين وتتسلل إلى طريقة اختيارهم للألوان والتعبيرات. لم تحظ بموافقة أو بقبول أحد، هذا صحيح، ولكنها أحدثت هزة وثورة... ثورة التغيير والتطور التى أصبحت تجتاح المعارض شيئا فشيئا. ما أروع المفاجأة! سيبزغ هو- فى وسط المحاولات المترددة والخفية، للرسامين المقلدين الرديئين والرسامين الماهرين المجددين- كفنان حقيقى تنطق لوحاته بالجرأة والقوة بصراحة وصلابة معبرة عن ملامح هذا العصر ونهاية هذا القرن!

ترسخ يقين كلود من عبقريته، وتملكته سورة الشغف والأمل فى المستقبل، وإن ساوره من حين لآخر شكه المعتاد فى موهبته، ولكنها لم تكن مثل تلك النوبات القديمة من الفزع والحزن التى كانت ترغمه على التجول لأيام فى الشوارع بحثا عن شجاعته وقدرته المفقودة على الإبداع.

استحوذت عليه حمى العمل، فكان يرسم بعناد وإصرار كمن يغوص داخل نفسه ليستخرج ما بها، ليجنى ثمرة عبقريته التى يعذبه طول احتباسها داخله.

استمد من إقامته الطويلة فى الريف رؤية جديدة ومتفردة للحياة وسعادة غامرة فى وقت العمل، فكان يشعر وهو يرسم وكأنه يولد من جديد، محصنا بإحساس باليسر والاتزان لم يعهده من قبل. كان متيقنا من التقدم والنجاح، مستشعرًا نوعًا من الرضى العميق أمام لوحاته الناجحة التى هى ثمرة جهوده العقيمة الماضية. ازداد تمسكه بصيغته الجديدة: "الهواء الطلق" وبلوحاته التى تشع بهجة نابعة من الألوان الخلابة التى أذهلت جميع أصدقائه، فبهرهم جمال لوحاته الجديدة بألوانها المميزة وتصويرها البديع للطبيعة التى تبدت للمرة الأولى متوهجة الجمال، براقة تحت تأثيرات وانعكاسات ضوء الشمس، ورسخت إيمانهم به وبضرورة الاستمرار لتحقيق المكانة التى يستحقها: القمة!

انقضت ثلاثة أعوام، واستبسل كلود فى كفاحه، مقاوما الفشل، متشبثا بكل أفكاره، متجها نحو هدف واحد بيقين لا يتزعزع.

فى العام الأول، أمضى الشتاء بثلوجه وبرده القارس خارج المرسم، فكان يمضى أربع ساعات يوميا واقفا خلف هضبة مونمارتر منهمكا فى رسم قطعة أرض تتناثر فوقها أكواخ متداعية وبائسة، تعلوها مداخن ضخمة كمداخن المصانع، بينما برز فى مقدمة اللوحة، فتى وفتاة فى ثياب رثة يلتهمان بعض التفاح المسروق وسط الثلوج.

كان تمسكه بالعمل فى الطبيعة يصعب مهمته بشدة ويعرقل عمله، ولكنه ازداد إصرارا حتى أنهى تلك اللوحة بأكملها فى الخارج، مصورا

الطبيعة الحية. لم يقم فى المرسم سوى ببعض التعديلات البسيطة على اللوحة. والمفاجأة أنه تعجب هو نفسه من عنف اللوحة حينما وضعها فى المرسم ذى الإضاءة الباهتة، فكأنها باب يطل على أحد الشوارع غطته الثلوج الكئيبة، بينما ظهر الطفلان البائسان وقد كساهما الطين الرمادى، وعلى الفور أدرك أن مثل هذه اللوحة لن تقبل فى المعرض، ولكنه قرر أن يرسلها إلى هناك على الرغم من كل شىء، دون أن يقدم على تخفيف حدتها. كان قد أقسم من قبل على ألا يرسل أى لوحة إلى هذا المعرض، ولكنه سرعان ما تراجع، واضعا لنفسه مبدأً جديدا، وهو أنه يجب إرسال مثل هذه اللوحات باستمرار إلى لجنة التحكيم، لتأكيد وجوده وإثبات موهبته! ومن ثم أدرك أهمية المعرض فهو ساحة القتال الوحيدة التى يمكن لأى فنان الانطلاق منها.

ورفضت لجنة التحكيم لوحته.

فى شهر مايو من العام الثانى، رغب فى رسم لوحة تصور نوعا من التناقض، فوقع اختياره على جزء من ميدان باتينيول ملىء بأشجار الكستناء الضخمة التى تلقى بظلالها على الجميع، وظهرت، فى الخلفية، مجموعة من الأراضى الخضراء، وبعض المنازل ذات الستة طوابق، بينما برزت فى المقدمة بعض الخادمات وصغار البرجوازيين من سكان الحى وقد اصطفوا على المقاعد المطلية بلون أخضر ساطع، مستغرقين فى مراقبة ثلاثة صبيان يلعبون بالرمال.

تطلب عمله وسط الميدان- تحت أعين المارة الساخرة- جهدا بطوليا وشجاعة كبيرة، فقرر فى النهاية أن يأتى كل يوم فى الخامسة فجرا ليرسم

الخلفيات، ثم يعود ليستكمل رسم الأشخاص فى مرسمه. بدت له هذه اللوحة أقل حدة وعنف عن سابقتها، وانطبع عليها شحوب وكآبة الضوء الخافت المتسلل من الزجاج.

ظن الجميع- وهو كذلك- أن اللوحة ستقبل، وتطلع الأصدقاء بنفاد صبر إلى النجاح الساحق الذى ستحققه هذه اللوحة التى ستقلب المعرض رأسا على عقب. ولكن سرت شائعات حول رفض لجنة التحكيم لهذه اللوحة أيضًا، مما أثار دهشة وسخط الجميع منددين بالتحيز الواضح ضد كلود والمحاولات المستمرة والمنظمة لتحطيم وتدمير فنان فذ ومتميز.

بعد أن هدأت ثورته الأولى، صب كلود جام غضبه على لوحته، التى بدت له الآن كاذبة خادعة ورديئة. شعر بأن هذا الرفض إنما هو درس له سيتذكره دائما، وكأن قيامه بالعمل فى المرسم المظلم الشبيه بالكهوف سبب من أسباب عجزه عن تقييم اللوحة! وشعر بأنها أوشكت أن تقوده إلى فن البرجوازيين المتأنق المتكلف!

وفور استرداده للوحته، أمسك بسكين ومزقها تماما.

واستمر الحال هكذا فى العام الثالث، فانكب كلود بحمية غير معهودة على لوحة ثورية ومتمردة، تغرقها أشعة الشمس الساطعة، مصورا شمس باريس ترسل أشعتها الحادة لتلهب الشوارع تاركة انعكاسات براقة على واجهات المنازل. لم يكن هناك مكان حار يضاهى حرارة هذا المكان، كأننا فى بلد إفريقى وقد ضاعفت قطرات المطر الثقيلة الملتهبة من الحرارة.

قرر أن يرسم لوحته فى أحد أركان ميدان كاروسيل فى وقت الظهيرة، فى الواحدة ظهرا، حيث تسطع الشمس مرسلة أشعة عمودية تلهب الجميع كسهام نارية. وفى المقدمة عربة غلب النعاس الحوذى، بينما خفض الحصان وجهه المبلل من العرق، منهكين من الحرارة الشديدة، إلى جانب بعض المارة يسيرون بصعوبة كالسكارى، بينما سارت شابة جميلة جريئة فى هدوء حاملة مظلتها، متبخترة كملكة غير عابئة بهذا اللهيب المتصاعد حولها.

كانت حدة الإضاءة هى السبب وراء غرابة اللوحة، تلك الرغبة فى إظهار رؤيته الجديدة للضوء، والدقة والإتقان فى التعبير، ولكنها كانت مختلفة عن كل ما ألفته الأعين من توزيع الألوان، فسيطر الأزرق والأصفر والأحمر بطريقة لم يعهدها أحد. بينما ظهرت حدائق التويلورى فى الخلفية وقد تلاشت ملامحها فى صورة طيف ذهبى، وسطعت الشوارع بألوان زاهية، جعلت المارة يبدون كأشكال غير محددة المعالم، وكأنهم بقع سوداء ابتلعتها الإضاءة الباهرة.

أعجب الأصدقاء أيضًا بهذه اللوحة، وإن ساورهم نوع من القلق من عنف اللوحة وغرابتها. واستشعر كلود على الرغم من مديحهم نفس المخاوف، التى سرعان ما تحققت برفض لجنة التحكيم للوحته مرة أخرى، ندت عنه حينها صرخة ألم مصارحًا ذاته بالحقيقة: " أصبح الأمر واضحا... سأفنى أنا ولوحاتى!"

كان حماسه وإصراره على العمل ينميان شيئا فشيئا، وإن راودته شكوكه القديمة فى قدرته على تحدى الطبيعة، فشعر بأن لوحاته سيئة

وناقصة على الرغم من جهده الخارق. كان عجزه هو ما يثير سخطه أكثـر من الرفض المستمر من لجنة التحكيم، وإن لم يستطع محو حقـده تجاههـا: فحتى لوحاته غير المكتملة تتفوق مائة مـرة علـى تلـك سـطحية ورداءة اللوحات التى تم قبولها. أهناك عذاب أصعب من أن يعجز الفنان عن تكريس كيانه كله للوحة خالدة يضع فيها جل عبقريته؟ كان يرسم بعـض اللوحـات الصغيرة الرائعة، ويعجب بها أشد الإعجاب، فلماذا يـصيبه هـذا العجـز المفاجئ؟ لماذا تظهر بعض الأجزاء السيئة والأخطاء القاتلـة فـى لوحاتـه الكبيرة؟ كيف تظل مستترة أثناء العمل، لتظهر فجأة للعيان مجهـزة علـى اللوحة كلها؟ انتابه فجأة شعور بالعجز منعه حتى عن تصحيح لوحاته، وكأن هناك جدارا، أو عقبة لا تقهر قد انتصبت أمامه فى لحظة وتعـوزه القـوة لتجاوزها. فشعر بأنه كلما حاول تعديل اللوحة، ازدادت سـوءا، واختلطـت ملامحها لتتحول فى النهاية إلى حطام، بقايا لوحة! اشتد به الغضب لعجـزه عن الرؤية والعمل، حتى وصل إلى حالة من اليأس أصابت إرادته بالـشلل التام. أهو عيب عينيه، وطريقة رؤيته للأمور؟ أم هو خطأ يديه، اللتين لـم تعودا ملكا له؟ تضاعفت النوبات المؤلمة، وقضى أسابيع كاملة فريسة للحزن واليأس، تتنازعه مشاعر الشك والأمل، حتى لم يعد لديه وسيلة لتخفيف ألمه سوى الانهماك فى لوحته المتمردة، كان السبيل لانتزاعه من دوامة البـؤس هو ذلك الحلم باللوحة القادمة التى ستحقق له الرضى الذى يرنو إليه، حينما تتحرر يداه منطلقة فى رحلة طويلة لمزيد من الخلق والإبداع. اشـتدت بـه الرغبة فى العمل بسرعة عجزت يداه عن مجاراتها، فلم يكن يبدأ فى لوحة،

حتى تتدافع إلى رأسه أفكار بشأن اللوحة التى ستليها. كان يتلهف إلى الانتهاء من اللوحات التى بدأها وكأنها همٌ يثقل كاهله، خاصة وإنها لم تكن ذات قيمة حقيقية، بعد أن لجأ إلى العديد من التنازلات لتحوز الإعجاب، ولكنه كان يتوعد بإنجاز لوحة لا مثيل لها! لوحة رائعة وبطولية! لوحة خالدة لا تضاهيها لوحة أخرى! هذا هو السراب الدائم الذى يلاحق كل من كان الفن قدره، هذا الوهم الرقيق الذى يتعلل به الجميع، والذى بدونه يستحيل الإبداع على كل من يعذبه عجزه عن الخلق، وإضفاء الحياة على إبداعاته!

عانى كلود- إلى جانب صراعاته الداخلية التى لا تنتهى- من بعض المشاكل المادية. ألا يكفيه عذابه المتجدد وأزمته الذاتية ليتوجب عليه الاهتمام بالأشياء المادية الأخرى؟ فالرسم على الطبيعة فى الهواء الطلق، حتى وإن رفض الاعتراف بذلك، بات أمرا مستحيلا، خاصة فى حالة اللوحات الضخمة، فكيف سيتمكن من الرسم فى الشارع وسط الحشود المتدافعة؟ وكيف سيجعل الأشخاص الذين يصورهم فى لوحته يجلسون لساعات طويلة حتى يرسم؟ لم يعد الرسم فى الخارج ملائما سوى فى حالات معينة، مثل رسم الحقول، أو أجزاء محددة من المدينة. وتقلب أحوال الطقس، فالرياح قد تعصف بالحامل واللوحة، وتضطره الأمطار إلى العودة إلى مرسمه، فيخرج عن طوره موجها اللعنات للسماء والأمطار، متهما الطبيعة بإعاقته عن غزوها واقتحامها.

كان يشكو بمرارة من فقره، فلولا فقره لامتلك أكثر من مرسم متحرك، سيارة يتجول بها فى أرجاء باريس، أو قاربا يطوف به نهر السين،

وربما أمكنه أن يحيا فيها حياة الفنان البوهيمى الحقيقى! ولكنه لم يكن يملك أيًّا من هذه الأشياء، وكأن كل ما فى الوجود يتآمر ضده وضد عمله ولوحاته.

شاطرته كريستين المعاناة والألم، تماما مثلما شاركته آماله الأولى، كانت تغمره بطيبتها وتشع جوا من البهجة فى المرسم بأنشطتها المنزلية المتجددة، ولكن ها هى الآن تجلس بجانبه يعتصرها الألم لرؤيته فريسة ضعيفة للإحباط وخيبة الأمل. فمع كل لوحة تُرفض تُبدى حزنا وألما شديدين، وقد شعرت بجرح عميق فى كبريائها كامرأة، وإن خامرها نوع من زهو التفوق على غريمة لها. كانت معاناة كلود المريرة تحزنها بشدة، فكانت تشاركه عواطفه وانفعالاته، حتى توحدت مع ذوقه، فأصبحت تدافع بضراوة عن لوحاته التى باتت هى محور حياتهما، معلقة عليها كل الآمال فى استرداد سعادتهما. كل يوم، كانت تدرك إلى أى مدى ستنتزع تلك اللوحة كلود منها، ولكنها توقفت عن المقاومة، واستسلمت معه للحلم المنشود، فأصبحا واحدا فى جهادهما ونضالهما. ولكن هذا التخلى، أو هذا الاستسلام لم يكن بالأمر الهين عليها، فغمرتها مشاعر الحزن الدفين والرعب من المصير الذى ستلقاه، وتسربت الرعدة إلى قلبها مناشدة إياها بالتراجع. شعرت كريستين بأنها فقدت شبابها، واجتاحتها حسرة مريرة ورغبة ملحة فى البكاء دون سبب واضح، فكانت تنزوى فى أحد أركان المرسم المظلم والكئيب لتبكى بمفردها لساعات.

شعرت لأول مرة بعاطفة الأمومة تنبثق فى داخلها لتحل الأم محل المرأة العاشقة، ولكن تجاه طفلها الكبير، كلود الذى غمرته بمشاعر العطف

والرقة، والإشفاق لرؤيته يغوص أكثر فأكثر فى دوامة الضعف والعجز، فبدأت تلتمس له الأعذار التى لا تنتهى. لم يعد يستطيع أن يسعدها كما كان الحال فى الماضى، فحاله الآن يزيد تعاستها وآلامها. لم تعد تنال منه سوى اهتمام عادى وكأنه يتصدق عليها، شعرت به يفلت من قبضتها، فلم يعد يستريح بين أحضانها الحارة التى كانت تمطره بها كما كان الحال فى الماضى! ماذا عساها أن تفعل؟ كانت عاطفتها الظمأى تصرخ فى داخلها! فهى لم تتغير، بل ظلت نفس المرأة مشبوبة العواطف، ذات الشفاه القوية المثيرة التى تصرخ طالبة الحب والاهتمام.

اكتست ملامحها العذبة المليحة بطابع حزين، من فرط أحزانها الخفية التى تجترها ليلا وتتعذب بلواعجها، شعرت بأن مهمتها اقتصرت على القيام بدور الأم تجاه كلود، وحققت لها هذه المهمة شعورا بالمتعة البسيطة فى محاولاتها لإسعاده، لإدخال نوع من البهجة والفرح إلى حياتهما التى اتخذت منحى مختلفاً.

كان جاك الصغير وحده ضحية هذا التبدل المفاجئ فى مشاعرها. تضاعف إهمالها له، واهبة كل مشاعرها، بما فيها عاطفة الأمومة التى استيقظت حديثا داخلها، لكلود، معشوقها الذى تدلهت فى حبه. فأصبح هو طفلها، بينما ظل جاك المسكين مجرد ذكرى أو دليل على عشقهما القديم، فلم يعد سوى كونه ثمرة هذا الحب العظيم. فكلما رأته ينمو دون عناية أو اهتمام خاص منها، زادت فى إهماله، ليس بدافع الشر أو القسوة فى

داخلها، بل لأنها كانت تشعر بذلك، فقد رأته يكبر ويتعايش دون حاجة إليها، على عكس كلود، الذى تدرك مدى عجزه وحاجته الشديدة إليها. فعند تناول الطعام، لم تكن تطعمه أولا، وإنما كلود، ثم جاك، كما خصصت المقعد الأفضل الموضوع إلى جانب المدفأة لكلود، وليس لابنها الصغير. وعند حدوث أى موقف، أو حادث بسيط، كانت تهرع إلى الاطمئنان على كلود أولا، ثم على ولدها الضعيف، الذى احتل من الآن فصاعدا المرتبة الثانية، كانت دائما تقول له: "اصمت يا جاك، أنت تضايق والدك!"،" لا تتحرك كثيرا يا جاك، فوالدك يعمل!"...

لم يتكيف الطفل مع الحياة الجديدة فى باريس. ففى الريف، كانت لديه مساحات شاسعة ليلعب ويجرى أينما وكيفما شاء، بينما أضجره هذا الضيق الخانق للمكان الذى يجبره على التزام الصمت والبقاء ساكنا طوال الوقت. بدأ وجهه الجميل المشرب بالحمرة يشحب، واتسعت عيناه، وازداد هزاله حتى يظن من يراه أنه رجل عجوز! لم يتجاوز الخامسة من عمره، وإن استمر رأسه فى النمو بطريقة غريبة فى ظاهرة نادرة، تعجب له والداه: "يا لهذا الطفل!

رأسه يشبه رءوس الرجال الناضجين!" إلا أن ذكاءه وقدراته كانت فى تدهور مستمر، فكلما ازداد حجم رأسه، كلما تراجع مستوى ذكائه. فكان يظل مشدوها لساعات، عاجزا عن الإجابة على أى سؤال، وكانت تستغرقه نوبات من السكون التام والشرود يشوبها نوع من الخوف، لم يكن يخرجه من هذا السكون سوى بعض الانفعالات الجنونية التى تجعله يصرخ ويقفز كحيوان

صغير مرح تتلاعب به غريزته، وعندها ينهال عليه وابل من التوبيخ ليلتزم الصمت، خاصة وأن كريستين لم تكن تعلم سبب هذه النوبات الصاخبة المفاجئة، فكانت تركض إليه فزعة- وقد ضايقها انزعاج كلود وهو يرسم- لتهدئ الصغير وتجلسه فى أحد الأركان لينشغل باللعب. فيهدأ جاك وهو يرتجف كمن استيقظ فجأة من حلم مخيف، ثم يخلد للنوم، وقد ارتسم على ملامحه الخاملة تعبير بائس ينطق بعجزه التام، فيداه كانتا عاجزتين عن التمسك أو التشبث بأى شىء فلم يكن باستطاعته الإمساك حتى بألعابه، أو بالصور أو حتى بعلب الألوان الفارغة. وعلى الرغم من هذا، حاولت كريستين أن تعلمه القراءة. ولكنها منيت بفشل ذريع، فامتلأت غما وحزنا وتدافعت الدموع إلى مقلتيها، حتى قررا فى النهاية الانتظار لعام أو لعامين ثم إلحاقه بالمدرسة، حيث يملك المعلمون وسائل متعددة لتعليمه.

ارتعبت كريستين من خطر البؤس والفقر المحدق بهما، فالحياة فى باريس، خاصة مع وجود طفل، لم تكن بالأمر الهين، نظرًا لارتفاع الأسعار. أصبحت نهايات الشهور أمرا مفجعا، على الرغم من محاولاتها المضنية للادخار وضغط النفقات. فلم يكن لهم دخل ثابت سوى الألف فرنك، العائد السنوى المخصص لكلود، ولكن كيف لهم أن يعيشا بأقل من خمسين فرنكا شهريا بعد خصم إيجار المرسم البالغ أربعمائة فرنك؟ لم يشعرا بضيق الحال فى البداية، بفضل بعض اللوحات التى كان كلود يبيعها بعد أن تعرف على الرجل الذى كان يتعامل مع جانيير، السيد هيو، وهو برجوازى ممن ينفر

منهم كلود، ولكنه كان ذا حس فنى عالٍ أخفته تلك العادات البرجوازية المريضة التى يتمسك بها. كان السيد هيو موظفا كبيرا فى الماضى، ولكن مع الأسف، لم تكن ثروته بالضخامة التى تجعله قادرا على الشراء بانتظام، فكان يكتفى بالتحسر على جهل الجماهير التى تترك العباقرة والموهوبين يتضورون جوعا. واختار، واثقا من رجاحة قراره ونظرته الثاقبة، أكثر اللوحات عنفا واختلافا وعلقها إلى جانب لوحات دولاكروا التى يملكها، متنبئا لها بمستقبل ونجاح مماثل. ثم حلت الطامة الكبرى بقرار السيد مالجرا بالتقاعد عن العمل، بعد أن كون ثروة لا بأس بها، لكى يحيا حياة بسيطة معتمدا على دخل سنوى يقدر بعشرة آلاف فرنك، فقرر أن يحيا بحرص مفضلا تناول وجباته فى مطعم صغير فى بواكولومب. اشتدت بكلود الأزمة حتى فكر فى اللجوء إلى نوديه الشهير، وإن احتفظ بازدراء شديد لهذا المخادع ولملايينه التى ستنهال عليه فى حالة التعامل معه. ولكن مقابلته مع نوديه لم تتمخض سوى عن بيعه لوحة واحدة من اللوحات العارية القديمة التى رسمها فى مرسم بوتين، تلك التى خلبت لب مالجرا من أول وهلة.

أصبحت الكارثة وشيكة، وبدأت المأساة الحقيقية تطرق أبوابهما، وأغلقت جميع المنافذ فى وجهه، بدلا من أن تنفتح أمام فنه العظيم الذى أوشك على أن يصبح أسطورة بسبب كثرة وتكرار رفض المعرض له، فكانت لوحاته الثورية غير المكتملة، التى تؤلم الأعين التى تبحث فيها عن أى ملامح فنية تقليدية أو مألوفة، كفيلة بتنفير الجماهير والإطاحة بحلم الثروة والنقود.

وفى ذات مساء، وكلود عاجز عن الوصول إلى التركيبة اللونية التى ينشدها، فوجئت به كريستين يقسم بأنه يفضل الاكتفاء بعائده السنوى البسيط، على الانحدار إلى المستوى المتدنى للوحات التجارية التى تجذب الناس، فاعترضت كريستين بقوة على تشدده ومغالاته، موضحة له فداحة النفقات. وقالت له فى النهاية، إنها تفضل أى شىء على هذا الجنون الذى سيقضى عليهما لينتهى بهما الحال دون مسكن أو مأكل.

بعد رفض لوحته الثالثة، حل صيف ساحر، أمد كلود بطاقة وقوة خارقة. كانت السماء صافية، لا تعكر زرقتها سحابة واحدة، وتحتها ازدادت الحركة بين جنبات باريس. فعاد يتجول فى المدينة باحثا عن موضوع للوحته، كان يبحث عن شىء عظيم، شىء حاسم، ولكنه لم يكن يعلم ما هو على وجه التحديد.

قارب الصيف على الانتهاء مع حلول شهر سبتمبر، دون أن يجد مبتغاه، فكلما وجد شيئا تحمس له لفترة وجيزة، ثم يتركه مؤكدا أنه ليس ضالته المنشودة. عاش فى حالة من الترقب، مترصدا فى كل دقيقة لأى شىء يمكن أن يحقق حلمه الذى يهرب منه باستمرار. كان تشدده وعناده وادعاؤه للواقعية والعقلانية، يخفى ميلا للتوجس، وكأنه امرأة ضعيفة، فكان يعتقد فى وجود تأثيرات سرية ومعقدة تلقى بظلالها على عمله، وفى النهاية يتوقف الأمر– سواء أكان حسنا أم شؤما – على المنظر أو الأفق الذى سيرسمه.

وفى ذات يوم فى أواخر الموسم الصيفى، اصطحب كلود كريستين فى نزهة، تاركين جاك كعادتهما إذا خرجا، فى رعاية حارسة العقار،

وهى امرأة مسنة وطيبة. حيث شعر الاثنان برغبة مفاجئة فى التنزه والتجول، والحاجة إلى استعادة الذكريات القديمة بزيارة الأماكن المحببة التى كانا يترددان عليها فى الماضى، حاملا فى أعماقه الأمل القديم فى أن تجلب له كريستين الحظ والسعادة. فسارا على جسر لويس فيليب، ووقفا حوالى ربع الساعة على رصيف ليزورم، وقد غشاهما الصمت يتأملان نهر السين ونزل مارتوى القديم الذى شهد مولد حبهما. ثم استكملا طريقهما القديم، دون أن ينبس أحدهما بكلمة، فسارا بمحاذاة أرصفة الميناء المتتالية، وقد ظللتهما الأشجار، ومع كل خطوة تراءت لهما ذكريات الماضى السعيد. واستمرت جولتهما على الجسور التى تتلألأ أسفلها المياه، ونظرا من بعيد فرأيا وسط المدينة وقد ارتسمت عليه ظلال أبراج كنيسة نوتردام الضخمة. ثم التفتا إلى الضفة الأخرى التى سطعت عليها أشعة الشمس الذهبية، وظهر خيال رواق النباتات من بعيد، فاستغرقا فى مشاهدة الشوارع الواسعة والآثار البديعة التى تزين جانبى النهر، الزاخر بالحياة والسفن والقوارب مختلفة الأحجام والأشكال. لازمتهما الشمس حتى حان وقت غروبها، فاختفت وراء أسطح المنازل البعيدة، واستقرت خلف قبة المعهد. كان مشهد الغروب خلابا وساحرا، لم يسبق لهما أن رأيا غروبا بمثل هذه الروعة والجمال، انحدرت الشمس لتختفى وسط السحاب الذى تضرج بالحمرة بينما خرجت من خلاله أشعة ذهبية مذهلة. لم يتراء لهما من الماضى الذى ينشدونه سوى كآبة غريبة وشعور لا ينتهى بأن كل شىء يفر منفلتا من أيديهما، وأعجزتهما القدرة على اللحاق بركاب الحياة الذى يمر دون توقف. فتلك الحجارة العتيقة ما زالت

باردة كما كانت، وكلما استمر النهر فى جريانه، شعرا بأنه ينتزع جزءا منهما، بأنه يسرق منهما سحر الرغبة الأولى فى الحب، والسعادة التى يمنحها الأمل. فمنذ أن أصبح كلاهما ملكا للآخر، فقدا لذة عناقهما الحار كما فى الماضى، فسارا سويا فى هدوء واستسلام، وابتلعهما صخب الحياة الباريسية.

وصلا إلى جسر سانبير، وتوقف كلود فى يأس، ثم ترك ذراع كريستين، والتفت إلى الناحية الأخرى باتجاه بداية وسط المدينة. حزنت كريستين للغاية، لإدراكها مدى التباعد والانفصال الذى طرأ عليهما، فذهبت إليه لتناديه بعد أن لاحظت شروده التام: "هيا يا عزيزى!... لنعد إلى المنزل، فقد تأخر الوقت! إن جاك ينتظرنا كما تعلم."

ولكنه استمر فى السير حتى وصل إلى منتصف الجسر. تبعته، لتجده واقفا فى سكون وعيناه مثبتتان على وسط المدينة، التى هى مهد وقلب باريس كلها الذى ينبض منذ قرون ويضخ الدماء فى شرايين الضواحى التى لا تكف عن الزحف نحو السهول.

شعر بنيران تتصاعد إلى وجنتيه، واشتعلت عيناه بالحماسة، وقال لها: "انظرى! انظرى!"

ظهر أمامهما ميناء سان نيكولا بأكواخه الصغيرة التى تستخدم كمكاتب للملاحة النهرية، كانت ساحة الميناء شاسعة وقد زخرت بأكوام من الرمال والحقائب والأحمال، بينما أحاطت به سلسلة من القوارب الممتلئة عجت بمجموعات كبيرة من الحمالين الذين التفوا حول ذراع الرافعة العملاقة،

بينما بدا الجانب الآخر من المياه أكثر بهجة، حيث اصطفت مجموعة من الناس يسبحون فى المياه، وخفقت الأقمشة الرمادية التى تظلل الشاطئ بفعل الهواء، وفى المنتصف، يجرى نهر السين فى هدوء بأمواجه الخفيفة المتراقصة بألوانها المختلفة التى هى مزيج من الأزرق والأبيض والوردى. وفى الخلفية، بدا جسر الفنون بارتفاعه الشاهق وأعمدته الحديدية، وحركة المارة التى لا تنتهى، وكأنهم جيش من النمل يسير فى خط رفيع، وفى الأسفل يجرى نهر السين. كما تراءى من بعيد جسر بون نوف القديم الذى علاه الصدأ، إلى اليسار، انكشفت أمامهما جزيرة سان لويس، وحجب عنهما هويس لامونييه رؤية الأفق البعيد بسبب عوارضه الضخمة.

كانت الحافلات الصفراء المزينة تمر على بون نوف بانتظام آلى وكأنها لعب أطفال صغيرة.

وحدت ضفتا النهر المشهد كله، فعلى الضفة اليمنى، ظهرت منازل شبه مغطاة بالأشجار الكثيفة، وظهر فى المنتصف، جزء من مبنى البلدية والساعة المربعة التى تعلو مبنى سان جيرفيه، أما على الضفة اليسرى، فكان معهد الفنون الجميلة، وبجانبه واجهة الهويس المسطحة، وقد زينتهما صفوف الأشجار المتلاصقة بانتظام.

احتل وسط المدينة الصدارة، كان هو المحور الذى تدور حوله هذه اللوحة الضخمة، هذه المنطقة البديعة ذات الشباب المتجدد، والتى ستظل الشمس ترصعها بأشعتها الذهبية مدى الدهر. خلقت الشمس بأشعتها

وانعكاساتها الفاتنة تناقضا بين جانبى المدينة، فتختفى عن أحدهما، ناحية رصيف أورلوج، لتغرق منازله فى الظلمة، بينما تسطع بقوة على الجانب الآخر، ناحية رصيف أورفيفر، لتضىء منازله متفاوتة الأشكال والأحجام بقوة تجعل الأعين تلاحظ أدق التفاصيل فيهم، فتظهر للعين المتاجر واللافتات وحتى الستائر المعلقة على النوافذ.

وفى الخلف، برزت- من وراء البرجين- قبة كاتدرائية نوتردام بلونها الذهبى العتيق، وقبة كنيسة سان شابل بأناقتها ورقتها، بدتا يتمايلان مع الريح، مخترقتين السحاب فى شموخ، شاهدتين على عراقة المدينة.

قالت له كريستين برفق: "أستأتى معى يا عزيزى؟"

لم يعد كلود يسمعها، فقد استحوذ عليه المشهد وفتنه سحر المدينة وقد بدأت الظلمة تزحف إليها. فازدادت الأضواء والظلال، واتضحت التفاصيل بدقة وشفافية ضاعفت من روعتها نسمات الهواء العليلة التى كانت تهب من حين لآخر. بينما استمر هذا الزخم والنشاط الذى أضفى مزيدا من الحيوية على النهر وعلى الطرق والجسور على حد سواء وكأنهما موجة تضرب الشاطئ تحت أشعة الشمس المرتعشة. ثم هبت ريح خفيفة تحركت معها مجموعة من السحب الوردية فى وسط السماء، واستمرت الحركة الصاخبة البطيئة تجتاح الجميع شيئا فشيئا، لتبث فيهم تلك الروح الباريسية.

انتزعته كريستين من شروده وافتتانه العميق، فأمسكت بذراعه لتجبره على السير، وتملكها قلق وخوف دفين، وكأنها تبعده عن خطر محدق، فقالت: "هيا نعود إلى المنزل... فأنت لا تبدو على ما يرام... هيا أنا أريد العودة الآن!"

انتفض كلود عندما لمسته وكأنها أيقظته من سبات عميق، ثم التفت مرة أخرى ليلقى نظرة أخيرة على هذا المشهد الخلاب، متمتما: "يا إلهى! يا إلهى! ما أروع هذا!"

ثم استسلم لها وسارا فى اتجاه العودة. وظل طوال المساء، أثناء العشاء ثم وهما جالسان قرب المدفأة، وحتى خلدا إلى النوم، فى شرود وقلق، فلزم الصمت، وسرعان ما آثرت كريستين الصمت هى الأخرى، بعدما عجزت عن التسرية عنه ودفعه إلى الحديث. كانت ترمقه فى قلق، وراودتها بعض الأفكار المفزعة حول ما أصابه، هل هى بداية مرض خطير؟ أم أصابته لفحة هواء أثناء وقوفه فوق الجسر؟

شخصت عيناه التائهتان إلى الفراغ، واحتقن وجهه كمن يبذل جهدا داخليا، اختلطت فيه النشوة بالألم والغثيان، وكأن هناك كائنا صغيرا يولد فى أعماقه. كان الأمر يبدو عصيبا وأليما، شاقا ومتعبا، وفجأة انقشع كل هذا الهم الذى قض مضجعه، وراح فى سبات عميق بعد المعاناة الضخمة التى خاضها.

وفى الصباح، تناول إفطاره وخرج، بينما قضت كريستين يوما عصيبا. فبعد أن اطمأنت عليه وأبدت ارتياحها لزوال نوبة الأمس حين سمعته يدندن ببعض النغمات الفرحة، عادت مخاوف من نوع آخر تتهاوى على رأسها، وهى مخاوف أخفتها عنه خشية أن تقضى عليه. كان متبقيا أسبوعا كاملا على موعد تسلمهما للعائد السنوى، بينما أنفقت هى آخر مليم لإعداد الإفطار، فلم يكن هناك ما يكفى لشراء قطعة خبز واحدة للعشاء،

فماذا عساها الآن أن تفعل؟ وإلى من تذهب؟ وكيف ستخفى عنه هذا الأمر إذا عاد جائعا فى انتظار العشاء؟ عندئذ قررت أن ترهن الثوب الحريرى الذى أهدته لها السيدة فانزاد فى الماضى. بدت الفكرة عسيرة التنفيذ، خاصة وأنها ترتعد من الخوف والخجل لفكرة ماذا سيحدث إذا رآها أحد فى "بنك الرهونات"[١] الذى لم تطأه قدماها من قبل. لكن جزعها من المستقبل أعطاها القوة، فذهبت وحصلت على عشرة فرنكات، وقررت أن تكتفى عند عودتها بإعداد حساء من البقول ويخنة بالبطاطس.

وفجأة، بعد خروجها من البنك، التقت بشخص لم تتوقعه.

عاد كلود فى وقت متأخر، والبهجة تشع من وجهه ونطقت عيناه الصافيتان بنوع من الإثارة والسعادة الداخلية. كان يشعر بجوع شديد، حتى إنه غضب عندما عاد ولم يكن الطعام قد وضع بعد على الطاولة. ثم جلس كلود وسط كريستين وجاك، والتهم حساءه وطبقًا من اليخنة، ثم صاح: "ماذا؟ أهذا كل شىء؟ لماذا لم تضع قطعة لحم؟... أكان عليك أن تشترى حذاء جديدا"؟

شعرت كريستين بأنها جرحت بسبب اتهاماته الظالمة، فتلعثمت ولكنها أمسكت لسانها عن قول الحقيقة، بينما تمادى كلود فى مزاحه متعجبا من كم الأموال التى تنفقها على شراء بعض الأغراض التافهة. وتملكته رغبة أنانية فى الاحتفاظ لنفسه بتلك المشاعر المحتدمة، فصاح غاضبا فى جاك: "اصمت! يا لك من طفل مزعج! يا إلهى إنه لا يكف عن مضايقتى!"

---

(١) بنك الرهونات: Mont-de-piete: مكان يقوم بتسليف الفقراء مقابل رهن بسيط وبفائدة معقولة.

كان جاك قد انشغل عن طعامه باللعب بالملعقة، فكان يخبط بها طرف الطبق مستمتعا بالأصوات التى يحدثها.

وعلى الفور، صرخت فيه كريستين هى الأخرى: "التزم الصمت يا جاك! دع والدك يأكل فى هدوء!"

عاد جاك إلى هدوئه وغرق ثانية فى سكونه المقبض، مركزًا ناظريه فى حزن على طبق البطاطس الذى أمامه دون أن يأكله.

حاول كلود أن يسد جوعه بالتهام بعض الجبن، بينما قالت كريستين فى أسى أنها ستذهب لشراء قطعة لحم وتعود سريعا. ولكن كلود رفض ومنعها بعبارات أضافت-إلى حزنها أحزانا أخرى.

ثم جلس ثلاثتهم حول المدفأة كعادتهم كل مساء، وانهمكت كريستين فى الحياكة، بينما جلس جاك فى صمت يتأمل كتابًا مليئًا بالصور، أما كلود فمكث ينقر بأصابعه لمدة طويلة، وقد غاص فى أفكار عميقة حول لوحته، والمشهد الفاتن الذى خلب لبه. فنهض على الفور، وأحضر ورقة وقلمًا وعاد ليجلس مرة أخرى، وأخذ يضع بعض الخطوط الأولية مستغلا الإضاءة القوية المنبعثة من المصباح. كان يرسم من الذاكرة، محاولا التعبير عن زخم الأفكار التى تتصارع داخل رأسه، ولكن هذا الرسم الأولى، لم يستطع أن يريحه ويرضيه، فانهمك مستبسلاً فى العمل، مغمغمًا بكل ما يعصف بتفكيره، فانهال فيض من العبارات على كل من حوله دون رادع، فلو لم تكن كريستين موجودة ليحدثها، للجأ إلى الجدران، فمضى يقول لها: "أترين؟ إنه المكان الذى كنا فيه

بالأمس!... إنه رائع أليس كذلك؟ لقد قضيت هناك اليوم ثلاث ساعات لأدرس العمل جيدا! ... انظرى! سأقف أسفل الجسر وسيتصدر ميناء سان نيكولا اللوحة بقواربه وسفنه التى انشغل الحمالون بتفريغ شحناتها. أتفهمين قصدى؟ أريد أن أصور باريس وهى فى خضم العمل، بعمالها الأقوياء عراة الصدر والذراعين... وعلى الجانب الآخر، يظهر الشاطئ، حيث يلهو الناس، وكأنها باريس أخرى غير الأولى. ويتوسط هذا الجانب من اللوحة زورق صغير، ولكننى لم أستقر بعد، فمازلت أبحث... وأخيرا، نهر السين الواسع العريض يتوسط اللوحة كلها..." كان يرسم أثناء حديثه، واضعا الحدود بخطوط قوية واضحة، ويعيد رسم بعض الملامح السريعة عشرات المرات، حتى أبلى الورقة، وكأنه يبث فيها كل طاقته. فى تلك الأثناء، انحنت كريستين لترى اللوحة وتظاهرت، بدافع العطف والحنان، بالاهتمام بشرحه وتفسيره للوحة، على الرغم من عجزها عن التمييز بين الخطوط المتشابكة التى تداخلت فى فوضى عارمة اختفت فيها التفاصيل.

فقال لها: "أفهمتى ما أعنيه؟"

فقالت: "بالطبع! ستكون لوحة جميلة!"

فأجاب: "خلفية اللوحة هى التقاء النهر مع رصيفى الميناء، ليظهر وسط المدينة فى المنتصف فى شموخ وانتصار يخترق السماء... ستكون الخلفية رائعة! فهى لا تعدو كونها مشهدا يوميًا، نمر به دون أن نعيره التفاتا، ولكنه يتسلل إلى أعماقك، وينمو داخلك هذا الإعجاب دون أن تدرى، ليتجلى

فجأة وفى أبهى صورة فى يوم ما! لا يوجد بالفعل ما هو أعظم من هذا! إنها باريس نفسها وقد ألبستها الشمس حللا بهية عظيمة... ألم أكن أحمق طوال هذا الوقت لأنها لم تخطر لى على بال؟ فكم مرة مررت بهذا المشهد دون أن أراه!... أتذكرين كيف تسطع الشمس خلف برجي نوتردام وقبة سان شابل وتضفى عليهما رشاقة بديعة... دعينى أريك..."

وعاد مرة أخرى إلى عمله، وعكف على إعداد اللوحة دون كلل أو ملل، معتنيا بأدق التفاصيل حتى لو اضطر إلى إعادتها عشرات المرات، منهمكا فى تجهيز بعض الأوراق يرسم بها بعض التفاصيل والسمات التى لمحتها نظرته كفنان، مثل اللافتة الحمراء التى علقها أحد المتاجر البعيدة، أو ركن صغير فى السين، وقد مال لون مياهه إلى الخضرة، حيث طفت على السطح بعض بقع الزيت، أو شجرة ذات لون رقيق، وخلفها درجات الرمادى لواجهات المنازل التى تعلوها دفقات الإضاءة القوية المنبعثة من السماء. وافقته كريستين بلطف وكياسة على آرائه، بل أظهرت له مدى انبهارها بعظمة أعماله.

فى تلك الأثناء، مل جاك الصمت بعد أن جلس طويلا مستغرقا فى كتابه متأملا صورة قطة سوداء، فبدأ يتغنى بكلمات من تأليفه بصوت خافت: "القطة الجميلة! القطة الشريرة! القطة الجميلة الشريرة!" وهكذا إلى مالا نهاية على نفس الوتيرة البائسة.

فى البداية، لم يدر كلود سبب هذا الطنين المزعج، وامتلأت أذناه من أغنية جاك التى لا تنتهى، فصاح بعنف: "ألم تنته من إزعاجنا أنت وقطتك؟"

فقالت كريستين: "اسكت يا جاك حين يتكلم والدك!"

أضاف كلود: "اقسم أنه أحمق!... حتى رأسه ينم عن قدر غباوته!... لقد تعبت... قل لى ماذا تريد أن تقول عن قطتك الجميلة والشريرة؟"

امتقع وجه الصغير، وهز رأسه الضخم وقال فى ذهول: "لا أعلم"

تبادل كلود وكريستين النظرات فى صمت يائس ومحبط، بينما أخفى جاك وجهه بين صفحات الكتاب ومكث دون حراك أو كلام.

تأخر الوقت، وأرادت كريستين أن تجعل كلود يخلد إلى النوم، ولكنه استأنف حديثه عن اللوحة، مؤكدا أنه سيذهب منذ الغد ليضع الرسم الأولى على الطبيعة ليدعم ويثبت أفكاره. وأعلمها بأنه سيبتاع حاملاً صغيرًا للرسم، طالما حلم باقتنائه، وزاد إصراره وحديثه عن النقود من اضطرابها، حتى اعترفت له فى النهاية بكل شىء، وبقيامها برهن الثوب الحريرى مقابل الطعام. تملكه فجأة مزيج من الندم والرقة، فقبلها وطلب منها أن تصفح عن تذمره أثناء الأكل. لم تستطع سوى أن تسامحه، فهى تعلم، أنه إذا ما تملكت منه تلك اللوحة يكون على استعداد للتضحية بكل شىء، حتى بوالديه، كما كان يقول دائما، فالتمست له العذر. بينما أغرب كلود فى الضحك من فكرة بنك الرهونات، ومن اضطرارهم للجوء إليه، كان الضحك هو وسيلته لتحدى البؤس ومواجهة الألم والمعاناة القادمة. وقال: "أؤكد لك أن كل هذا سينتهى قريبا! فأنا واثق أن هذه اللوحة ستحقق النجاح المنشود!"

أما هى فلاذت بالصمت، وتذكرت هذا اللقاء غير المتوقع أمـــام بنـــك الرهونات، لم تكن ترغب فى أن تحدثه عنه، ولكن الكلام خرج من شـــفتيها رغما عنها دون سبب واضح، ربما لتتخلص من السر الـــذى أغرقهـــا فـــى الحزن: "لقد ماتت السيدة فانزاد."

اندهش كلود: "ماذا؟ وكيف عرفت؟"

- "التقيت اليوم خادمها القديم... أصبح يبدو كأحد النبلاء الآن علـــى الرغم من شيخوخته! لم أعرفه فى البداية، وإنما جاءنى هو ليـــتكلم معى ... ماتت منذ ستة أسابيع، وآلت ملايينها إلى الملاجئ، بينما تركت عائدا مخصصا لخادميها يكفل لهما حياة لائقة."

كان يتأملها وهى تحكى، ثم غمغم بصوت حزين: "أنت نادمـــة علـــى تركك لها، أليس كذلك يا عزيزتى؟ نعم يا كريستين فبالتأكيد كانت ستخصص لك مبلغا من المال، وستعنى بتزويجك كما قلت لك فـــى البدايـــة، قبـــل أن تتركيها. وربما كانت ستجعلك وريثتها، ولم تكونى لتتضورى جوعا، مثلمـــا الحال وأنت تعيشين مع شخص مختل مثلى."

انتبهت إلى كلماته، فقربته منها بعنف وأمسكت بذراعه وارتمت فـــى أحضانه، وانتفض كل كيانها احتجاجا على ما سمعته، ثم قالت: "ماذا تقول؟ أبدا! أبدا... إنه لشىء مشين أن تظن أننى كنت أفكر فى أموالها! سأقول لك الحقيقة، أنا نفسى لا أعلم ماذا اعترانى عند سماع نبأ وفاتها، ولكننى شعرت بأنه زلزل كيانى وأصابنى بحزن وتعاسة! نعم إنها التعاسة وتأنيب الـــضمير

لقيامى بتركها فجأة وهى العجوز الضعيفة التى كانت تدعونى ابنتها! أشعر بأننى أسأت التصرف، فلو كنت طلبت الرحيل لما منعتنى، أنا متيقنة من ذلك! ولكن ها كل شيء قد انتهى الآن."

تهدج صوتها، وامتلأت عيناها بالدموع التى تدفقت تعبيرا عن ندمها وأسفها، الذى خالطه دون أن تدرى شعور بأن حياتها لن تتحسن، وأنه لم يعد بانتظارها سوى الألم والمعاناة.

فقال لها وقد غلبته الرقة: "امسحى عينيك! لم يسبق لى أن رأيتك فى مثل هذه الحال! فلم تكن من شيمك أن تخلقى لنفسك أوهاما لتعذبى بها ذاتك دون مبرر!... أقسم لك أننا لن نظل فى هذه الحال. أتعلمين أنك السبب فى عثورى على موضوع للوحتى الجديدة؟ فأنت من تجلب لى حسن الحظ، وليس البؤس كما تدعين!"

ضحك، وحركت هى رأسها مقدرة محاولاته لإضحاكها، ولكن اللوحة لم تكن من الأشياء التى تسعدها، فهى لم تنس أنه نسيها فوق الجسر وقد أصابه نوع من الجنون أمام ما رآه، فتركها كما لو أنها لم تعد ملكا له، وشعرت منذ اليوم التالى، بأنه يبتعد عنها تدريجيا لينخرط فى عالم آخر، عالم بعيد يصعب عليها بلوغه. ولكنها استسلمت لمحاولاته الجاهدة للتسرية عنها، ثم تبادلا قبلة قوية وصادقة حملت إليهما مشاعر الماضى، ثم نهضاليناما.

فى تلك الأثناء، ظل جاك ساكنا فى خمول تام، حتى إنه لم يسمع شيئا من الحديث الذى دار بين والديه، فاستغرق فى النوم، بينما أضفى المصباح

شحوبا وامتقاعا على رأسه الضخم المجرد من الذكاء، الذى كان يسبب له آلاما فى رقبته من فرط ثقله. فجاءت كريستين وحملته إلى غرفته وهو غارق فى سبات عميق.

راودته لأول مرة فكرة الزواج من كريستين، مستسلما لنصائح صاندوز الذى طالما تعجب من رفضه غير المبرر للزواج. كان يكمن وراء هذا القرار دافع آخر، هو شعوره بالشفقة تجاهها وحاجته إلى إظهار مدى طيبته بما سيجعلها تصفح عن أخطائه الكثيرة.

فقد مر وقت طويل، وهو يرى حزنها يزداد وقلقها من المستقبل يتضاعف، ولكنه ظل عاجزا عن إسعادها. فكيف يسعدها وقد اغتم قلبه وعاودته نوبات الجنون الغاضبة القديمة التى تدفعه إلى إساءة معاملتها أحيانا؟

شعر أنها حينما تصبح زوجته، ستشعر بمزيد من الطمأنينة والارتياح، وسيتضاءل قدر معاناتها معه. لم تتطرق كريستين قط إلى موضوع الزواج، وكأنها انفصلت عن العالم والمجتمع لتعيش فى صمت وسكون، ولكن كلود كان يعلم مدى حزنها الخفى لعدم استطاعتها الظهور معه فى لقاءات صاندوز، كما أنهما لم يعودا يقطنا فى الريف، حيث الحرية والوحدة، وإنما فى باريس، أى فى خضم الحياة الاجتماعية، حيث تصبح المرأة التى تعيش مع رجل دون زواج محور أحاديث الجيران ونظراتهم الجارحة.

لم يكن يحمل ضد فكرة الزواج سوى بعض التحفظات النابعة من حياته كفنان جامح الخيال، يسعى وراء الحياة الحرة الطليقة. لكن مادام يحبها، ولن يتركها مهما حدث، فلماذا لا يسعدها ويمنحها الحق فى حياة لائقة شريفة؟

وعندما فاتحها برغبته فى إتمام الزواج، ندت عنها صرخة فرح وارتمت على عنقه، مندهشة من فرط سعادتها وانفعالها. وبالفعل انقضى أول أسبوع فى سعادة غامرة، فترت تلقائيا حتى قبل موعد الزواج.

لم يتعجل كلود فى إنهاء الرسميات، وطال انتظارهما للأوراق المطلوبة. فى تلك الأثناء، استمر كلود فى تجميع التفاصيل التى سيضعها فى لوحته، ولم يبد على كريستين هى الأخرى أى تلهف للتعجيل بالزفاف. فما فائدة العجلة، وهى لن تغير شيئًا فى حياتهما اليومية؟

قررا الاكتفاء بتوثيق زواجهما فى مبنى البلدية، ليس بدافع رفضهما أو عدم اعتدادهما بالدين وطقوسه، وإنما رغبة فى تبسيط وتسهيل الأمور. أحرجتهما مسألة الشهود قليلا، خاصة وأنها لا تعرف أحدا غيره. فقرر كلود أن يجعل شاهديها هما صاندوز وماهودو، وإن كان فكر فى البداية فى دوبوش، ولكنه تراجع، خاصة وأنه لم يعد يراه، فخشى أن يسبب له أى حرج. واتخذ هو جورى وجانيير شاهدين. وهكذا اقتصر الأمر على الأصدقاء، ولم يعد أحد يتطرق إلى هذا الموضوع.

مرت عدة أسابيع، وحل شهر ديسمبر ببرودته القارسة. وعشية الزواج، فكر كلود وكريستين فى أنه ليس من اللائق صرف الشهود دون أى احتفال، لكنهما لم يريدا إحضار الجميع إلى المرسم تجنبا للفوضى. وعلى الرغم من الضائقة المالية، فلم يتبق معهما سوى خمسة وثلاثين فرنكا، قررا دعوتهم على الغداء فى أحد المطاعم الصغيرة فى شارع كليشى، ثم يعود كل منهم بعد ذلك إلى منزله.

فى الصباح، انهمكت كريستين فى تثبيت ياقة جديدة لثوبها الرمادى الصوفى، رغبة منها فى التأنق قدر الإمكان استعدادا للمناسبة، بينما أخذ كلود يخطر ذهابا وإيابا فى المنزل، مرتديا سترته. وبعد أن أصابه الضجر من الانتظار، فكر أن يمر على ماهودو ليصطحبه، متذرعا بأن هذا الأحمق قد ينسى الموعد. كان ماهودو قد انتقل منذ الخريف الماضى للإقامة فى مرسم صغير فى شارع تيول فى مونمارتر بعد سلسلة من المآسى التى قلبت حياته رأسا على عقب: فقد طرد، لعدم قدرته على سداد الإيجار، من متجر الفاكهة الذى كان يقيم فيه فى شارع شارش ميدى. ثم وقعت القطيعة النهائية بينه وبين شاين الذى دفعه اليأس من فنه ولوحاته، إلى الانغماس فى المغامرات التجارية، مترددًا على المعارض فى ضواحى باريس عارضًا خدماته لحساب أرملة عجوز. وأخيرا، اختفاء ماتيلد بعد أن باعت دكان العطارة. لعلها الآن حبيسة لدى أحد الرجال ذوى النزوات! وهكذا فقد انتهى الحال بماهودو وحيدا فقيرا لدرجة البؤس، معتمدا على تزيين بعض الواجهات، أو تعديل تماثيل بعض زملائه لكسب عيشه.

قال كلود لكريستين: "سأذهب لأحضره، لا يزال أمامنا أكثر من ساعتين قبل الموعد... وإذا جاء أى من الباقين، اجعليه ينتظرنا لنذهب سويا إلى هناك."

فى الخارج، كان الطقس شديد البرودة، حتى اكتسى شاربه بقطرات من البرد، فأخذ يحث خطاه. كان منزل ماهودو يقع فى وسط المدينة، فاجتاز

كلود عدة حدائق صغيرة مكسوة بالثلوج، بدت عارية كئيبة كالمقابر. ومن بعيد، رأى تمثال جانية العنب الضخم، الذى حقق نجاحا باهرا فى المعرض، وقد بدت حزينة بعد أن نقشت فى وجهها دموع سوداء ثقيلة من جراء المطر، كان ماهودو قد وضع تمثاله على باب منزله، فلم يكن من الممكن إدخاله فى القبو الضيق لئلا يفسد أو يتكسر. كان المفتاح موضوعًا فى الباب، فدخل كلود.

تفاجأ ماهودو: "ماذا؟ أأتيت لتحضرنى؟ ولكنى كنت على أتم الاستعداد، لا ينقصنى سوى أن أضع قبعتى..."

كان المنزل أشد برودة من الخارج. فقد قرر ماهودو منذ أكثر من أسبوع توفير الفحم اقتصادًا فى النفقات، خاصة وأنه أصبح معدما، فلم يعد يشعل المدفأة سوى ساعة أو اثنتين فى الصباح. كانت الورشة الجديدة أشبه بالسرداب، فبدا المتجر القديم الذى كان يقطنه قمة الرفاهية مقارنة بها. فالجدران خالية تماما، وقد نضح السقف ببرودة تشبه الأكفان. وفى الأركان، تكدست مجموعات التماثيل الجميلة التى عرضها، ولكنها عادت إليه مرة أخرى، دون أن يشتريها أحد. وضعها فى صف، وقد أدار وجوهها للحائط، وتهشمت بعض أجزائها، بينما غطى التراب والطين الأجزاء الباقية. وهكذا اصطفت تلك الوجوه البائسة لأعوام أمام أعين صانعها الذى أعطاها من روحه ومن حياته، فاحتفظ بهم فى البداية بغيرة العاشق، حتى سقطوا فى بحر الإهمال والنسيان، وجاء اليوم، الذى أحضر فيه ماهودو مطرقته وانهال عليها تحطيما ليخلص نفسه من عذاب رؤيتها.

ثم سأله ماهودو: "لا يزال أمامنا ساعتان، أليس كذلك؟ إذًا لدينا متسع من الوقت لإيقاد المدفأة قليلا..."

فسأله كلود: "كيف يسير العمل؟ أتتقدم فى تمثالك الجديد؟"

– "لولا البرد الفظيع لكنت أنهيته. سأريه لك."

فنهض من أمام المدفأة، واتجه إلى المنتصف، حيث وضعت قاعدة صنعها يدويا، وانتصب فوقها تمثال مغطى بالأقمشة القديمة المتصلبة من شدة البرودة وكأنها أكفان. كان هذا التمثال هو حلمه الحقيقى، الذى لايزال عاجزا عن إكماله لضيق ذات اليد، وهو عبارة عن تمثال لامرأة واقفة، وقد نسخ عنه عشرات النماذج الصغيرة التى تكدست حوله لأعوام طويلة. وفى لحظة من الثورة والتمرد، قرر بدء العمل فيه، فصنع بنفسه الهيكل الرئيسى مستخدما عصى المقشات، مستبدلا الحديد بالأخشاب. فكان من وقت لآخر، يحاول هزها ليختبر صلابتها، وبالفعل لم تكن تتزعزع.

فغمغم ماهودو وهو يزيل الأقمشة التى تفتت بين يديه كالثلج المنثور: "عجبا! كم هى متحجرة! قليل من النار سيفيدها."

انتظر قليلا حتى ارتفعت حرارة الغرفة، ومضى يزيل الأقمشة مرة أخرى بحرص متناه، بدءا بالرأس، ثم الصدر، ثم الأرداف... وقد بدت عليه الفرحة للاطمئنان عليها كمحب يتلهف لرؤية معشوقته.

فقال: "ما رأيك؟"

سكت كلود قليلا محركا رأسه، فلم يكن قد رآها منذ أن كانت مجرد تخطيط مبدئى على الورق. ثم تساءل فى نفسه أغلبت الرقة على أعمال ماهودو الطيب رغما عنه، فلم تعد أصابعه القوية تنتج سوى الأشياء الرقيقة والبسيطة؟ فمنذ تمثاله المهيب "جانية العنب"، بدأ حجم أعماله.فى التضاؤل دون أن يشعر، فاكتفى بالحديث عن الطابع العنيف لأعماله، بينما استحوذت الرقة والعذوبة التى تنطق بهما عيناه على فنه، فتحولت النهود العملاقة إلى أخرى طفولية، والأفخاذ الممتلئة إلى أخرى رشيقة أنيقة. ألعله انتصار الطبيعة والحقيقة على اندفاع الطموح؟ وكانت المرأة الجديدة، على الرغم من المغالاة التى ما زالت تبدو فى بعض مفاتنها، تشع سحرا وفتنة بكتفيها الصغيرتين ويديها المضمومتين لتغطى نهديها الرائعين اللذين امتزجت فيهما الرغبة بالبؤس والألم والعفة على حد سواء. فقد جعل منها جسدا حيا فائرا اضطربت له حياته كلها.

فقال ماهودو فى حزن: "إنها لا تعجبك، أليس كذلك؟"

- "لا، لا!... إنها تعجبنى بالطبع، وأفضل شىء فى اعتقادى هو قيامك بتخفيف حدة وعنف العمل، مادام هذا هو إحساسك. بالطبع سيحوز هذا التمثال على إعجاب الجميع."

غمرت السعادة ماهودو عند سماع هذا المديح، الذى كان يدهشه فى الماضى، وأوضح لكلود أنه يرغب فى نيل إعجاب الجمهور دون التخلى عما يؤمن به، واستأنف: "لا تعلم كم أسعدنى إعجابك به! فما كنت أرفض تحطيمه

إذا قلت لى أن أحطمه! أقسم لك!... لا يزال أمامى أسبوعان من العمل، وبعد ذلك سأفعل المستحيل لأحضر المقولب[1] ... قل لى أستلقى النجاح فى المعرض؟ أم لعلها ستؤهلنى لنيل ميدالية؟"

وانفجر ضاحكا فى حماس، وبعدها قال: "مادمنا لسنا متعجلين، فأجلس قليلا... سأنتظر فقط، حتى تزول الثلوج عن الأقمشة."

تصاعدت السخونة من المدفأة، حتى بدت المرأة كمن تبعث فيها الحياة من جديد. بينما جلس كلود وماهودو أمامها يرمقانها ويتحدثان عنها، وعن كل تفصيلة فى جسدها، وقد اشتعلت حماسة ماهودو الذى سلط عليها نظراته الحانية كمن يدللها من بعيد.

فى تلك الأثناء، تراءت لكلود المشدوه بجذعها وبطنها بعض الهلاوس، فقد رآها تتحرك وقد سرت فى جسدها رعشة خفيفة وكأنها ستخطو بقدمها اليمنى إلى الأمام.

استغرق ماهودو فى شرحه دون أن يلحظ شيئا مما رآه كلود: "إنها كل ما حلمت به يا عزيزى! انظر إلى بشرتها الناعمة كالحرير!"

ثم تحرك التمثال كله شيئا فشيئا، فانتفض حقواها، وامتلأ صدرها المختفى تحت ذراعيها بتنهيدة قوية، وانحنى الرأس فجأة وتهاوت أفخاذها. كانت سقطة مفزعة ومخيفة! وكأنها صرخة أليمة تنبعث من امرأة تتهاوى وتتداعى بقوة!

---

(١) المقولب: Mouleur : عامل يفرغ مصنوعات النحات فى قوالب. (المترجمة)

فهم كلود ما حدث عندما اخترقت مسامعه صرخة ماهودو: "يا إلهـى! إنها تتداعى! لقد تحطمت تماما!"

ازداد ثقل الكتل الطينية المكونة للتمثال مع ذوبان الثلج، فلم يَقدر الهيكل الخشبى على حملها، فحدث هذا الانهيار الرهيب، وكأنها عظام بشرية تتحطم!

هرع ماهودو، بلهفة العاشق الذى كان يداعب محبوبتـه مـن بعيـد، ليتلقاهـا بـين ذراعيـه، معرضـا حياتـه للخطـر. تمايلـت للحظـة، ثم تهاوت فجأة على وجهها، بينما ظلت قدماها مثبتتين فى المنصة.

وثب عليه كلود ليبعده من أمامها: "ماذا بك؟ أجننت ستسحقك تحتها!"

أما هو، فظل فاتحا ذراعيه، وكيانه كله ينتفض لرؤيتها وقد انتهى بها الحال على الأرض، فظل واقفا ليتلقاها بين أحضانه، فسقطت عليـه كمـن تستلقى فوقه، وقد انفصل رأسها عن باقى الجسد واستقر فى الأرض. كانت السقطة عنيفة حتى أطاحت به نحو الحائط وظل متشبثا بجذعها كالتائه.

صرخ كلود: "اللعنة!" وركض ليراه، ظانا أنه مـات. بينمـا خـرج ماهودو بصعوبة وجثى على ركبتيه ينتحب. لم تصبه السقطة، سـوى فـى وجهه، الذى تلطخ بالدماء الممزوجة بالدموع.

- "اذهبى! اذهبى يا ضحية فقرى وبؤسى!... لم تنهَره بسبب المياه، وإنما بسبب عجزى عن شراء عارضـتين لتثبيتهـا... وهـاهى النتيجة!..."

ازداد نحيبه واختلط بالحسرة والألم المميت الذى لمحب يقف أمام جثمان محبوبته المحطم. امتدت يداه الشاردتان تتحسسان أجزاءها المتناثرة حوله، الرأس والجذع والذراعين المهشمتين وصدرها المشوه، فاجتاحه حزن خانق فاق احتماله، وتقاطرت دموعه الدامية على جسدها المهشم.

ثم صاح فى كلود بصوت متهدج: "ساعدنى! لا يمكننى أن أتركها هكذا."

اشتد انفعال كلود، واغرورقت عيناه بالدموع، وهرع لمساعدة صديقه. ولكن ماهودو بعد أن طلب مساعدته، أراد أن يدعه وحده ليجمع هذه الأشلاء خوفا من أن يمسها أحد غيره. فخر على وجهه يجمع ببطء قطعة قطعة ليضعها على القاعدة، حتى اكتملت وعادت كما كانت، ولكنها كانت تشبه، ضحايا قصص الحب الفاشلة اللاتى يلقين بأنفسهن من أعلى أى مبنى، فيتحطمن، ثم يعاد تجميعهن بصورة مضحكة ومؤلمة قبل دفنهن مع الجثث مجهولة الهوية.

لم يرفع عينيه عنها كمن يستغرق فى تأملات روحانية، ثم خف نحيبه، وقال وهو يتنهد: "ليكن! سأجعلها تستلقى!... يا امرأتى العزيزة! لن تتخيل مدى المشقة التى لاقيتها لأجعلها تقف هكذا منتصبة، كنت أعتقد أنها عملاقة!"

تذكر كلود الزواج، واشتد به القلق، فعلى ماهودو الآن أن يبدل ثيابه، ولكنه لم يكن يمتلك سوى سترة واحدة. فاكتفى بارتداء معطف مختلف، ثم غطى تمثاله بالأقمشة، كمن يلف الميت بأكفانه، ومضى الاثنان. استمرت المدفأة تعمل، وامتلأت الورشة بالمياه، بعد أن ذابت الثلوج وتلطخت التماثيل المكسوة بالأتربة بالبقع الطينية اللامعة.

لم يكن فى مرسمه بشارع دواى سوى جاك الذى تركوه فى رعاية الحارسة، فبعد أن ملت كريستين الانتظار، ذهبت مع الثلاثة شهود الآخرين، بعد أن اعتقدت أنها أساءت فهم كلود، فربما عنى أنه سيحضر ماهودو ويذهبان مباشرة إلى هناك. وهكذا أسرع كلود وماهودو حتى لحقا بكريستين والأصدقاء عند شارع درووو أمام البلدية. صعدوا سويا، بعد أن وبخهم أحد العاملين بسبب التأخير.

تم الزواج فى عدة دقائق فى إحدى القاعات الفارغة، وجرت الطقوس سريعًا، بينما انشغل الشهود فى انتقاد القاعة. أمسك كلود بذراع كريستين وخرج الجميع.

تحسن الطقس قليلا، فسار الجميع بهدوء باتجاه المطعم فى شارع كليشى، حيث كان هناك حجز مخصص لهم. كان المكان شديد الألفة والود، وهناك لم يتطرق أحد إلى موضوع الزواج، وإنما تحدثوا بشأن موضوعات أخرى، وكأنهم فى أحد لقاءاتهم العادية.

كانت كريستين مهتاجة المشاعر والانفعالات فى ذلك الوقت، ولكنها تصنعت الهدوء واللامبالاة، وأمضت ثلاث ساعات تنصت لآراء زوجها وأصدقائه حول تمثال ماهودو متناولين التفاصيل كافة. اندهش صاندوز من تلك الحادثة الغريبة، بينما تعرض جانيير لصلابة الهياكل. كان صاندوز مشفقا على ماهودو، خاصة وأنه لم يكن يتحمل أى خسائر مادية أخرى، بينما حاول جانيير تعريفه بوسائل مختلفة للحفاظ على ثبات التماثيل.

بدا ماهودو مهزوزًا مشدوهًا وهو يستمع إلى تحليلاتهم للحادث، ثم بدأ يشعر بألم شديد كان غافلاً عنه، فبدأت أطرافه وعضلاته تؤلمه بقوة، وحاولت كريستين أن تطهر له آثار الجروح التى فى وجهه، والتى أخذت تنزف ثانية.

وللحظة، شعرت وكأن المرأة التى تحطمت جالسة معهم على نفس الطاولة، وقد أصبحت وحدها محور أحاديثهم ومحط أنظارهم، فلم يكن كلود يتحدث سوى عنها، ولم يكف عن تأكيد فرط انفعاله وتأثره لرؤية هذا الصدر وهذه الأرداف الرائعة تتحطم أمامه وتتهاوى تحت قدميه.

جاءت التحلية، وانتقل جانيير إلى موضوع جديد، حينما سأل جورى: "بالمناسبة، لقد رأيتك مع ماتيلد يوم الأحد، كنتما سائرين فى شارع دوفين..."

احمر وجه جورى، وحاول أن يكذب، ولكن فضحه التواء فمه واضطراب أنفه، فأخذ يضحك كالأبله، ثم قال: "كان مجرد لقاء عابر، أقسم لكم!... أنا لا أعلم حتى أين تسكن، ولو علمت لقلت لكم."

فصاح ماهودو: "أأنت من تخفيها؟... هيا احتفظ بها فلن يطالبك بها أحد منا!"

كان جورى قد تخلى عن قليل من حرصه وبخله، واستأجر لماتيلد حجرة صغيرة لتقيم فيها. كانت تسحره برغباتها التى لا تعرف الارتواء، واستقر معها تقريبا، وهو الذى كان يرفض الإنفاق على متعته، مفضلا اللقاءات العابرة فى الطرقات.

فقال صاندوز، فى تسامح شبه فلسفى: "على الكل انتهاز الفرص والاستمتاع بها أينما وجدها."

ولم يكن من جورى سوى أن أجاب ببساطة وهو يشعل سيجاره: "حقا! هذا صحيح."

خيم الظلام، فنهض الجميع، ثم اصطحبوا ماهودو إلى منزله ليخلد للنوم. عاد كلود وكريستين، وصعدا إلى المرسم بعد أن أحضرا جاك. عند عودتهما، كان المرسم شديد البرودة غارقًا فى ظلام دامس، ومكثا يتحسسان طريقهما طويلا لبلوغ المصباح. ثم أشعلا المدفأة، وجلسا ليستريحا، والساعة تدق السابعة. اضطرا إلى تناول الطعام مرة أخرى، على الرغم من أنهما لم يكونا جائعين، لتشجيع جاك على تناول حسائه، ثم أدخلاه لينام، وعادا ليجلسا سويا إلى جوار المصباح كعادتهما كل مساء.

لم تستطع كريستين حياكة أى شىء من فرط الإرهاق، فجلست تتأمل كلود، الذى هرع على الفور ليستكمل رسم أحد الأركان فى لوحته، الذى يصور العمال فى ميناء سان نيكولا وهم يفرغون شحنات السفن.

فى وسط شرودها، تدافعت إليها فجأة دفقات قوية من الذكريات ممتزجة بالندم، وتملكتها تدريجيا تعاسة قاتمة وألم بالغ أمام الإهمال والوحدة التى أصبحت مصيرها حتى وهى معه قريبة منه. كان يجلس أمامها على نفس الطاولة، ولكنها شعرت بمقدار ابتعاده، فهو ليس معها، وإنما هناك أمام المدينة التى سحرته، بل ربما أبعد من هذا، أمام هذا الفن المطلق، الكمال الذى يستحيل بلوغه! لكم ابتعد عنها، فاستحال عليها اللحاق به!

حاولت أكثر من مرة أن تفتح مجالا للحديث، دون أن تلقى منه أى رد أو جواب. مرت الساعات، حتى سئمت الجلوس، فأخذت حافظة النقود لترى ما تبقى.

- "أتعلم كم يتبقى معنا من نقود؟"

لم يجب، أو يرفع رأسه.

- "لدينا تسعة مليمات... يا للحظ التعس!"

حرك كتفه فى لامبالاة، ثم اهتاج فجأة وقال: "كفى، دعك من هذا! قلت لك إننا سنصير أغنياء!"

ثم ساد الصمت ثانية، ولم تحاول معاودة الكرة، فجلست صامتة تتأمل المليمات التسعة.

جاء منتصف الليل، وأرهقها الانتظار والبرد، فسألته بصوت منخفض: "ألم يحن موعد النوم؟ لقد تعبت."

كان منهمكا فى عمله فلم يسمعها، فكررت: "هيا، لقد انطفأت المدفأة، سنمرض إذا بقينا هنا! هيا إلى النوم."

اخترقت عباراتها المتوسلة أذنيه، فانتفض فجأة فى هياج: "اذهبى لتنامى إذا أردت!... ألا ترين أننى أعمل."

وقفت للحظة فى ذهول من ثورته الغاضبة، وارتسمت ملامح الحزن والألم على وجهها. وشعرت بأنها تزعجه، وكأن مجرد وجودها يخرجه عن

طوره، فنهضت وذهبت لتنام تاركة باب الغرفة مفتوحا. مرت نصف الساعة، ثم ربع ساعة أخرى، ولم يعد يسمع لها صوتاً، ولكنها لم تنم، فتمددت على ظهرها تتأمل الظلام، حتى استجمعت قواها، ونادت عليه مرة أخرى: "إننى أنتظرك يا عزيزى... من فضلك، يا حبيبى تعال لتنام."

ولكنه لم يجب، وسمعته يسب فى غضب أمام لوحته. ثم خيم الهدوء، فظن أنها نامت.

كان الجو يزداد برودة فى المرسم، بينما تصاعد لهب خفيف من المصباح. وظل منكبا على عمله، غير عابئ بمرور الوقت.

نحو الساعة الثانية، قام كلود رغما عنه، بعدما نفد الزيت من المصباح فأوشك على أن ينطفئ، فأحضره إلى الغرفة كيلا يبدل ثيابه فى الظلام. ازداد استياؤه عندما دخل ليجد كريستين مستيقظة: " ماذا ألم تنامى بعد؟"

– " لم أستطع النوم."

– "أتلومينني الآن؟ ألم أقل لك مرارا ألا تنتظرينى؟ فانتظارك لى يضايقنى."

انطفأ المصباح، واستلقى كلود إلى جانبها فى الظلام. لم تصدر عنها أى حركة، أما هو فأخذ يتثاءب صريع التعب. وبقيا مستيقظين، دون أن يجدا ما يتحدثان عنه، فظلا صامتين. بعد تأملات شاردة، انتفض فجأة، وقال: "الغريب فى الأمر أن بطنها لم يتأثر! ما أجملها!"

جزعت كريستين وسألته فى فزع: "من هذه؟"

- "أقصد تمثال ماهودو بالطبع."

انتفضت فى عصبية، وأدارت ظهرها، ثم أخفت وجهها فى الوسادة. اندهش كلود من رد فعلها، وازداد ذهوله حينما سمعها تبكى.

- "ماذا حدث؟ أتبكين يا عزيزتى؟"

كانت تنتحب بقوة هزت الفراش.

- "ماذا حدث؟ ماذا أصابك؟ أنا لم أفعل شيئا يا عزيزتى!"

ثم بدا يدرك سبب حزنها الشديد، ففى يوم مثل هذا كان عليه على الأقل أن يخلد إلى النوم معها، ولكن عذره هو أنه لم يكن يفكر أو يفهم تلك الأمور، ثم إنها تعرفه جيدا، وتعلم كيف يتحول إلى إنسان آخر وهو يرسم.

- "ماذا يا عزيزتى؟ ألتقينا فقط بالأمس؟ أم ماذا؟... ألا تعرفين طباعى جيدا؟ والآن تريدين أن نحتفل بالزواج؟... هيا، لا تبكى، فأنت تعلمين أننى لست شريرا."

أخذها بين يديه بقوة، واستسلمت هى له. ولكن على الرغم من عناقهما الطويل، لم تكن هناك تلك العاطفة المشبوبة. فهم الاثنان على الفور أن الشغف المحموم الذى عرفاه من قبل قد مات.

جلسا بعد ذلك جنبا إلى جنب، كالأغراب، وكأن هناك حاجزا يفصل بينهما، جسدًا آخر يحول بين اتحادهما. فلم يعد أحدهما يقتحم الآخر كما كان فى الماضى، وكأن هناك شرخا أو صدعا لا سبيل إلى إصلاحه قد ارتسم بينهما تاركًا هذا الفراغ، وكأن الزوجة قد طغت على العشيقة، فراح الحب ضحية الزواج.

الفصل التاسع

لم يعد من السهل على كلود استكمال العمل فى لوحته العملاقة فى مرسمه الصغير بشارع دواى، فقرر تأجير مخزن واسع فى مكان آخر. وبالفعل، وجد كلود ضالته أثناء تجوله فى مونمارتر، بجوار شارع تورلاك المطل على المقابر، ومنطقة كليشى بأكملها وحتى مستنقعات جونيفيورى.

كان المكان– وهو مخزن قديم ملحق بمصبغة ويستخدم للتجفيف– عبارة عن كوخ صغير طوله خمسة عشر مترا، وعرضه عشرة أمتار، والألواح الخشبية فى السقف مفككة فلم تكن تقى من الرياح. أنفق كلود على تأجيره ثلاثمائة فرنك.

كان يخطط لإنهاء اللوحة سريعا، مع حلول الصيف، ليستريح قليلا.

وفى سورة حمى العمل والأمل التى اجتاحته، قرر توفير جميع النفقات اللازمة لإنجاز لوحته المرتقبة، ولماذا التضييق على الذات والمبالغة فى الحرص، مادامت الثروة أكيدة؟

وهكذا، قرر الانتفاع بحقه فى رأس مال عائده السنوى. واعتاد على الإنفاق بلا حساب. فى البداية، أخفى الأمر عن كريستين، فقد عارضت هذه الفكرة مرارا قبل ذلك. ثم اضطر إلى الإفصاح عن مصدر النقود التى

ينفقها، وأمضت كريستين ثمانية أيام تعاتبه وتوبخه على تسرعه، ولكنها سرعان ما اعتادت، بل استمتعت بالرفاهية الجديدة التى تسللت إلى حياتهما، وإن تخلت عن أكبر متعها، وهى الاحتفاظ ببعض النقود معها احتياطيا. مرت السنون، وهما غارقان فى الرفاهية والسعادة الدافئة.

لم يعد كلود يفكر فى شىء سوى لوحته، التى طغت على حياتهما. كان قد أثث المرسم الجديد دون مغالاة، فلم يكن هناك سوى بعض المقاعد، وأريكته القديمة من مرسم بوربون ومنضدة خشبية اشتراها من سوق الأشياء المستعملة بمائة مليم. لم يكن المرسم فاخرا، فلم تكن فخامة المكان تعنيه فى عمله. فلم يشتر إلا سلمًا بعجلات وقاعدة متحركة لتسهيل العمل.

تفرغ تماما إلى لوحته، التى أراد أن يبلغ طولها ثمانية أمتار وارتفاعها خمسة أمتار. وقرر أن يتولى كل أمور تجهيزها بنفسه، فأحضر الهيكل الأساسى للوحته، وابتاع قماشًا، ثم لاقى هو واثنان من أصدقائه العذاب من أجل تثبيته على الهيكل. واكتفى بتغطية القماش بطبقة من الأسبيداج، ورفض استعمال الغراء، كى تظل اللوحة قادرة على تشرب الألوان، الأمر الذى يجعل الرسم، على حد قوله، أكثر قوة ووضوحا. لم يفكر بالطبع فى شراء حامل للوحة بهذا الحجم، فلم يكن ليستطيع التحكم فيها إذا وضعت على حامل. وفكر فى إعداد نظام كامل من القوائم والألواح السميكة والحبال لتثبيتها بمحاذاة الحائط أو مائلة قليلا، ليصل الضوء إلى اللوحة.

كان يستخدم السلم المتحرك للتنقل بطول اللوحة، التى شيد أمامها هيكلا ضخما كأنه يستعد لبناء كاتدرائية عملاقة.

كان كل شيء قد أعد، ولم يتبق سوى بدء العمل، وفجأة تملكه التـردد والشعور بالخزى كلما تأمل الفكرة التى اختارها للوحته، ألم يكن من الأفضل رسم لوحة أكثر سطوعا وإشراقا؟ أو ربما طقس سيئ ليعبر عنه بجـدارة؟ قرر العودة إلى جسر سانبير، حيث مكث ثلاثة شهور أخرى يفحص ويتأمل.

تراءت له المدينة بارزة أمام ناظريه فى كل وقت وكـل آن. كـستها الثلوج بفراء أبيض، واستمر النهر يجرى أسـفلها، بينمـا ظللتهـا الـسماء الإردوازية اللون.

ثم رآها، وقد شارف الصيف على الحلول، تتحرر من آثـار الـشتاء، كمن يستعيد شبابه، مع ظهور الفروع الخضراء الجديدة فى الأشجار الكبيرة. ورآها، وقد زال عنها الضباب الذى غلفها طويلا، تتبختر بخفـة كالقـصور الخيالية. ثم عادت الأمطار الكثيفة لتغرقها ثانية وتخفيها خلف ستار ممتد من السماء إلى الأرض، تتراقص فيها الأعاصير ويـضربها البـرق بـضوئه الباهت، وتعصف بها الرياح العاتية وتتركها جريحة ممزقة.

ومن وقت لآخر، تتوارى الشمس وتحتجب خلف الأبخرة التى تتصاعد من نهر السين، مخلفة وراءها إضاءة شاردة بعد أن ألقت أشـعتها الذهبيـة الرقيقة على المدينة بأسرها غامرة إياها برقة ساحرة.

ثم أراد أن يراها والشمس تشرق عليها محطمة قيود الضباب، حـين يكتسى رصيف أورلوج بالحمرة بينما يقبع رصيف أورفيفر فى ركود ثقيـل غشاه الظلام، ولم يتسلل النور سوى إلى قبابه وأبراجه العاليـة، ثـم تأخـذ الظلمة فى الانقشاع شيئا فشيئا عن مبانيه، كالمعطف الذى يُخلع تدريجيًا.

كما رآها فى وقت الظهيرة، وقد توسطت الشمس كبد السماء، وسلطت أشعتها الساطعة على المدينة كلها التى تلاشت ألوانها من شدة الإضاءة، فلم تبد فيها أى ملامح للحياة، من قسوة الحرارة التى تتلوى تحتها أسقف المنازل البعيدة.

ورآها والشمس توشك على المغيب، تتصارع مع خيوط الظلمة الزاحفة بقوة، وقد خف لهيبها، كقطع الفحم التى تخبو تاركة أشعتها الأخيرة تشعل زجاج النوافذ، وكأنها حرائق صغيرة تتخلل الواجهات.

لم تثنه هذه الوجوه المتعددة والمتلونة للمدينة عن الصورة الأولى، عن المشهد الذى رآه فى المرة الأولى، فى أحد أيام سبتمبر نحو الساعة الرابعة عصرا، عن صورة تلك المدينة الهادئة، وقد أضفى الهواء العليل سكينة على هذه المنطقة الصاخبة فى قلب باريس السابحة فى جو من الشفافية تخترقه السحب الخفيفة المتطايرة فى سماء لا متناهية الزرقة والصفاء.

قضى أياما كاملة هناك، يحتمى بظلال جسر سانبير. لم تعد تضايقه ضوضاء السيارات التى تدوى كقصف الرعد باستمرار مستندا إلى الدعامة الأولى للجسر، وسط القوالب الحديدية العملاقة، ليرسم ويضع الخطوط الأولية للوحته العتيدة. لم يكفه أبدا ما يرى، فكان يعيد رسم نفس التفصيلة عشرات المرات. ويمكث فترات طويلة، حتى عرفه عمال الميناء، بل تعرفت عليه زوجة أحد الملاحظين، التى كانت تقيم فى منزل صغير مع زوجها وولديه وقطتهم، فكانت تبقى لوحاته عندها حتى تجف، كيلا يضطر إلى حملها كل يوم والتجول بها فى الشوارع. كان يستشعر لذة غامرة أثناء بقائه

فى هذا المكان، فى هذا المأوى جالسًا تحت الحياة الباريسية الصاخبة المحتدمة التى يشعر بها تمر فوق رأسه.

كان مولعا بميناء سان نيكولا بنشاطه الذى لا ينقطع وبالحركة اللانهائية التى يتميز بها، فها هى الرافعة البخارية، وسفينة صوفى تعمل وتقوم بنقل الحجارة، بينما تمتلئ العربات ذات العجلات بالرمال، يجرها العمال وهم يلهثون بطول الرصيف المنحدر، وصفوف القوارب والسفن المتجمعة أمام الميناء.

أمضى كلود أسابيع كاملة، مستغرقا فى رسم العمال وهم يفرغون شحنة إحدى السفن، ويحملون على أكتافهم أكياس الجبس، وقد تسربت منها الحبيبات البيضاء التى تناثرت عليهم وعلى الطريق، وبالقرب منهم سفينة أخرى، فرغت حمولتها من الفحم ولطخت المكان كله. ثم رسم الأشخاص وهم يسبحون على الضفة الأخرى، بينما ظهر مبنى المغسلة فى الخلفية بنوافذه المفتوحة، وجلست الغسالات على حافة النهر يغسلن الأقمشة. وفى المنتصف، لاح قارب يقوده ضابط بحرى، وسفينة فى العمق، تجر بعض الحجارة المثبتة على الألواح، وقد تصاعدت منها الأبخرة العالية.

استقر كلود على خلفية لوحته منذ فترة طويلة، ولكنه أخذ يعيد رسم بعض تفاصيلها، مثل فتحتى نهر السين والسماء الصافية التى لا يشقها سوى القباب والأبراج المذهبة بفعل أشعة الشمس.

لم يزعجه أحد أو يتطفل عليه فى هذا المكان المهجور الأشبه بالكهوف، فحتى الصيادون الذين كانوا يمرون، كانوا يرمقونه بازدراء

ممزوج بلامبالاة، ولم يكن له رفيق سوى قطة الملاحظ التى تأتى لتستلقى فى دعة تحت الشمس بعيدا عن الضوضاء الصادرة من أعلى الجسر.

انتهى كلود من رسم اللوحات الصغيرة لأجزاء لوحته الضخمة. وفى غضون أيام قليلة، كان قد شرع بالفعل فى الرسم واضعا تخطيطا مبدئيا بديعا للوحة المنتظرة. ولكن، وعلى مدار الصيف بأكمله، بدأ الصراع بينه وبين لوحته العملاقة، حيث كان قد قرر أن يرسمها بنفسه معتمدا على طريقة المربعات، ولكنه عجز عن الانتهاء، واستمر ووقع فى سلسلة لا تنتهى من الأخطاء بسبب أقل خطأ فى تقدير الحسابات، خاصة وأنه لم يكن معتادًا على هذه الطريقة مما أشعله غضبا. ولكنه قرر تجاهل هذه الأخطاء مؤقتًا، على أن يقوم بتعديلها فى وقت لاحق، فعمد إلى إنهاء ما بدأه بقوة. كان كالمحموم، لم يكن يغادر السلم لأيام كاملة، عاكفا على الرسم بفرشاته الضخمة باذلا جهدا بدنيا خرافيا كمن ينقل الجبال، ليعود فى المساء، يترنح كالسكير من فرط الإعياء، فيغالبه النوم، حتى أثناء العشاء، بعد أن صرعه التعب، وتحتم على كريستين أن تحمله على النوم كالأطفال.

وتمخض هذا الجهد البطولى عن رسم تخطيطى متقن وعظيم، ينطق بعبقريته اللامعة، وسط فوضى الألوان التى لم يستقر عليها بعد.

حضر بونجراند خصيصا لرؤية اللوحة، ولم يستطع أن يغالب انفعاله عند مشاهدتها، فأمسك بذراعى كلود وقبله بقوة وقد انهمرت الدموع بغزارة من عينيه. وأقام صاندوز حفل عشاء احتفالاً بتلك اللوحة العظيمة، بينما أخذ

جانيير وماهودو وجورى يتحدثون عن قرب مولد لوحة متفردة لا مثيل لها. أما فاجرول، فظل مصعوقا أمام اللوحة، مذهولا من فرط جمالها، وهنأ كلود طويلا بلوحته البديعة الفريدة من نوعها.

اعتبر كلود هذه التهنئة الساخرة الصادرة عن فاجرول نذير شؤم، أفسدت عليه فرحة إنهاء الرسم الأولى. كانت تلك هى قصته المعتادة، فكان دائما ما يبدأ بحماس أسطورى وحمية بطولية، ثم يضربه العجز عن فعل المزيد وإنهاء ما بدأه. عاد عجزه القديم يتسلط عليه، فأنفق عامين كاملين أمام هذه اللوحة، غير عابئ بشيء سواها، فتارة تغمره سعادة جنونية تجعله يطير فرحا، بينما يطرحه الإحباط أرضا، ليمضى أيامه بائسا، تمزقه الشكوك وتخترق جنباته بطعناتها الغادرة.

عجز عن اللحاق بالمعرض لعامين على التوالى، فكلما راوده الأمل فى إنهاء اللوحة فى بضع جلسات قبل المعرض، تتجلى أمام عينيه أخطاء وعيوب جديدة، حتى شعر وكأن اللوحة تتفكك وتتحطم بين يديه. ومع اقتراب موعد المعرض فى العام الثالث، وقع كلود فريسة نوبة رهيبة من العجز والشك، فمكث فى منزله خمسة عشر يوما لا يذهب إلى المرسم، وعندما قرر الذهاب، شعر كمن يدخل منزلا للموتى، فأدار لوحته تجاه الحائط، وأسند السلم إلى أحد الأركان. لم يكن ليتورع عن تحطيم وإحراق كل شيء، لولا افتقاره للقوة والعزم. فنحى كل شيء، وكأن رياح الغضب قد عصفت بكل ما كان على القاعدة. وقرر الاكتفاء برسم بعض اللوحات الصغيرة مادام عاجزًا عن إنجاز مثل هذه الأعمال الضخمة.

اقتاده مشروعه الجديد للوحته الصغيرة، رغما عنه، إلي وسط المدينة، فلماذا لا يرسمها بصورة بسيطة فى لوحة متوسطة الحجم؟ وخامره فجأة نوع من الحياء مختلط بغيرة غريبة منعته من الذهاب للجلوس أسفل جسر سانبير، كأن هذه البقعة أصبحت بقعة مقدسة، وكأنه سينتهك حرمة معشوقته الأولى بعد موتها.

قرر الجلوس على حافة المزرعة، أعلى جسر سان نيكولا. كان فرحًا لأنه سيرسم نقلاً عن الطبيعة مباشرة، دون الحاجة إلى التأليف، الذى قد يطيح بجمال اللوحات ذات الأبعاد الكبيرة.

لاقت اللوحة الجديدة، على الرغم من دقتها وإتقانها، نفس مصير لوحاته السابقة، فرفضتها لجنة التحكيم فى المعرض، منددة بتلك اللوحة المرسومة بفرشاة مترنحة، كما يقول الرسامون. شعر كلود كمن تلقى صفعة أطاحت برشده، وازداد جرحه ألما حينما تحدث الجميع عن قدر التنازلات التى حاولت كلية الفنون تقديمها لتقبل اللوحة. عوى كلود باكيا من الغضب، فانقض على لوحته ومزقها تمزيقًا، وأحرقها فى الموقد، فلم يكن يكفيه أن يطعنها فقط بالسكين، وإنما رغب فى محوها من الوجود.

مر عام آخر، وكلود منشغلا فى رسم بعض اللوحات الصغيرة. كان يرسم بدافع الاعتياد، ولكنه لم يكن ينجز شيئا، فاكتفى بالقول، وقد علت وجهه ضحكة أليمة، إنه بصدد البحث عن ذاته الضائعة. كان يقينه العنيد بعبقريته، يبث فى أعماقه أملاً لا يقهر، وسط أعتى نوبات اليأس والإحباط.

ولكنه ظل يعانى كسيزيف الملعون[1] تحت وطأة صخرته الأبدية التى ترتد دائما إليه وتسحقه. لكن لاح له فى الأفق أمل الانتصار، الأمل فى أن يحمل صخرته يوما ما بقبضتيه ليقذفها إلى مدار النجوم. وأخيرا، لمعت عيناه مرة أخرى من الشغف، وأدرك الجميع أنه سيعود لينعزل فى مرسمه. عاد يتشبث بلوحته القديمة لوسط المدينة، التى أصبحت هاجسا يطارده بلا هوادة، والعقبة التى تعيق استمرار حياته. وسرعان ما عاد يتحدث عنها بحماسة وفرحة طفولية، صارخا بأنه عثر أخيرا على ضالته، وبأنه متيقن من النجاح هذه المرة.

وفى ذات صباح، أذن كلود لصاندوز بالدخول، بعد أن ظل منعزلاً رافضًا لقاء أى شخص لمدة طويلة. وقع بصر صاندوز على رسم أولى ذى ألوان خلابة رسمه كلود من الخيال، دون أن ينقل عن الطبيعة. وإن ظل موضوع اللوحة ثابتًا لا يتغير: ميناء سان نيكولا على اليسار، ومدرسة السباحة على اليمين، وفى المنتصف نهر السين وقلب المدينة. وإن اندهش لرؤية القارب الذى يقوده الضابط، قد حل محله مركب آخر غاية فى الضخامة محتلاً صدارة اللوحة، وعلى متنه ثلاث نساء، واحدة تجدف مرتدية ملابس السباحة، والثانية تجلس على حافة المركب تدلت ساقاها فى الماء

---

(١) كسيزيف: إحدى شخصيات الأساطير اليونانية، تحدى الآلهة فألزمته برفع حجر ثقيل إلى قمة جبل الأوليمب يهوى بمجرد وصوله إلى أعلى الجبل وعليه برفعه من جديد وهكذا إلى الأبد، عقابا له على تحدى الآلهة ورفضه الانصياع لأحكامها. (المراجع)

وكشف صدارها المفتوح عن كتفيها، بينما وقفت الثالثة عارية تماما عند مقدمة المركب، ببشرتها رائعة الجمال التى سطعت مشرقة كالشمس.

فتعجب صاندوز: "يا لها من فكرة! ماذا تفعل تلك النساء على المركب؟"

فأجاب كلود بهدوء: "يسبحن بالطبع! ألا ترى أنهن خرجن لتوهن من الماء! رائعة، أليس كذلك؟... أصدمت أم ماذا؟"

خشى صاندوز، الذى يعرفه تمام المعرفة، أن يوقع الشكوك فى قلبه، فقال: "لا! لا! ولكننى أخشى فقط ألا يفهمها الجمهور هذه المرة أيضًا. فليس من المألوف أن تكون هناك امرأة عارية واقفة هكذا وسط باريس!"

- "أتظن هذا؟... ولكن ماذا يهمنى؟ فماذا يضيرهم إذا كانت تلك المرأة العارية مرسومة جيدًا وبإتقان؟ أنا الآن فى حاجة إلى مثل تلك اللوحة لأصعد إلى القمة!"

مرت الأيام، صاندوز يمر على صديقه، ويتأمل تلك اللوحة الغريبة، ودفعته رغبة طبيعية فى داخله للدفاع عن المنطق الذى تلاشى فى تلك اللوحة. فكيف لفنان تقتله الرغبة فى رسم الحقيقة أن يفسد لوحة واقعية جميلة بمثل هذه الأخيلة؟ ألم يكن أمامه لوحات أخرى تتيح له رسم امرأة عارية ولكن فى سياق منطقي؟ استمر كلود فى عناده، مستبسلا فى إعطاء مبررات جوفاء وعنيفة، رافضا فى المقابل الإفصاح عن الدافع الحقيقى وراء تلك

اللوحة. إنها فكرة تراوده منذ فترة ولكنها لا تزال مبهمة، يعجز عن شرحها بوضوح، كأنها رغبة فى الانغماس فى الرمزية الخفية، فى العودة إلى الرومانتيكية الحالمة التى تدفعه لتجسيد باريس بأكملها بروعتها وجمالها المشبوب فى هذا الجسد العارى. كان يشعر بأنها لوحته التى طالما تاق إليها، ليسقيها من روحه، ويبث فيها ولعه وعشقه القديم للأجساد الجميلة والسيقان والنهود البديعة.

ولم يلبث أن تظاهر بالتردد أمام إلحاح صاندوز ومبرراته المنطقية: "حسنا، حسنا! سأرى، ربما أجعلها ترتدى ثيابا فى وقت لاحق، مادامت تزعجك هكذا!... ولكننى سأرسمها هكذا دائما! إنها تسعدنى."

ومنذ ذلك اليوم، لم ينبس كلود بكلمة حول لوحته، وازداد عناده، مكتفيا بالتمدد والابتسام فى حرج، إذا ما أشار أحدهم إلى غرابة اللوحة واندهش لرؤية تلك المرأة الفاتنة وهى تشق مياه السين، لتصعد على السطح منتصرة، بينما تسير حولها العربات والأتوبيسات وعمال ميناء سان نيكولا.

بحلول الربيع، قرر كلود استئناف العمل فى لوحته الكبيرة، ولم يكن يدرى أنه سيضطر هو وكريستين إلى اتخاذ قرار من شأنه تغيير حياتهما. كانت كريستين تظهر قلقها من حين لآخر إزاء طريقة إنفاقه للنقود، فكان يضيع مبالغ ضخمة فى فترات وجيزة، دون حساب، ظانا أنه ينهل من مصدر لا ينضب. وبعد مرور أربعة أعوام، فزعوا ذات صباح، أثناء مراجعة رأس المال ليكتشفا أن ما يتبقى من مبلغ العشرين ألف فرنك لا

يتجاوز بالكاد ثلاثة آلاف فرنك. وعلى الفور، قررا البدء فى تدبير النفقـات والمغالاة فى الادخار، فاكتفيا بالخبز، متغاضين حتى عن بعض الاحتياجات الأساسية، وقررا الرحيل عن منزلهما بشارع دواى للإقامة فـى مرسمـه بشـارع تورلاك، فما جدوى الاحتفاظ بمنـزلين وإنفـاق مبـالغ باهظـة لإيجارهما؟ كان المرسم واسعا ويكفى لإقامة ثلاثة أفراد، بغض النظر عـن آثار بقع المياه المصبوغة التى تلطخ المكان.

لم يكن إعداد المرسم للسكنى بالأمر الهين، فكان المكان كله عبارة عن غرفة واحدة شاسعة تزيد مساحتها عن خمسة عشر مترا فى عشرة أمتـار، تصلح لأن تكون مخزنا يأوى مجموعة من المتشردين يتشاركون كل شيء. فاضطر كلود أن يقسمها بنفسه، بعد أن تجاهل المالك طلبه، إلـى جـزأين، فوضع حاجزًا خشبيًا يفصل المطبخ وغرفة النوم عن مكان عمله. لم يكونـا تعيسين، على الرغم من الشقوق والتصدعات الموجودة فى السقف، والتى لم تكن لتحميهما من الرياح الباردة أو من الأمطار، فيضعان بعـض الأوانـى تحت هذه الشقوق لئلا تغمر المياه الغرفة.

أشاع المكان شبه الفارغ نوعا من الكآبة فى نفسيهما، فلم يكن لـديهما سوى أربع قطع أثاث حاولا توزيعها لتملأ هذا الفراغ الرهيب. حاولا تصنع السعادة بسهولة وسرعة انتقالهما، مؤكدين لأصدقائهما أن المكـان الجديـد أفضل حتى إن جاك أصبح لديه مساحة تكفيه ليلعب ويركض كيفما شاء.

أتم جاك عامه التاسع، دون أن ينمو على الإطلاق، لم يعد يكبر فيـه سوى رأسه. لم يستطع الاستمرار فى المدرسة لأكثر من ثمانية أيـام علـى التوالى، ليعود منها مرهقا مريضا من محاولاته للتعلم، خاصـة وأن كلـود

وكريستين قد اعتادا أن يتركاه يلعب على حريته فى الأركان ويتجول على يديه وقدميه فى وسطهما.

عادت كريستين، بعد أن ظلت بعيدة عن عمل كلود لفترة كبيرة، لتمضى معه ساعات طويلة تراقبه وهو يرسم. ساعدته فى تقشير وصقل اللوحة القديمة، مسدية إياه نصائح قيمة لضمان تعليقها على الحائط بقوة وصلابة. وعندها اكتشفا الكارثة: تداعى السلم ذو العجل من أثر الرطوبة المنبعثة من الأسقف، فاضطرا إلى إصلاحه وتقويته بألواح من السنديان المثبتة بالمسامير لئلا ينهار ويتأذى كلود. وأصبح كل شىء معدًا.

كانت كريستين تظل واقفة خلفه تتأمله وهو يعد الرسم التخطيطى بالمربعات الصغيرة، حتى يغشاها التعب، فتجلس على الأرض مواصلة مشاهدته.

لكم رغبت فى تلك اللحظات فى أن تنتزعه من أمام تلك اللوحة التى خطفته منها! ولعل هذا هو سبب ملاصقتها له لتخدمه وهى تطير فرحا حينما تلبى له طلباته، حتى وإن اضطرت إلى الاكتفاء ببعض الأعمال اليدوية التى يطلبها منها. فقد تجدد الأمل فى داخلها فى استعادته مرة أخرى، منذ أن أصبحت متداخلة معه فى عمله ليصير الثلاثة كلاً واحدًا لا يتجزأ كلود وكريستين واللوحة. فإذا كانت قد شعرت قبلا بأنها فقدته، أثناء مكوثها وحيدة فى منزل دواى تبكى، بينما يظل هو فى مرسمه يتدله حبا ويذوب عشقا فى محبوبته الجديدة، فها هى الآن معه فى نفس المكان تغمره بحبها وعاطفتها

عازمة على استرداده مرة أخرى من قبضة منافستها الجديدة. لم تشعر عند رؤية اللوحة سوى بالكراهية والغيرة يعتصران قلبها! ليس بدافع ثورتها القديمة، ثورة الفتاة الرقيقة التى ترسم بالألوان المائية ضد هذا الفن الجديد الحر والعنيف، فحبها لكلود جعلها تتقبل ما يصنعه فى البداية، حتى استطاعت تدريجيا أن تفهمه، وأن تستشعر لذة وبهجة الإضاءة الساطعة وسحر الموضوعات المختلفة والمتميزة التى يميل إليها كلود. فأصبحت الآن على استعداد لتقبل أى شىء، حتى الأراضى البنفسجية والأشجار الزرقاء. ازداد تقديرها لهذه الأعمال التى وصفتها بالبشاعة فى الماضى، وأدركت مدى قوتها، بعد أن أصبحت فى نظرها ندًا قويا لا يستهان به. وهكذا استمر إعجابها بها ينمو، ومعه شعور جارف بالحقد عليها، فضمرت الضغينة لهذا العشق الجديد الذى تسلل إلى قلب زوجها، موجها إليها إهانة موجعة فى عقر دارها.

كان صراعا خفيا طاحنا لا يتوقف، فمن وقت لآخر، كانت كريستين تأتى لتؤكد وجودها واضعة تارة كتفها، وتارة يديها أمام كلود لتحجب عنه رؤية غريمتها. لم تكن تتركه وهو يعمل، وتقضى الساعات تحوم حوله، تغطيه بأنفاسها الحارة لتذكره بأنها ملكٌ له. ثم راودتها فكرتها القديمة، فأرادت أن ترسم هى الأخرى، لعلها إذا ما اختبرت هى الأخرى نفس مشاعره المحمومة وهو يرسم تعثر عليه. فكانت ترتدى قميصًا طويلاً، وتستقر بجانبه لترسم كتلميذ صغير يعمل بجوار معلمه. مر شهر، وهى جالسة إلى جانبه فى هدوء تنقل عنه لوحة صغيرة. وفجأة قررت التوقف،

بعد أن أدركت أن فكرتها قد انقلبت ضدها، فسرعان ما غفل كلود عن المرأة التى إلى جواره، وخدعه مظهرها الجديد وهى تشاركه العمل، فنما نوع من الصداقة، وزمالة الرجل للرجل عنده. فعزمت على العودة إلى التمسك بنقاط قوتها الوحيدة.

كانت قد كرست نفسها لمساعدته، فكان ينقل عنها بعض الملامح أو التفاصيل للوحاته الأخيرة، فمرة يرسم رأسها، ومرة ذراعها، ومرة هيئتها الخارجية، فكان يلبسها معطفا، ممسكا إياها بقوة، طالبا منها الوقوف بثبات حتى ينتهى. كانت تبدو سعيدة وهى تسدى له هذه الخدمات، وإن ظلت ترفض أن تجلس عارية، مؤكدة أنه ليس من اللائق أن يجعل زوجته تعمل عارضة.

وفى أحد الأيام، كان فى حاجة ماسة إلى رسم سيقان امرأة فى لوحته. رفضت كريستين فى البداية، ولكنها سرعان ما وافقت أن ترفع ثوبها قليلا، بعد إغلاق الباب جيدا خشية من أن يعلم أحد أنها تجلس ليرسمها زوجها، فيبحث عنها الجميع فى كل النساء العاريات اللاتى رسمهن كلود. وكانت تخترق سمعها ضحكات كلود وأصدقائه الساخرة ودعاباتهم البذيئة وهم يتحدثون عن لوحات رسام لا ينقل أى امرأة سوى عن زوجته، وعن اللوحات العارية الجميلة التى يشتريها البرجوازيون ليتأملوا ما تحويه من وجوه متعددة وأحقاء رشيقة وأجساد جميلة. فشعرت كمن تسير عارية فى وسط باريس تنهال عليها ضحكات الاستهزاء والسخرية، حتى وهى مرتدية ثيابا قاتمة كاملة غطتها من ذقنها إلى أخمص قدميها.

انتهى كلود من رسم المرأة التى تتوسط اللوحة بالفحم، وبمجرد أن رأتها كريستين استحوذ عليها هاجس واحد زال معه أى أثر للخجل أو الحياء. فما أن تحدث كلود عن عزمه اختيار عارضة، حتى فاجأته وعرضت عليه رسمها.

- " ماذا؟ أتريديننى أن أرسمك عارية؟ كيف هذا؟ ألا تغضبين منى إذا طلبت أن أرسم طرف أنفك فقط؟"

ابتسمت فى حرج، ثم قالت: "طرف أنفى! ألم أجلس أمامك أثناء رسم لوحة "الهواء الطلق" فى الماضى، حتى قبل أن يربطنا أى شىء؟... قيامك باستئجار عارضة سيكلفك أكثر من سبعة فرنكات فى الجلسة، ونحن لسنا أغنياء كما تعلم! علينا إذًا أن نقتصد فى النفقات."

أعجبته فكرة التوفير، فقال: "موافق بالطبع! لكم هو ظريف منك أن تواتيك الشجاعة على عرض خدماتك، خاصة وأنك تعرفين كم هو مضن العمل معى ... ولكن اعترفى! أنت تخشين أن تأتى امرأة أخرى إلى هنا؟ إنها الغيرة، أليس كذلك؟"

بالطبع كانت الغيرة! ومن سواها قد نشبت أظافرها فى قلبها المسكين. ولكنها لم تكن لتغار من العارضات، فكانت دائما ما تسخر منهن ومن أخلاقهن، لم يكن لديها سوى غريمة واحدة، تنازعها قلب معشوقها الوحيد، تلك اللوحة! فلم تمانع أن تنزع ثوبها، أو أى شىء آخر فى سبيل أن تمكث أمامه عارية لأيام وأسابيع كاملة، لعلها تقتنصه لنفسها مرة أخرى، وتنتصر على منافستها حينما يرتمى بين أحضانها! لم يكن لديها شىء آخر لتقدمه

سوى جسدها. ففى تلك المعركة الفاصلة، يحق لها أن تستخدم أى شىء سعيا للانتصار، فماذا سيكون حالها إذا استسلمت؟

سعد كلود للغاية، وبدأ يدرس كيف يختار لها الوضعية المناسبة للوحة، ثم نقل عنها رسمًا أوليًا بسيطًا.

كانا ينتظران ذهاب جاك إلى المدرسة، ليغلقا الباب وتبدأ الجلسة التى تدوم لساعات. عانت كريستين فى البداية من كثرة الوقوف ساكنة، ولكنها لم تكن تجرؤ على الشكوى لئلا تغضبه، حتى ألفتها شيئا فشيئا. لم يكن يعاملها سوى كعارضة، متشددا فى طلباته كما لو كان قد استأجرها، مستغلاً كونها زوجته. فكان يستغلها فى أتفه الأشياء ويجبرها على نزع ثيابها كل دقيقة لرسم ذراعها أو قدمها، أو لأى تفاصيل يحتاجها. حطت هذه المهنة بشدة من قدرها، فلم تعد تزيد عن كونها عارضة يضعها هنا أو هناك ويرسمها وكأنها جرة أو إناء فى لوحات الطبيعة الصامتة.

كان كلود يعمل دون تعجل، فأخذ يعد لصورة المرأة شهورًا كاملة، أرهق فيها كريستين ورسمها بما يزيد عن عشرين طريقة، رغبة فى التغلغل فى أعماق جسدها، على حد قوله. حتى قرر فى النهاية أن يبدأ فى رسمها على اللوحة. كان ذلك فى صباح خريفى ملىء بالرياح، كانت الغرفة لا تزال باردة على الرغم من المدفأة التى تعمل. لم يذهب جاك إلى المدرسة فى ذلك اليوم بسبب مرضه، فوضعاه فى الغرفة وأغلقا الباب جيدا ملزمين إياه بالبقاء هادئًا. ثم خلعت كريستين ثيابها وهى ترتجف، ووقفت بجوار المدفأة فى سكون تام.

ظل كلود يرمقها من فوق، من أعلى السلم بنظرات ثاقبة اخترقت جسدها كله من كتفيها إلى ركبتيها، دون حتى أن يتحدث إليها. أما هي، فشعرت بتعاسة غريبة لا تعرف مصدرها تتسلل إلى نفسها، حتى خشيت أن تخور قواها. لم تدر إذا كان البرد القارس هو ما يؤلمها، أم هو اليأس الذى يلوح من بعيد ويشع فى نفسها هذه المرارة الرهيبة. شعرت بإعياء شديد، فأخذت تتعثر وتمشى بصعوبة وقد تخدرت قدماها.

فصاح كلود: "أتعبت مبكرا هكذا؟ لم يمض علينا سوى ربع الساعة! ألا تريدين الحصول على السبعة فرنكات؟"

كان مزاحه فظًا، ولكنه لم يكن يدرى، بعد أن أثملته نشوة العمل. بينما بدأت كريستين تسترد إحساسها بأطرافها تحت ثوبها الذى ارتدته على الفور. فصاح بغضب: "هيا! هيا! دعك من الكسل! إن اليوم جميل وعلينا الاستفادة منه. يجب أن نبذل كل طاقتنا وإلا سنهلك جميعا!"

وقفت كريستين مرة أخرى عارية تحت الضوء الباهت القادم من النافذة، وعكف هو على رسمها. كان يتفوه من وقت لآخر بإحدى العبارات رغبة فى إحداث نوع من الضوضاء كعادته حينما يكون سعيدًا بعمله.

- "كم هذا غريب! أتعرفين أن بشرتك تتشرب الضوء؟ إنه أمر لا يصدق! فهذا الصباح يغلب عليك اللون الرمادى، بينما كنت وردية اللون فى المرة الماضية... كان لونك يفوق الخيال!... ولكن الآن بات هذا الأمر يزعجنى، كيف لى أن أرسمك؟... من الرائع وجود جسد

عار فى اللوحة، فهو يجعل الحياة تدب فيها وكأنه جسد حى بالفعل تسرى الدماء فى عروقه... فالعضلات مرسومة جيدًا، والأطراف شديدة الوضوح . أهناك ما هو أعظم وأجمل من هذا؟ ... يا لروعته! سأبقى طوال عمرى أتعبد فى محراب هذا الجمال الباهر!"

فرغ أحد ألوانه، فنزل عن السلم لإحضار آخر، واقترب منها، متفحصا إياها بعاطفة شغوفة، محددا بطرف إصبعه الأجزاء التى يبغى رسمها بوضوح: "ها هو! لا يزال النهدان رائعى الجمال، وقد ظهرت حولهما عروق صغيرة زرقاء تزيدهما رقة وعذوبة...والأرداف والسيقان البديعة أيضًا... لطالما قدست هذا الجمال المتجسد! كم هو ممتع القيام برسمه!"

وصعد على السلم مرة أخرى، وقال وقد مسته حمى الإبداع: "لأذهب إلى الجحيم إذا لم أصنع منك تحفة فنية لم يسبق لها مثيل!"

ظلت كريستين صامتة، والذعر ينهش قلبها، مرتعبة من الثقة التى يلقيها على عاتقها. وازداد ضيقها بعريها وسكونها. وشعرت ببرودة شديدة تخترق جسدها من آثار إصبع كلود، وتسربت إليها رعشة غريبة من كل مكان لمسه.

أدركت عندها أنه لا أمل فى انتظار المزيد! فهذا الجسد الذى طالما أمطره كلود بقبلات العاشق المدله بحبها، لم يعد يثير فيه سوى نشوة الفنان، فتسحره نعومة الصدر، ويفتنه تناسق البطن مع السيقان، بعد أن كان- وقد تملكته الرغبة- يضمها بقوة بين ذراعيه ويعتصرها بين أحضانه لكى ينصهرا سويا ويذوب أحدهما فى الآخر.

كانت تلك هى النهاية! لم يعد يراها كامرأة، لم يكن يرى فيها سوى فنه، سوى الطبيعة والحياة!

ثبتت عينيها فى الفراغ البعيد، وحافظت جاهدة على رباطة جأشها، حابسة دموعها التى انهمرت داخلها مع عويل قلبها واستسلمت لمأساتها التى تمنعها حتى عن البكاء.

وفجأة تعالى صوت جاك الذى مل الانتظار، فجاء يطرق الباب بيديه الصغيرتين: "لا أستطيع النوم يا أمى! لقد مللت! افتحوا لى!"

استشاط كلود غضبًا وانتهره، فصاحت كريستين: "سأفتح لك بعد قليل، ولكن دع أبيك يعمل الآن!"

واضطربت فجأة، وهى تلقى نظرات قلقة تجاه الباب، فتحركت على الفور لتعلق تنورتها على الباب لتسد فتحة القفل، وعادت فى صمت لتقف من جديد بجوار المدفأة.

دامت الجلسة لساعات طويلة مرت كالدهر، قضتها واقفة أمامه، بينما هو فى الأعلى يرمقها من بعيد، وهو يحترق حبا فى تلك المرأة الأخرى التى يرسمها. لم يعد يتحدث معها، وكأنها مجرد شيء يرسمه ويعجب بألوانه. صحيح أنه لم يكن يرى سواها من الصباح وحتى المساء، ولكنها لم تعد تجد نفسها فى عينيه، باتت غريبة عنه، مطرودة من كيانه.

أخيرا توقف، بعد أن أنهكه العمل ولاحظ ارتجافها: "أتشعرين بالبرد؟"

– "نعم، قليلا."

- "هذا غريب! فأنا أشتعل... ولكننى لا أريدك أن تـصابى بـالبرد! يكفى هذا اليوم ولنستكمل غدا"

نزل كلود عن السلم، وظنت كريستين أنه يقترب ليقبلها كما اعتاد من باب المجاملة ليعوضها بقبلة سريعة عن ملل وإرهاق الجلسة. ولكنه نـسى هذه المرة فى غمرة العمل، فانشغل بتنظيف الفـرش فـى وعـاء مملـوء بالصابون، بينما ظلت هى واقفة عارية كما هى على أمل أن يتذكر. انقضت دقيقة، فرفع كلود رأسه متعجبا من مصدر هذا الظل، ونظر إليها فى دهشة، وواصل عمله بحمية ونشاط.

هرعت كريستين لترتدى ثيابهـا ويـداها ترتجفـان وعـصف بهـا الاضطراب والشعور بالنبذ، فارتدت قميصها وتنورتها على عجـل، عاقـدة أزرار صدارها كيفما اتفق، وكأنها تسارع بالهروب من خزى عريها العاجز. راودها شعور باحتقار نفسها، واشمئزاز من اضطرارها للانحطاط إلى هـذه الدرجة، أشعرتها بمدى تدنيها بعد أن منيت بطعنة غائرة فى أنوثتها وهزيمة مؤلمة أمام لوحة.

وفى الغد، اضطرت إلى التعرى مرة أخرى فى هذا الطقـس البـارد والإضاءة الفجة. ولم لا؟ ألم تعد هذه مهنتها؟ فكيف لها أن ترفض الآن مـا قبلته فى الماضى؟ لم يكن فى مقدورها أن تحزن كلود أو تزيد همومه، ومن ثم كانت تعيد كل يوم قصة اندحارها وانحطاط جسدها. وكلود أيضًا، لم يعد يحدثها عن هذا الجسد الفائر المهان، وتركزت عاطفته وشهوته على لوحته،

وعلى معشوقاته اللاتى يرسمهن، وحدهن اللاتى يحركن مشاعره ويخفق لهن قلبه، هن اللاتى تكبد العناء فى صنع كل جزء منهن. فلم يكن اعتقاده القديم، فترة إقامتهما فى الريف بأنه وجد السعادة المطلقة عندما امتلك أخيرا امرأة حقيقية وضمها بين ذراعيه، سوى وهم كبير. فهما، على الرغم من كل شيء غريبان يفصلهما حاجز مجهول خفى. كان يفضل هذا الوهم الآخر، وهم الفن، والبحث الدائم عن الجمال المطلق، والرغبة الجنونية التى يستحيل إشباعها. كان حلمه الأوحد أن يصنع هو نساء أحلامه بنهودهن الناعمة وأجسادهن العنبرية وبراءتهن العذبة، أن يظل يسعى وراء أطيافهن الشاردة، دون أن يمسك بإحداهن ويضمها إلى صدره. أما كريستين، فكانت تمثل له الواقع والحقيقة الملموسة التى كان ينفر منها.

مرت الشهور، وتحولت جلسات الرسم إلى عذاب أليم لكريستين، بعد أن تعكر صفو حياتهما بانضمام فرد جديد للعائلة السعيدة، معشوقته التى يرسمها نقلا عن كريستين. أصبحت اللوحة الكبيرة حاجزا جديدا يفصل بينهما، وكأنه جدار يستحيل عبوره أو اختراقه. هام كلود أمامها فى حب غريمتها، بينما ظلت هى عاجزة تنهش الغيرة قلبها. كادت تجن بسبب أفكارها الموجعة التى حرصت على كتمانها لئلا يسخر منها.

لم تكن تتخيل، أصبحت اللوحة بالفعل معشوقته الوحيدة وهمه الأوحد، وترسخ لديها الشعور بأنه يفضل صورتها عليها. فكان على استعداد أن يقضى عليها من فرط الإنهاك فى سبيل تحسين الأخرى التى باتت هى

مصدر فرحه أو تعاسته، فيفرح حينما يرى الحياة تدب فى أوصالها بفضل فرشاته، ويغتم إذا ما رآها تنزوى وتضعف. أليس هذا هو الحب؟ كان عذاب كريستئين الحقيقي فى اضطرارها إلى بذل تلك الجهود المضنية لتولد غريمتها وليكتمل كابوسها الذى سيحول حياتهما جحيما ويزيدهما تباعدا فى المرسم وأثناء الأكل، بل حتى فى فراشهما!

لم تكن تلك المرأة الجديدة سوى مجموعة من الألوان على لوحة، ولكنها قتلت كل ما تبقى من أمل أو فرح فى حياتهما، فبينما يظل كلود صامتا، غير مبال، بل حتى عنيفا فى بعض الأحيان، تجلس بائسة، يعذبها إهماله لها وعجزها عن تطهير منزلها من تلك العشيقة التى استطاعت بسكونها الجامد أن تطيح بها وتخلب لب كلود!

شعرت كريستين بوطأة الهزيمة، وسطوة الفن وهيمنته على مستقبلها وحياتها. ألم تكن هى من قبلت هذه اللوحة دون قيود؟ بل رفعتها إلى درجة التقديس؟ ولكن ها قد سحقتها تماما. أصبحت تستشعر أمامها خوفًا غريبًا ويقينًا بأنها لن تستطيع المقاومة، وستنكسر كقشة رقيقة إذا حاولت مواجهتها. كانت اللوحات تتعاظم فى عينيها ككتل ضخمة، فحتى أصغرها كانت تتراءى لها عظيمة مهيبة، ومع أنها لن تكن تقبل أيًا منها، فقد كانت تنظر لها برعدة وإجلال، مؤكدة لزوجها أن جميع لوحاته رائعة: "إنها جميلة جدا!... بديعة!... تلك اللوحة إنها رائعة، لا مثيل لها بالفعل!"

لم تكن غاضبة منه، فعشقها له فاق كل الحدود، وكان قلبها يرق له حينما تراه يتعذب ويتألم بسبب لوحاته.

انهار كل شيء بعد أن قضى بضعة أسابيع سعيدًا بعمله، ولم يعد قادرا على إنهاء تلك المرأة التى تتوسط اللوحة، فزاد من الضغط على كريستين وأرهقها فى العمل، منكبا على الرسم لأيام كاملة، مستنفدًا طاقته، حتى قرر ترك كل شيء، فتوقف عن الرسم لشهر تقريبا. كان سبق وعمل فى صورة المرأة عشرات المرات، فيبدأها، ثم يتركها، ويمحوها ليبدأها من جديد. مر عامان، دون أن تتقدم اللوحة، فما أن يوشك على إنهائها، حتى يمحى بعض تفاصيلها ويبدأها مرة أخرى.

ما أصعب هذا الألم وما أشد هذه المعاناة! ألم ومعاناة الإبداع، هذا الجهد الدامى، والدموع المذروفة من فرط العذاب! عذاب بث الحياة فى لوحة جامدة! تلك المعركة الطاحنة التى لا تتوقف ضد الواقع! كم هى أليمة الهزيمة والإندحار! كان يشعر كمن يتفتت وينسحق تحت وطأة عجزه عن العمل، عن وضع الطبيعة كلها فى لوحة واحدة، وأنهكته الآلام المبرحة التى تسرى فى أوصاله، دون أن تتمخض عن أى شيء ينطق بعظمة عبقريته!

سخر بنفور من قبول الآخرين للغش، أو الإهمال فى نقل التفاصيل. كانت مثل هذه الأمور تثقله بالندم، فهى إشارة للضعف والجبن. لم يكن يتوقف عن بدء العمل، فكان يمحو الجيد من أجل الأفضل، يمحو كل ما يراه صامتا لا يصدح ويُطرب من يراه، لم يكن يرضى على الإطلاق عن نساء لوحاته ما لم يفرن بالحياة ويشعرن الجميع بالدماء التى تجرى فى عروقهن. ما الذى ينقصه إذًا ليبث فيهن الحياة؟ لا شيء! فربما كانت موهبته أقل،

أو أعلى من هذا! ذات يوم، سمع أحدهم يتحدث عنه ويصفه بأنه عبقرى ولكن ينقصه بعض الأشياء، غمرته هذه العبارة بالإطراء والرعب فى آن واحد. لعل هذا هو السبب فربما يبذل جهدا أقل مما يجب، أو أكثر مما يجب! أم لعله اضطرابه العصبى المستمر، أو الخلل الوراثى الذى بدلا من أن يجعله رجلا عظيما، صنع منه وحشا مجنونا؟

كان، بمجرد أن يغزوه اليأس والقنوط، يخرج من المرسم هاربا من لوحته، تتنازعه الأفكار السوداوية حتى يتيقن من إصابته بعجز قاتل يطيح بطموحاته ويطن فى رأسه كتجاوب طرقات أجراس متواصلة تعلن نهاية الأمل.

انقلبت حياته جحيما، فلم يسبق لنوبات الشك أن عصفت به إلى هذه الدرجة. كان يختفى لأيام كاملة، ويتغيب ليلا، ليعود شاردا فى الصباح لا يعرف أين كان، فيفضل التجول فى الضواحى ليلا على المكوث أمام لوحته الفاشلة. كانت متعته الوحيدة هى الفرار من وجه اللوحة التى ملأته خزيا وحقدًا. لم يكن يعود سوى عندما تواتيه الشجاعة على مواجهتها مرة أخرى. لم تكن كريستين تجرؤ على سؤاله أين كان؟ يكفيها عودته سالما، فتفرح للقائه، بعد أن أضناها القلق من طول الانتظار. كان يسير فى كل جوانب باريس وضواحيها، وقد عادت تطارده رغبة قديمة فى التخلى عن الرسم والعمل كمساعد بناء، فما فائدة امتلاكه لجسد قوى صالح للعمل؟ كان يندم على إضاعة الكثير من الفرص فى الماضى، فلماذا لم يقبل العمل الذى عرضه عليه صديق له تعرف عليه فى مطعم جومارد؟

ثم يعود إلى منزله، وقد أنهكت ساقاه وفرغ رأسه، ليلقى نظرة حزينة خائفة على لوحته كمن يشيع جثمانًا ميتًا بقلب دامٍ. ويطول الانتظار حتى يتجدد فى داخله الأمل فى إعادة إحيائها وبعثها حية من جديد، فيضىء وجهه فرحًا ويشرع فى العمل.

ذات يوم، كانت كريستين واقفة فى الوضعية التى حددها لها، وقاربت صورة المرأة على الانتهاء، إلا أن كلود بدأ غارقا فى تعاسة لا حد لها منذ أكثر من ساعة، وتلاشت الفرحة الطفولية التى بدأ بها الجلسة. فشعرت كريستين بدنو الكارثة، وبأن الكل على وشك الانهيار، ولكنها لم تجرؤ حتى على التنفس، خشية أن تعجل باندلاع العاصفة إذا ما صدرت عنها أقل إيماءة.

أطلق كلود فجأة صرخة مؤلمة، تبعها سيل من اللعنات بصوت مدوٍ كقصف الرعد. أفلتت الفرش من يده وتهاوت على الأرض. وفى غضب أعمى، سدد ضربة قوية إلى اللوحة شقتها من المنتصف.

ركضت كريستين ناحيته وهى ترتجف: "اهدأ يا عزيزى!... اهدأ يا عزيزى..."

ألقت الرداء على كتفيها واقتربت منه. شعرت فى أعماقها بسعادة غامرة وارتياح عميق بعد أن تخلصت من غريمتها. جاءت الضربة لتقسم صدر المرأة إلى نصفين، محدثة شقًا واسعًا، وكأنه جرح غائر. أخيرا، قتلها!

تسمر كلود فى مكانه، عاجزا عن استيعاب جريمته، مسددًا نظرات مذهولة إلى هذا الصدر المشقوق والفراغ الذى يظهر من ورائه، واجتاحه

حزن رهيب وهو يتأمل هذا الجرح الذى أحدثه فى قلب محبوبته التى سالت دماؤها أمامه. أهذا حقيقى؟ أستطاع أن يقتل أغلى ما فى خياته؟ تحول غضبه إلى ذهول، وجثا على ركبتيه يمرر أصابعه على اللوحة وهو يتحسس مكان الجرح عسى أن يندمل بين يديه.

كان ألمه لا يوصف، واختنقت الكلمات على شفتيه: "لقد تمزقت... لقد تمزقت...".

أمام هذا الحزن والألم الرهيب، شعرت كريستين بفرحتها تتداعى، وبالحزن يعتصر أحشاءها، وأشفقت على محاولاته اليائسة لإصلاح ما أفسده ليداوى هذا الجرح، فهبت لتساعده، ممسكة بقطعة القماش، بينما حاول هو تثبيت قطعة صغيرة من الخلف مكان الشق.

بمجرد أن انتهت من ارتداء ملابسها، نظرت لتجد المرأة الأخرى واقفة أمامها مرة أخرى، فى غلبة وانتصار، بينما لم يتبق من آثار الجرح العميق سوى ندبة صغيرة قرب القلب ضاعفت من شغف كلود بها.

كان اضطرابه يزداد يوما بعد يوم، فوقع فريسة لبعض الخرافات التافهة بشأن طرق الرسم المختلفة، فامتنع عن استخدام الزيت، وكأنه عدو شخصى له، بينما فضل البنزين لقتامته وصلابته. كان يحتفظ لنفسه ببعض الأسرار الخاصة به، مثل استخدام خلاصة العنبر، والصمغ السائل الذى يجف سريعا ويحافظ على اللوحة من التشقق. كان عليه أيضًا أن يزيل أثر الألوان القاتمة الكئيبة، خاصة وأن أقمشة لوحته سريعة الامتصاص، تتشرب

على الفور أى نقطة زيتية فى الألوان. كما شغلته مسألة أخرى، وهى فرشاته، كان يشترط أن تكون ذات مقبض مخصوص، ومصنوعة من شعر الذنب المجفف، وليس من شعر السمور. أما قضيته الأساسية، فكانت سكينة الألوان، التى يستخدمها، على غرار كوربيه، فى رسم الخلفيات. كانت لديه تشكيلة كبيرة من السكاكين، فمنها الطويلة، والمرنة، والعريضة، والقصيرة، والمستطيلة كسكين دولاكروا. لم يكن يستخدم المحك أو المكشط والشفرات، محتقرًا استخدامها. فى المقابل، كان يلجأ لجميع الوسائل، حتى الغريبة منها، لتجهيز درجات الألوان المنشودة، مبتدعًا طرقًا جديدة للرسم، يغيرها باستمرار، فتخلى عن استخدام الزيت السائل، مفضلا ضربات الفرشاة المتتالية ليصل بها إلى اللون المقصود. ثم ظهر لديه هوس جديد، استمر طويلا، وهو الرسم من اليمين إلى اليسار، معتقدا فى داخله أن هذا يجلب الحظ الجيد. وإن كانت أسوأ تجاربه ومغامراته هى محاولته لتطبيق نظريته الكاسحة حول الألوان التكميلية، التى حدثه عنها جانيير فى البداية. فمضى، فى سورة انفعاله المتنامى، يبالغ فى تطبيق هذا المبدأ العلمى الذى يخرج من الألوان الأساسية الثلاثة: الأصفر والأحمر والأزرق، ثلاثة ألوان فرعية: البرتقالى والأخضر والبنفسجى، وهكذا دواليك، ليخرج فى النهاية مجموعة من الألوان التكميلية والمماثلة. ومن هنا أدرك تداخل العلم والفن، والطريقة الحديثة ثمرة الملاحظة المنطقية للوحات: فيكفى اكتشاف اللون السائد فى اللوحة، ليستخرج منه التكميلى والمماثل، ليصل فى النهاية، عن طريق التجربة، إلى التنويعاتِ المختلفة الموجودة فى نفس اللوحة، مثل الأحمر الذى يتحول إلى الأصفر إذا وضع بالقرب من الأزرق، ومن ثم فقد تتغير درجات

لوحة لمنظر طبيعى بأكملها بتأثير من الانعكاسات أو زاوية الإضاءة بحسب الغيوم المارة. وتوصل إلى استنتاج حقيقى، وهو أن الأشياء ليس لهـا لـون ثابت، وإنما تتلون وفقا للظروف المحيطة.

كانت هذه التأملات العلمية والملاحظات المباشرة تجعل عينه حـساسة للدرجات والتأثيرات الدقيقة، فكانت لوحاته مثالا حيا على صـدق نظريتـه، حتى تحولت قدرته المتميزة فى إظهار الألوان إلى نوع من المجازفة تضرب صفحا عما ألفته الأعين، لتصور الأجساد المائلة إلـى البنفـسجى والـسماء متنوعة الألوان. ألعله هو الجنون الوشيك؟

أضنى البؤس كلود، واستمر الوضع يتدهور حتى لم يعد هناك سـبيل لإصلاحه، تبخرت النقود، فلم يبق مليم واحد من الثروة الماضـية. حاولـت كريستين دون جدوى أن تجد عملا، فلم تكن تجيد أى شىء، حتى الحياكـة، ومنعها عجزها عن العمل عن مساعدته، وصبت جام غضبها على نـشأتها التافهة التى لم تؤهلها لأى عمل سوى عمل الخادمة، والذى لن تتورع عـن اللجوء إليه إذا ما استمرت الأوضاع فى التردى. فى نفس الوقت، قبع كلـود مستسلما للسخرية واللامبالاة، فلم يعد يبيع أيًّا من لوحاته الصغيرة، خاصـة بعد أن انفض الهواة والتجار من حوله فى أعقاب معرض مستقل أقامه مـع مجموعة من زملائه ليعرضوا جميعا لوحاتهم، فلم يسع الجماهير سـوى أن يسخروا من أعمال هذا الرسام الذى يملأ لوحاته بألوان الطيف جميعها. فنفر منه التجار، ماعدا السيد هيو، الذى كان كثيرا ما يتردد على مرسمه ليتأمـل فى نشوة هذه اللوحات الصارخة المنطلقة كقذائف مدوية، وليتحسر على عدم

قدرته على أن يكسوها بالذهب. كان كلود يؤكد له دائما أنه علــى اســتعداد ليهديها له دون مقابل. كان السيد هيو يقتر على نفسه بشدة ليدخر من حــين لآخر بعض النقود ليشترى بها لوحةً أو أكثر، يعود بها بفرح ممزوج بحبور وخشوع ليضعها إلى جوار لوحات كبار الفنانين.

بعد فترة، اضطر كلود إلى اللجوء إلى الأعمال التجاريّــة الرخيــصة، بازدراء وإحباط، لاعناً الظروف التى قادته إلى هذا الجحيم الذى أقسم ألا يدخله حتى ولو مات جوعا، ولكن ماذا يفعل بكريستين وجاك اللذين أجهز عليهما الفقر والبؤس. فعمد إلى صنع الصلبان ذات الأسعار الزهيــدة، ولوحــات القديــسين والقديسات بالجملة، والرسم على الأقمشة، وغيرها من الأعمال البخــسة التــى تحط من مكانة الفن وتقصر الرسم على النقل الأحمق الساذج.

واستمر الانحدار إلى الهاوية، حتى لجأ للعمل بالقطعة لــدى صــغار التجار الذين يبيعون اللوحات فوق الجسور، والذين يتعاملون مع الرســامين المشردين، فيشترون منهم اللوحة بفرنكين أو ثلاثة وفقا لحجمهــا. أوشــكت الأزمة على الفتك به، فاستمر نحوله وذبوله. كانت هذه الجلــسات الحقيــرة تصيبه بالإعياء والضيق، فيخرج منها كالمريض، عاجزا عن استئناف الرسم الحقيقى الجاد، مكتفيًا بالوقوف أمام لوحته ليتأملها فى حزن كأنه يستغيث بها لتنتشله من هذا المصير الملعون. كان يقضى أياما وأسابيع دون أن يقربهــا، خشية أن يدنسها بيديه الواهنتين.

حل الشتاء، وجثم البؤس على نفوسهم، كان لديهم بالكاد ما يسد رمقهم. غدا المرسم، بقاعته الواسعة – التى أضفت عليها كريستين بنــشاطها جــوا

مبهجا عند انتقالهما- مكاناً موحشا خاليا، فلم تعد قادرة على تنظيفه بعد أن خارت قواها وأقعدها الفقر. تدهورت صحة جاك بسبب نقص الغذاء، الذى اقتصر على الخبز. حلت الكارثة، وغرقت حياتهم فى الإهمال والقذارة، وكأن الفقر سلبهم ما تبقى من كبرياء.

فى العام التالى ، كان كلود يتجول فى باريس هربا من مواجهة لوحته، كان قد قرر ألا يعود إلى مرسمه إلى الأبد، فانطلق فى الطرقات كمن يقتفى أثر طيف معشوقته التى أفسدتها كثرة التعديلات. كان يبحث بضراوة فى هذا الجو الممطر عن شبحها عله يريحه من آلامه وأتعابه.

دقت الساعة الخامسة، وكلود يعبر شارع رويال بخطوات متثاقلة، فى ثيابه الرثة الملطخة بآثار البقع الطينية التى غطت الطرقات، وفجأة اعترضت طريقه عربة.

- "كلود! كلود!... أنسيت أصدقاءك أم ماذا؟"

كانت تلك هى إيرما بيكو؛ مرتدية ثيابا فاخرة من الحرير الرمادى رصعته الثلوج، فنفضتها بحماس، واستأنفت حديثها بابتسامة مشرقة أنارت باب العربة: "إلى أين أنت ذاهب؟"

ظل كلود فاغرا فيه فى ذهول دون أن يجيب، فازدادت سعادتها وهى ترمقه بعينيها الفاجرتين، وأفصحت ثنية فمها عن رغبة جامحة تضطرم فى داخلها.

- "اصعد معى إذاً، فأنا لم أرك منذ فترة طويلة!... هيا اصعد قبل أن تصدمك إحدى العربات!"

كانت العربات تسير بسرعة فى الطرقات، محدثة ضوضاء عارمـــة. ووجد كلود نفسه يصعد معها كالتائه، وجلس معهـــا فـــى العربـــة المبطنـــة بالحرير وهو يقطر ماء وقد اقشعر بدنه، بينما تعالـــت ضـــحكات ســـائقى العربات من هذا "الاختطاف" الغريب.

حققت إيرما حلمها فى امتلاك نزل خاص بها فى شارع فيليه، استغرق بناؤه عدة سنوات. كانت قد حصلت على الأرض من عشيق لها، ثـــم علـــى مبلغ خمسمائة ألف فرنك، مصاريف البناء، مـــن عـــشيق آخـــر، وأخيـــرا الثلاثمائة ألف فرنك لتأثيث وتجهيز النزل من الداخل من عشيق جديد.

كان النزل فاخرا ومترفا بالفعل، ذا طابع فخم ينطق برفاهيـــة مثيـــرة ودلت غرفة النوم على أنها لامرأة شهوانية؛ بفراشـــها الـــضخم وأبـــسطتها الرقيقة المفروشة منذ البهو الخارجى وحتى الجدران المبطنة بالمخمل.

وبمجرد أن وصلت ومعها كلود، قررت ألا تستقبل أحدا حتى تنتهـــى، فكانت على استعداد أن تضحى بثروة فى مقابل إشباع هذه النزوة التى طالما تاقت إليها. أثناء جلوسهما فى غرفة الطعام، وجدت عشيقا لها مصرا علـــى الدخول، ولكنها منعته بحدة وألزمته بانتظارها فـــى مكانـــه. جلـــسا ســـويا يضحكان كالأطفال، ويأكلان بنهم، على الرغم من ضعف شهيتها فى العادة. كانت تسدد إليه نظرات ساحرة، وهى تضحك من لحيته المـــشعثة وســـترته منزوعة الأزرار.

استسلم لها كلود كالحالم، وقد انشغل بافتراس الطعـــام، تحـــت أعـــين الخادم المتعالية.

وبعد أن فرغا من العشاء، طلبت إيرما من الخادم إحضار القهوة والمشروبات إلى غرفتها.

لم تتجاوز الساعة الثامنة، ولكن إيرما كانت ترغب بشدة فى الاختلاء بكلود. فدخلت مسرعة وأغلقت المزلاج، ثم قالت ضاحكة: "تصبحون على خير! لقد ذهبت لأنام!"

والتفتت إليه قائلة: "استرح قليلا.. لدينا كثير من الوقت لنتحدث فيه!"

دخل كلود معها بهدوء إلى الغرفة الفاخرة بجدرانها المبطنة بالحرير البنفسجى المزين بالدانتيل الفضى وبفراشها المهيب وستائره المطرزة كالعروش، وخلع سترته مكتفيًا بقميصه كما لو كان فى منزله. ولم لا فمادام أقسم على ألا يعود إلى منزله، فالنوم هنا أفضل من الاستلقاء أسفل الجسور؟ لم تبد له هذه المغامرة غريبة أو مستهجنة فى ظل انهيار وتداعى حياته، بينما عجزت إيرما عن استيعاب استسلامه الفظ، فوجدته عجيبا جدا هذه المرة. فانقضت عليه متجاهلة كل هذا، ونزعت بعض ثيابها ومضت تداعبه وتلعب معه كما يلعب الأطفال السوقيون فى الطرقات.

- "أتعلم؟ الجميع يقول إننى أحب الحمقى والمغفلين، ولكنك لست كذلك!... أنت تجعلنى أتغير بالفعل! صدقنى أنت لست مثل أى شخص!"

أمسكته بقوة، مؤكدة له أنها طالما رغبت فيه لسوء هندامه وتوحشه. كانت ضحكاتها القوية تخنق الكلمات على شفتيها، وكلما أدركت مدى قبحه وغرابة أطواره، زادت فى عناقه وتقبيله بجنون فى كل مكان.

دقت الساعة الثالثة صباحا، وايرما لا تزال ممددة عارية على الفراش، ثم سألته:

"بالمناسبة، كيف هى أحوال حبيبتك؟ أتزوجتها؟"

فتح كلود عينيه المتعبتين وقال: "نعم."

فسألته ثانية: "أمازلتما تلتقيان فى الفراش؟"

- "بالطبع."

فعادت إلى الضحك وأضافت: "آه! يا صديقى المسكين... كم تراك تعانى من الملل!"

وفى الغد، سمحت له إيرما بالخروج، ووقفت على الباب، وقد تورد وجهها، وبدت رائعة الجمال بردائها وتسريحتها الهادئة، ثم أمسكت بيديه وضمتهما بقوة، وبدا عليه التأثر وهى تتأمله فى إشفاق مرح.

- "أنا أعلم أنك لم تكن سعيدا يا عزيزى ليلة أمس! فنحن النساء نشعر بمثل هذه الأمور... ولكننى قضيت ليلة من أجمل الليالى، شكرا لك!"

وهكذا انتهى كل شيء، ووصلت مغامرته إلى نهايتها، فقد كان ينبغى أن يدفع ثمنًا باهظا لتوافق على العودة لمقابلته.

عاد كلود مسرعا إلى منزله، يخامره شعور غريب، مزيج من الزهو والندم، جعله يجلس لأكثر من ساعتين دون أن يفكر فى لوحته، وراودته

أفكار أخرى حول حياته التى ربما يكون قد أضاعها هباء. لم يكن كعادتــه، بل بدا نشيطا فائر الحماسة، فسألته كريستين عن السبب. تلعثم فى البدايــة، ولكنه انتهى بالاعتراف بكل شىء. وقعت بينهما مشاجرة، وقضت كريستين ساعات طويلة تبكى، ولكنها غفرت له فى النهاية كعادتها فى التغاضى عــن أخطائه. ومن وراء حزنها العميق، لاح فرح خفى نابع من الفخر بقدرته على القيام بمغامرات عاطفية، ومن الأمل فى تجدد عاطفته المشبوبة تجاهها مادام عاد إليها مرة أخرى. أيقظت تلك المغامرة الشغف الذى أفل وحلــت محلــه الغيرة من تلك اللوحة، التى بلغ كرهها لها درجة جعلتها مستعدة للتنازل عنه لامرأة أخرى على أن تتركه يتدله بحب اللوحة.

نحو منتصف الشتاء، تلقى كلود دفعة جديدة، حينما عثر، أثناء ترتيبــه لبعض اللوحات القديمة، على ما تبقى من لوحة"الهواء الطلق"، فبعد عودتهــا من المعرض، مزقها بالسكين ولم يحتفظ منها سوى بصورة المرأة العاريــة النائمة وسط العشب. أخذ يتأملها مليا مطلقا صيحات الإعجاب: "يا إلهى! ما أروعها!"

وعلى الفور، نهض وعلقها على الحائط ليقــضى ســاعات يتأملهــا ويتفحص تفاصيلها عن كثب ويداه ترتعشان وتتدفق الدماء بقوة إلى وجهــه من فرط الانفعال. أستطاع فعلا أن يرسم لوحة متميزة إلى هذه الدرجة؟ أكان موهوبا وعبقريا إلى هذا المدى؟ ماذا حدث إذًا؟ أهو عقله؟ أم أصــابعه؟ أم عيناه؟ لماذا تخونه موهبته الآن؟ كانت اللوحة تثيره إلى أقصى درجة وتوقظ

فى داخله رغبة فى الإفصاح وكشف خبايا قلبه، فلم يلبث حتى نادى كريستين: "تعالى! تعالى وانظرى!... أرأيت كم هى جميلة؟ هذه السيقان التى تلمع تحت أشعة الشمس، وهذه الأكتاف والنهود، ما أروعها!... كأنها حية بالفعل! أنا أشعر بها تتحرك وكأننى ألمس هذا الجسد الناعم الدافئ وأشم رائحته!"

ظلت كريستين واقفة إلى جواره تتأمل هى الأخرى وتجيب بعبارات مقتضبة. ترك بعثها مرة أخرى بعد كل هذه السنين أثرا غريبا فى نفسها. فرؤيتها لنفسها كما كانت وهى فى الثامنة عشرة من عمرها أطرتها وفاجأتها على السواء. ولكنها سرعان ما أحست بضيق شديد وانزعاج غير مبرر أمام انفعاله الشغوف المشبوب بالعاطفة الملتهبة، فصمتت.

- "ماذا؟ ألا ترين مدى جمالها؟ ألا تشعرين بالرغبة فى الانحناء أمام هذا الجمال الباهر؟"

- "بلى! بلى! ولكننى أرى أنها فقدت رونقها قليلا."

احتج كلود بعنف: " فقدت رونقها؟ دعك من هذا! إنها خالدة الجمال ومتجددة الشباب! يستحيل أن تفقد رونقها!"

استحوذت عليه عاطفة حب قوية تجاهها، فتحدث عنها وكأنها شخصية حقيقية تأخذه رغبة ملحة فى رؤيتها حتى لو تخلى فى سبيلها عن أى شىء.

استولت عليه حمى العمل فى ذات يوم، وقال: "أقسم أننى سأنهى تلك اللوحة وستكون لوحة رائعة، مادمت قد رسمت من قبل هذه التحفة الفنية... لن أكرر أخطاء الماضى، وسنرى!"

نزعت كريستين ملابسها فورا، واتخذت وضعيتها بسرعة لئلا تفتــر همته، بينما استقر هو على سلمه يتحرق شوقا لاستئناف العمل فى لوحته.

مر ما يقرب من شهر، وكلود يجبر كريستين على الجلــوس عاريــة لأكثر من ثمانى ساعات يوميا، حتى تتخدر ساقاها من الوقوف، لم يكن يشفق عليها من الإنهاك، فقد تعلم تجاهل أى تعب أو إرهاق بعنف وشراسة لا مثيل لهما. كان مصرًا على أن تكون لوحته تحفة فريدة من نوعها، فأراد أن يجعل من تلك المرأة الواقفة صورة تفوق جمالا وروعة المرأة الأخرى النائمة على العشب، المعلقة أمامه على الحائط تسطع مشرقة نابضة بالحياة. كان دائما ما يتفحصها، ويعقد مقارنات بين المرأتين، وقد أوهنه الخوف من ألا يستطيع أن يرسم مثلها إلى الأبد. مسددًا إليها نظراته المتلهفة، ثم إلى كريستين، ثم إلــى لوحته، وإذا لم يعجبه عمله، ينهال سيل السباب واللعنات.

وفى إحدى المرات قال لكريستين: "لقد تغيرت كثيرا عن ذلك الوقت يا عزيزتى، حينما رسمتك فى مرسم بوربون! لقد تغيرت تماما!... كــم هــذا غريب! كان لديك نهدان ناضجان على الرغم من صغر سنك. أنا أذكر كــم تفاجأت حينما رأيتهما! فكيف تمتلك فتاة نهدين كهذين، وتحتفظ برقة وضعف الطفولة... يا لنعومتهما ونضارتهما الساحرتين!... لك كل الحق فى التفاخر بنفسك، كان لديك جسد غاية فى الجمال!"

لم يكن يقصد جرحها أو إهانتها، كان يتكلم من منطلق كونــه فنانًــا يلاحظ ويتأمل عمله، ويتحدث عن جسدها كأنه لوحة أفسدها الزمن.

- "لا يزال لونه مبهرا، ولكن تغير شكله تماما!... وحدها السيقان احتفظت بجمالها القديم، فهى آخر ما يتدهور لدى النساء! ولكن البطن والنهدين، عجبا كيف حدث هذا؟ لقد تغيرا تماما! تعالى وانظرى فى المرآة ستجدين انتفاخات متورمة، ليس هناك ما أرسمه! اذهبى وتأملى اللوحة، لن تجدى هناك أيًّا من هذه الانتفاخات!" وأشار إلى المرأة المستلقية برقة، ثم قال: "إنه ليس خطأك، ولكن هذا ما يمنعنى من المضى قدما فى اللوحة... يا لسوء الحظ!"

- أنصتت كريستين إليه مترنحة من فرط الحزن. وباتت الساعات التى تجلس فيها للرسم ضربا من المعاناة والتعذيب يفوق أى احتمال. فلماذا يصر على إيلامها بهذا الشكل مذكرا إياها بشبابها القديم، مشعلاً بداخلها الغيرة والندم على جمالها الضائع؟ فهل أصبحت الآن غريمة نفسها؟ لم تعد تطيق النظر إلى صورتها القديمة دون أن ينشب الحزن والندم أظفارهما فى قلبها ويمزقاه تمزيقا. بدأت مأساتها مع هذه اللوحة، فى اليوم الذى رآها فيه نائمة وقد برز نهداها وانحسرت ثيابها كاشفة عن جسد بض، ثم تلك اللحظة التى وافقت فيها على أن يرسمها، واستسلامها له بعد سخرية الجماهير من لوحته واستهزائها بجسدها العارى، ثم استرجعت حياتها كلها، وحتى تدنيها إلى درجة العمل كعارضة له بعد أن فقدت حبه لها. وها هى تلك اللوحة القديمة التى تفوقها حيوية وفوران تبعث من جديد لتجهز على ما تبقى منها. لم يعد

كلود يرى فيها سوى اللوحة، فهى ليست سوى تلك المرأة المستلقية على العشب، والتى عادت لتتجسد فى تلك المرأة الواقفة فى لوحته الجديدة.

مع كل جلسة، شعرت كريسين بوطأة تقدم العمر، فتتأمل صورتها القديمة فى حزن. اعتقدت أن السن قد قضت على جمالها القديم، لم يسبق لها أن نظرت لنفسها تلك النظرة التى ملأتها خزيا ونفورا من جسدها، فأدركت شعور النساء حينما يهجرهن الحب، ومعه جمالهن القديم. ألعل هذا هو السبب وراء نضوب حبه ولجوئه إلى الأخريات؟ لم تكن غبية، فقد أدركت أنها لم تعد كما كانت، فهى لا ترتدى سوى قميص وتنورة متسخين، بعد أن فقدت أناقتها ونعومتها القديمة. وتيقنت من عدم جدوى المقاومة فقد تقدمت فى العمر.

وفى أحد الأيام، استشاط كلود غضبا بعد جلسة فاشلة، فأطلق صرخة رهيبة زلزلت كيانها. كان على وشك أن يمزق اللوحة، وزعزعته نوبة غضب عارمة أخرجته عن طوره، فلم يجد سوى كريستين ليصب عليها جام سخطه: "لا! لا يمكننى عمل أى شىء بمثل هذا الجسد!... انظرى! إذا أردت الجلوس للرسم، لم يكن عليك إنجاب أطفال!"

هزتها الإهانة الموجعة وأحدثت فى داخلها ثورة عارمة، فركضت باكية لترتدى ثيابها. شردت يداها وعجزت عن إيجاد ملابسها لتتغطى بأقصى سرعة. ندم كلود بشدة، ونزل على الفور ليطلب صفحها: "أنا آسف! لقد أخطأت، أنا لست سوى شخص بائس!... من فضلك، أرجوك عودى إلى وضعك السابق لأعلم أنك لم تعودى غاضبة منى".

كان يمسك بجسدها العارى ويضمه إليه، ثم نزع عنها قميصها الذى لم تكن بعد قد ارتدته بالكامل. سامحته مرة أخرى، وعادت لتقف من جديد، مرتجفة بشدة من أثر دفقات الألم التى سرت فى أوصالها، بينما انهمرت الدموع من مقلتيها وتدافعت على وجنتيها وصدرها تاركة قطرات لامعة على جسدها. كانت تفكر فى جاك، ابنها، ألم يكن من الأفضل ألا تنجبه! فلعله هو السبب وراء كل هذا؟ توقفت عن البكاء، وغفرت لكلود تماما، باحثة له عن أعذار، بينما وجهت غضبها الدفين إلى جاك المسكين الذى لم تشعر نحوه قط بأى مشاعر أمومة، وأصبحت تكن له الحقد لأنه قتل فى داخلها العشيقة.

انهمك كلود فى عمله وازداد إصراره هذه المرة حتى أوشك على إنهاء اللوحة، وأقسم على أن يرسلها إلى المعرض. لم يكن يغادر السلم، عاكفا على إنهاء الخلفيات حتى أوقات متأخرة من الليل. وأخيرا، أنهى لوحته، وقد أضناه الإعياء، مؤكدا أنه لن يضع عليها أى تعديلات أخرى، ثم خرج.

وعندما جاء صاندوز نحو الساعة الرابعة عصرا، لم يجده، فأخبرته كريستين أنه أراد أن يستنشق بعض الهواء النقى على الهضبة.

ازداد ابتعاد كلود عن أصدقائه القدامى، بعد أن قللوا وباعدوا بين زياراتهم له، بسبب تلك اللوحة المضطربة التى عجلت بانهيار إعجابهم القديم به، فانفض من حوله الجميع. رحل جانيير عن باريس للإقامة فى منزله بميلون حيث يعيش بالكاد من المبلغ الذى يأتيه من تأجير منزله الآخر، بعد أن تزوج فجأة من معلمة البيانو التى تكبره سنا، وكانت تعلمه مقطوعات

فاجنر. أما ماهودو، فكان يتحجج بالعمل، بعد أن بدأ يجنى بعض النقود من وراء صانع تماثيل برونزية كان يستخدمه لإضفاء التعديلات الأخيرة على أعماله. بينما اختفى جورى تماما بعد أن استحوذت عليه ماتيلد وفرضت عليه نوعًا من العزلة، فكانت تطعمه وتسبغ عليه النعم لتضمن بقاءه إلى جانبها، ولكنها حرصت على تخلصيه من عادته القديمة من بخل وتسكع، وجعلته ينحدر إلى نوع من العبودية كالكلب الوفى، فلم تكن تسمح له بامتلاك النقود سوى ما يكفى لشراء سيجارة إذا ما تفضلت عليه ووهبته عشرين مليما، ويقال إنها حرصت على تعليمه المبادئ الدينية، وتدريبه على الخوف من الموت الذى كانت تخشاه بفظاعة. وحده فاجرول الذى استمر يتظاهر بتمسكه بخيوط الود والصداقة الحميمة مع كلود، فكلما التقى به كان يعده بالحضور لرؤيته، دون أن يفى بوعوده، نظرا لانشغاله الشديد، فمنذ نجاحه الساحق، وشهرته فى ازدياد، ولم يعد يلاقى سوى الثروات والأمجاد! لم يعد كلود غاضبا من دوبوش الذى انفصل عنهم تماما بعد زواجه، ولكنه لم يكن سعيدا على الإطلاق، على الرغم من ثروته التى تجاوزت الملايين، بسبب صراعاته المستمرة مع حميه الذى ظل يؤكد أنه انخدع في قدراته كمعمارى، وبسبب مرض زوجته الضعيفة وولديه الهزيلين اللذين ولدا قبل موعدهما.

انقطعت كل أواصر الصداقة القديمة، ولم يعد يتبقى له سوى صاندوز الذى ظل يزوره فى مرسمه بشارع تورلاك. كان يتردد على المكان بكثرة للاطمئنان على جاك، وعلى كريستين المسكينة التى كان وجهها البائس يترك

فى نفسه أثرا عميقا، فكان يراها كإحدى شخصياته الروائية التى تـضحى بكـل شىء فى سبيل حبها. ازداد إشفاقه على كلود الذى استمر يتخبط ويتعثـر فـى طريقه، حتى أوشك على أن يهوى فى دوامة الجنون، مما ضاعف من اندهاشه، فقد كان يؤمن بكلود أكثر من إيمانه بذاته! فمنذ أيام الدراسة، كان دائما ما يضع نفسه فى المرتبة الثانية بعد كلود، الذى كان يرفعه إلى مصاف العظماء الـذين يحدثون الثورات والتغييرات الجذرية فى العصر الذى يعيشون فيه.

كان يشعر بنوع من الشفقة الممزوجة بالحسرة لفشل موهبة عبقريـة كموهبة كلود، وانتابه إحساس دامٍ بالمرارة أمام عذاب العجز الألـيم الـذى يخنق صديقه أمام عينيه. أيمكن لأحد أن يعرف ما هو الجنون فى الفن؟ كان يتأثر بشدة ويرق لحال العباقرة المجهضين، وكلما ازداد عناد لوحة أو كتاب تضاعف الجهد والحسرة، ونما فى داخله شعور بالتضامن والتوحد معهم فى أحلامهم صعبة المنال.

لم يمض صاندوز عندما علم أن كلود ليس بالمنزل، وقرر البقاء حينما وجد كريستين باكية، فسألها: "لو كان سيعود بعد قليل، سأنتظره."

- "أعتقد أنه لن يتأخر."

- "سأنتظره إذًا إلا إذا كنت سأسبب لك أى إزعاج."

لم يسبق له أن رق لحالها كهذه المرة، وهى جالسة فى خنوع واستكانة كالمرأة التى هجرها زوجها، بإيماءتها الفاترة، وعباراتها المقتضبة البطيئة، وإغفالها لأى شىء لا يمت بصلة لعاطفتها التى تشتعل داخلها. مر ما يزيـد

عن أسبوع، دون أن تحرك مقعدا من مكانه أو تنظف الأثاث، تاركة المنزل يصل إلى درجة مزرية من الفوضى، وقد بدت فى حالة من الإعياء حتى أعوزتها القدرة على النهوض. كان منظر المنزل مقبضا بائسا، وقد أظهر الضوء القادم من النافذة القذارة التى غطت كل شىء، فلم يبد كمنزل، وإنما كمخزن قذر فارغ، تعمه الفوضى فى كل مكان، ولا تنبعث منه سوى رائحة الحزن والكآبة.

بخطوات متثاقلة، ذهبت كريستين للجلوس بجانب فراش صغير، لم يفطن صاندوز إلى وجوده حينما دخل، فسألها: "أجاك مريض؟"

فأجابت وهى تغطى الطفل الذى لم يتوقف عن نزع الغطاء: "نعم! إنه لم يفق منذ ثلاثة أيام. فأحضرنا فراشه إلى هنا ليبقى إلى جانبنا... كان دائما معتل الصحة! ومازال يتدهور. كم هذا محبط! "

رأى صاندوز عينيها الشاردتين وصوتها الرتيب، فازداد قلقه، فاقترب ليرى الطفل. كان رأسه قد تضاعف حجمه، وازداد ثقله حتى عجز الطفل عن رفعه. كان جاك نائما بغير حراك وشحب وجهه، حتى يظن من يراه أنه ميت لولا أنفاسه القوية الخارجة من شفتيه الباهتتين.

– "جاك يا صغيرى، إنه أنا، أنا عمك صاندوز!... ألا تريد أن تحيينى؟"

حاول جاك بصعوبة أن يحرك رأسه لينهض، ولكن دون جدوى، فاكتفى بفتح جفنيه، ثم أغلقهما بألم.

- "أرأيتم الطبيب؟"

هزت كريستين كتفيها قائلة: "وما أدراهم الأطباء؟... فقد أحضرنا طبيبا من قبل، وقال إن هذا إنذار ولكن لا يسعنا عمل شيء... لنأمل أن تكون تلك إحدى علامات النمو، فهاهو فى عامه الثانى عشر."

صمت صاندوز، خشية أن يثير قلقها، فلم تكن تدرك خطورة الوضع، وإن ظل مصدوما من هدوئها. فأخذ يتجول فى سكون، ثم توقف أمام اللوحة: "إنها تسير جيدا، أليس كذلك؟"

- "لقد أنهاها."

- "كيف هذا؟ أفرغ منها بالفعل؟"

وعندما أعلمته بأن كلود سيرسلها الأسبوع القادم إلى المعرض، أبدى نوعًا من الاضطراب وجلس على الأريكة أمام اللوحة ليتأملها ويقيمها عن كثب دون تعجل. كانت الخلفيات والموانئ ونهر السين الذى يظهر من ورائه وسط المدينة بأبهة وانتصار، لا تزال فى حاجة إلى مزيد من العمل، ولكنها كانت رائعة فى كل الأحوال، وكأن كلود خشى أن يفسد أو يشوه باريس كما رآها فى أحلامه بإضافة مزيد من التعديلات عليها. وعلى اليسار، كان العمال والحمالون الذين يفرغون شحنات الجبس غاية فى الروعة والدقة. ولاح القارب الذى يتوسط اللوحة وعلى متنه تلك النساء مخترقًا اللوحة بتوهج ولمعان تسطع بهما هذه الأجساد العارية الموضوعة في غير محلها،

خاصة المرأة العارية تماما التى أضفت عليها عاطفة الفنان المشبوبة سطوعا وإشراقا، وكأنها حلم أو هلوسة غريبة ومحيرة وسط الواقعية التى نضحت بها اللوحة بأسرها.

لزم صاندوز الصمت، حتى التقت عيناه بعينى كريستين، فغمغم: "إنها مدهشة تلك المرأة!"

فى تلك اللحظة، حضر كلود، وفرح بشدة للقاء صديقه العزيز، فصافحه بحرارة، ثم اقترب من كريستين وقبل جاك "الذى نزع الغطاء مرة أخرى.

ثم سأل زوجته: "كيف حاله الآن؟"

- "كما هو لم يتحسن."

- "لقد كبر أكثر مما يجب، ولكن قليلاً من الراحة، سيجعله يتعافى قريبا. لا تقلقى، سيتحسن كما قلت لك."

جلس كلود على الأريكة بجوار صاندوز، ثم استرسلا فى الحوار، مستلقين على ظهورهما محملقين فى الهواء متأملين اللوحة، بينما مكثت كريستين بجانب الفراش فى شرود، لم تلُح فى عينيها أى نظرة تنم عن التفكير فى أمر ما، وإنما الفراغ التام الذى غلف قلبها باليأس والقنوط.

غابت الشمس، وزحف الظلام تدريجيا، وخفت الإضاءة الباهرة القادمة من النافذة الزجاجية، وتلونت بألوان الغروب.

- "أقررت إذًا أن ترسل اللوحة إلى المعرض كما قالت كريستين؟"

- "نعم."

- "قرار صائب، فيجب لمثل تلك الأعمال العظيمة أن تخرج للنور... إن بها كثيرا من التفاصيل الرائعة، رصيف الميناء على اليسار، وفى الأسفل، هذا الرجل الذى يحمل حقيبة الجبس، إلا أننى..."

تردد قليلا، ثم تجرأ فى النهاية، وقال: "إلا أننى أتعجب من عنادك، وإصرارك على أن ترسم تلك النساء عاريات... فهو أمر غير مبرر على الإطلاق، كما أنك وعدتنى بأن تضع عليهن بعض الثياب، أتذكر؟... أتعجبك بالفعل تلك النساء؟"

- "نعم."

أجابه كلود بخشونة، متمسكا بفكرة ثابتة ملكت تفكيره، ومنعته حتى من تقديم مبررات. فعقد ذراعيه خلف رقبته، وتطرق إلى موضوع آخر، دون أن يحول عينيه عن لوحته التى أضفى عليها الغروب إضاءة رقيقة مميزة، فسأل صاندوز: "أتعلم أين كنت؟ لقد ذهبت لزيارة كوراجو، رسام المناظر الطبيعية الشهير، صاحب لوحة "بحيرة جانيى" الموجودة فى متحف لوكسمبورج. أتذكره؟ كنت أعتقد أنه مات، ثم علمنا أنه يقيم بالقرب من هنا، على الجانب الآخر من التل فى شارع أبروفوار... ولكن أتعلم لقد أحزنتنى هذه الزيارة للغاية؟ فى إحدى المرات، كنت أتنزه بمفردى، ثم عثرت على منزله الصغير، ولم أستطع منع نفسى من الدخول. ولكن تخيل، هذا المعلم الشهير، والفنان الجسور، الذى أرسى قواعد رسم المناظر الطبيعية الحالية،

يعيش فى كوخ متهالك، وحيدا، مغمورا ومجهولا! ليس لديك أدنى فكرة عن مدى سوء حالة الشارع والمنزل، فالشارع ملىء بالدواجن حتى تخال أنك فى الريف، بينما يلوح المنزل الأشعث من بعيد كما لو كان لعبة صغيرة بنوافذه وأبوابه وحديقته الضئيلة! لا تعدو الحديقة كونها قطعة أرض ضيقة مائلة مزروعة بأشجار الكمثرى، بها حظيرة مصنوعة من الأخشاب المطلية باللون الأخضر ومحاطة بسياج حديدى مقوى بالحبال..."

تباطأت عباراته، وحرك جفنيه، وكأن انشغاله بلوحته عاد ليطغى على تفكيره مرة أخرى رغما عنه، حتى تملكه تماما فاضطرب حديثه، ولكنه حاول المقاومة، فاستأنف الحكى: "واليوم، رأيت كوراجو لأول مرة واقفا على باب منزله... إنه رجل عجوز فى الثمانين من عمره، غطت التجاعيد وجهه وتضاءل حجمه حتى أصبح فى قامة الصبيان. كان يجب أن تراه بنعليه وثوبه الريفى وغطاء رأسه الذى جعله يبدو كامرأة عجوز... وانتنى الشجاعة، فاقتربت منه، وقلت: "أأنت السيد كوراجو؟ أنا أعرفك جيدا، لديك لوحة فى متحف لوكسمبورج، إنها تحفة فنية رائعة! من فضلك اسمح لرسام صغير أن يصافحك؟" فخاف وارتعب، وتلعثم وأخذ يتراجع وكما لو كنت سأضربه، وهرب. ولكننى تبعته، حتى هدأ قليلا، فاصطحبنى وأرانى ما يربيه من دجاج وبط وأرانب وكلاب، لديه مجموعة هائلة من الحيوانات، إنه يربى كل شىء حتى الغربان، لتكون هى أسرته الوحيدة التى يحيا فى وسطها، لم يعد يتحدث سوى مع الحيوانات! المنظر من منزله خرافى، ففى الأفق تظهر أمامك هضبة سان دينيس التى تمتد على بعد أميال وأميال

بأنهارها ومدنها الصغيرة، ومصانعها التى تنفث نارا، وقطاراتها التى تطلق الصفارات بانتظام. إنه يعيش كالناسك الذى أدار ظهره لباريس بأكملها ليضع أمامه هذا الريف الممتد على مدى البصر... ثم قلت له: "يا سيد كوراجو، أنت بالفعل موهوب! لن تتخيل مدى إعجابنا بعملك! فأنت أبونا الروحى وستظل مصدر فخر لنا جميعا!" استمرت شفتاه تختلجان، وهو يسدد إلىّ نظرات يملؤها الفزع، فأخذ يردد عبارات غير مفهومة كالأطفال: "لا أعلم... من زمن بعيد... أنا طاعن فى السن... لا يهمنى..." وفى النهاية طردنى، وأغلق الباب بعنف ورائى ليعود مرة أخرى إلى عزلته وحيواناته، بعيدا عن العالم وإعجاب الآخرين... أهكذا ينتهى الحال بفنان عظيم فى مثل قدره؟ أهكذا يختار العدم، والابتعاد فى انتظار الموت؟ ماذا حل بالمجد؟ المجد الذى نموت نحن الآن فى سبيله!"

اختلج صوته، ثم أطلق تنهيدة متألمة. أرخى الليل سدوله وغرق الكل فى ظلمة قاتمة، بينما انشغل كلود بمراقبة انعكاسات الظلام على لوحته، وكأنها أتاحت له الفرصة ليقيم لوحته عند احتضار النهار. خيم صمت عميق، لم يتخلله سوى صوت أنفاس جاك الجافة، وبجانبه جلست كريستين ساكنة كالأشباح.

عقد صاندوز هو الآخر ذراعيه خلف رقبته، مسندًا ظهره إلى الوسائد الملقاة على الأريكة، ثم قال: "وماذا نعرف نحن؟ ألعله من الأفضل أن نحيا ونموت ونحن مجهولون؟ يا للحماقة! لم يعد هناك مجد حقيقى كما سمعنا عنه... هذا المجد الذى جعلنا نؤمن بأننا خالدون!... يا له من شقاء!"

ترك الغروب فى نفسه أثرا كئيبا، فألفى نفسه يتحدث عن مأساته وعذابه الخاص، الذى أيقظتهما معاناة كلود: "أتعلم؟ أننى الذى قد يحسدنى

البعض، وحتى أنت! أنا الذى بدأت أعمل وأنشر بعض الكتب، وشرعت فى جنى الأموال، أنا أتعذب!... لطالما قلت هذا مرارا، إن هناك ما يجثم على، ولكنك لا تصدقنى، فالسعادة فى رأيك هى أن تنتج وتعمل دون معاناة، وأن تصل بسهولة إلى الجماهير، ومن ثم تنال الشهرة والمديح... هيا، ادخل المعرض القادم، وحقق نجاحًا ساحقًا، وكن محط الأنظار، وارسم لوحات كثيرة، وعندها قل لى إذا كان كل هذا سيكفيك، إذا كان هذا سيسعدك... لقد ابتلع العمل حياتى كلها، سرق منى أمى وزوجتى وكل ما أحبه. إنها تلك البذرة التى زرعت فى عقولنا لتنهشنا شيئا فشيئا، لتسرى بعد ذلك فى الأوصال والأطراف وتصيب الجسد كله. فبمجرد أن أستيقظ فى الصباح، يستحوذ علىَّ العمل، فأتسمر أمام المنضدة، عاجزا حتى عن التنفس، ثم يطاردنى أثناء الغداء، وكأننى أبتلع كلماتى مع خبزى. وإذا خرجت أجده يلاحقنى، ثم يعود ليتعشى معى ويخلد إلى النوم معى، يا له من عذاب! لا أستطيع أن أمنعه، حتى أصبحت دائم الشرود، فكل يوم أصعد لوالدتى لأقبلها، وأعود بعد دقائق أتساءل إذا ما كنت كلمتها أم لا؟ أما امرأتى المسكينة، فكأنها بلا زوج، فأنا دائما ما أكون بعيدا عنها، حتى وهى بين ذراعى. دائما ما يطاردنى الشعور بأننى سبب تعاستهما، فيعتصرنى الندم وتأنيب الضمير، فسعادة أى أسرة إنما تقوم على الطيبة والصراحة والفرح، ولكننى لا أستطيع الهروب من مأساتى، فسرعان ما أعود إلى شرودى وانهماكى فى العمل، وأغرق فى نوبات الإهمال والكآبة، بحسب سير العمل، إذا كانت كتاباتى الصباحية جيدة يسير اليوم على ما يرام، وإن بقيت صفحة واحدة فى حالة يرثى لها، تغمرنى التعاسة، يشاركنى كل من فى البيت ضحكاتى وبكائى... تبخرت أحلامى السابقة بالراحة فى الريف، والسفر

للأماكن البعيدة، فاليوم، لا أفعل سوى الانعزال لأنهى أعمالى، فلا نزهات فى الأيام المشمسة ولا جولات مع صديق، ولا كسل! وكأننى أغلقت باب العالم خلفى وانعزلت عنه تماما، وألقيت المفتاح من النافذة، فلم يعد سبيل إلى الخروج... ولا أرى سوى العمل الذى يفنى حياتى ببطء..."

سكت، وساد الصمت مرة أخرى وسط الظلام، لكنه استكمل بمعاناة: "لماذا لا نستطيع التمتع بحياتنا؟ أنا لا أعلم كيف يفعلها هؤلاء الذين يعملون فى هدوء يدخنون السيجار ويداعبون لحاهم برضا واغتباط؟ ربما هناك بعض الناس الذين يعتبرون الإبداع عملا سهلا، دون حمية أو انفعال، فيعملون فى سعادة، ويعجبون بعملهم، فكل ما يصنعونه يكون رائعا ونادرا متفردا وصعب المنال!... وأنا أعانى للانتهاء من عملى الذى لا يعجبنى دائما! أيمكن لأحد أن يكون خاليا من الشكوك، لهذه الدرجة التى تجعله على هذا القدر من اليقين والثقة فى النفس؟ لكم أتعجب من أولئك الذين ينكرون الآخرين وقد تخلوا عن أى حس نقدى أو عقلانى مستميتين فى الدفاع عن أعمالهم المبتسرة! أنا لا أقصد الإهانات التى نتلقاها، فبدلا من أن أعتاد عليها، أصبحت تثير حماستى وشهيتى للكتابة، ففى رأيى أن النقد والهجوم لا يؤثران سوى فيمن يرغب فقط فى نيل الإعجاب والاستحسان. ولكننى أرى أن الإهانة مفيدة، فتضاؤل الشعبية إنما هو علاج ناجع، فلا شىء أفضل من سخرية الحمقى لتواصل عملك فى قوة وبساطة. فيكفى أن نعرف أننا نكرس حياتنا للإبداع، دون أن ننتظر حكم فوريا، أو تقييمًا جادًا، نحن نعمل دون أن نعلق آمالاً من أى نوع، نحن نعمل فقط لأن العمل يسرى فى دمائنا،

خارج إرادتنا، يحركنا هذا الوهم الخفى فى أننا سنحظى بالإعجاب يوما ما... ولكن لماذا لا أحظى ولو بلحظة واحدة من السعادة؟ يا إلهى! يا لها من أيام رهيبة تلك التى أبدأ فيها رواية جديدة! تسير الفصول الأولى بصورة جيدة، مما يعطينى فرصة لإظهار موهبتى، وفجأة أجد نفسى تائها، غير راضٍ عن عملى، الذى أوصمه بالضعف والرداءة، وأظل أعذب ذاتى بالصفحات والعبارات والكلمات وأضاعف من معاناتى. وعندما ينتهى، ما أكثر الارتياح الذى أشعر به! إنه لا يوصف! ولكنه ليس شعور الإنسان الذى تعب ويتفاخر بثمرة عمله، وإنما شعور الحمال الذى ألقى أخيرا بعبء ثقيل أوشك أن يقصم ظهره... ثم تبدأ الرحلة مرة أخرى، وهكذا دواليك... أنا أنازع باستمرار، ولا أجد سوى ذاتى لأفرغ فيها شحنات غضبى بسبب افتقارى إلى الموهبة، وعجزى عن إخراج عمل كامل وحقيقى إلى النور... سأظل هكذا حتى أموت، يعذبنى الشك الأليم فى قراراتى واختياراتى، وسألفظ أنفاسى الأخيرة أتحسر على ضياع فرصتى فى إعادة كل ما صنعته..."

اشتد انفعاله، واختنقت العبارات بين شفتيه، فتنهد للحظة، ثم قال بصوت متهدج: "لا أريد سوى حياة، حياة أخرى ليسرقها منى العمل مرة ثانية، ولأظل أتعذب فيها إلى الأبد!"

لم يعد يرى سوى الظلام الدامس، وخفتت كل الأصوات ماعدا صوت نفس جاك الخشن، وبعض الضوضاء البعيدة الصادرة من الشوارع. اختفى المرسم كله في الظلام، باستثناء اللوحة التى أضفت عليها الظلمة شحوبا،

فبدت وكأنها رؤية مهزوزة يطفو على سطحها جسد المرأة العارية، ضاعت كل تفاصيلها، سوى بطنها اللامع وكأنها بدر منير وسط الظلام.

ثم قال صاندوز، بعد صمت طويل: "أتريدنى أن أذهب معك وأنت تسلم اللوحة إلى المعرض؟"

لم يجب كلود، فظن صاندوز أنه سمعه يبكى. أهى تلك التعاسة الأبدية، ذلك اليأس الذى لا يكف عن زعزعة كيانهما؟ فانتظر قليلا، ثم كرر سؤاله. فكتم كلود نحيبه، وقال متلعثما: "شكرا يا عزيزى، ولكننى لن أرسلها إلى المعرض! ستظل هنا!"

- "كيف هذا؟ لقد كنت عازما على إرسالها؟"

- "كنت بالفعل عازما... ولكننى لم أكن أراها، والآن فقط رأيتها!... إنها سيئة، لا تزال ناقصة! لقد ظهرت عيوبها أمامى، فألقت الرعدة فى قلبى، وكأن أحدهم سدد لى ضربة قوية أفاقتنى!"

لمعت دموعه المنهمرة بغزارة على وجهه، كان قد تمالك نفسه طوال هذا الوقت، ولكن سرعان ما تفجرت فى داخله تلك المأساة التى زرعت فيه رغما عنه فزعا ورعبا فاقا احتماله.

همس صاندوز مضطربا: "يا عزيزى! من الصعب عليك اتخاذ هذا القرار، ولكن ربما يكون صائبا، ربما عليك أن تحظى بمزيد من الوقت لتجرى عليها بعض التعديلات... ولكننى غاضب من نفسى! هل فتت عباراتى فى عضدك وأصابك استيائى الدائم بالإحباط؟"

- "يا لك من أحمق! كيف هذا؟ أنا لم أكن أسمع... كنت أتأمل كل ما في اللوحة من عيوب، فبعد أن انقضى النهار، أنارت بصيرتي الإضاءة الرمادية الخافتة، ليس في اللوحة شيء جيد سوى الخلفيات، فالمرأة العارية تشذ عن باقي اللوحة، وتخلو أيضًا من أي دقة في الأبعاد، وساقاها سيئتان للغاية... بمجرد أن رأيتها شعرت وكأن الحياة تنتزع من جسدي... ثم خيم الظلام، فاكتشفت أنها لا شيء! وشعرت وكأنني أهوى إلى العدم! لقد ماتت لوحتي! أظلمت تماما!"

اختفت اللوحة بالفعل، ثم نهض كلود، وقال: "لا يهم،... لم يحدث شيء... سأكملها..."

نهضت كريستين هي الأخرى من على مقعدها الذي اصطدم به كلود أثناء سيره، فقالت: "انتبه! سأذهب لأحضر المصباح."

جاء المصباح، وبدت كريستين شاحبة للغاية وهي ترمق اللوحة بنظرات الخوف والكراهية، فهاهي لن ترحل، وستظل تتعذب بوجودها!

- "سأستكملها، أنا أعرف أنها ستقضي علي وعلى زوجتي وابني وعلى كل من في المكان، ولكن لا يهم! سأجعل منها تحفة فريدة لن تتكرر!"

جلست كريستين مرة أخرى، إلى جوار جاك الذي ظل نائما بلا حراك، وغاص رأسه في الوسادة وكأنه ثقل ضخم يكاد أن يحطم الفراش.

قبل ذهابه، أعلن صاندوز عن قلقه إزاء حالة الطفل، ولكن كريستين ظلت كما هى كالتائهة، بينما انشغل كلود بتأمل لوحته، وفى داخله احتدم الصراع بين أحلامه الشغوفة والواقع المؤلم الذى يمثله طفله، هذا الصغير الذى هو جزء منه.

فى صباح الغد، كان كلود يرتدى ثيابه، عندما ترامى إلى سمعه صوت كريستين، التى استيقظت فجأة من سباتها العميق على المقعد بالقرب من جاك: " كلود! كلود!... لقد مات!"

هرع على الفور، وهو يتعثر ويصطدم بالأشياء، مرددا فى ذهول: "كيف هذا؟ كيف مات؟"

وقفا فى دهشة أمام الفراش، ليجدا الطفل مستلقيا على ظهره وقد ارتمى رأسه الضخم إلى الخلف وكأنه لم يتحرك منذ البارحة، واتسع فمه الشاحب، وتوقف تنفسه، وبقيت عيناه الفارغتان مفتوحتين. انحنى كلود ليلمسه، فوجد جسده باردًا كالثلج، وقال: "لقد مات!"

ظلا لبرهة صامتين فى ذهول، دون أن يذرفا دمعة واحدة، وتملكتهما الدهشة من عنف المفاجأة التى عجزا عن تصديقها.

خارت قوى كريستين وتهاوت أمامه تنتحب وقد أخفت وجهها فى الفراش، اجتاحها حزن عميق زلزل كيانها ضاعفه إحساسها الموجع بالذنب لأنها لم تحب هذا الطفل المسكين كما يجب. وقفا يسترجعان الماضى، واعتراهما ندم شديد لأنهما لم يعطياه ما يستحقه من حب، ندما على العبارات

السخيفة التى ردداها على مسامعه، وعلى حرمانه من العطف، بل تعنيفه أحيانا. وها قد انتهى كل شيء، فلن تستطيع الآن أن تعوضه حرمانه من حبها. كم كان مطيعا، وكم مرة قالت له: "توقف عن اللعب، كن مطيعا!"، "دع والدك يعمل!"... وكان دائما ما يطيعها... كانت تلك الأفكار تخنقها وتوخز قلبها بعنف.

أخذ كلود يسير ذهابا وإيابا فى حركة عصبية. تجهم وجهه، وتدفقت دموع ثقيلة من عينيه، أخذ يمسحها بيده. ثم مر أمام جثمان ابنه، ولم يقدر أن يمنع نفسه من تأمله، بدا كمن يقاوم فكرة مشوشة، ولكنها أخذت تتضح شيئا فشيئا، فاستسلم فى النهاية، وأحضر ورقة وشرع يرسم جثمان الطفل.

فى الدقائق الأولى، حجبت عنه دموعه الرؤية، فاستمر يمسحها، محاولا بدء اللوحة بيد مرتعشة. وبالتدريج، جفف العمل دموعه، وثبتت يداه، فلم يعد يرى سوى نموذج، موضوع يرسمه ولكن بانفعال زائد. أزكى شكل الطفل برأسه الضخم ولونه الشاحب وعينيه المحملقتين فى الفراغ جذوة انفعاله وحماسته.

وبعد أن انتهى، ابتعد قليلا، ليرى اللوحة من بعيد، وابتسم راضيا عن عمله.

نهضت كريستين فرأته منهمكا فى الرسم، فقالت ودموعها تسيل: "يمكنك الآن أن ترسمه كما شئت، فلن يتحرك!"

• استغرق العمل أكثر من خمس ساعات. وفى الغد، عاد معهما صاندوز بعد أن انتهيا من دفنه، وما أن وقع بصره على اللوحة، حتى شعر بدفقة قوية من الشفقة الممزوجة بالإعجاب باللوحة الصغيرة. كانت لوحة جميلة، مثل لوحات كلود القديمة، تميزت بالوضوح والقوة بينما سرت فيها تعاسة عميقة. ولكن كانت المفاجأة بانتظار صاندوز عندما سمع كلود يقول: "أأعجبتك؟... لقد عزمت من أمرى! مادامت اللوحة الأخرى غير جاهزة، سأرسل هذه إلى المعرض!"

الفصل العاشر

بعد أن أودع لوحته "موت طفل" فى المعرض، التقــى كلــود فــاجرول بالأمس أثناء سيره بالقرب من متنزه مونسو. صاح فاجرول بود وألفــة: "أهــذا أنت يا عزيزى؟ كيف حالك؟ وماذا تفعل الآن؟ مر وقت طويل دون أن نتقابل!"

حدثه كلود عن لوحته الصغيرة التى أرسلها إلى المعرض، وفجأة قال فاجرول: "أأرسلت لوحة إلى المعرض؟ سأقبلها على الفور! أتعلم أننى مــن المرشحين للانضمام للجنة التحكيم هذا العام؟"

كانت إدارة المعرض قد قررت، فى محاولة يائسة- بعد عدة محاولات فاشلة- لإرضاء الفنانين دائمى السخط والاعتراض، أن تخــول العارضــين اختيار أعضاء لجنة التحكيم بالمعرض بأنفسهم. وكان الأمر بمثابة ثورة فى عالم الرسم والنحت، فاشتعلت حمى الترشيح والتصويت بضراوة، وارتفعت الطموحات، وكثرت الحيل والدسائس والصراعات الدنيئة.

أردف فاجرول: "تعال معى لأريك محل إقامتى، انه نزل صغير، لم تــره من قبل على الرغم من وعودك بزيارتى... إنه هنا بالقرب من ممشى فيلييه".

سار كلود معه بتخاذل، بعد أن أمسك الآخر بيده بقوة. وملأته فكرة أن صديقه القديم هو من سيقرر قبول لوحته بالخزى والأمل فى آن واحد.

وصلا إلى المنزل، وتوقف كلود قليلاً ليتأمل الواجهة أنيقة التصميم، وكأنها صورة لمنزل قديم يرجع إلى عصر النهضة بنوافذه المقسمة وأعمدة الدرج والسقف المكسو بالرصاص. بهره المشهد، وتضاعفت دهشته عندما التفت إلى الناحية الأخرى من الشارع ليجد نزل إيرما بيكو الملكي، حيث قضى ليلة لا تزال تراوده ذكراها كالحلم. كان الفرق بين النزلين واضحا، فنزل إيرما واسع، قوى، فخم كالقصور، أما نزل فاجرول، بزخرفته الحالمة يتضح إنه ملكٌ لفنان.

صاح فاجرول ضاحكا: "إن منزل إيرما مغالٍ فى الفخامة، كأنك تقف أمام كاتدرائية!"

دخل الاثنان إلى النزل فائق الجمال والفخامة. كان يزخر بالأبسطة العتيقة والأسلحة القديمة، وقطع الأثاث العريقة، وغيرها من التحف القادمة من الصين واليابان، وعلى اليسار، صالة طعام مبطنة بالمخمل القرمزى، والسلالم الخشبية المزخرفة تتدلى منها النباتات زاهية الخضرة. كان المرسم بالطابق العلوى. لم يكن متسعًا ولكنه كان مزينًا بنوافذ ذات طابع شرقى ومدفأة ضخمة وأريكة واسعة تعلوها مظلة مثبته بحراب بارزة فى الهواء. كل شيء ينطق بالعظمة والأبهة التى تميز المكان من أبسطة وأرضيات ووسائد.

أخذ كلود يدقق فى التفاصيل كافة، وراوده سؤال أمسك فمه عن النطق به: من أين أتى بكل هذا؟ كان فاجرول، منذ أن تلقى الميدالية العام الماضى، يتقاضى عشرة آلاف فرنك مقابل اللوحة. وهكذا يستفيد نوديه، الذى وضعه

على بداية الطريق، من نجاحه الكبير، فلم يكن ليترك أيًا من لوحاته تفلت من يديه، ولو فى مقابل عشرين، أو ثلاثين أو حتى أربعين ألف فرنك. كان فاجرول دائما ما يتصنع عدم الاهتمام، والانشغال الدائم، ليزيد من الطلب على أعماله التى استمرت فى التدفق. إلا أن كل هذه الأبهة، كان وراؤها تلال من الديون، فلم يكن يملك سوى دفعات مقدمة من الأموال التى تذهب فى طريقها بعد ذلك إلى الممولين، أى أن كل هذه الأموال والمبالغ الباهظة كانت تنفق دون أن يبقى لها أثر. ففى غمرة النشوة المفرطة بالثروة الجديدة المفاجئة، لم يهتم فاجرول بحساب نفقاته كأنه يحركه أمل قوى بقدرته الدائمة على العمل، ومن ثم البيع وجنى مزيد من الأموال. لم يكن يقلق بشأن النقود وقد أسكره المجد ومكانته العظيمة فى الفن المعاصر.

أبصر كلود لوحة صغيرة معلقة على حامل خشبى ذى ستائر من القطيفة الحمراء، كانت هى الشيء الوحيد المتعلق بمهنته، بالإضافة إلى خزانة للألوان وعلبة ألوان باستيل نسيها على المنضدة، فقال، بدافع اللباقة: "إنها رقيقة جدا! وماذا عن المعرض؟ أأرسلت شيئا؟"

– "نعم! أتعلم أننى لم أرغب فى الترشيح للجنة التحكيم؟ لقد عارض نوديه هذه الفكرة. ولكن ماذا عسانى أن أفعل؟ فقد توسل إلى طويلا عدد من الفنانين الشباب، يريدوننى فى اللجنة لأدافع عنهم... أرسلت لوحة صغيرة وبسيطة اسمها" إفطار" عبارة عن رجلين وثلاث نساء جالسين فى ظل الأشجار يتناولون وجبة الإفطار فى إحدى الغابات... إنها كما ترى مبتكرة وجديدة."

ولكن ما أن التقت عيناه بعينى كلود اللتين كانتا ترمقانه بقـوة، حتـى اختلج صوته فى اضطراب واضح، فتطرق إلى موضوع آخر، ساخرًا مـن لوحته المعلقة على الحامل: "إنها لوحة سيئة ولكننى رسمتها بناء على طلب نوديه. أتدرى يا عزيزى؟ أنا أدرك جيدا ما ينقصنى، هو أننى أمتلك قـدرا ضئيلا مما تملكه أنت بغزارة ووفرة... أنا أحبك للغاية كما تعلم، ولقد دافعت باستماته عن لوحتك أمام باقى الرسامين."

أخذ يربت على كتفى كلود، ولكنه شعر بمدى الازدراء الخفى الـذى يكنه معلمه القديم له، فحاول أن يستعيد وده عن طريق الملاطفة والمداعبـة كعادته من أجل اقتناص الحب والإعجاب. وغمره شعور جارف بـالاحترام لكلود، حتى وعده بإخلاص ألا يألو جهدا فى سبيل إقناع باقى أعضاء اللجنة بقبول لوحته.

بدأ قوم يتوافدون على المرسم. وفى غضون ساعة واحدة حضر أكثر من خمسة عشر شخصا، ما بين آبـاء يـأتون بأبنـائهم ليتعلمـوا الرسـم، وعارضين يزكون أنفسهم لديه، وزملاء يأتون لتجاذب أطراف الحديث وحتى النساء اللاتى يهوين إلقاء سحرهن عليه. قام فاجرول بمهمته كمرشح للجنـة على أتم وجه، فصافح الجميع بحرارة، مجاملا الكل: "إن لوحتك هذا العـام رائعة للغاية، لقد أعجبتنى بشدة!" أو يقول فى عجب: "كيف هذا؟ ألم تحصل على ميدالية قبل ذلك عن لوحاتك؟" ويكرر: "لو تم قبولى فى اللجنة، سـأقبل كل هذه اللوحات!" ويمضى الناس بعد مقابلتـه فـرحين، بفـضل طريقتـه الودودة، وإن ظلت تشوبها سخريته الخفية القديمة.

ثم خرج الجميع، وبقى مع كلود بمفردهما، وقـال: "أتعتقـد أن لـدى المتسع من الوقت لأضيعه مع هؤلاء الحمقى؟"

اقترب فاجرول من النافذة، وفتحها بغتة، وظهرت فى الجهة المقابلـة من الشارع امرأة بيضاء مرتدية رداء النوم ملوحة بمنديلها مـن شـرفتها، فأشار لها فاجرول بيده ثلاث مرات. وأغلق الاثنان نوافذهما.

عرفها كلود على الفور، كانت هى إيرما بيكو! خيم الـصمت قلـيلا، واضطر فاجرول إلى تفسير ما حدث: "أرأيت يمكن للجميع أن يتراسـلوا... وكأن لدينا نظامًا للبرقيات خاصًا بنا! فإذا نادتنى، يتحـتم علـى أن ألبـى النداء...لكم تلقننى دروسا قيمة!"

- "دروس؟ فى ماذا؟"

- "دروس فى كل شىء! فى الفسق، فى الفن، فى الذكاء والـدهاء!... أتصدقنى إذا قلت لك إنها هى من تجعلنى أرسم! أقسم لك! لـديها حس غريب بالنجاح!... ولكنها بقيت كما هى من الـداخل، تلـك الطفلة الشقية بغرابة أطوارها، وغضبها المسلى!"

تصاعدت الدماء إلى وجنتيه، بينما لاحقت عيناه زهرية صغيرة كادت أن تسقط. كان فاجرول وإيرما قد عادا إلى علاقتهما منذ أن سكنا سويا فـى نفس الشارع. ويقال إنه من شدة استسلامه لها، كان يجعلها تطعمه بنفـسها، ولم يضيره أن يعطيها مبالغ باهظة لتقدمها لأحد الرعاة، أو لترضى نـزوة

خاصة بها، وأحيانا للاشىء سوى رغبتها فى تجريده من أمواله، مما يفسر جزئيا تورطه فى الديون، على الرغم من نجاح لوحاته. كان يعى تماما أنه بالنسبة لها ليس سوى نوع من الرفاهية الزائدة، وأنها تستمتع بالعيش اعتمادا على النقود التى يقدمها لها أصدقاؤها من الرجال. كانت تثيره جرأتها وفسادها حتى لينسى فى سبيلهما كم ينفق من أموال.

ارتدى كلود قبعته، وأخذ فاجرول يسير فى قلق، وهو يرمق نزل إيرما بيكو فى الجهة المقابلة، ثم قال: "أنا لا أقصد أن أجعلك ترحل، ولكنها تنتظرنى كما ترى... ولا تقلق سيتم قبول لوحتك إلا إذا لم يتم تعينى فى اللجنة... تعال إلى قصر الصناعة والفنون مساء يوم فرز الأصوات! ما أشد الزحام والجلبة فى ذلك اليوم، ولكنك ستعلم يومها ما إذا كنت سأقدر على مساعدتك أم لا!"

أقسم كلود بأنه لم يستأ من اضطراره للرحيل. بدت له فكرة حماية فاجرول له ثقيلة ومزعجة، وفى نفس الوقت خشى ألا يفى هذا النذل بوعده خوفا من عدم نجاح اللوحة.

جاء يوم التصويت، ولكن كلود لم يستطع البقاء داخل القصر، فمضى يتجول فى الشانزيليزيه. كان قد توقف عن العمل، فى انتظار المعرض دون أن يصرح بهذا الأمر. ومع توقفه عن الرسم، كان لابد من استئنافه لجولاته الباريسية الطويلة. لم يكن له الحق فى التصويت، فمن يصوت يجب أن يكون قد تم قبوله فى المعرض مرة واحدة على الأقل. لم يستطع منع نفسه من

المرور عدة مرات أمام القصر، خاصة وقد عج رصيفه بالفنانين الذين حضروا للتصويت، كانت الضوضاء صاخبة، ما بين صيحات المشرفين على التصويت والنداء على القوائم، والأحاديث التى دارت حول التكتلات داخل المعرض، وما صحبها من تبادل للآراء حول القوائم المختلفة: قائمة كلية الفنون، وقائمة الفنانين الأكثر تحررا، وقائمة الفنانين المتشددين، وقائمة الوفاق، وقائمة الفنانين الشباب، وقائمة السيدات،...

انتهى التصويت فى المساء، نحو الساعة الرابعة عصرا. عجز كلود عن مقاومة الفضول، فقرر أن يذهب ليرى ما حدث. كانت السلالم خالية، ولم يمنع أحد من الدخول. فى الطابق العلوى، وجد القاعة الضخمة المخصصة للجنة التحكيم المطلة نوافذها على حدائق الشانزيليزيه، وفى المنتصف منضدة يزيد طولها عن اثنى عشر مترًا، وانبعثت حرارة من المدفأة الأثرية الموجودة فى نهاية القاعة. وقف حول المنضدة ما يقرب من أربعمائة أو خمسمائة ناخب فى انتظار فرز الأصوات، وتجمع بعض الأصدقاء، وبعض الفضوليين الذين جاءوا للتطفل. كان الجميع يتحدث بصوت عال، وانطلقت ضحكات قوية تدوى كالعاصفة. حول المنضدة وضع خمسة عشر مكتبًا وعلى كل منها، جلس رئيس واثنان من مراقبى الأصوات. تبقى ثلاثة أو أربعة مكاتب شاغرة، بعد أن رفض العديد التطوع لهذا العمل المضنى الذى يتطلب البقاء حتى ساعات متأخرة من الليل.

ظهر فاجرول، الذى لم يتوقف عن العمل منذ الصباح، فوقف صائحا ليهدئ الجلبة: "برجاء الهدوء أيها السادة! ينقصنا الآن شخص واحد!... وها هو رجل طيب سيساعدنا!"

بمجرد أن رأى كلود، هرع إليه، وأحضره إلي المنتصف رغما عنه، قائلا: "اجلس هنا من فضلك وساعدنا! إنها صدفة مبشرة!"

وفجأة، وجد كلود نفسه رئيسا لأحد المكاتب. كان يمارس مهمته برزانة وجلال،.وقد اشتد انفعاله، معتقدا أن مصير لوحته متعلق بمدى إخلاصه وتفانيه فى أداء هذا العمل. فينطق بصوت عالٍ بأسماء المرشحين الموجودة على القوائم التى تقدم له فى رزم صغيرة متساوية، ليدونها المراقبون. تم هذا العمل وسط لغط وضوضاء عارمة، من جراء النطق بأكثر من ثلاثين اسمًا فى آن واحد بأصوات مختلفة، وسط همهمات الجمهور التى لا تنقطع. واشتدت حماسته، فلم يكن باستطاعته ممارسة أى عمل دون انفعال وعاطفة، فيحزن إذا ما وردته قائمة تخلو من اسم فاجرول، ويتهلل كلما نطق باسمه. كان سعيدا بالنجاح الذى حققه فاجرول وبشعبيته الجارفة، فقد كان موجودا فى كل مكان، يتردد على المقاهى حيث تجلس المجموعات ذات النفوذ، ويبدى التزامه تجاه شباب الفنانين، دون أن يغفل عن تحية أعضاء معهد الفنون ولو فى الخفاء. أصبح فاجرول الطفل المدلل الذى يحبه الجميع ويتعاطفون معه.

خيم الظلام بحلول الساعة السادسة. وأحضر العاملون مصابيح، فظهرت وجوه الجميع بوضوح، الفنانين المرتابين، والمشرفين الذين يراقبون الفرز فى صمت، وتعالت أصوات بعض الأشخاص المازحين الذين حاولوا تقليد أصوات بعض الحيوانات، أو من أخذوا ينشدون الأغانى الخفيفة... دقت

الساعة الثامنة، وقدم العشاء، المكون من قطع اللحم البارد والنبيذ، وازداد مرح وصخب الموجودين فى القاعة، الذين انهمكوا فى التهام الطعام واحتساء المشروبات بنهم شديد، وكأنه احتفال شعبى يثمل فيه الجميع. ثم اكتست القاعة بالضباب بمجرد أن بدءوا فى التدخين. وتناثرت على الأرض بطاقات الانتخاب التى استخدمت أثناء التصويت، ملطخة ببقع الشراب وفتات الخبز، وبقايا أطباق مهشمة...

استرخى الجميع، وأرهقتهم الثمالة، وفجأة اعتلى نحات شاب أحد المقاعد ليخطب فى الشعب، بينما نهض رسام ذو شارب كث وأنف حاد قافزًا حول المنضدة ليحيى الجميع معتقدا أنه الإمبراطور.

شعر الكثيرون بالضجر، ورحل بعضهم تدريجيا. وبحلول الحادية عشرة، لم يعد يبقى سوى مائتى شخص. وفى منتصف الليل، عاد البعض، كان معظمهم من المتجولين من ذوى السترات السوداء ورابطات العنق البيضاء، حضروا لمشاهدة ما يحدث بعد خروجهم من المسرح، أو بعد نهاية سهرتهم، بدافع الفضول ليكونوا هم أول من يعرف نتائج التصويت. وحضر بعض الصحفيين، الذين وقفوا يتدافعون أمام القاعة بمجرد أن يخرج أحدهم ليعلن النتائج الجزئية للتصويت.

استمر كلود ينادى القوائم حتى بح صوته. ارتفعت الحرارة، وازدادت كثافة الدخان إلى درجة لا تحتمل. وتوالت الساعات، وكلود يفرز بإتقان وتفانٍ مدفوعا بيقينه فى أهمية ما يفعله الآن وتأثيره على مصير لوحته.

كان يعمل ببطء وقد أربكته الأرقام والحسابات، بينما انتهى باقى الأشـخاص من عملهـم.

وأخيرا انتهى العمل، وأعلنت النتائج النهائية. احتل فاجرول المركـز الخامس عشر على الأربعين، وانضم بذلك إلى لجنة التحكيم، متفوقـا علـى بونجراند نفسه بخمسة مراكز. قرب بزوغ الفجر، عاد كلود إلـى منزلـه، منهكًا من العمل، وإن تسربت إلى قلبه سعادة غامرة.

مر أسبوعان، وكلود يعيش فى حالة مـن الترقـب والقلـق الـشديد، وراودته أكثر من مرة فكرة الذهاب إلى فاجرول للاطلاع علـى أى أخبـار جديدة، ولكن خجله منعه من الإقدام على هذه الخطوة. وقال إنه ربما لم يـتم التقرير بشأن لوحته حتى الآن لأن اللجنة تسير وفقا للترتيب الأبجدى.

ذات مساء، كاد قلب كلود أن يتوقف أثناء سيره فى شـارع كليـشى، عندما رأى بونجراند يقترب منه. كان يبدو منزعجا، ولكنه قال لكلود: "أنت تعلم يا عزيزى أن الأمور لا تسير على ما يرام مع مثل هؤلاء الأشخاص... ولكن لا تقلق، فأنا وفاجرول نحاول جاهدين! يمكنك الاعتمـاد بثقـة علـى فاجرول، وليس على، فأنا أخشى أن أضر بفرصتك فى القبول!"

كان بونجراند على خلاف دائم مع مازيل، الذى أصبح رئيسا للجنـة التحكيم، وهو من أعرق الأساتذة بمعهد الفنون، ومن أشد المـدافعين عـن الطرق التقليدية المتأنقة فى الرسم. كانا قبلا يتظاهران بأنهما زملاء أعزاء، ويتبادلان التحيات والمجاملات، ولكن منذ اليوم الأول لعمل اللجنـة، تجلـى

عداؤهما للجميع، فكلما طلب بونجراند قبولَ لوحة، صوت مازيـــل ضـــدها. على عكس فاجرول، الذى منذ تعيينه أمين سر اللجنة لم يفعل شــيئًا ســوى التقرب لمازيل، الذى غفر له تمرده أثناء الدراسة. كان فاجرول يتشدد مــع المبتدئين والجريئين أكثر من أعضاء المعهد أنفسهم، ولم يكن يلين سوى إذا أراد أن يقنع أعضاء اللجنة بقبول لوحة ما، فيسترسل فى مــدحها مــستغلا مهارته ولباقته ليجتذب إليه أصوات الأعضاء جميعها.

كان عمل اللجنة شاقا للغاية، حتى بالنسبة لبونجرانــد. فيــتم صــف اللوحات يوميا على الأرض مستندة إلى الأعمدة فى القاعات كافة، ليمر بهــا أعضاء اللجنة لتقييمها. وفى الواحدة ظهرا، يبدأ الأربعون عــضوا وعلــى رأسهم رئيس اللجنة بجرسه الصغير جولتهم التى لا تنتهى، حتى يفرغوا من كل اللوحات الموضوعة بحسب الترتيب الأبجدى. كانوا يصدرون أحكــامهم وهم واقفون، على عجل، رافضين اللوحات السيئة دون تصويت. من حــين لآخر كانوا يتناقشون بشأن بعض اللوحات لعشر دقائق، ويقــررون تأجيــل اللوحة محل الجدل إلى التقييم المسائى، فيــأتى رجــلان ليحيطاهــا بحبــل ليفصلاها عن باقى اللوحات، لئلا يصدمها المحكمون المتدافعون.

ويسير، خلف أعضاء اللجنة، سبعون عاملا يرتدون معاطف بيــضاء، يتولون مهمة فرز اللوحات التى يتم تقييمها، فيحتفظون بالتى تــم قبولهــا، ويبعدون اللوحات المرفوضة، وكأنها جثث قتلى سقطوا فى إحدى المعــارك الحربيــة.

كانت الجولة تستغرق ساعتين كاملتين دون انقطاع، دون أن تسنح لأى منهم فرصة الجلوس، مجبرين على التجول وسط القاعات البـاردة، حتـى يضطر أشدهم احتمالا إلى الاحتماء بمعاطفهم الثقيلة.

كانت وجبة الساعة الثالثة تلقى ترحيبا شديدا، فيستريحون لمدة نصف الساعة فى المقصف يتناولون الشطائر والمشروبات والحلوى، وينخرطـون فى المناقشات وتبادل الآراء والانطباعات. كان لكل مـنهم مجموعـة مـن البطاقات تحمل الأسماء التى يرغبون فى تزكيتها، كان كل منهم يتعهد بقبول أسماء الآخر، إذا ما صوت هو للأسماء التى معه. بينمـا يفـضل الـبعض الابتعاد عن هذه المتاهات، فيجلسون فى هدوء يدخنون سيجارا فى شرود.

ثم يستأنف العمل، ولكن باعتدال، فى قاعة واحـدة مليئـة بالمقاعـد والطاولات، وأيضًا الأوراق والأقلام والحبر. يتم فى هـذه الغرفـة تقيـيم اللوحات الصغيرة التى لا يتجاوز طولها مترا ونصف المتر، فتوضع علـى الحوامل الخشبية أمام المنضدة الطويلة المغطاة بالنسيج الأخضر.

كان كثير من الأعضاء يسترخون، أو ينشغلون بالحديث، حتى يصيح بهم الرئيس لينتبهوا للعمل. وأحيانـا مـا تغمـرهم الحماسـة، فيتـسابقون للتصويت، ويرفعون أياديهم، وعصيهم وحتى قبعاتهم.

ظهرت لوحة" موت طفل" لكلود. حاول فاجرول لأكثر من أسـبوع أن يحصل على الموافقة لقبول كلود، ولكن الأمر كان بالغ التعقيد. فلم يكن يلقى سوى الرفض القاطع، بمجرد أن ينطق باسمه. واشتكى من عـدم مـساعدة

بونجراند الذى لم يكن يملك أى بطاقة تزكية، ولكنه يفتقر إلى اللباقة لدرجة تجعله يفسد أسهل الأمور بسبب صراحته الزائدة. كان يمكن لفاجرول أن يتخلى عن مسألة قبول كلود، ولكن سر تشبثه كان يكمن فى رغبته فى اختبار مدى قدرته ونفوذه لقبول هذه اللوحة المستحيلة. فانتظر ليعرف ما إذا كانت مكانته ستؤهله لمواجهة اللجنة أم لا؟ وربما كانت لديه رغبة فى تحقيق العدل لهذا الفنان الذى يجله سرًا، ويعذبه شعوره بأنه سرق موهبته.

كان مازيل اليوم فى حالة مزاجية سيئة، منذ أن أعلن له رئيس العمال، بأنه قد وقع خطأ بالأمس: "لقد تم رفض لوحة خارج المسابقة... إنها اللوحة رقم ألفين وخمسمائة وثلاثين، لوحة المرأة العارية التى تقف أسفل شجرة."

كانوا قد ألقوا بها بالفعل فى مقبرة اللوحات، بعد رفض جماعى، دون أن يلحظوا أنها لفنان قديم يقدره المعهد. وأثار فزع العامل من هذا الخطأ غير المقصود ضحكات الأعضاء الشباب، الذين أطلقوا الدعابات الهازئة المستفزة.

كان مازيل يكره مثل هذه المواقف الكارثية التى تهدد مصداقية المعهد، فقال بغضب: "انزل إذًا وأحضرها! وضعها مع اللوجات المقبولة... كانت الفوضى عارمة بالأمس، فكيف لنا أن نقيّم اللوحات بهذه الطريقة المتسرعة وسط تلك الجلبة؟"

ثم حرك جرسه محدثا صوتا رهيبا: "هيا يا سادة! إلى العمل... ابذلوا مزيدًا من الجهد إذا سمحتم!"

لسوء الحظ، حدث موقف آخر سخيف بعد عرض أول لوحتين. شدت إحدى اللوحات انتباهه لشدة رداءتها، فاستشاط غضبا، وخفض بصره ليقرأ اسم صاحبها، هامسًا: "من هو هذا الحقير؟"

وفجأة انتفض بمجرد أن قرأ الاسم، ليجدها لوحة أحد أصدقائه القدامى من المدافعين عن الرسم التقليدى، فصاح، أملا ألا يكون أحد قد سمعه فى المرة الأولى: "يا لها من لوحة رائعة!... إنها بديعة، أليس كذلك أيها السادة؟" وافقه الكل وأعطوها الرقم واحد الذى يتيح تعليقها فى الصدارة. ولكنه لاحظ أن الجميع يضحكون ويتغامزون، فاستاء بشدة وازداد غضبه وحدته.

كان معظم الأعضاء قد تعرضوا لمثل هذا الموقف، فيسترسلون فى السخرية أو الانتقاد، ثم يتراجعون عن كلامهم، مستغرقين فى مديح لا ينتهى بمجرد قراءة الاسم، مما جعلهم يفضلون الحذر والاحتياط، مؤجلين أى تعليق حتى معرفة صاحب اللوحة. وهكذا، فأثناء مرورهم أمام لوحات زملائهم المعروفين، أو لوحات باقى أعضاء اللجنة، كانوا يشيرون إلى بعضهم بعضًا فى حذر من وراء صاحب اللوحة، قائلين: "انتبهوا! إنها لوحته! لا يخطئ أحدكم!"

فى خضم هذه الجلسات المضطربة، استطاع فاجرول أن يعقد أول صفقة له لقبول بورتريه بشع رسمه أحد تلاميذه، ينتمى إلى عائلة ثرية، تغدق عليه بالعطايا. فاصطحب مازيل إلى الخارج، ليهدئ من روعه، ويثير عطفه، وروى له قصة مؤثرة تصور صاحب اللوحة على أنه أب لثلاث

فتيات يعيشون جميعا فى الفقر المدقع. قضى فاجرول فترة طويلة يتوسل إلى مازيل أن يقبل اللوحة، وبالفعل كان مازيل وفاجرول هما الوحيدان اللذان صوتا لصالح اللوحة، وعندما اعترض باقى الأعضاء، همس لهم فاجرول: "إنها رغبة مازيل! لقد رجانى طويلا أن أصوت معه... أعتقد أنه يعرف صاحبها..." وعلى الفور، رفع اثنان من الأعضاء أياديهما تأييدا، وتبعتهما باقى المجموعة بسرعة.

أحضر العمال لوحة كلود " موت طفل" ووضعوها على الحامل أمام الأعضاء، فاندلعت الضحكات والتعليقات اللاذعة وصيحات الاستنكار والسخرية: "ما هذا؟ أيرسمون لنا الآن جثث المشرحة؟" وأخذ الشباب يسخرون من ضخامة رأس الطفل، وكأنه قد ابتلع ثمرة قرع! بينما تراجع القدامى فى صمت وفزع. شعر فاجرول عندها أن موقفه يزداد صعوبة.

حاول فى البداية أن يتجنب التصويت عن طريق المزاح والدعابة بطريقته الماهرة: "كما ترون أيها السادة، إنها لوحة أحد الفنانين المناضلين القدامى..."

فقاطعته صيحات غاضبة منعته من إنهاء عبارته: "ماذا؟ أهى لوحة ذلك الرسام؟ نحن نعرفه هذا المناضل القديم! ما هو إلا مخبول يتمادى فى جنونه منذ خمسة عشر عاما، إنه هذا المغرور مدعى العبقرية! أليس هو الذى تحدث عن تدمير المعرض، دون أن يستطيع حتى أن يرسل له لوحة واحدة مقبولة؟"

نضحت أصواتهم الحانقة بالكراهية العميقة للتجديد والاختلاف، هــذا الخوف من المنافسة، والرعب من قوة لا تقهر. اجتمعت أصــواتهم: "لا! لا! إنها مرفوضة! فلتلقى إلى الخارج!"

انزعج فاجرول للغاية، ولم يستطع تمالك نفسه، صاح غاضبا: "هــذا ليس عدلا! كونوا عادلين ولو لمرة واحدة أيها السادة!"

وفجأة، بلغت الضجة أوجها، وووجه الأعضاء غيظهم تجاه فــاجرول، وبدأت أياديهم تلوح بالتهديد، وانطلقت عباراتهم القاسية كطلقات الرصاص:

- "أنت تطعن فى اللجنة وتهينها يا سيدى!"
- "أنت تدافع فقط عن هذه الأشياء؛ لتنال شهرة ويظهر اســمك فــى الصحف!"
- "أنت لا تعرف شيئا عن الفن!"

اشتد انفعال فاجرول فخرج عن طوره، وزالت عنــه روح الدعابــة، وقال: "أنا أعرف الفن كما تعرفونه أنتم!"

فقال أحــدهم، وهــو رســام شــاب: "اصــمت إذًا! فأنــت بــالقطع لا تريدنا أن نقبل ونستوعب هذا العمل الردىء عديم القيمة!"

وردد الكل: "نعم عمل ردىء بلا قيمة!" وكأنهم يتحدثون عــن لوحــة حقيرة باردة لا معنى لها لأسوأ الرسامين."

فقال فاجرول على مضض: "إذًا، أنا أطلب التصويت على قبول هذه اللوحة."

منذ احتدام المناقشة، لم يتوقف مازيل عن قرع جرسه الصغير، وقد احمر وجهه من الغضب لتجاهل نداءاته بالهدوء، وأخيرا قال: "أيها السادة! أيها السادة!... ليس من المعقول أن نصيح ونتشاجر كلما تناقشنا حول شيء... أرجوكم الهدوء أيها السادة!"

هدأ البعض قليلا بناء على طلبه. لم يكن مازيل شخصا سيئا، ففكر: "لماذا لا يقبل اللوحة، حتى وإن كان يراها سيئة؟ فما أكثر اللوحات البشعة التى تم قبولها قبل ذلك! وقال أخيرا: "دعونا نقوم بالتصويت!"

لعله كان على وشك أن يرفع يده مساندا فاجرول، عندما خرج بونجراند فجأة عن صمته، وقد صعدت الدماء إلى وجنتيه من الغضب، وقال: "ماذا اعتراكم بحق الجحيم؟ لا يوجد أى منكم يستطيع أن يرسم لوحة فى مقدار هذه التي تسخرون منها!"

لم يجب أحد من فرط الصدمة، وسرى نوع من الهمهمة المحتجة. امتقع وجه مازيل، وقال بصوت جاف: "أيها السادة! سنقوم بالتصويت."

كشف صوته عما يكنه من حقد وكراهية دفينة لبونجراند، تحت ستار من الزمالة والمجاملات. كان من النادر أن تقع مثل هذه الخلافات حول لوحة ما، ففى الغالب ما يتفقون بشأن قراراتهم.

تم التصويت، ولم يرفع أحد يده سوى فاجرول وبونجراند. رفضت لوحة" موت طفل" دون أن تحظى بفرصة ثانية فى المراجعة الأخيرة.

كانت المراجعة الأخيرة مرهقة للغاية. بعد عشرين يوما من الجلسات المستمرة، كان على اللجنة أن تستريح ليومين، لتتيح الفرصة للعاملين لترتيب اللوحات وتجهيز القاعات. ولكن قبل ذلك، كان عليها أن تعيد تقييم ثلاثة آلاف لوحة مرفوضة، لتختار من بينها بعض اللوحات لتوضع فى المعرض ليكتمل عدد اللوحات المقرر أى ألفين وخمسمائة لوحة. كانت اللوحات المرفوضة ملقاة فى كل مكان، بجوار الأعمدة، وعلى الأرضيات، فى صفوف طويلة كست القاعات جميعها بكل ما يمكن أن ينتجه الفن من جنون وسطحية ورداءة! كان على الأعضاء أن يجوبوا فى هذه المتاهات لست ساعات من الواحدة إلى السابعة. فيبدءون بقوة، ولكن سرعان ما يعييهم الإرهاق من طول التجول، وتسأم أعينهم الألوان المتضاربة. فما أن تحل الرابعة، حتى تخور قواهم كجيش مهزوم، يسيرون بتباطؤ بأنفاس متقطعة منتظرين بفارغ الصبر انتهاء تلك الصفوف الطويلة.

كيف لهم أن يكونوا عادلين وسط هذا الجنون، كيف لهم أن يختاروا من بين هذه الأكوام الرديئة؟ فاكتفوا باختيار اللوحات دون تدقيق، دون تمييز بين بورتريه أو منظر طبيعى، فى سبيل بلوغ العدد المنشود. مائتان، مائتان وأربعون، لا يزال هناك ثمانية! هيا اختاروا! ها قد انتهينا!

أثناء عودتهم، توقفوا أمام القاعة التى تضم لوحة " موت طفل"، الملقاة على الأرض وسط لوحات أخرى. لم يتشاجروا بشأنها هذه المرة واكتفوا بالسخرية والاستهزاء. فتصنع أحدهم أنه تعثر ليدوسها بقدمه، وأمسكها

البعض مقلبين إياها كمن يبحث عن وضعها الأصلى، صائحين فى النهايـــة، أنها أجمل بالمقلوب!

حاول فاجرول مسايرتهم، ولكنه قال فى النهاية: "تأملوها جيـــدا أيهـــا السادة!... فلتأخذكم بها الرأفة، كونوا لطفاء وضموها إلى المعرض!"

كانوا يبتسمون وهم يسمعونه، متمسكين برفضهم لقبولها، بـــل ازدادوا شراسة وضراوة فى مهاجمتها، حتى قال أحدهم: "أتريد أن تأخـــذها علـــى مسؤوليتك بدافع الشفقة؟"

كانت تلك من عادات المعرض، فكان يحق لكل عضو مـــن أعـــضاء لجنة التحكيم أن يختار لوحة على مسئوليته بدافع الشفقـــة نظـــرا لرداءتها، أو إجماع الأعضاء على رفضها، ويمكنه بذلك إدخالها المعرض دون فحص. عادة، كان يتم اتخاذ هذا الإجراء مع الرسامين المتسولين شديدى الفقر.

فقال فاجرول، وقد امتقع لونه من الإحراج: "على مـــسئوليتى! أنـــا لا أمانع، ولكن أنا لدى لوحة على مسئوليتى، إنها لوحة الزهور، رسمتها إحدى السيدات..."

قاطعته سخرية زملائه: "أهى جميلة تلك الـــسيدة؟ أم مـــاذا؟" شـــعر فاجرول بمزيد من الحرج والحيرة، لم يكن يستطيع التخلى عن تلك المـــرأة لأنها من أصدقاء إيرما، وظل شبح الكارثة يطارده إذا لم يف بوعده لها!

ثم توجه أحدهم بالسؤال إلى بونجراند: "وأنت يا بونجراند؟... ألا تريد أن تأخذها على مسئوليتك؟ تلك اللوحة المضحكة!"

شعر بونجراند بالألم يحز فى قلبه، فقال فى احتجاج: "كيف لى أن أوجه مثل هذه الإهانة لفنان حقيقى ومتميز؟ آخذ لوحته بدافع الشفقة؟ ... يكفيه فخرا بأنه لن يدخل المعرض!"

رغب فاجرول بأن يكون هو صاحب الفضل والمبادرة، فقرر بجسارة الرجل الشجاع الذى لا يخشى الإهانة: "حسنا! سآخذها أنا على مسئوليتى!"

فصاحوا جميعا مهنئين إياه على شجاعته، ملوحين له فى سخرية، محيين هذا الشجاع الذى لم يخف، ولم يتراجع عن رأيه! جاء عامل وحمل بين يديه اللوحة البائسة الملطخة والمُهانة. وهكذا، كان الحدث: قبول لجنة التحكيم للوحة رائد مدرسة " الهواء الطلق".

فى صباح الغد، أرسل فاجرول لكلود رسالة مقتضبة يعلمه فيها بنبأ قبول لوحته فى المعرض، مبرزًا الصعوبات التى لاقاها فى سبيل نيل الموافقة عليها. على الرغم من فرحته بالخبر، شعر كلود بالألم يعتصر قلبه، خلفت لديه الرسالة القصيرة شعورًا بالأسى والشفقة، فنطقت كل كلمة بمدى الإهانة والإذلال الذى تعرض له. سبب له هذا النبأ تعاسة بالغة، حتى رغب فى استعادة اللوحة وإخفائها عن كل الأعين. ثم تلاشت هذه الحساسية، وعاوده شعور بالفخر بفنه، بعد أن أدماه طول الانتظار، وأنهكه ترقب النجاح صعب المنال، فيكفيه الآن أن الناس سترى عمله! ومضى يترقب افتتاح المعرض بفارغ الصبر وكأنه مبتدئ ينتظر عرض أولى لوحاته ليراها الجميع ويمتدحوا جمالها.

كان يوم افتتاح المعرض، يوما مقدسا فى باريس. فبعد أن كان مخصصا للفنانين المرموقين، أصبح احتفالا فخما يتهافت عليه سكان المدينة بأسرها. فمنذ أكثر من أسبوع، والصحف، والجمهور يتحدثون عن الفن والفنانين، وقد أصبحوا الشغل الشاغل لباريس: الكل يتحدث عن كبار الفنانين، وما أرسلوه، وعن تصرفاتهم وأعمالهم... ساهم كل هذا الحشد الذى غذى افتتان الناس وشغفهم بالفن فى زيادة شهرة المعرض، حتى تجاوز عدد الزائرين فى بعض الآحاد خمسين ألف زائر، وكأنهم جحافل ضخمة تسير بين القاعات تتأمل هذا الكم الرهيب من اللوحات.

كان كلود يخشى يوم الافتتاح الشهير، مرتعبا من تدافع الجماهير، فقرر الذهاب يوم الافتتاح الحقيقى للفنانين، رافضًا عرض صاندوز باصطحابه. لم يلبث أن اعترته حمى القلق، فخرج منذ الثامنة صباحا، بعد أن تناول بالكاد قطعة خبز وبعض الجبن. قبل رحيله، أوصته كريستين، التى لم تواتها الجرأة للذهاب معه: " هيا يا عزيزى! ولكن تذكر لا تحزن أبدا مهما حدث!" وقبلته فى تأثر وقد بدا عليها القلق الشديد.

داخل المعرض، شعر كلود بالاختناق، ودق قلبه بقوة لصعوده مسرعا على السلالم. كان الطقس فى الخارج صيفيا جميلا، والسماء صافية، لكن الستائر المثبتة على السقف الزجاجى حجبت الشمس فلم يتسلل منها سوى ضوء أبيض واضح، وهبت نسيمات رطبة من الأبواب الجانبية المطلة على الحديقة. توقف كلود برهة، ليلتقط أنفاسه ويستنشق هذا الهواء المعبق برائحة

الألوان وعطور السيدات. جالت عيناه بين اللوحات المعلقة على الحوائط، فرأى لوحة تجسد إحدى المذابح، وأخرى على اليسار تصور مشهدا حربيا، وثانية احتفالا رسميا، ثم مجموعة من البورتريهات والمناظر الطبيعية، بدت درجاتها اللونية الصاخبة أشد قوة داخل الأطر المذهبة اللامعة. دفعه خوفه العميق من الجمهور، إلى مراقبته، فأخذ يشاهد الجماهير المتدافعة التى لا تتوقف عن التكاثر. جلس على الوسادة المستديرة الموضوعة فى المنتصف والمحاطة بباقات الزهور، ثلاث سيدات، بل ثلاثة وحوش شمطاء تتأهب لقضاء يوم كامل فى النميمة والسخرية.

فى الخلف، سمع صوت أجش لرجل إنجليزى يشدد على مقاطع الكلمات، مرتديًا بذلة مخططة بخطوط متقاطعة، يشرح صورة المذبحة لامرأة شاحبة ترتدى معطفا غريب الشكل. ظلت بعض المساحات شاغرة، بينما بدأت المجموعات تتألف، ثم تتفتت، لتعود وتتشكل فى مكان آخر. كانت الرءوس جميعها مرفوعة، وقد أمسك الرجال بعصيهم ومعاطفهم، بينما سارت السيدات فى هدوء.

تعلقت عينا كلود بالورود المثبتة فى قبعاتهن، بألوانها الصارخة، وبين قبعات الرجال الحريرية السوداء. ثم وقع بصره على ثلاثة من رجال الدين، وضابطين عاديين، ثم على صفوف طويلة من الرجال المتأنقين، ومواكب كاملة من الفتيات تصحبهن أمهاتهن معرقلين حركة السير فى المكان. كان الجميع يعرفون بعضهم بعضا ويتبادلون الابتسامات والتحيات من بعيد، أو يتصافحون بالأيدى بطريقة عابرة. ولم يعد يسمع سوى وقع الأقدام.

استمر كلود يبحث عن لوحته، فحاول أن يسير وفقا للحروف، ولكنه اتجه بالخطأ نحو اليسار، ليجد أمامه مجموعة كبيرة من الأبواب المفتوحة وقد ظهرت منها بعض اللوحات. سار حتى وصل إلى القاعة الغربية، وعاد مرة أخرى دون أن يجد لوحته. عند عودته، كانت الضوضاء قد زادت بسرعة، وتعسر السير وسط الجموع المحتشدة. فوقف قليلا، ورأى بعض الفنانين من معارفه القدامى، منهم زميل قديم له من أيام مرسم بوتين، كان يبدو عليه مدى إلحاحه وإصراره على نيل الدعاية، سعيا إلى الحصول على الميدالية، فكان يجتذب الزائرين ولو قسرا لرؤية أعماله، ثم رأى رسامًا آخر ثريا وشهيرا، واقفا أمام لوحته يتقبل بفخر ابتسامات الرضى والمجاملات النسائية الرقيقة. وأنواعًا أخرى من الفنانين، المنافسين الذين يضمرون الكراهية ويتبادلون المديح، والأوفياء الذين يتهللون لنجاح زملائهم، والوجلين الذين يقبعون فى ذكرى النجاحات السابقة، والمازحين الذين يخفون وراء دعابتهم جروح الهزيمة الدامية،... وأيضًا عائلات الفنانين: فوقفت شابة ساحرة ومعها طفل أنيق لطيف، وأيضًا امرأة برجوازية فظة نحيفة متشحة بالسواد، وامرأة ضخمة ممسكة بطفلين شقيين، بالإضافة إلى سيدة جميلة وابنتها يتبادلان ابتسامة هادئة كلما شاهدتا عشيقة الأب تسير أمامهما. حضرت العارضات، اللاتى استعرضن أجسادهن فى اللوحات متحدثات بأصوات مرتفعة، قد ارتدين ثيابا تخلو من الذوق والأناقة تخفى جمالهن الصارخ، بينما حضرت جميلات باريس فى أبهى وأفخر حللهن.

وجد كلود فجأة متسعا من الطريق، فمضى يفحص الأبواب المفتوحة على الجانب الأيمن. دخل القاعة المخصصة لحرف اللام، ولم يجد شيئا. ربما تكون لوحته قد وضعت فى مكانٍ آخر! فسار ناحية القاعة الشرقية، متأملا فى طريقه القاعات الصغيرة الزاخرة باللوحات التى لا يمر عليها أحد، حتى لتبدو وقد اعتمت ألوانها من فرط الضجر وهو أسوأ ما يخيف الرسام. وهناك، لم يجد شيئا أيضًا! فسار مذهولا يائسا، حتى خرج إلى قاعة العرض التى فى الحديقة، ليبحث عن لوحته وسط هذا الطوفان الوفير من اللوحات التى بهتت ألوانها من تأثير الإضاءة الساطعة. ثم عاد ثانية إلى القاعة الرئيسية، حيث ازداد التدافع حتى كاد الناس أن يسحقوا بعضهم بعضا. كانت الجموع تمثل باريس كلها بجميع أطيافها من كتاب وصحفيين ورجال مجتمع وفرسان ورجال أعمال ونساء، سواء كن ممثلات أو عارضات أو سيدات مجتمع...

وفى سورة غضبه من اختفاء لوحته، تضاعف ذهوله من انحطاط هذه الجموع التى تتدافع بغير نظام محدثة جلبة شديدة، فتحول الخوف الذى ملأه إلى نوع من الازدراء والاحتقار.

أهؤلاء هم من سيسخرون ثانية من لوحته إذا وجدها؟

رأى مراسلين مشغولين بملء قوائم الأسماء التى سينقلانها للجريدة، وأحد النقاد يتظاهر بكتابة بعض الملاحظات على هامش أوراقه، بينما أبصر ناقدا آخر يقف وسط مجموعة من المبتدئين يلقنهم دروسا مهنية، وآخر يقف

وحيدا عاقدا ذراعيه خلف ظهره متأملا كل لوحة، ناقدا إياها بقسوة شديدة. اشتد غضبه أمام تدافع هذه القطعان، وفضول المجموعات التى لا تعرف شيئا عن الفن والشباب والشغف، والأصوات الحادة، والتعب البادى على الوجوه معطيا انطباعا بمدى المعاناة التى يلاقونها فى السير. خيم جو من الغيرة والحسد على القاعات، تجلى فى أعين بعض الزوار، مثل هذا الرجل الذى لم يكف عن السخرية وإلقاء الدعابات بصحبة بعض السيدات، أو هذا الشخص الذى يقف أمام لوحة فى صمت، هازًا كتفيه فى ازدراء قبل أن يمضى، أو هذين اللذين جلسا لأكثر من ربع الساعة يتحدثان همسا مسددين نظراتهما الحادة إلى لوحة صغيرة كمن يحيك مؤامرة شريرة.

ظهر فاجرول أخيرا سائرًا بصعوبة وسط الجماهير المتدفقة مادا يده مصافحا الجميع، بوصفه رساما شهيرا وعضوا بارزا فى لجنة التحكيم. فلم يلبث أن انهال عليه الشكر والمديح والتحية، فكان يجيب على الجميع متحليا بالأدب والذوق، على الرغم من إرهاقه، واضطراره إلى تحمل صغار الرسامين الذين التفوا حوله وأعجزوه عن السير. لم تكن الساعات الأولى من الافتتاح سوى فوضى عارمة، فالجميع يهرع ليقابل معارفه، وتنطلق صيحات التعارف، ويزداد الهياج، مما يدفع بعض الفنانين إلى التفكير فى نزع لوحاتهم والرحيل. طارد رجل نحيف فاجرول فى غضب، فحاول مرارا أن يفهمه أنه لا دخل له بنظام وضع اللوحات، فأرقام اللوحات توضع على لافتات تعلق على الحوائط، دون محاباة لأى شخص. حتى اضطر فى النهاية

أن يعده بالتدخل أثناء ترتيب القاعات بعد توزيع الميداليات، ولكن الرجل لم يهدأ، ولم يتوقف عن مطاردته.

تجاوز كلود الجموع ليذهب إلى فاجرول ليسأله عن مكان لوحته، ولكن كرامته منعته. أو ليست الحاجة المستمرة للآخرين مهينة ومؤلمة؟ وفكر فى أنه ربما يكون قد أغفل صفا كاملا من القاعات على اليمين، فسار فى هذا الاتجاه فوجد لوحات أخرى، ووصل فى النهاية إلى قاعة تكدس فيها الناس حول لوحة كبيرة احتلت الصدارة فى المنتصف. لم يستطع رؤيتها فى البداية، بسبب الجماهير المتجمعة حولها، والتى ظلت تبدى إعجابها الشديد بروعتها. فوقف كلود على أطراف أصابعه، وأخيرا رأى التحفة التى يتحدث عنها الجميع وعرفها على الفور! إنها لوحة فاجرول "إفطار"!

رأى فى لوحة "إفطار" لوحته القديمة "الهواء الطلق"، فتشابهت الألوان والصيغ والموضوع، وإن كانت لوحة فاجرول أكثر هدوءا وزيفا، بأناقتها المغالية، فبدت مرسومة بعناية ومهارة غير متناهية لنيل رضا وإعجاب عامة الجمهور. لم يرتكب فاجرول خطأ كلود السابق، فلم يغامر برسم نسائه عاريات، واكتفى بتعريتهن من الداخل، أى جعل ملابسهن وزينتهن الصارخة الرخيصة تنطق بعريهن الحقيقى، فكشف ثوب إحداهن الحريرى الشفاف عن صدرها، بينما برزت ساق الأخرى حتى ركبتيها وهى تستدير لإحضار الطبق، أما الثالثة، فعلى الرغم من أنه لم يظهر منها أى شىء، فإن ثوبها الضيق كان أبلغ دليل على جرأتها، بالإضافة إلى الرجلين بستراتهما الريفية

الأنيقة، وخادم يلوح من بعيد محضرًا سلة طعام من العربة الواقفة خلف الأشجار. وقد سلطت الشمس أشعتها المتوهجة على الأشخاص والملابس والطعام، وفى الخلفية تركزت الكتل الخضراء. كانت مهارة فاجرول تكمن أساسا فى ادعاء الجرأة والقوة الكاذبة متظاهرًا بصدم الجمهور حتى يغشى عليه، لكن الحقيقة لا تعدو كونها تملقا واضحا له يهدف فقط إحراز النجاح. لم يقو كلود على الاقتراب، وإنما اكتفى بالإنصات لتعليقات الناس من حوله: "أخيرا وجدنا فنانا يعبر عن الحقيقة! إنه ليس مدعيا مثل هؤلاء الأوغاد أتباع المدرسة الجديدة، فهو يعبر عن كل شىء دون أن يفصح عن أى شىء! كم هى جميلة ألوانه التى يستخدمها، بدرجاتها المتنوعة، إنه الفن الحقيقى! فن تمرير الرسائل الخفية مع احترام الجمهور! كل هذا يعبر عنه برقة وسحر وكأن لوحته تتحرك! ليس مثل هؤلاء الذين يستغرقون فى رسم لوحات مشبوبة فائرة غير لائقة، بل وفظة أحيانا!"

ثم جاء أحد الخبراء وقال فى سعادة نشوانة: "إنه الرسم الباريسى!" وأخذ الجميع يردد وراءه فى رضا أن هذا الرسم يعبر بالفعل عن روح باريس.

اغتاظ كلود من هذا الجمع الغفير، ولم تلبث صيحات الإعجاب أن أثارت جنونه، فشعر بالرغبة فى رؤية وجوه هؤلاء المدعين الذين يقررون نجاح لوحة من عدمه، فشق طريقه بين الناس، والتف حول العمود، وأصبح فى مواجهتهم. عرف على التو تلك الوجوه التى سخرت منه فى المرة

السابقة، كان الجميع يكتسى بطابع من الجدية الممزوجة بالنشوة والاحترام لهذه الأعمال التى أمامهم، إلا أنهم احتفظوا بنفس قسماتهم الكريهة التى خطها الألم، ألم الصراع والحسد الممقوت المرتسم على وجوههم الشاحبة التى لم يكسر حدتها سوى الإجماع السعيد على هذه الأكاذيب والادعاءات المحبوبة. وقفت أمامه امرأتان ضخمتان تتثاءبان فى تعب، بينما التف بعض الرجال الطاعنين فى السن أمام اللوحة يتأملونها بعين الرضى والفهم، كما وقف رجل يشرح موضوع اللوحة لزوجته الشابة التى وقفت تداعب ذقنها فى حركة جميلة. تنوعت طرق الجميع فى التعبير عن الإعجاب، فمنهم من فغر فيه، ومنهم من اندهش، ومنهم من احتفظ بوقاره العميق، ومنهم من هش وانفرجت أساريره، ومنهم من اكتفى بالابتسام أو بتحريك رأسه.

وقف كلود كالمخبول أمام هذا النصر المبين. امتلأت القاعة بالزائرين الجدد الذين أتوا لرؤية اللوحة الشهيرة. اختلف الوضع تماما عنه فى الصباح، فعوضا عن النسمات الباردة التى تهب من النوافذ، ارتفعت حرارة القاعات، وازدادت حدة روائح الألوان وعطور السيدات النفاذة. من المؤكد أنها كانت تمطر بالخارج، لأن القادمين الجدد انبعثت منهم رطوبة غريبة، وتبخرت المياه التى أثقلت ملابسهم فى القاعات الحارة. بدأت قطرات المطر تتساقط بقوة محدثة أصواتا قوية عند اصطدامها بالسقف الزجاجى. اكتست السماء بالغيوم، وخيمت الظلال على الجدران فأظلمت اللوحات، ولف السواد وجوه الجمهور. وبعد قليل، انقشعت الغيوم، فرأى كلود ذات الوجوه مكتسية نفس التعبير وقد فغر الجميع أفواههم ووقفوا محملقين ببله وانبهار.

شعر كلود بمرارة خانقة حينما التفت ليرى فى الجهة المقابلة للوحة فاجرول، لوحة بونجراند وحيدة لا يقف أمامها أى شخص، فكان الجميع يمر أمامها مرور الكرام دون أدنى اهتمام. كانت فى الحقيقة هى اللوحة التى قضى بونجراند سنوات فى سبيل بلوغها، اللوحة التى ولدها بصعوبة مثبتا للجميع موهبته وجدارته قبل أفول نجمه. دفعه كرهه للوحته الأولى" زفاف فى القرية" اللوحة التى رفعته إلى مصاف الرواد، لكن أفسدت باقى مسيرته الفنية، إلى اختيار موضوع مغاير تماما، هو "مراسم الدفن فى القرية" مصورا قافلة فى طريقها لدفن فتاة صغيرة وسط حقول الشعير والشوفان. كان يصارع ذاته، ليكتشف ما إذا كانت موهبته قد نضبت؟ هل ضاعت حياته سدى بسبب طيش الشباب؟ وها قد فشلت تجربته، فلم تلاق اللوحة سوى الفشل الذريع والهزيمة المميتة، كرجل عجوز يتعثر ويسقط فى الطريق دون أن يلتفت إليه أحد من المارة. كان كثير من التفاصيل البديعة تنطق بعظمته وعبقريته، خاصة الطفل الصغير الذى ينشد الألحان الجنائزية ممسكا بصليب صغير، أو مجموعة الفتيات بأثوابهن البيضاء التى تخفى أجسادهن المشربة بالحمرة، والتى تتناقض مع القافلة المتشحة بالسواد، وسط الحقول الخضراء، وأن اتسم الكاهن والأسرة الواقفة خلف الجثمان، والكثير من أجزاء اللوحة بنوع من التصلب والجفاف العنيد غير المريح للعينين. كانت هناك ملامح غير مقصودة للعودة المحتومة للرومانتيكية المعذبة التى خرج بونجراند من عباءتها فى شبابه. والآن اكتملت فصول مأساته، بدا تجاهل الجمهور للوحته مبررا لكونها لوحة تنتمى إلى زمن ماضى، إلى فن صارخ حاد شديد السوداوية، فلم يكن لها مكان وسط موجة الرسم تحت الإضاءة الساطعة.

دخل بونجراند القاعة وجلا فى تردد المبتدئ. شعر كلود بألم مرير وهـو يتأمله يرمق لوحته الوحيدة، ثم يلقى نظرة على لوحة فاجرول التى يتدافع حولها الزائرون. فلابد أنه أدرك فى تلك اللحظة بأن هذه هى نهايتـه، فبعـد أن كـان طوال هذا الوقت فريسة الخوف من الانهيار البطىء والشك فى قدراته، أتته هذه اللحظة باليقين المفاجئ، وأدرك أن موهبته قد ماتت وأن كل جهوده القادمة لـن يتمخض عنها أى عمل حقيقى. امتقع لونه فجأة وندت عنـه محاولـة للهـرب بمجرد أن رأى شامبوفارد النحات ومعه مجموعته المعتادة من الطلبة يدخل من الباب المقابل ويناديه بصوت رنان، غير عابئ بالجموع المتكدسة: "أنـت أيهـا المخادع، ها قد أمسكت بك وأنت تتأمل لوحتك بإعجاب!"

أحضر شامبوفارد هذا العام تمثالاً بشعًا لامرأة تجمع الحصاد. كان تمثالاً رديئا يعوزه الكثير من العمل، ولكنه لم يشعر بأن عمله فى حاجة إلى تعديل أمام إعجاب الزائرين فتضاعفت ثقته فى ذاته القديرة وموهبته التى لا تخفق.

وقف بونجراند يرمقه بنظرات مشتعلة دون أن يجيبه.

- "أرأيت تمثالى الجديد بالأسفل؟... إنه استمرار للقديم... فليـأت إذًا هؤلاء الصغار المدعين! لـيس هنـاك سـوانا، وحـدنا الفنـانين الحقيقيين! نحن أصالة وعراقة الفن الفرنسى كله!"

ثم سار يحيى الزائرين المنبهرين وتبعه تلاميذه فى خنوع.

- "أحمق!" غمغم بونجراند وقد خنقته الحسرة. لمح كلود مـن بعيـد، فاقترب إليه. شعر بأن الهرب جبن وخسة، فقرر البقـاء لإظهـار شجاعته وسمو روحه التى لا تعرف الحسد أو الغيرة.

- "لقد حقق صديقك نجاحا باهرا، أليس كذلك... سأكون كاذبا إذا قلت إن لوحته قد تركت فى نفسى أدنى أثر، إنها لا تعجبنى على الإطلاق. ولكن فاجرول شخص لطيف فى الواقع... كما أنه بذل جهودا مضنية لمساعدتك."

حاول كلود جاهدا أن يجد ما يمدح به لوحته "مراسم الدفن فى القرية"، فقال: "إن المقابر الصغيرة فى الخلفية رائعة للغاية!... كيف يمكن للجمهور ألا..."

قاطعه بونجراند بصوت عنيف: "من فضلك يا عزيزى لا داعى للتعازى... أنا أرى جيدا!"

فى تلك اللحظة، أتي نوديه ليلقى التحية بود وألفة. تغير شكله كثيرًا بعد أن أتخمته الثروة ونجاح أعماله التجارية، وأثملته طموحاته، فبنى قصرا منيفا يعيش فيه كملك السوق يجمع حوله الأعمال الجيدة ليفتتح بها متاجر جديدة للفن الحديث. كان يقيم فى قصره معارض فنية، ليجنى الملايين وهو واقف فى بهو قصره. وينتظر حلول شهر مايو، ليستقبل هواة الفن الأمريكيين ليبيعهم اللوحات التى اشتراها بعشرة آلاف فرنك مقابل مبالغ باهظة تتجاوز الخمسين ألف فرنك للوحة. حقق مكاسبه الأولى بفضل سطوع نجم الكثير من الرسامين الراحلين الذين لم يلاقوا التقدير الكافى فى حياتهم، مثل كوربيه ومييه وروسو، مما جعله يحتقر أى لوحة لفنان حى لا يزال يقاتل من أجل إثبات ذاته. ولكن سرعان ما تباطأت وتيرة أعماله، خاصة وأن عدد اللوحات الأصلية محدود، مثله مثل عدد هواة جمع اللوحات. وبدأ

الناس يتحدثون عن نقابة تتولى مهمة التفاهم مع الممولين لتحمل النفقات الباهظة لشراء اللوحات. وبالفعل، عُقد مزاد فى قاعة دروو حيث مارس الجميع الألاعيب، فاشترى التجار نفس لوحاتهم فى صفقات وهمية، مما عجل بقدوم الإفلاس الوشيك بسبب المضاربات وانغماس العاملين فى البورصة فى المبالغة والخداع.

قال نوديه: "صباح الخير يا سيدى العزيز. أجئت أنت أيضًا لترى مدى روعة أعمال فاجرول؟"

لم يعد يحذث بونجراند بنفس التواضع الذى يحمل طابع الود والإجلال، مشيرًا إلى فاجرول بوصفه رسامًا خاصًا به، وكأنه عامل أجير يوسعه تأنيبا وتوبيخا. كان نوديه هو من جعل فاجرول يقيم فى شارع فيلييه، مجبرا إياه على شراء نزل، مؤكدا على ضرورة تأثيثه بعناية، حتى وإن غرق فى الديون من أجل اقتناء الأبسطة والخزف ليبقيه دائما وأبدا تحت رحمته، وها هو يتهمه الآن بمخالفة أوامره وتعريض سمعته للخطر بألاعيبه الصبيانية، مثل إرساله لهذه اللوحة إلى المعرض. فأى رسام جاد لم يكن ليرسل مثل تلك اللوحة إلى المعرض خشية أن تحدث ضجة كبيرة، أو أن يترشح لميدالية الشرف. لم تكن المشكلة فى الميداليات، وإنما فى أنه فى سبيل الحصول على أموال الهواة الأمريكيين، يجب على الرسام أن يتعلم الحرص والصمت.

– "صدقنى يا عزيزى، كنت أفضل أن أدفع عشرين ألف فرنك لهؤلاء الصبحفيين الحمقى لكيلا يثيروا أى جلبة حول فاجرول هذا العام."

ابتسم بونجراند الذى كان يسمعه بصبر، متغلبا على معاناته الأليمة، ثم قال: "معك حق، فهؤلاء الصحفيون يبالغون أحيانا فى إفشاء الأسرار... أتعلم؟ لقد قرأت بالأمس أن فاجرول يتناول كل يوم بيضتين على الإفطار."

وضحك بقوة من كثرة الدعاية المحيطة بفاجرول، فمنذ ما يزيد عن أسبوع وباريس كلها لا تتحدث سوى عن الفنان الشاب على إثر مقال عن لوحته التى قلبت الأوساط الفنية قبل أن يبصرها أحد. فاحتشد الصحفيون حوله، وتناولوا طفولته، ووالده صانع لوحات الزنك، ودراسته، ومكان إقامته، وأسلوب معيشته، وحتى لون جواربه، وعادته فى أن يحك طرف أنفه! وشغف الجميع بفاجرول، الرائد الجديد الذى يواكب العصر، الذى خسر جائزة روما وانفصل عن كلية الفنون، وإن كان لا يزال متأثرا بأساليبها وطرقها. كان يجنى ثروة ضخمة من لوحة واحدة، ليبددها وراء نزواته الماجنة، ثم يحقق نجاحًا بفضل جرأته التى تحير الجمهور وتثير إعجابه.

لمح نوديه "مراسم الدفن فى القرية"، فقال: "أتلك هى لوحتك؟... أكنت ترغب فى رسم لوحة تتفوق على "زفاف فى القرية"؟... لو كنت علمت لمنعتك... ما أجملها لوحة "الزفاف"! ما أجملها!"

ظل بونجراند منصتا إليه دون أن يتخلى عن ابتسامته، وارتسم على شفتيه المضطربتين تعبير مؤلم. نسى لوحاته العظيمة، واسمه الخالد، ولم يعد يرى أمامه سوى النجاح الفورى الذى حققه دون أدنى جهد أو تعب هذا الوقح الذى لا يستحق حتى أن ينظف لوحة ألوانه، هذا النجاح الذى يلقى به فى

ظلمات النسيان، بعد أن صارع لعشرات الأعوام ليحقق شهرته. يا ترى أستعلم الأجيال التالية بعد رحيلك، أى جهد مضنٍ ودامٍ بذلته لتحفر اسمك فى صفحات التاريخ؟

ثم سكن روعه، وخشى أن يكون قد ظهرت عليه ملامح الألم أو الحزن، لئلا يظن أحد أنه انحدر إلى هوة الحسد والحقد، فغضب من نفسه لإظهار ضعفه، فإذا كان عليه أن يموت، فليمت واقفا فى عزة وكرامة. أمسك لسانه عن أى رد عنيف كان سيلقيه على مسامع نوديه، وقال برفق: "معك حق يا نوديه! كان من الأفضل أن أخلد للنوم فى اليوم الذى واتتنى فيه فكرة هذه اللوحة."

وفجأة صاح نوديه وهو يمضى بعيدا: "أعذرونى! ها هو!"

كان هذا هو فاجرول واقفا أمام مدخل القاعة، مبتسما فى صمت. ثم نادى على شاب ليسأله عن شىء ما، وأعطاه الشاب إجابة جيدة وسعيدة ففاضت عيناه بالعرفان. ثم وثب إليه اثنان ليهنئاه، وأمسكت به سيدة وأشارت له بلوعة إلى لوحة لطبيعة صامتة موضوعة فى الظل فى أحد الأركان. رحل فجأة، بعد أن ألقى نظرة خاطفة على الجمهور النشوان.

وقف كلود يشاهد ويسمع ما يدور من حوله والحزن يسحق فؤاده. ازداد الازدحام وارتفعت حرارة القاعة بصورة لا تحتمل. بينما وقف فى الخلف الزائرون الجدد عاجزين عن رؤية اللوحة كاملة من شدة التكدس، فاكتفوا بالإشارة لها من بعيد بأطراف مظلاتهم التى تقطر ماء من آثار

الأمطار فى الخارج. ووقف بونجراند ثابتا بفخر واعتزاز أمام آثار هزيمته يتأمل فى حسرة باريس الجاحدة. أراد أن ينهى مسيرته كرجل شجاع له قلب طيب يسع الجميع. وأدرك كلود، الذى وقف يحدثه دون أن يتلقى أى إجابة، أن الروح غابت تماما خلف هذا الوجه الهادئ الفرح، لترقد حزينة متخنة بالجراح. وإزاء هذا الصمت، قرر كلود الرحيل بدافع الإجلال والاحترام لهذا الفنان العظيم، الذى لم يلحظ حتى رحيله بعينيه الخاليتين من أى تعبير.

ومن جديد، عاد كلود يسير وسط الجماهير، متعجبا من أنه لم يجد لوحته حتى الآن. ألا توجد قاعة تتعالى فيها الضحكات الساخرة والصاخبة؟ أو يتجمهر فيها الناس ليكيل السباب للوحة؟ هذه اللوحة ستكون لوحته بالتأكيد. كانت ضحكات الناس فى معرض المرفوضين لا تزال تطن فى أذنيه بوقعها الثقيل، فأخذ يسترق السمع على مداخل القاعات، ليرى إذا ما كان الجمهور يسخر من لوحته هنا.

دخل القاعة الباردة، مقبرة الفن العظيم، التى يلقون فيها بالأعمال التاريخية والدينية واعترته رعدة سمرته فى مكانه مثبتًا عينيه فى الهواء. كان قد مر بهذا المكان أكثر من مرة، ولكنه لم يبصر لوحته المعلقة بالأعلى. كانت مرتفعة للغاية لدرجة أنه لم يتعرف عليها بعد أن بدت شديدة الضآلة لكونها معلقة إلى جانب لوحة عملاقة للطوفان تتجاوز العشرة أمتار تصور تدافع الناس فى المياه الحمراء المائلة إلى البنفسجى. وعلى اليسار، معلق بورتريه بائس بالحجم الطبيعى للواء، وعلى اليمين، وقفت لوحة تصور جنية كبيرة

وسط منظر طبيعى تحت أضواء القمر، وصور أخرى تعسة لجثة هزيلة ملقاة على العشب، ولوحة بإطار مذهب لامع تصور أعضاء البرلمان يصاحبها أسماؤهم. وفى الأعلى، وضعت لوحة صغيرة بالغة العنف، متفجرة الشراسة، يجول فيها شبح الألم والحزن: إنها "موت طفل"! أبصر جسد ابنه المسكين وقد بدا مختلفا من بعيد، فلم يكن سوى مجموعة من الخطوط المتضاربة تصور جسد وحش صغير مشوه! ما أغرب ذلك الرأس الفريد وقد تورم وزالت ألوانه! ويداه اللتان التفتا حول الأقمشة وكأنهما أرجل عصفور ضعيف صرعه البرد! كيف اكتسى الفراش نفسه بشحوب مقبض يضاهى شحوب الجسد الخالى من الحياة! وظهرت العينان فى ثبات وصفاء معبرتان عن حالة الطفل المصاب بمرض ما فى المخ، وأضفتا إحساسا عميقًا ورهيبًا بالشفقة.

اقترب كلود قليلا من لوحته، ثم تراجع إلى الوراء ليراها جيدا، فسوء الإضاءة خلق انعكاسات وظلالاً أوشكت على إخفاء معالم اللوحة. كان هذا المكان هو الذى اختاروه ليضعوا فيه طفله الصغير، ربما بدافع الازدراء، أو بدافع الخزى فى محاولة للتخلص من قبحه المنفر. فى تلك الأثناء، تدفقت الذكريات فى ذهن كلود، وتجسد جاك أمامه يركض فى المزارع فى الريف ووجهه المتورد يشع نضارة وحيوية، وتذكر أيام إقامتهم بشارع دواى، وكيف بدأ المرض والشحوب يتسرب إلى الطفل الصغير، وحتى انتقالهم إلى شارع تورلاك، حين خارت قوى الطفل حتى عجز عن حمل رأسه، ومات وحيدا فى الليل، بينما استغرقت والدته فى النوم. ثم تذكر كريستين، الأم

المكلومة التى تقبع بمفردها فى المنزل تبكى ولدها وتنعى الماضى الذى ذهب إلى غير رجعة. كم كان صائبا قرارها بعدم المجيء إلى المعــرض لتــرى ابنهما الصغير ملقى منبوذا بعيدا عن الناس، تعذبه الإضاءة الفجة، وارتسمت ابتسامة حزينة على وجهه.

شعر كلود بحزن شديد لتجاهل لوحته، واعترته دهشة وإحباط جعــلاه يجول بعينيه كالمجنون ليرى رد فعل الزائرين. وتعجب من صمتهم. لمــاذا لا يسخرون منه؟ أين ذهبت الشتائم والسخرية وصيحات الغضب التى كانت تمزقه وتعطيه قوة على الاستمرار فى آن واحد؟ ولكنه لم يجد أيًّا من هــذه الأشياء: إنه الموت! كانت الجماهير تمر فى عجلة أمام اللوحات وقد خنقهــا الملل، فلم يعد أحد يتوقف سوى أمام اللوحة المعلقة فى مدخل القاعة ليقرءوا أسماء النواب الذين يصورهم الرسام.

ثم سمع ضحكات قوية، فالتفت، ولكنهم لم يكونوا يسخرون منه، وإنما من لوحة تصور راهبا ثملا أثارت ضحكات الجميع لطابعها الساخر فتجمهر حولها الكثيرون. كل هؤلاء مروا أمام جاك الصغير، دون أن يعيــره أحــد التفاتا، لم يرفع أحد رأسه ليعلم حتى بوجوده!

عاد الأمل يراود كلود عندما رأى رجلين أحدهما نحيف والآخر سمين جالسين على المقعد فى منتصف القاعة يتحدثان ويتأملان اللوحات. فــاقترب منهما مسترقًا السمع.

قال الرجل السمين: "تبعتهم كلهم... ولكنهم ساروا فى شارع سان أونوريه، ثم شارع سان روش وشارع لا شوسيه دانتين وشارع لافييت..."

سأله النحيف باهتمام: "فى النهاية، هل تحدثت معهم؟"

- "لا! فقد خشيت أن أفقد أعصابى."

ذهب كلود، وعاد إليهما أكثر من ثلاث مرات. كان يشتد خفقان قلبه لمجرد مرور أى زائر أمام لوحته أو وقوف أحدهم ليتأمل اللوحات المعلقة بالأعلى بنظرات فاترة. اضطرمت فى داخله رغبة مرضية ملحة فى أن يسمع ولو تعليقا واحدا على لوحته. فلماذا تكبد إذاً عناء تقديم لوحته للمعرض؟ كيف له أن يعرف نتيجة عمله؟ فى تلك اللحظة، شعر بأنه على استعداد لملاقاة أى شىء بدلا من عذاب الصمت والتجاهل! وأخيرا، وقف رجل أنيق له شارب أشقر صغير ومعه زوجته الرقيقة الساحرة. واعتصر الألم قلب كلود وهو يستمع إلى حديثهما. فلم تستطع المرأة فهم اللوحة، فسارع زوجها بقراءة الكتيب، وقال إنها تدعى " موت طفل"! وعندها صاحت مذعورة وهى تجذبه بعيدا بيد مرتعشة: "يا للفظاعة! لماذا لا تمنع الشرطة ارتكاب مثل هذه الفظائع؟"

مكث كلود فى مكانه كالتائه، لم يعد يشعر بما يدور حوله وأصبح فريسة لهواجسه وأفكاره التعسة. وقلب عينيه البائستين فى وجوه الزائرين الذين يتدافعون فى عجلة غير عابئين بتلك اللوحة المتفردة، التى لم يشعر أحد سواه بوجودها. وفى خضم هذا الازدحام، وجده صاندوز، الذى جاء بمفرده بعد أن اضطرت زوجته إلى ملازمة والدته المريضة. فوقف

أمام اللوحة، وذاب قلبه داخله من فرط الألم والبؤس، وتذكر فجأة أيام شبابهما فى مدرسة بلاسان، وجولاتهما الطويلة على شواطئ فيورن تداعبهما أشعة الشمس الساطعة، ثم تذكر طموحاتهما الجامحة، وجهودهما المشتركة ويقينهما من بلوغ المجد، ومن قدرتهما على اكتساح باريس بأكملها. ما أجمل تلك الأيام! حين رأى فى كلود هذا الرجل العظيم، صاحب العبقرية التى لا تعرف القيود وكانت سببا فى تفوقه على كل من حوله! تذكر مرسم كلود القديم فى زقاق بوردونييه، ومن بعده مرسم رصيف بوربون، حيث أحلام الشباب بلوحات ضخمة رائعة تقلب اللوفر رأسا على عقب، والصراع الدائم، والعمل المتواصل لعشرات الساعات وتكريس ذاته كلها لعمله وفنه. والآن، ماذا حدث؟ أهذه هى نتيجة عشرين عاما من العمل والشغف والأحلام؟ هذا الشخص المنكوب البائس، الذى يمر دون أن يراه أحد، وقد انتهى به الأمر حبيس العزلة والكآبة يتجنبه الجميع كالمصاب بالطاعون! يا إلهى! أهذه هى محصلة تلك الأعوام الطويلة من الآمال والعذاب؟ أهذا ما يناله بعد أن أفنى حياته فى سبيل الإبداع؟ أهذه هى النهاية؟

ثم اقترب من كلود، وقال بصوت متهدج من فرط الانفعال: "أأتيت إذاً؟ لماذا لم تمر على لنأتى سويا؟"

لم يعتذر كلود، وبقى ساكنا من شدة الإعياء والذهول.

– "دعنا نخرج من هنا. إنها الظهيرة، هيا لنتغديا سويا... كان لدى موعد مع أصدقاء فى مطعم لودوين، ولكنى لن أذهب. هيا إلى المقصف، لنسترد قوتنا، أليس كذلك يا عزيزى؟"

أمسك بنيده، وأخذ يحكها بقوة ليدفئه، محاولا بشتى الطرق حمله على الحديث ليخرجه من هذا الصمت المطبق.

- "ماذا بك؟ لا يجب أن تبتئس بهذا الشكل! لوحتك رائعة للغاية، ولكنهم وضعوها فى مكان شديد السوء، إنها قطعة فنية حقيقية!... أنا أعلم أنك كنت تحلم بشىء آخر، ولكن لا تزال الحياة أمامك، سيحدث ما ترجوه فى المرة القادمة... عليك أن تفتخر، أنت الناجح الأوحد فى هذا المعرض، فالكل يقلدك الآن حتى فاجرول، لقد أحدثت ثورة فى عالم الفن بفضل لوحة "الهواء الطلق" التى ضحكوا منها مرارا... انظر! انظر! ها هى لوحة تشبه لوحتك! وها هى لوحة أخرى! "الهواء الطلق" فى كل مكان!"

سارا بطول القاعات، وساندوز يشير له إلى اللوحات التى استوحت فكرتها من لوحته. كان المعرض القديم القاتم قد مضى، وحل مكانه فن جديد معاصر يحمل بهجة ربيعية ووضوحًا جليًا وإضاءة مشمسة، هو الفجر الجديد الذى بزغ منذ معرض المرفوضين، والذى نمى الآن مجددا اللوحات كاسيًا إياها بالأضواء الساطعة والرقيقة بدرجاتها المختلفة. باتت الزرقة التى سخروا منها، هى العامل المشترك بين اللوحات بما فيها البورتريهات. ذهبت الموضوعات الأكاديمية القديمة أدراج الرياح، واختفت الصيغ التقليدية الجانحة إلى الخيال، وتلاشت الصور العارية للنماذج الأسطورية والصور الدينية الباهتة، وكل ما تشدقت به كلية الفنون التى اتبعها مجموعة من

الأوغاد والحمقى. بدا أثر ثورة كلود واضحا حتى فى لوحـات المتمـسكين بالتقاليد الفنية، والمعلمين القدامى، وكأن الشمس عبرت أمام لوحاتهم وكستها بطابع بهيج ومشرق. وهكذا، على كل حائط، لوحة معلقة وكأنها نافذة علـى الخارج، انهارت الحوائط والجدران ودخلت الطبيعة الحقيقية إلى المكان، بعد أن انتصرت روح الجرأة والشباب، محطمة القوالب الجامدة النمطية.

استكمل صاندوز: "إن دورك جليل يا عزيزى! فن الغد سيكون ملكـا لك، فقد أعددت كل ما يلزم له!"

عندها، قال كلود بصوت خفيض لا يخلو من عنف قاتم: "وماذا يغنينى فى ذلك؟ لا يهمنى إن كنت أعددت كل شىء لفن الغد، مادمت لا أستطيع أن أعد نفسى... أترى؟ إن هذه الأشياء تفوق قدراتى، هذا هو سر آلامى."

سيطر عليه هاجس وحيد، هو عجزه على أن يكون القائـد العبقـرى للثورة التى أحدثها. كان أكثر ما يعذبه هو كونه الرائد الذى يلقى البذار دون أن يجنى أى مجد أو نجاح! كان يشعر وكأن هناك من سلبه النجـاح الـذى يستحقه. فكيف انتهى به الحال، ليكون مجرد مصدر ينقل عنه رسامون دون المستوى، يضيعون جهوده هباء مدنسين الفن الجديد، قبل أن تواتيه الفرصة لينجز تحفته التى ستعلن نهاية عصر بائد، وبداية قرن جديد.

احتج صاندوز، مؤكدا له أن المستقبل لا يزال متاحًا أمامـه محـاولاً التسرية عنه قليلا: "انظر إلى هذه المرأة التى ترتدى ثوبا أزرق وتقف أمـام

هذا البورتريه! ما أقوى الصفعة التى توجهها الطبيعة إلى الرسم!... أتذكر فى المعارض السابقة، حينما كنا نجلس لنتأمل الزوار وثيابهم وزينة السيدات؟ أتذكر كم كانت اللوحات باهتة، فلم يستطع أى منها أن يصور تلك الحياة الفائرة المحتدمة؟ ولكن الآن، بدأت تظهر لوحات جميلة. أذكر أنى رأيت لوحة لمنظر طبيعى، وقد أضفت عليها الإضاءة الساطعة صفرة قوية، جعلت كل الجميلات اللاتى مررن أمامها يظهرن شاحبات.

ترنح كلود من فرط الألم الذى مزق أحشاءه، فقال لصاندوز: "من فضلك، هيا نرحل من هنا، أخرجنى من هذا المكان... لم أعد أتحمل."

وصلا إلى المقصف بعد جهود مضنية من شدة التزاحم، فالجميع يتصارع للجلوس فى هذا المكان الهادئ الذى تظلله ستائر رقيقة تخفف من وطأة الشمس. فى الداخل، ظهرت ثلاث خزائن للأطباق وضعت فيها بترتيب أنيق أطباق الفاكهة، بينما جلست امرأتان إحداهما شقراء والأخرى سمراء على إحدى الطاولات يرمقان الجموع بنظرات فاحصة. وفى الخلفية بدت طاولات صغيرة رخامية وأعداد ضخمة من المقاعد المتلاصقة امتدت إلى الحديقة.

لمح صاندوز أشخاصا على وشك النهوض، فوثب ليحتل الطاولة مخترقا الجموع المتدافعة.

– "ها نحن أخيرا!... ماذا تريد أن تأكل؟"

أشاح كلود بيده فى لامبالاة. جاء الطعام، وكان سيئا للغاية، تفتت التونة وذابت فى الحساء، واحترق اللحم فى الفرن وفاحت من الهليون رائحة

الأقمشة المبللة. كان إحضار الطعام فى حد ذاته أزمة كبيرة، لعجز العاملين عن تحديد أماكن الزبائن وسط الزحام، وتعثرهم أحيانا بالطعام، أو عجزهم عن المرور بسبب تلاصق المقاعد التى سدت الطرقات.

كانت الضوضاء شديدة، فى الداخل والخارج، وصدرت عن المطبخ جلبة صاخبة على إثر ارتطام الأوانى والقدور.

تناول كلود وصاندوز طعامهما بصعوبة، وقد أحاط بهما الناس على الجانبين حتى تلامست مرافقهم، بل ارتطمت أياديهم بأطباق الآخرين، وفى كل مرة، يمر أحد العاملين، كان يصطدم بقوة بالمقاعد ليشق طريقه للمرور. وعلى الرغم من الضيق ورداءة الطعام، بدا الجميع سعداء، وكأن العلاقات توطدت بين الأشخاص على الطاولات المتلاصقة مما خلق جوا من المتعة والارتياح، فتحول الغرباء إلى معارف، وانخرط الأصدقاء فى مناقشات مختلفة كل فى مكانه متبادلين الآراء عبر الصفوف المتعاقبة، باستخدام رءوسهم وأياديهم لتوضيح أفكارهم من فوق أكتاف جيرانهم. أما السيدات، فتغلبن على ضيقهن بالضجيج، وبدأن يستمتعن، فخلعن القفازات وغلالات الوجه مستغرقات فى الضحك أثناء احتساء الشراب.

كان أجمل ما فى يوم الافتتاح هو الاختلاط التام بين جميع الناس، فهناك الفتيات، والعائلات البرجوازية، وكبار الفنانين وبعض البسطاء، يكونون مزيجا ذا نكهة خاصة تبهج الجميع.

نادى صاندوز، الذى رفض التهام ما تبقى من اللحم، على العامل، بصوت عالٍ عسى أن يسمعه وسط هذه الجلبة، طالبا منه إحضار قطعة جبن وبعض القهوة.

ظل كلود شاردا لا يسمع شيئا مما يدور حوله، مستغرقا فـي تأمـل الحديقة. كان يرى من مقعده كتل النخيل الضخمة المتمركزة فى المنتـصف والتى ظهرت خلف الستائر المزينة، وإلى جوارها رأى دائرة من التماثيـل، يصور أحدها ظهر إلهة الريف، وآخر وجه فتاة جميلة بوجنتيها المستديرتين، وآخر من البرونز لرجل مهيب، وتمثال لامرأة جميلة، وغيرها من التماثيـل الرخامية البيضاء التى اصطفت بطول الممرات وسـط الخـضرة البديعـة الممتدة على مدى البصر. إلى اليسار، غلبت التماثيـل النـصفية المبهجـة الموضوعة فى صفوف طويلة وتصور أشخاصًا: كاهنًا ذا أنف ضخم مدبب، وامرأة ذات أنف صغير دقيق، وحسناء إيطالية من القرن الخامس عشر لهـا أنف جميل كلاسيكى، وبحارًا بسيطًا ذا أنف عادى، وهكـذا صـفوف مـن الأنوف المختلفة التى لا تنتهى.

لم ير كلود كل هذا، لم تعد هذه التماثيل بالنسبة له سوى بقع رماديـة وسط الخضرة الشاسعة والإضاءة الضبابية. لم يستطع الفكاك مـن ذهولـه، وجذب انتباهه شيىء واحد، وهو روعة وفخامة ثياب النساء وزينـتهن. لـم يرها جيدا فى الداخل وسط التدافع، وها هى قد انطلقت وتحررت الآن وسط الطبيعة. كان يرى أمامه باريس فى كامل أناقتها، وقـد حـضرت النـساء ليتباهين بأثوابهن عسى أن يتصدرن صحيفة الغد. فتعلقت العيون كلها بممثلة جميلة تتبختر بخطوات ملوكية متأبطة ذراع رجل يسير هو الآخر فى زهـو كالأمراء. تشابهت سيدات المجتمع مع الفاسقات، فأخذن يـرمقن بعـضهن

بعضا بنظرات متأنية وكأنهن تعرين إحداهن الأخرى أمام الجميع، فيتفحصن من تمر من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. قربت مجموعة من السيدات مقاعدهن كما لو كن فى حدائق التويلورى ليتفرغن لمراقبة المارة، فرأين سيدتين ضاحكتين تحثان الخطى، بينما مرت أخرى صامتة حزينة ذهابًا وإيابا من أمامهن، وغيرهن من التائهات، اللاتى انشغلن بالبحث عن بعضهن بعضا سعيدات بالمغامرة، ومجموعة من الرجال المتجهمين يتوقفون أمام التماثيل الرخامية والبرونزية، وكبار البرجوازيين السائرين فى المكان على غير هدى. تدفقت الحياة بقوة فى هذه الجموع المحتشدة التى غمرتها الإضاءة المتساوية الباهتة، وفجأة سطعت الشمس بقوة من وراء السحب المتجمعة، ملقية سهامها المشتعلة على النوافذ الزجاجية وسط الرياح الساكنة. ازداد توهج ولمعان كل شىء: التماثيل والمروج الخضراء التى تحدها الرمال الصفراء فى الممرات، والملابس الحريرية المتلألئة تحت الأشعة الذهبية.

فتح عمال الحديقة صنابير المياه لرى العشب المتوهج، أثناء انشغالهم بغرس الزهور. وهبط طائر جرىء من أعالى شجرته، على الرغم من كثرة الأشخاص المتجمعين، ليلتقط من على الرمال فتات الخبز التى تلقيها له امرأة شابة فى ابتهاج.

فى خضم هذا الصخب والضوضاء، لم يعد يسمع كلود سوى صوت البحر من بعيد، وأصوات الجمهور المتكدس فى القاعات العلوية. وفجأة عاودته ذكرى هذه الأصوات التى انطلقت كعاصفة مدوية أمام لوحته. ولكن

الأصوات التى يسمعها الآن لم تكن تضحك ساخرة، وإنما تمدح وتمجد فاجرول الذى احتشدت باريس كلها حوله.

فى تلك اللحظة، التفت صاندوز، وقال لكلود: "إنه فاجرول!"

كان فاجرول وجورى قادمين بالفعل، ولكنهما لم ينتبها إلى وجود كلود وصاندوز، فجلسا على طاولة مجاورة، بينما استأنف جورى حديثه بصوت عالٍ: "نعم لقد رأيت طفله الميت، يا له من مسكين! يا لها من نهاية تعيسة!"

وفجأة لكزه فاجرول، الذى أبصر كلود وصاندوز، فقال جورى مستدركًا: "إنه أنت يا عزيزى كلود!... كيف أحولك؟... أتعلم أنى لم أر لوحتك بعد؟... ولكنى سمعت أنها رائعة."

فأكد فاجرول كلامه، مرددا: "رائعة!"

وقال متعجبا: "أأكلتما هنا؟ يا لها من فكرة! ولكن ألم يضايقكما الزحام؟ نحن ذهبنا إلى مطعم لودوين واستمتعنا على الرغم من الازدحام!... هيا قربا طاولتكما لنتحدث قليلا."

ضموا الطاولتين وجلسوا سويا، وسرعان ما أقبل الكثيرون ليهنئوا الفنان الشاب على انتصاره، ثم نهض ثلاثة أصدقاء ليحيوه بشدة من بعيد، بينما ظلت سيدة تتأمله بابتسام حينما أشار إليه زوجها. عاد الرسام النحيف، الذى لم يتوقف عن الشكوى من مكان عرض لوحته مواصلاً مطاردة فاجرول منذ الصباح، مندداً بالمكان، مطالبا بوضع لوحته فورا على عمود.

وعندها، خرج فاجرول عن طوره، بعد أن استنفد طاقتـــه مـــن الـــود والصبر، وصاح: "دعنى وشأنى!"

فمضى الرجل يتوعد فى غضب، فأردف فـــاجرول: "كلمـــا أردت أن تكون مهذبا أمعنوا فى إغاظتك!... الكل يريد العمود الكبير، كيـــف توضـــع جميع اللوحات على عمود واحد؟... ما أصعب كَون الواحد عضوا فى لجنة التحكيم! لا تنال شيئا سوى الإرهاق والتعب، ولا تجنى سوى العداوات!"

رمقه كلود فى حزن، ثم غمغم للحظة بصوت خفيض: "لقد كتبت لـــك لأشكرك، كنت أريد أن آتى لرؤيتك بعد أن روى لى بونجراند عن المـــشقة التى تكبدتها من أجلى... شكرا جزيلا لك!"

قاطعه فاجرول بحرارة: "ماذا تقول؟ لقد فعلت هذا بدافع صداقتنـــا... أنا بالفعل سعيد أننى استطعت أن أسدى لك هذه الخدمة."

كان لا يزال يراوده الحرج أمام مرشده الروحى منذ أيـــام الـــشباب، ممتلئًا بالتواضع أمام هذا الفنان الحقيقى الذى أوشك الازدراء الخفى الكـــامن فى عينيه أن يفسد عليه فرحة انتصاره بلوحته. وأضاف كلود بـــبطء بـــدافع الطيبة والشجاعة: "إن لوحتك جميلة جدا"

غمر هذا المديح البسيط قلب فـــاجرول بفرحـــة وعاطفـــة لا يعـــرف مصدرهما، وأجاب بصوت متهدج: "شكرا لك يا عزيزى! كم أنت لطيف!"

فرغ صاندوز من احتساء القدح الثانى من القهوة، التى وضع فيها قطع السكر المتبقية على الطاولة المجاورة بعد أن نسى العامل إحضار السكـــر.

بدأ الناس ينهضون، وخلت بعض الطاولات، مما ضاعف من ارتياح وانطلاق المتبقين، فتعالت ضحكة نسائية التفتت إليها كل الرءوس. بدأ الجميع يدخنون، وتصاعدت سحابة من الدخان والبخار، وتلطخت المفارش ببقع النبيذ والدهون. نهض فاجرول لإحضار زجاجتين من نبيذ شارتر، ثم عاد ليتجاذب أطراف الحديث مع صاندوز. واستولى جورى على كلود الذى عاد إلى صمته الكئيب.

- "أنا لم أرسل لك خطابا بشأن زواجى، ولكنى أنا وماتيلد لم نُعلما أحدًا بسبب وضعنا، كما تعلم، فتم الأمر بيننا... ولكنى رغبت فى إخطارك... اعذرنى يا عزيزى، سامحتنى، أليس كذلك؟"

واستغرق فى الحديث عن نفسه، متماديا فى الصراحة وإيراد التفاصيل حول حياته الجديدة التى يتمتع بها قرير العينين، وقد سيطرت عليه سعادة أنانية بمدى تنعمه وانتصاره أمام هذا البائس المقهور. ظل يردد أن كل شىء يسير معه على ما يرام، شارحا كيف ترك عمله فى كتابة الأخبار، جازما بضرورة إيجاد عمل جاد لتأسيس حياة، فانتقل لإدارة جريدة فنية شهيرة يتقاضى فيها ثلاثين ألف فرنك سنويا، بالإضافة إلى ما يجنيه من صفقات بيع المجموعات الصحفية. ازداد جشعه وشراهته فى جمع النقود، وحسه البرجوازى الذى ورثه عن والده، دافعًا إياه للمضاربة سرًا فى البورصة، وتحول فى النهاية إلى رجل رهيب يمتص دماء الفنانين والهواة الذين يلجأون إليه.

وبعد أن كون هذه الثروة، دفعته ماتيلد بسحرها لطلب الزواج منها، بعد أن رفضته باعتزاز منذ أقل من ستة أشهر.

أضاف جورى: "مادمنا سنعيش سويا، فمن الأفضل أن تتم تسوية الوضع. يا لها من امرأة رائعة عظيمة!... لم يكن لدينا أدنى فكرة عن مميزات تلك المرأة. كم هى وفية، ومقتصدة ورقيقة، وصائبة الرأى!... ما أسعدنى بلقائها! أقسم لك أنى لم أكن لأفعل شيئا من دونها!"

تمكنت ماتيلد، فى الحقيقة، من إجباره على طاعتها كطفل صغير، تحمله على الهدوء بمجرد التهديد بحرمانه من الحلوى. وبعد الزواج، تحولت المرأة الشهوانية إلى زوجة متسلطة ترغمه على الإذعان لها. لم تخنه قط، كامرأة فاضلة شريفة، فاحتفظت له وحده - بسر قوتها - بسحرها وجاذبيتها. قيل إنهما شوهدا يتناولان الأسرار المقدسة فى كنيسة نوتردام دولوريت. كانا شديدى التعلق أحدهما بالآخر، فلا يتورعان عن تبادل القبل واستخدام ألقاب التدليل أمام الغرباء. كان عليه أن يروى لها أحداث يومه بالتفصيل، وإذا بدت لها أى تفصيلة غامضة، أو إذا لم يعطها كل ما جناه من نقود، تظل تتوعده طوال الليل هاجرة إياه، حتى يعتذر لها فى النهاية طالبًا غفرانها.

واختتم جورى قصته برضى: "وهكذا، انتظرنا وفاة والدى، ثم تزوجنا على الفور."

صعق كلود، الذى مكث شاردا محركا رأسه دون انتباه، من وقع العبارة الأخيرة، فقال كالمذعور: " ماذا؟ أتزوجتها؟... أتزوجت ماتيلد؟"

امتزجت صيحة التعجب التى أطلقها بذكريات الماضى، ولقاؤه بماتيلد فى ورشة ماهودو، وتذكر حديث جورى المسىء عنها، وعن فسقها وتهتكها

والفظائع التى ارتكبتها فى محل الأعشاب الذى أفسدته الروائح النفاذة. من بين جميع الأصدقاء الذين ارتموا بين أحضانها، كان جورى أقذعهم لسانا وأقساهم تعليقا، وفى النهاية، يتزوجها! فعلا، كم هو أحمق هذا الرجل الذى يسىء إلى عشيقته، حتى أكثرهن انحطاطا، لأنه لا يدرى، إذا ما كان سيتزوجها أم لا يوما ما!

فأجاب جورى والابتسامة تعلو وجهه: " نعم! لقد تزوجت ماتيلد... أتعلم؟ أن العشيقات القدامى هن أفضل النساء اللاتى عرفتهن."

تحدث بصدق وثقة دون حرج تحت سمع وبصر أصدقائه عن ماتيلد وكأنهم لم يعرفوها من قبل.

ثم ساد الصمت، وصاح صاندوز، الذى كان يسترق السمع فى اهتمام إلى حديثهما: "هيا نسير قليلا، فقد تخدرت قدماى."

فى تلك اللحظة، ظهرت إيرما بيكو أمام المقصف فى كامل أناقتها. بدت رائعة الجمال بشعرها المصبوغ باللون الذهبى الصارخ مثل محظية شقراء فى إحدى لوحات عصر النهضة، مرتدية سترة من الديباج الأزرق الفاتح وتنورة حريرية راقية. لمحت كلود وسط المجموعة، وترددت للحظة، واعتراها خزى من هذا البائس المحتقر رث الثياب. ثم عاودتها ذكرى نزوتها القديمة، فمضت إليهم مسرعة مصافحة كلود أولا، قبل هؤلاء الرجال الذين اتسعت عيونهم من الدهشة. نمت ضحكاتها الرقيقة عن سخرية ودودة، وقالت له فى النهاية: "دون ضغينة!"

ضاعفت تلك الكلمة التى لم يفهمها أحد سواهما من ضحكاتها، مشيرة إلى قصتهما معا، قصة الفتى المسكين الذى اقتحمته قسرا دون أن تحقق لـه أى متعة!

اصطحب فاجرول إيرما وذهبا سويا بعد أن دفع ثمن النبيـذ، وقـرر جورى اللحاق بهما. ظل كلود يتابع ثلاثتهم وهم يبتعدون تتوسطهما إيرمـا سائرين فى زهو وخيلاء، تنهال عليهم التحيات ونظرات الإعجاب.

قال صاندوز فى بساطة: "من الواضح أن ماتيلـد غائبـة وإلا لنـال صفعتين على وجهه حال وصوله البيت!"

طلب صاندوز الحساب ليرحلا هما أيضًا. فرغت الطاولات تماما، فلم يعد عليها سوى بقايا العظام وفتات الخبز. وانهمك عاملان فى تنظيف الموائد الرخامية، بينما انشغل آخر بتمشيط الرمال المختلطة بالبصاق وبقايا الطعام. وخلف الستائر، جلس باقى العاملين يتناولون طعـامهم، محـدثين ضـجيجا ومطلقين ضحكات قوية من أثر المضغ.

تجول كلود وصاندوز فى الحديقة، حتى وقع بصرهما على تمثال من أعمال ماهودو، موضوع بإهمال فى أحد الأركان بالقرب من البهو الشرقى. أخيرا، استطاع أن ينهى تمثاله المنشود للمرأة التى يحلم بها، لم يكن ضخما كما كان من قبل، فطوله لم يتجاوز طول فتاة فى العاشرة من عمرها. ولكنه كان غاية فى الأناقة والجمال، بسيقانه الرقيقة، وصدره الدقيق. وفاحت منـه

رائحة عطرية عبقت المكان وزادته جمالا آسرا نضرا لا يقاوم، بعد أن دبت فيه الحياة بفضل أصابع ماهودو الغليظة.

لم يستطع صاندوز أن يغالب ابتسامته، وقال: "وهذا الجسور يدعى أنه أضاع موهبته!... لو كانت أتيحت له ظروف أفضل لحقق نجاحا واسعا."

- "نعم! نجاحا واسعا! إنه تمثال فائق الجمال."

فى تلك اللحظة، أبصرا ماهودو يصعد الدرج، فنادياه وركضا تجاهه، وتبادل ثلاثتهم الأحاديث لعدة دقائق واقفين أمام المعرض السفلى شبه الفارغ سوى من الأتربة. كان المكان شديد البرودة والكآبة من تأثير الإضاءة الباهتة التى تسللت من النوافذ الضخمة، حتى ليظن المرء أنه أسفل جسر للقطارات بعواميده الحديدية الصلبة. وخلف الستارة، رصت التماثيل التى رفضها المعرض ولم يسترجعها أصحابها بعد. كان المكان يشبه غرف الموتى فى إهماله وقتامته. كان مصدر دهشتهم هو تلك الضجة المستمرة التى تحدثها خطوات الزائرين فى القاعات العلوية، وكيف بدت غير محتملة فى الأسفل وكأنها قطارات تمر مسرعة على القضبان الحديدية.

هنأ كلود وصاندوز ماهودو على تمثاله. أكد ماهودو لكلود أنه ظل يبحث عن لوحته دون جدوى، وسأله عن المكان الذى وضعوا فيه اللوحة. خطر له جانيير ودوبوش فى لحظة من لحظات الحنين إلى الماضى، حين كانوا يسيرون فى المعرض كجماعة يتجولون متحفزين فى القاعات وكأنهم فى بلاد العدو، ويخرجون وقد ملأهم الازدراء العنيف ليسترسلوا فى

مناقشات طويلة محتدمة حتى تعيا ألسنتهم وعقولهم! لم يعد أحد يرى دوبوش سوى نادرا، مرتين أو ثلاث كل شهر. أما جانيير، فلم يكن يحضر من ميلون سوى لحضور الحفلات الموسيقية، بعد أن فقد اهتمامه بالرسم، لدرجة أنه لم يهتم حتى بحضور المعرض، حيث عرضت له لوحة صغيرة لشاطئ نهر السين، أرسلها منذ خمسة عشر عاما، ولم يلتفت إليها أحد على الرغم من دقتها ورقة ألوانها.

أردف ماهودو: "سأصعد. أستأتون معى؟"

شعر كلود الشاحب بضيق وألم شديد، كمن ينهش أحشاءه وحش مفترس، وترتعد أوصاله لصوت زمجرته المدوية. فمد يده ليصافحهما فى صمت.

فصاح صاندوز: "أستتركنا؟ تعال نتجول للمرة الأخيرة، ثم نرحل معًا".

وانتابه شعور خانق بالشفقة تجاه صديقه، الذى فارقته قواه وذهبت عنه شجاعته. كان واضحا أنه يرغب فى الاختلاء بنفسه، فى الهروب بعيدا ليخفى جرحه الغائر عن أعين الجميع، فقال: "حسنا! وداعا يا عزيزى!... سآتى غدا لأطمئن عليك".

سار كلود مترنحا حتى اختفى وسط الجموع. وبعد ساعتين، صعد صاندوز الذى انفصل عن ماهودو إلى القاعة الشرقية ليلحق بجورى وفاجرول ومعهما ماهودو. وهناك وجد كلود واقفا أمام لوحته، فى نفس المكان الذى وجده فيه فى الصباح. وجد كلود المسكين نفسه مرغما على الصعود ثانية ليقف أمام اللوحة كالمهووس.

حلت الساعة الخامسة، وأصبح الجو خانقا، وأصاب الدوار الزائرين الذين أنهكهم التجول فى القاعات. فمع زوال برودة الصباح، عبقت حرارة الأجساد والأنفاس برائحة ثقيلة امتزجت بالأتربة المتصاعدة من الأرضيات كالضباب. سار الجميع ذهابا وإيابا فى بطء وتخاذل. صمدت النساء عازمات على البقاء حتى يطالبهن العاملون بالرحيل حينما تدق الساعة السادسة. وإن فشل بعضهن، وبقى البعض الآخر متمسكًا بالبقاء، حتى وإن أعوزتهن أماكن الجلوس، مفضلين فى عناد وإصرار الاستناد إلى مظلاتهن متحدين التعب والإرهاق. تعلقت الأعين المتعبة جميعها بالمقاعد المكتظة بالزائرين عسى أن يشغر أحدها، ولكن دون جدوى. أنهكت الأرجل، وافترس الصداع الرءوس، الصداع المعتاد الذى هو من سمات المعارض من كثرة التجوال وتحريك الرأس والرقبة ومشاهدة الألوان المتضاربة المتباينة.

لم يعد يبقى على المقعد الذى يتوسط القاعة، سوى الرجلين اللذين كانا يجلسان عليه منذ الظهيرة يرويان بقية أحاديثهما فى هدوء، يا ترى أنهضا ثم عادا ثانية، أم ظلا دون حراك طوال هذه المدة؟

قال الرجل السمين: "وهكذا، دخلت أنت متصنعًا عدم الفهم؟". فأجاب النحيف: "بالضبط، ثم تأملتهم ونزعت قبعتى... أفهمت؟".

- "مذهل! مذهل!... أنت رائع يا صديقى العزيز!".

لم يعد كلود يسمع سوى خفقان قلبه، ولا يرى سوى "موت طفل"، دون أن يحول عنها عينيه. كان مبهورا بها لدرجة جعلته يتسمر فى مكانه رغما عنه. بينما حامت الجموع حوله فى تراخٍ، داس بعضهم على قدمه، فشعر

بالإهانة والغضب، ولكنه استسلم كجماد لا إرادة له. ظل فى مكانه رافعا رأسه أمام لوحته غير عابئ بما يدور حوله. كانت حياته بأكملها تدور بالأعلى، حيث جاك الذى شوهه الموت. ترقرقت الدموع فى مقلتيه حتى حجبت عنه الرؤية، ولكنه أمسك عينيه عن البكاء، وشعر بأنه لن يتاح له الوقت الكافى لتعويض ما فقده.

تظاهر صاندوز بأنه لم يره بدافع العطف، وأراد أن يعطيه فرصة للاختلاء بنفسه، ليبكى على أطلال حياته المفقودة. اكتملت مجموعة الأصدقاء، فسار جورى وفاجرول فى المقدمة. كذب صاندوز على ماهودو عندما سأله عن مكان لوحة كلود، وصحبه بعيدا، ثم مضوا جميعهم.

فى المساء، لم يجب كلود على أسئلة كريستين سوى بعبارات مقتضبة: سارت الأمور جيدا، لم يغضب الجمهور من اللوحة، حققت اللوحة صدى جيدًا فى المعرض. ولكن، على الرغم من هذا الهدوء البارد، بدا كلود غاية فى الغرابة، مما أثار خوف كريستين.

وبعد العشاء، أعادت الأطباق إلى المطبخ، ولم تجده على المائدة كعادته، وإنما كان واقفا أمام النافذة المفتوحة التى تطل على قطعة أرض خلاء. انحنى بشدة على النافذة لدرجة أنها لم تره للوهلة الأولى، وهرعت إليه فزعة تجذبه بعنف من سترته، صارخة: كلود! كلود! ماذا تفعل؟"

التفت إليها بوجهه الشاحب وعينيه المجنونتين قائلاً: "كنت أشاهد".

فسارعت بإغلاق النافذة بيدين مضطربتين، وظل الرعب يعتريها من الداخل، فلم يغمض لها جفن طوال الليل.

يتجاوز بالكاد ثلاثة آلاف فرنك. وعلى الفور، قررا البدء فى تدبير النفقات والمغالاة فى الادخار، فاكتفيا بالخبز، متغاضين حتى عن بعض الاحتياجات الأساسية، وقررا الرحيل عن منزلهما بشارع دواى للإقامة فى مرسمه بشارع تورلاك، فما جدوى الاحتفاظ بمنزلين وإنفاق مبالغ باهظة لإيجارهما؟ كان المرسم واسعا ويكفى لإقامة ثلاثة أفراد، بغض النظر عن آثار بقع المياه المصبوغة التى تلطخ المكان.

لم يكن إعداد المرسم للسكنى بالأمر الهين، فكان المكان كله عبارة عن غرفة واحدة شاسعة تزيد مساحتها عن خمسة عشر مترا فى عشرة أمتار، تصلح لأن تكون مخزنا يأوى مجموعة من المتشردين يتشاركون كل شىء. فاضطر كلود أن يقسمها بنفسه، بعد أن تجاهل المالك طلبه، إلى جزأين، فوضع حاجزًا خشبيًا يفصل المطبخ وغرفة النوم عن مكان عمله. لم يكونا تعيسين، على الرغم من الشقوق والتصدعات الموجودة فى السقف، والتى لم تكن لتحميهما من الرياح الباردة أو من الأمطار، فيضعان بعض الأوانى تحت هذه الشقوق لئلا تغمر المياه الغرفة.

أشاع المكان شبه الفارغ نوعا من الكآبة فى نفسيهما، فلم يكن لديهما سوى أربع قطع أثاث حاولا توزيعها لتملأ هذا الفراغ الرهيب. حاولا تصنع السعادة بسهولة وسرعة انتقالهما، مؤكدين لأصدقائهما أن المكان الجديد أفضل حتى إن جاك أصبح لديه مساحة تكفيه ليلعب ويركض كيفما شاء.

أتم جاك عامه التاسع، دون أن ينمو على الإطلاق، لم يعد يكبر فيه سوى رأسه. لم يستطع الاستمرار فى المدرسة لأكثر من ثمانية أيام على التوالى، ليعود منها مرهقا مريضا من محاولاته للتعلم، خاصة وأن كلود

الفصل الحادى عشر

فى الغد، استأنف كلود عمله. ومرت الأيام، وانقضت أشهر الصيف فى هدوء ثقيل. كان قد بدأ يرسم لوحات صغيرة لباقات الزهور يرسلها إلى إنجلترا مقابل مبالغ زهيدة تضمن لهم بالكاد قوت يومهما مكرسًا أوقات فراغه كلها لاستكمال لوحته الكبيرة، التى اختفت منها ملامح الغضب المتفجر الذى ميزها فى الماضى، وكأنه استسلم أخيرا لهذا الجهد الأبدى فى هدوء وصبر عنيد يملؤهما بالأمل، وإن ظل مس الجنون يلمع فى عينيه اللتين ينطفئ بريقهما كلما وقعتا على لوحة عمره المجهضة.

فى تلك الأثناء، نال صاندوز أيضًا نصيبه من الألم والتعاسة، فماتت والدته وانهارت حياته السعيدة القديمة، وانتقل للإقامة كرهًا فى منزل فى شارع نوليه. وعندئذ، بدأت أعماله تزدهر وتنجح، وازدادت مبيعات كتبه فجأة، وسعد الزوجان بالثروة الجديدة، فانتقلا إلى منزل رحب فى شارع لوندر عاشا فيه لشهور. ساهم حزنه وحداده فى تقريبه من كلود، وجمع بين قلبيهما الزهد العميق فى الأشياء المادية. أصبح صاندوز مفرط القلق على كلود منذ صدمة المعرض، متيقنا من أنه أصيب بشرخ لا سبيل لإصلاحه، وجرح خفى لن يندمل. ولكن سرعان ما وجدت الطمأنينة سبيلها إلى قلبه عندما رآه بادى الهدوء والتعقل.

اعتاد صاندوز المرور بمنزل كلود من حين لآخر، وإذا صادف ووجد كريستين بمفردها، كان يسألها عن أحوالهما، مستشفا أنها هى الأخرى تعيش فى رعب من وقوع الكارثة، دون أن تبوح بمخاوفها، التى تجلت فى قسماتها المعذبة، واختلاجاتها العصبية التى لأم تسهر على رعاية ولـدها، وتخـشى قدوم الموت مع أقل أزمة.

وفى صباح أحد الأيام الصيفية، سألها صاندوز: "أأنـت سـعيدة الآن؟ فكلود أصبح أكثر هدوءا، وعمله يسير على ما يرام."

فما كان منها إلاَ أن رمقت اللوحة بنظرة ملأها الرعب والكره، وقالت: "نعم، نعم، إنه يعمل... يريد أن ينهى جميع التفاصيل ليتفرغ لتلك المرأة..."

أردفت، دون أن تفصح عن سبب الهلع الذى تملكها: "ولكـن عينيـه! ألاحظت عينيه؟... بهما دائما نظرة غريبة. أنا أعلم جيدا أنه يكذب ويتصنع الهدوء... من فضلك حاول المرور عليه واصحبه فى نزهة لتـسرى عنـه قليلا، لم يعد له سواك، من فضلك ساعدنى، ساعدنى!"

ومن وقتها، بدأ صاندوز يتفنن فى إيجاد مبررات للخروج والتجـول، فيصل صباحا إلى منزل كلود، ويأخذه قسرا من عمله، حتى كان يتحتم عليه فى كثير من الأوقات أن ينزعه نزعا من أعلى السلم حيث يجلس لـساعات حتى دون أن يرسم، يغلله الفتور والخمول فيمكث ساكنا لدقائق طويلـة دون أن يمد طرف فرشاته. فى تلك الأوقات الصامتة، تبقى عنياه مسلطتين فـى حمية وخشوع على شكل المرأة التى لم يمسسها بعد، وقد اشتعلت فى داخله

رغبة مترددة ونشوانة، وملأته رقة لا حدود لها. فينشغل بالأشخاص الآخرين فى اللوحة، أو بالتدقيق فى الخلفية، بعينين حائرتين تتحركان يمينا ويسارا، وترقصان إذا ما التقتا بعينيها.

اعتادت كريستين الذهاب إلى عشاء صاندوز الأسبوعى حرصا منها على انتهاز أى فرصة لتساعد طفلها الكبير، هذا الفنان الحزين، على الابتسام ونسيان همومه. وذات مساء، طلبت الانفراد بصاندوز، ورجته أن يحضر غدا إلى منزلهما. كان صاندوز بالفعل، فى حاجة للتجول فوق هضبة مونمارتر من أجل تصفية ذهنه للحصول على بعض التفاصيل اللازمة لروايته الجديدة، فمر بكلود واصطحبه عنوة لملازمته فى جولته، ولم يعده إلا فى ساعة متأخرة من الليل.

فى هذا اليوم، أثناء سيرهما ناحية كلينيانكور، حيث تقام الاحتفالات الدائمة ويمتلئ المكان بالألعاب والحانات الشعبية، التقى الاثنان بشاين واقفا فى زهو وسط كوخ واسع أنيق ازدان بالأعمال الخزفية والزجاجية والزينة اللامعة والزخارف المذهبة المتوهجة التى تحدث رنينًا موسيقيًا عند مرور الهواء، وقد عج باللاعبين الساعين لاقتناص النقود من وراء صيد الأرانب والرماية، وزخر بالأبسطة الحمراء والإطارات الخشبية والستائر التى علق بينها ثلاث لوحات، هى أهم أعمال شاين التى يصطحبها فى كل المعارض: لوحة "المرأة الخاطئة فى المنتصف"، وتقليد للوحة للفنان مانتينيا[1] على

---

(١) مانتينيا:Andrea Mantegna: رسام إيطالى (١٤٣١- ١٥٠٦).

اليسار، وعلى اليمين لوحة رسم فيها مدفأة ماهودو. وفى المساء، حينما تضىء السراجات وتلمع كالنجوم، تكتسب اللوحات جمالا فائقا وسط الستائر القرمزية، حتى تجمع كلود وصاندوز فى ذهول أمامها.

وصاح كلود متعجبا: "يا إلهى!... ما أروع هذه اللوحات!"

كانت اللوحات بالفعل رائعة، خاصة تقليد مانتينيا، التى اتسمت بحدة وسذاجة جعلتها تشبه لوحات متحف مدينة أبينال للفن الشعبى الباهتة، التى تسعد البسطاء، بينما طفرت بهجة وفرحة فريدة من لوحة المدفأة المرسومة بدقة متناهية.

لمح شاين أصدقاءه، فتقدم ليصافحهم فى هدوء وكأنه تركهم بالأمس فقط، لم يتبادر إليه أى شعور بالفخر أو بالخزى من متجره الجديد. لم يبد عليه تقدم العمر، وغاص أنفه تماما فى وجنتيه الضخمتين، واختفى فمه بين طيات لحيته الكثيفة.

قال صاندوز بمرح: "ها قد التقينا ثانية! إن لوحاتك تحرز مزيدًا من النجاح هنا!"

أضاف كلود: "أنت أيها اللئيم! لقد أقمت معرضا خاصا بك، كم أنت ماكر!"

انفرجت أسارير شاين، وقال ببساطة: "بالطبع!"

واستيقظ كبرياؤه الفنى، بعد أن كان عازفا عن الكلام، لا يصدر منه سوى همهمات، فنطق بعبارة كاملة: "بالطبع لو كنت أمتلك مثلكم الكثير من النقود، لكنت وصلت لما وصلتما إليه."

كان هذا هو رأيه بالفعل، لم يشك قط فى موهبته، ولكنه قرر الانصراف عنها لضعف الدخل الذى تدره عليه. فكان يتأمل اللوحات المعروضة فى اللوفر، معتقدا أن ما ينقصه لبلوغها، فقط هو مزيد من الوقت.

عاودت كلود كآبته وقال: "لا تندم كثيرا، فأنت الوحيد الذى نجح... أتسير تجارتك على ما يرام؟"

غمغم شاين بعبارات مريرة حول تعثر تجارته، فالناس يفضلون اللهو والشراب على اللعب والرماية، وأصبحت الحياة قاسية. وعندها اقترب قوم، فقطع حديثه، وصاح بصوت غليظ لم يعهده الصديقان من قبل: "هيا! هيا! اقتربوا والعبوا!... ستربحون النقود بلا ريب!"

جاء عامل حامل على ذراعه طفلة صغيرة سقيمة لها عينان متلهفتان، وجعلها تطلق النار مرتين، فحدث صرير قوى بالحلبة، واهتزت الزينة المعلقة، بينما ظل الأرنب حيًا يدور ويدور وقد تدلت أذناه من الفزع، وركض مسرعا واختفى. وازداد صخب وانفعال الجميع، بعد أن أخفقت الفتاة فى إصابته.

ذهب كلود وصاندوز ليصافحا شاين، وسارا مبتعدين. ثم قال كلود بعد أن قطعا ما يقرب من خمسين خطوة: "على أية حال، هو سعيد!"

فاحتج صاندوز: "سعيد! كيف هذا؟ إنه يندم على تركه للمعهد، وهذا الندم يعذبه!"

مرت الأيام، وفى منتصف أغسطس، فكر صاندوز فى القيام برحلة ترفيهية طويلة. كان قد التقى دوبوش من فترة، ووجده أصبح شخصا آخر تعسا كئيبا مليئًا بالحسرة والألم، لا يجد العزاء سوى فى ذكريات الماضى، فقرر دعوة صديقيه المخلصين لقضاء يوم معه فى منزله الريفى، حيث يقيم مع أولاده بمفردهم لمدة خمسة عشر يوما. فتفكر صاندوز فى نفسه، وقال لم لا؟ مادام هو شديد الرغبة فى استعادة الصداقة القديمة، فلنذهب إليه ونمرح سويا. وظل صاندوز يعده بإحضار كلود، ولكن دون جدوى. تشبث كلود برفضه، كمن يخشى من فكرة الذهاب مرة أخرى إلى بينكور والسين والجزر البديعة، والريف الجميل الذى شهد أعوامهما السعيدة التى اندثرت وراحت فى طى النسيان. فتدخلت كريستين لإقناعه، حتى رضخ فى النهاية لإلحاحهما فى نفور واشمئزاز. وفى عشية يوم الرحيل، قضى الليل كله ساهرا منهمكا فى لوحته كالمحموم، وعندما حل الصباح، انتزعوه بصعوبة من العمل، وقد افترسته الرغبة فى الرسم، فمضى فى لوعة وحزن. فما فائدة العودة إلى هناك؟ لقد ماتت هذه الأيام الخوالى، لم يعد لها وجود! لم يكن هناك شىء سوى باريس، وليس كل باريس، وإنما مكان واحد، وسط المدينة، ذلك المشهد المهيب الذى سكن أعماقه.

فى القطار، تعجب صاندوز لرؤية كلود فى حالة ترقب عصبية وقد تعلقت عيناه بالنافذة يرقب بها باريس التى تبتعد ويغطيها الضباب، وكأنه سيرحل عنها لأعوام طويلة، فعمد إلى تسليته، فأخذ يروى له ما آلت إليه

أحوال دوبوش. كان السيد مارجايان مزهوا فى البداية بـصهره المعماری النابغ الحاصل على الميدالية، فدار به فى كل الأوساط مقدما إياه بوصفه شريكه الحالى وخليفته العتيد الذى سيساهم فى ازدهار أعماله وزيادة ثروته. ولكن لاقت أولى أفكار دوبوش فشلا ذريعا، حيث اخترع فرنًا لصنع الطوب وأقامه فى بورجونى على قطعة أرض من ممتلكات حميه. ولكن كانت ظروف البناء شبه كارثية، زادها سوءا رداءة التخطيط، فأسفرت المحاولة عن فشل محقق وخسارة مائتى ألف فرنك. فاكتفى منذ ذلك الحين بالتصميم حيث ادعى تطبيق نظرياته الشخصية الناضجة التى ستحدث ثورة تجديد فى فن المعمار بأسره. ولكنها لم تكن سوى مجموعة من النظريات القديمة التى نقلها عن بعض زملائه القدامى المجددين الثوريين، كان يحاول أن يحقق ما تمنى بمجرد تحرره من قبضة الكلية، ولكن النتائج لم تكن مرضية، فجاءت تجديداته بليدة وفى غير محلها، وكأنه تلميذ نجيب يطبق النظريات دون روح، أو حس مبدع. فأسرف فى الديكورات الخزفية والنوافذ الزجاجية الضخمة وبالغ فى استخدام الحديد، فالقباب حديدية، والسلالم حديدية... ونظرا لارتفاع تكلفة هذه المواد، انقلب الأمر فى النهاية إلى كارثة. وتحول شيئا فشيئا إلى مدير بائس يسعى إلى الحفاظ على الثروة فى قلق واضطراب، بعد أن ذهب عنه حبه للعمل وولعه بالتصميم.

هذه المرة، غضب السيد مارجايان، الذى قضى ثلاثين عاما فى شراء الأراضى وإنشاء المبانى وبيعها، جانيا ثروات خرافية فى لمح البصر، مغاليا

فى التمحيص، فكان يحسب مساحة الأرض ليقيس ثمن المتر، وكم مترا سيحتاجه للشقة، وما هو عائد إيجار الشقة... فمن أين له بهذا الأحمق الذى يخلط بين الجبس والطوب والحجارة، والذى يستخدم خشب السنديان، بينما يكفى وضع الصنوبر، الذى لم يكن يتورع عن اقتطاع طابق بأكمله، أو تقسيمه إلى أجزاء صغيرة وكأنه قطعة خبز؟

فثارت ثائرته ضد الفن، بعد أن كان قد قرر إضفاء طابعٍ فنى على أعماله ليخفى جهله الذى طالما عذبه. ولكن الأمور سارت من سيئ إلى أسوأ، فاندلعت المشاجرات بين دوبوش وحميه، وأعرب الأول عن ازدرائه متحصنا بعلمه وفنه، بينما هدده الآخر مؤكدًا أن أقل عامل يستطيع أن يتفوق على من يدعى أنه معمارى. تآكلت الثروة، وطرد مارجايان دوبوش من مكتبه، مانعا إياه من القدوم إليه مادام عاجزا عن إدارة ورشة بها أربعة عاملين فقط لا غير. ووقعت المصيبة المدوية والفشل الذريع.

فسأله كلود، الذى أنصت باهتمام: "وماذا يعمل الآن؟"

- "لا أعلم، ولكن اعتقد أنه لا يفعل شيئا. قيل لى إنه قلق على صحة طفليه، وإنه يعتنى بهما".

كانت السيدة مارجايان الشاحبة النحيلة كنصل السكين، قد توفيت بسبب مرض الدرن، وهو مرض وراثى، لأن ابنتها ريجين لم تكف عن السعال منذ زواجها من دوبوش. فبدأت حينئذ الانتظام على العلاج بالمياه القادمة من جبل دور، دون أن تصطحب معها طفليها اللذين تدهورت صحتهما بسبب سوء

الطقس وشدة الرياح، وهو السبب فى تشتت الأسرة، فالأم هناك وحيدة بصحبة خادمة، بينما عاش الجد فى باريس حيث استأنف أعمّاله الضخمة مناضلا بمفرده وسط أربعمائة عامل، صابًا اللعنات على الكسالى والعاجزين، بينما احتمى دوبوش بمنزله الريفى مكرسا نفسه لرعاية ابنه وابنته، بعد أن اعتزل معترك العمل منذ بداية الصراع، ليختبئ هنا مدى الحياة. كان دوبوش قد ذكر لصاندوز أيضًا أن زوجته كانت قد أوشكت على أن تقضى نحبها أثناء ولادتها الثانية، وأصبحت تصاب بالإعياء من أقل مجهود، مما اضطره إلى التنازل عن حقوقه الزوجية كافة. فقال فى النهاية: "يا له من زواج جميل!"

كانت الساعة العاشرة، حينما وصل الصديقان أمام مدخل لا ريشودبير، حيث يقيم دوبوش، ذلك المنزل الذى لم تطأه أقدامهما من قبل. بهرهما جمال الحديقة الرائعة المليئة بالأشجار ويحيطها سور بديع. أبصرا ثلاث دفيئات ضخمة، وشلالاً مهيبًا وتلالاً من الأحجار التى تحد مجرى المياه. ظهر جليا أن دوبوش قد أنفق ثروة على إعداد هذا المكان. ولكنهما اندهشا من العزلة الكئيبة التى خيمت على المنزل، فتم تمشيط الممرات حتى خلت من أثر أى أقدام، بينما بدا الأفق الخالى مترامى الأطراف، لا تجتازه سوى ظلال العاملين فى الحديقة العابرة. بينما برز المنزل شبه الميت فى المنتصف، وقد أغلقت جميع نوافذه ماعدا اثنتين مواربتين.

ظهر خادم، وسألهما عن سبب الزيارة. فأجاباه بأنهما حضرا لرؤية السيد دوبوش. وبمجرد أن سمع أنهما زوار للسيد، أجابهم بوقاحة إنه موجود الآن فى الملعب خلف المنزل، ودخل.

سار كلود وصاندوز فى الممشى الطويل، حتى وصلا إلى قطعة أرض مغطاة بالعشب، وفجأة استوقفهما مشهد مؤثر. كان دوبوش واقفا أمام أرجوحة كبيرة وقد أمسك بذراعى جاستون ابنه ليرفعه ليتشبث بها. كان جاستون طفلا هزيلا ضعيف البنية، ذا جسد رخو نحيل كالطفل الصغير على الرغم من بلوغه عامه العاشر. وإلى جوارهما جلست ابنته الصغيرة أليس داخل عربتها منتظرة أن يحين دورها لتلعب هى الأخرى بعد أخيها. كانت صحتها هى الأخرى عليلة، وقد ولدت قبل أوانها، مما سبب لها مشاكل صحية أعجزتها عن السير حتى بعد أن بلغت عامها السادس. كان الأب منشغلا بتمرين ابنه لتقوية أطرافه الضعيفة، فأخذ يؤرجحه عسى أن يتمكن من رفع جسده الصغير بقبضتيه. كان من شأن هذا الجهد الطفيف أن يجعل الطفل المسكين يتصبب عرقا، فحمله دوبوش وغطاه فى صمت، كانوا فى عزلة عن الجميع لا يحيط بهم سوى السماء الواسعة.

ثم انتصب واقفا، وعندها أبصر صديقيه: "ماذا؟ أ حضرتما بالفعل؟... أأتيتم هكذا دون إخطار؟ ويوم الأحد؟"

بدا عليه الإحباط، فمضى يشرح لهما أن الخادمة لا تأتى أيام الآحاد لتذهب إلى باريس، وهى الوحيدة التى يستطيع أن يترك طفليه فى رعايتها، والآن لا يمكنه أن يتركهما بمفردهما.

أردف: "بالتأكيد أتيتما لقضاء اليوم وتناول الغداء؟"

رمق كلود صاندوز بنظرة متوسلة، فقال الأخير: "لا! لا!... لقد أتينا فقط لنحييك، فكلود قد اضطر للحضور إلى هنا لإنهاء بعض الأعمال، فقد

عاش طويلا هنا فى بينكور كما تعلم، ففكرنا فى المرور بك لنلقى التحية. لا تزعج نفسك، فالغداء ينتظرنا فى باريس."

بدا الارتياح على وجه دوبوش، ولكنه حاول التظاهر بإلزامهما بالبقاء، ليمكثوا سويا ولو ساعة على الأقل. وبالفعل جلس ثلاثتهم يتحدثون. أخذ كلود يتفحصه، متعجبًا لرؤيته وقد امتلأ وجهه المنتفخ بالتجاعيد، وتحول لونه المتورد إلى الصفرة، وخط الشيب شعره وشاربه، حتى جسده بدا عليه الإنهاك، وقد فت الخمول فى عضده وأثقل الحزن المرير حركته. أترى إن هزائم النقود مؤلمة ومفجعة مثلها مثل هزائم الفن؟ نطق صوته ونظراته بمأساة هذا المسكين المهزوم، النابعة من اعتماده المخجل على الآخرين ليعيش، وانهيار مستقبله الذى أطاح به حموه وأغلق أبوابه فى وجهه، واتهامه الدائم بأنه ادعى موهبة لم يمتلكها قط، ومن نقود الأسرة الثرية التى تطعمه وتكسوه ملقية له بضعة ملاليم كمن يتصدق على متسول متشرد بعد أن عجز عن التخلص منه.

قال دوبوش: "انتظرانى هنا قليلا، فيبقى خمس دقائق من وقت طفلتى العزيزة، وبعدها سنجلس سويا."

أخرج أليس من عربتها بعناية فائقة وحذر شديد، ورفعها إلى الأرجوحة متفوها بعبارات حلوة لتشجيعها، ثم تركها دقيقتين وهى متشبثة بالأرجوحة لتقوية عضلاتها، ولكنه ظل فاتحا ذراعيه متابعا حركاتها، خشية أن تسقط وتتهشم أمام ناظريه إذا ما أفلتت يداها من فرط التعب. كانت

الطفلة المسكينة صامتة تطيع والدها على الرغم من خوفها من هذا التمـــرين البسيط. لم تكن قادرة على طى ساقيها، مثلها مثل العصافير الصغيرة التـــى تسقط من أعالى الشجر عاجزة عن الحراك.

فى تلك اللحظة، ألقى دوبوش نظرة على جاســتون ليطمــئن عليـــه، وانتابه الفزع حينما رأى الغطاء وقد انحسر عنه، وانكشفت ساقاه: "يا إلهى! يا إلهى! سيصاب بالبرد وهو جالس على هذا العشب المبلل! مــاذا أفعــل؟ لا أستطيع أن أتحرك الآن!... جاستون يا عزيزى! دائما مــا تقــوم بتلــك الحركة، وتنتظر كونى منشغلا بشقيقتك!... من فضلك يا صــاندوز، غطِــهِ أرجوك!... شكرا لك!... اطو الغطاء مرة أخرى، نعم هكذا لا تخف!"

كان هذا هو ما أثمر عنه زواجه، طفلين ناقصى النمــو، قــد تــودى بحياتهما أقل نسمة هواء. من كل الثروة التى تزوج من أجلها، لم يبــق لـــه سوى الحزن غير المنقطع المتجسد فى ابنه وابنته البائسين اللذين ســيلاقيان مصير والدتهما، يتدهوران حتى يفتك بهما الدرن.

تحول هذا الشاب الأنانى إلى أب مذهل، يدق قلبـــه بعاطفـــة واحــدة، ويعيش من أجل هدف واحد وهو حماية طفليه، وإبقاؤهما على قيد الحيـــاة. كان يصارع فى كل دقيقة، وينقذهما كل صباح، يمزقـــه الخــوف مـــن أن يفقدهما بحلول المساء. اختفى وجوده ليوجدا هما، حياته الخاصــة أنهكهــا الحزن والمرارة من اتهامات وإهانات حميه، ومن تعاسة حياته الزوجية مع امرأته البائسة المريضة، فتحول جل اهتمامه إليهما، يصارع ويقاتل ليفســح لهما مكاناً فى الحياة.

ثم قال لابنته فى رقة: "أيكفى هذا اليوم يـا عزيزتـى؟ سـترين كـم ستكبرين وتصيرين جميلة فى المستقبل!"

ثم أعادها ثانية للعربة، وحمل جاستون على ذراعه متـدثرًا بغطائـه. حاول كلود وصاندوز مساعدته، ولكنه رفض، وهو يدفع العربة بيده الأخرى، قائلا: "شكرا لكما، ولكنى اعتدت الأمر! إن طفلىَّ اللطيفين ليسا ثقيلـين علـى الإطلاق... كما أنى لا أئتمن الخدم عليهما، فاعتدت على حملهما!"

دخل الجميع إلى المنزل، وأبصر كلود وصاندوز الخادم الوقح الـذى أدخلهما، واندهشا لرؤية دوبوش يرتجف أمامه فى خجل. كان الخدم موالين للسيد مارجايان الذى ينفق على المنزل، فشاركوه احتقاره لدوبوش، معاملين إياه بازدراء كشحاذ يعطفون عليه من قبيل الشفقة، فمع إعدادهم لملابسـه، أو تقديمهم لطعامه، كانوا يشعرونه بصفاقة بأنهم يتصدقون عليه.

قال صاندوز وقد اعتصره الألم لرؤية حـال صـديقه: "وداعـا إذًا، سنرحل الآن!"

- "لا!لا! انتظرا قليلا... سيتناول الأطفال طعامهما، ثم سنذهب جميعا فى جولة، فهذا هو موعد نزهتهما اليومية." كان كل يوم له نظـام محدد مقسم بالساعات، فيبدأ الصباح بالحمام اليومى، ثم الرياضة، ثم موعد الطعام، وهو ليس بالأمر الهين، فكـان يلزمهمـا طعـام خاص متفق عليه، لدرجة أنهم كانوا يدفئون حساءهما لئلا تصيبهما قطرة باردة بالزكام. كان طعامهما اليوم مكونًا من صفار البـيض

الذائب فى الحساء وقطعة من اللحم يقطعها لهما دوبوش إلى أجزاء دقيقة. ثم يأتى موعد النزهة، تليها القيلولة.

خرج الجميع، وسار كلود وصاندوز إلى جوار دوبوش الذى يدفع عربة أليس، بينما يسير جاستون بالقرب منه، فى الطرقات الواسعة. أخذ الثلاثة يتحدثون عن المنزل، الذى ألقى عليه دوبوش نظرات وجلة فزعة تدل على أنه لم يشعر فيه أبدا بالراحة أو الأمان. لم يعد يهتم بشىء، وكأنه نسى الكل حتى مهنته كمعمارى التى اتهمه الجميع بعدم إتقانها، فاستسلم لحياة البطالة والفراغ.

سأله صاندوز: "كيف حال والديك؟"

لمعت عيناه المظلمتان فجأة، وقال: "والدى! إنهما بخير. اشتريت لهما منزلا صغيرا، وينفقان من المبلغ الذى خصصته لهما... لقد تعبا كثيرا فى تنشئتى، فيجب الآن رد الدين... أستطيع القول الآن إن والدىَّ ليس لهما أى عتاب أو شكوى من ناحيتى."

توقفوا عن السير للحظات، ثم صافحهم دوبوش بوجه كمد، وقال فى هدوء مشددًا على يد كلود: "حاول أن تنجو بنفسك... لا تضع حياتك هباء مثلما فعلت أنا."

ثم قفل عائدا وهو يدفع أليس، وقد أسند جاستون الذى بدأت خطواته تتعثر تدريجيا. كان ظهره قد انحنى بالفعل، وصار يمشى كالمسنين.

دقت الساعة الواحدة، وركض الصديقان، وقد أعماهما الحزن والجوع، ناحية بينكور. وهناك تلقيا صدمة قوية أغرقتهما فى الأشجان، حين علما بنبأ وفاة أفراد عائلة فوشور: الزوج والزوجة والسيد بواريت، بينما أصبحت ميلى هى مالكة النزل، وكانت منفرة بالفعل من فرط قذارتها وفظاظتها. كان الطعام هناك رديئا للغاية، فوجدا بعض شعيرات وسط العجة، وتصاعدت رائحة الدخان من اللحم. كانت تفوح من القاعة الكبيرة رائحة عفنة من كثرة القمامة الملقاة على الأرض حتى امتلأ المكان بالذباب الذى احتل الموائد بأكملها. ضاعفت حرارة الظهيرة من اشمئزازهما، فهربا ورحلا دون احتساء القهوة.

فقال صاندوز: "ما أروع البيض الذى كانت تعده السيدة فوشور!... لقد انتهى كل شىء... سنقوم بجولة، أليس كذلك؟"

كان كلود على وشك أن يرفض طلب صديقه، فمنذ الصباح، وهو يحث الخطى وكأنه يقترب مع كل خطوة من خلاصه، من باريس، حيث ترك قلبه ولبه وكل كيانه أمام لوحته. لم يكن يلتفت يمينا أو يسارا، مجتازا المزارع والحقول دون أن يلحظ الأشجار والمروج الخضراء، وقد سيطر على تفكيره هاجس واحد، حتى راودته الهلاوس، فبدأ يتخيل وسط المدينة مرتسمًا أمام ناظريه يدعوه، فتقتله الرغبة لتلبية النداء. إلا أن اقتراح صاندوز لاقى قبولا فى نفسه، فاستيقظت داخله الذكريات، واجتاحه خمول ورغبة فى الاسترخاء، فأجاب: "نعم! فلنذهب!"

أثناء السير شعر بألم دفين هز أعماقه، لم يعد يعرف المكان الذى عاش فيه قبلا، فقد أُنشىء جسر يصل بين بونيير وبينكور، بدلا من قاربه المتهالك

الذى كان يتنقل بواسطته مع كريستين وسط الجزر! وأدى بناء السد فى بورفييه إلى ارتفاع منسوب المياه وإغراق العديد من تلك الجزر. لم يعد هناك أى من الأركان البديعة، أو الممرات الضيقة ليسيرا فيها دون أن يلحظهما أحد. يا لها من مأساة!

صاح صاندوز: "انظر تلك المجموعة من أشجار الصفصاف التى جلسنا نتحدث أسفلها... أتذكر؟ هى الوحيدة التى ما زالت قائمة!... يا لهم من أشرار!"

كان صاندوز لا يحتمل رؤية حطاب يجتث شجرة من جذورها، دون أن يتوعده، فاشتد به غضب هادر حتى امتقع وجهه أمام هذا التدمير المتعمد للطبيعة.

ثم سارا قليلا حتى وصلا إلى منزل كلود القديم. كان وقع الصدمة شديدا على كلود الذى حل به الصمت عندما علم أن منزله تم بيعه إلى أسرة برجوازية. فاقترب ليراه عن كثب، فوجد أشجار الورد قد ذبلت، وذوت أشجار المشمش، وتغيرت ملامح الحديقة، فتحولت ممراتها الضيقة وأرضها المقسمة من أحواض مربعة صغيرة مزروعة بالزهور والخضراوات ومحاطة بنباتات الزينة، إلى أرض مغطاة بالزجاج المبيض بالقصدير. أما المنزل، فقد أعيد دهانه باللون الأبيض وتلطخت الألوان عند الزوايا والأركان. واصطبغ المنزل بطابع فظ وقبيح كشخص جاهل يحاول التأنق دون فائدة. جن جنون كلود، كيف يختفى كل شيء بهذه البساطة؟ لم يعد المنزل يحمل أى ملامح منه أو من كريستين، أو من حبهما القديم! شعر برغبة جارفة فى رؤية المنزل من الداخل، فذهب إلى الخلف، حيث الغابة

الصغيرة من أشجار السنديان المورق ليتسلق إحداها ليتطلع من خلال النافذة العالية التى حملت إليهما أولى نسمات الهواء ملطفة من حرارة عناقهما الملتهب. ولكنه وجد الأشجار ميتة بل لم يعد لها وجود، مثلها مثل كل الأشياء التى ماتت، ذبحت، بيعت وأحرقت. لم يجد بدًا من صب غضبه وحزنه على المكان الذى تغير ونسيه سريعا، فلم يعد يجد فيه أى أثر لحياته القديمة هناك. أتمحو هذه السنوات القليلة معالم المكان الذى أقام وعمل فيه؟ ابتهج وتألم فيه؟ ما الفائدة إذًا من هذا التعب الباطل، مادامت الرياح تذر وتزيل أى أثر لخطواته؟ راوده من البداية شعور بعدم جدوى زيارة بينكور، فالماضى ليس سوى مقبرة لأوهام وأحلام الصبا، فماذا تفيد العودة للسير وسط حطام وأطلال الماضى؟

فقال بلوعة: "هيا! هيا بسرعة! فلنذهب من هنا! من الغباء إضاعة الوقت فى تعذيب الذات وإغراق الفؤاد فى الأحزان!"

سارا سويا فوق الجسر الجديد، وحاول صاندوز تهدئته، لافتا نظره إلى مشهد جديد لم يره من قبل، يصلح للوحة كبيرة، وهو نهر السين المتدفق بقوة بين الشاطئين فى بطء يخلب الألباب. لكن هذه المياه لم تعد تشد كلود، وإنما ذكرته بأمر واحد، بأنها ذات المياه التى تخترق باريس وتشق طريقها بين أرصفة الموانئ القديمة. عندئذ فقط، لبى نداء صاحبه، فانحنى ليتأمل المياه، وللحظة ظن أنه يرى انعكاسات كنيسة نوتردام بأبراجها المدببة، وكأن تيار المياه حملها معه إلى هنا.

لم يستطيعا اللحاق بقطار الثالثة، وكان المكوث لساعتين كاملتين فـي هذه المدينة الكئيبة فى انتظار القطار التالى أشبه بجحيم العذاب الأبدى! أبلغ كل منهما زوجته بأنهما قد يعودان فى ساعة متأخرة إذا مكثا طـويلا مـع دوبوش. وهكذا، قررا أن يتناولا عشاءهما سويا فى أحـد مطـاعم ميـدان الهافر، ليحظيا بمتسع من الوقت لتجاذب أطراف الحديث كما كان الحال فى الماضى. فذهبا إلى المطعم والساعة تدق الثامنة مساءً.

بمجرد أن وطأت قدما كلود باريس عند خروجه من محطة القطـار، زال عنه انفعاله العصبى، وداخله شعور غامر بالأمان. فظل ينـصت فـى هدوء واستغراق عميق إلى ثرثرة صاندوز الذى حاول التسرية عنه وإبهاجه قليلا، فكان يعامله وكأنه عشيقة يتفنن فى استمالتها وإغرائها بمشتهى الطعام والشراب. ولكن كلود ظل بعيدا كل البعد عن البهجة، التى فارقته منذ زمـن إلى غير رجعة، فصمت صاندوز وقد غلبه الحزن هو الآخر. جطمت ينبكون الجاحدة سريعة النسيان- حيث لم يجدا حجرا واحدا يشهد على ذكرياتهمـا- كل أمل ساورهما فى الخلود. فإذا كانت الأشياء الخالدة الباقية تنسى سـريعا هكذا، فكيف لهما بالحرى أن يعتمدا ولـو للحظـة علـى ذاكـرة البـشر؟ قال صاندوز: "أتدرى يا عزيزى أن هذا هو ما أخشاه... ألم يراودك قط هذا الشعور بأن المستقبل لن يحمل لنا العدل الحقيقى الذى نحلم به؟ فنحن نتعزى وننسى الإهانات ورفض الناس واحتقارهم لنا آملين أن ينـصفنا المـستقبل والأجيال القادمة، تماما مثل المؤمنين الذين ينسون متاعبهم ومشاق الحيـاة على الأرض على أمل نيل السعادة فى الحياة الأخرى القادمة التى سيجازى فيها كل بحسب ما يستحقه. ولكن ماذا لو لم يكن هناك فردوس للفنانيـــن؟

ماذا لو عاشت الأجيال القادمة مثل الأجيال المعاصرة فى الخداع مفضلة التفاهات المسلية على الأعمال الحقيقية؟... يا لها من خدعة كبيرة! ... ما أقسى هذه الحياة! نحن كالسجين المجبر على العمل فى سبيل سراب وحلم صعب المنال!... هذا الكابوس قد يتحقق بالفعل! هناك أعمال ليس لها قيمة، ولكنها تحظى بالإعجاب والتهليل، فقد شوه التعليم التقليدى عقولنا وأفسدها، مقدما لنا بعض الحمقى من أنصار الاستسهال والدقة المغالية بوصفهم عباقرة ليس عليهم غبار، على حساب فنانين حقيقيين أكثر تحررا وإبداعا، ذوى مخيلة مخلقة لا تحدها الحدود، لا يقدرهم سوى مجموعة من المتعلمين. لن ينال الخلود سوى هؤلاء البرجوازيين، الذين يتم إقحامهم قسرا فى عقولنا منذ الصغر، دون أن تكون لدينا قدرة على المقاومة أو الدفاع عن أنفسنا... لا! لا! لا يجب التفوه بمثل هذه الحماقات! ينتفض جسدى كله رافضا مثل هذه الأفكار! يا ترى أكنت سأظل قادرا على الاضطلاع بعملى والاحتفاظ برباطة جأشى وثبات قدمى أمام صيحات الاستهزاء والاستنكار، ما لم أواسِ نفسى بأوهامى المعزية بأنه سيأتى يوم ويتغير الحال، سيأتى يوم ويحبنى الجميع؟"

أنصت إليه كلود فى ألم وحسرة، ثم قال فى لامبالاة مريرة: "وما الفرق؟... لا شىء!... نحن أكثر جنونا من الحمقى الذين ينتحرون من أجل امرأة. فأعمالنا المهيبة التى نتحدث عنها لن تحدث فرقا فى العالم الذى نحيا فيه!... فما الفائدة؟"

- "هذه هى الحقيقة! ما جدوى السعى الدءوب لملء العدم؟... ندعى دائما أننا نعلم كل شىء، فكبرياؤنا يحملنا على المتابعة والاستمرار!"

خرجا من المطعم، وانطلقا يجوبان الشوارع، وانتهى بهما المطاف فى أحد المقاهى، وجلسا يتبادلان الأفكـار والتـأملات الفلسفية، مسترجعين طفولتهما حتى تملكت التعاسة والكآبة من قلبيهما. جاوزت الساعة الواحـدة بعد منتصف الليل، حين قرر كل منهما العودة إلى منزله.

إلا أن صاندوز عرض على كلود السير معه حتـى منزلـه بـشارع تورلاك. وسار الاثنان من جديد فى تلك الليلة الصيفية الرائعة، تحت السماء المرصعة بالنجوم. وجدا نفسيهما أمام مقهى بودوكين القـديم فـى شـارع باتينيول. كانت الإدارة قد تغيرت أكثر من ثلاث مرات، وأعيد دهان القاعـة وترتيبها بعد أن وضعت فيها طاولتان للعب البلياردو. وتغيرت أيضًا نوعية الزبائن، فاختفى الزبائن القدامى كشعب قديم مندثر، وحل محلهم زبائن جدد. امتزج داخلهما الفضول بالحنين إلى الأشياء القديمة الآخـذة طريقهـا إلـى الزوال؛ وقادتهما رغبة خفية إلى المقهى ليشاهدا كيف أصبح بعد كـل هـذه الأعوام. وقفا على المدخل الواسع، وجالت أعينهما بحثا عن طاولتهم القديمة فى نهاية القاعة، على اليسار. ثم صاح صاندوز مذهولا: "أنظر! انظر!"

فغمغم كلود: "إنه جانيير!"

كان جانيير جالسا بمفرده على تلك الطاولة، لعله جـاء مـن ميلـون لحضور إحدى الحفلات الموسيقية التى تقام أيام الآحاد، وبعد انتهائها قادتـه قدماه بحكم العادة إلى مقهى بودوكين. ظل متمسكا فى إصرار بالمكان حتى بعد أن انقطع باقى الأصدقاء عن القدوم إليه. لم يكن قد احتسى شرابه بعـد،

واستغرق فى تأمل الكأس غارقًا فى تفكير عميق، وبدأ العمال فــى ترتيــب المقاعد استعدادا لغلق المقهى، دون أن يحرك هو ساكنا.

فزع الصديقان لهذا المشهد التعيس، وانزعجا لرؤية صديقهما جــانبير شاردًا فى عالم آخر، فركضا مسرعين حتى وصلا إلى شارع تورلاك، حيث منزل كلود.

قال صاندوز لكلود وهو يصافحه: "إن هذا التعس دوبوش أفسد يومنــا بالكامل! يا له من مسكين!"

كان صاندوز قد فكر فى أن يجمع شمل جميع الأصدقاء القدامى ثانية بإعادة إحياء عشاء الخميس مثل الأيام الخوالى منذ عــودتهم فــى نــوفمبر الماضى إلى باريس. كانت أحواله قد تحسنت كثيرا، بفضل ارتفاع مبيعــات رواياته، فكون ثروة صغيرة، وأثث منزله بشارع لوندر بمستوى أنيق وفاخر للغاية. كان يهدف من وراء هذا العشاء إضفاء مسحة من البهجة على صديقه العزيز كلود باستعادة ذكريات الشباب وسهراتهم المحببة. فقام بدعوة كلــود وكريستين، وجورى وزوجته، ودوبوش، وماهودو، وفــاجرول، وجــانبير، وكل المجموعة القديمة، دون أى دخيل، على أمل أن يحظى الجميع بالتفاهم والمرح الذى ألف قديما بين قلوبهم.

ترددت هنرييت قليلا أمام قائمة المدعوين هذه، وقد راودها نوع مــن القلق، فقالت: "لا! استدعوا فاجرول؟ أتعتقد أنهم سيرحبون بوجوده؟ لا أظن أنهم يحبونه، وبالأخص كلود، لاحظت أن هناك فتورًا شديدًا فى علاقته بباقى الأصدقاء...".

قاطعها صاندوز على الفور، محتجا على تحليلها: "كيف هذا؟... كم هذا عجيب! أنتن أيتها النساء، لا تستطعن أبدا فهم طريقتنا في المزاح! فمشاعرنا ليست برهافة وحساسية مشاعركن! كما أننا لا نغضب من بعضنا لبعض لأتفه الأسباب!"

بذلت هنرييت مجهودا خارقا هذا الخميس لتقدم لضيوفها عناية فائقة، وصبت اهتمامها على قائمة الطعام، خاصة بعد أن أصبح لديها طاهية وخادم لمعاونتها. صحيح أنها لم تعد تطهو بنفسها، ولكنها حرصت على الاعتناء بمنزلها برقة وحساسية مفرطة، بينما تفرغت الطاهية لإعداد أشهى الأطباق لصاندوز، الذى لم يكن يعيبه سوى حبه الزائد للطعام. فكانت هنرييت تلازم الطاهية أثناء إعداد أو شراء ما يلزم من طعام. وازداد ولع الزوجين بالأطباق اللذيذة من شتى البلاد. واستقر رأيهما هذه المرة على تقديم ثريد باللحم المشوى، ولحم بخلطة المشروم، ومعجنات الرافيولى الإيطالية، وقطع الدجاج على الطريقة الروسية، وسلاطة اللفت، بالإضافة إلى الكافيار وغيره من المقبلات، وللتحلية، رتبا تقديم مثلجات محلاة بالسكر، وشرائح الجبن المجرى الزمردى، إلى جانب الفواكه والمخبوزات. أيضًا يقدم نبيذ بوردو المعتق، ونبيذ بروجونى مع قطع اللحم المشوى، والنبيذ الفوار مَن موزيل، بدلا من الشمبانيا.

استعد صاندوز وهنرييت لاستقبال ضيوفهما منذ السابعة، وارتدى هو سترة بسيطة، وتألقت هنرييت فى ثوبها الأسود الحريرى. وزخر الصالون،

الذى سيستقبلان فيه ضيوفهما، بالأثاث والأبسطة القديمة والزينات من مختلف البلاد والعصور، بدآ فى تجميعها منذ أن أهدته هنرييت إناءً قديمًا من روان، ومن حينها اعتادا أن يطوفا سويا عند تجار التحف المستعملة والسعادة تطفر من أعينهما عند الشراء. فتحول منزل هذا الكاتب شديد الحداثة، المولع بالأحلام الرومانتيكية التى غذتها قراءاته الأولى، إلى قطعة من العصور الوسطى التى سحرته أيام الطفولة، متعللاً بارتفاع أسعار الأثاث الحديث راقى الذوق، فى حين أتاح له هذا الأثاث القديم إضفاء طابع أنيق مبهج على منزله. لم يكن من هواة الاقتناء، ولكنه يشترى بغرض تزيين وتجميل المنزل. تألق أثاث الصالون تحت تأثير الإضاءة الخافتة الرقيقة الصادرة عن مصباحين عتيقين من ديليفت، وتوهجت الحليات المذهبة والمقاعد المطعمة وصدرت عن الأبواب الملونة ذات الطابع الشرقى انعكاسات فريدة أضاءت التحف العاجية والخزفية المطلية بالألوان الزاهية فى إطار من اللون الأحمر القاتم للغرفة.

حضر أولا كلود وكريستين، مرتدية ثوبها الحريرى الأسود الوحيد، الذى بلى على الرغم من اعتنائها الشديد به واحتفاظها به للمناسبات المماثلة فقط. وعلى الفور، اصطحبتها هنرييت من يديها لتجلسا سويا على الأريكة. كانت قد أحبتها جدا، وحاولت أن تتجاذب معها أطراف الحديث، بعد أن لمحت فى عينيها قلقًا وشحوبًا أثارا شفقتها. فأخذت تسألها: "ماذا بك؟ أأنت مريضة؟" فكانت تجيب بالنفى، مؤكدة أنها سعيدة ومسرورة بقدومها اليوم.

كانت عيناها تذهبان فى كل دقيقة ترقبان كلود لتطمئن عليه، ثـم تلتفـت إلـى هنرييت مرة أخرى. شعر كلود بإثارة وحمية غريبة لم تنتبه منذ شهور، وبـدا الانفعال جليا فى حركاته وعباراته، إلا أن هذا الانفعال كان ينطفئ مـن حـين لآخر، ليغرق مرة أخرى فى صمته للحظات وتتسع عيناه الشاردتان المحملقتان فى الفراغ فى شيء لا يراه أحد سواه لا يكف عن دعوته ومناجاته.

قال كلود لصاندوز: "لقد أنهيت الليلة قراءة كتابك الأخير يا عزيـزى. كم هو قوى وعنيف! لقد أخرستهم جميعا!"

ومضى الاثنان يثرثران أمام المدفأة المـشتعلة بالحطـب. صـدرت لصاندوز مؤخرا رواية جديدة حققت، على الرغم من الانتقـادات الواسـعة، نجاحا نسبيا ثبت أقدامه فى مواجهة الهجمات المستمرة من قبل معارضـيه. غير أن صاندوز لم يكن من الحمقى الذين يتعللون بالأوهام، فكان على يقين بأن الحرب لم تنته، وبأن المعركة الطاحنة ستتجدد مع كل رواية يكتبها. كان عمل حياته، سلسلة الروايات التى ينشرها واحدة تلو الأخرى، يسير بخطـى ثابتة فى إصرار عنيد، دون اعتبار للعقبات أو الإهانات أو المتاعب.

فأجاب صاندوز بابتهاج: "هذا صحيح! لقد انكسروا أمامى هذه المرة! لدرجة أن أحدهم تنازل على مضض ليعلن أننى رجل شـريف!... ولكـنهم سيستعيدون قوتهم لمواجهتى فى المرة القادمة... أنا أعلـم أمثـال هـؤلاء، فتفكيرهم بعيد تماما عن تفكيرى، فلن يتقبلوا أسـلوبى الأدبـى، أو جرأتـى اللغوية. لن يتقبلوا أبطالى الذين يخضعون لتأثير البيئة المحيطة والمجتمع من

حولهم... لعله من الأفضل لكى تعمل وتتقدم فى ثقة ألا تتوقع الإنصاف أو سلامة النية! يجب أن نفنى فى سبيل إثبات وجهة نظرنا."

تحولت عينا كلود بغتة إلى أحد الأركان، لتحملق فى ما وراءه وكأنها تقبت الحائط، فى النداء الذى لا يكف عن ملاحقته، ولاح فيهما اضطراب رهيب، وعادتا مرة أخرى إلى مكانهما، ثم قال: "أنت تتحدث عن نفسك. ولكنى إذا مت سأكون أنا المخطئ... لا يهم هذا الكلام الآن، المهم أن روايتك منحتنى قوة لا أعرف مصدرها، جعلتنى أتحرق شوقا للرسم، أتصدق؟ من حسن الحظ أننى لا أستطيع أن أغار منك، وإلا لازدادت تعاستى!"

انفتح الباب، ودخلت ماتيلد ومعها جورى. كانت تشع تألقًا وتوهجا بزينتها الفاخرة، وردائها المخملى وتنورتها الحريرية، وأقراطها الذهبية وثبتت باقة من الورد على صدارها. صدم كلود برؤيتها فلم يعرفها على الإطلاق، وقد ازداد وزنها وتحولت إلى شقراء بديعة، بعد أن زال عنها قبحها ونحافتها القديمة. فأصبحت الآن صورة للمغالاة والفخامة البرجوازية. حتى فمها الفارغ، امتلأ بالأسنان ناصعة البياض، جعلتها تفرط فى الابتسام بكل ثقة. أضفت عليها سنواتها الخمس والأربعون وزنًا واحتراما وسط المجموعة بالمقارنة بزوجها الذى يصغرها عمرا حتى يبدو كابن أختها. لم تحمل شيئا من الماضى سوى رائحة العطور النفاذة القوية، وكأنها تستحم بها لتمحى آثار الأعشاب والنباتات العطرية التى صبغتها بها تجارة الأعشاب، وإن لازمتها رائحة الراوند المرة، والسرو النفاذ والنعناع الممزوج بالفلفل

إلى تلك اللحظة، فبمجرد مرورها عبقت المكان بتلك الروائح التـــى تـشبه الأدوية، وإن خففتها كميات رهيبة من المسك والعطور.

نهضت هنرييت لاستقبالها، وأجلستها بالقرب من كريـستين، قائلـــة: "أتعرفان إحداكما الأخرى؟ لقد تقابلتما هنا من قبل، أليس كذلك؟"

رمقت ماتيلد كريستين بنظرة ازدراء باردة قاسية منتقدة زينة وملابس هذه المرأة البسيطة، التى قيل إنها عاشت طويلا مع رجل قبل أن تتزوجـــه. أصبحت ماتيلد متشددة تجاه هذا الشأن، منذ أن بدأ يسمح لها هـــى شخـــصيا بالدخول إلى بعض الأوساط الأدبية والفنية. كانت هنرييت تمقتهـــا للغايـــة، فبذلت قصارى جهدها لتؤدى واجبات وآداب الضيافة، ثم تركتها واســـتأنفت حديثها مع كريستين.

صافح جورى كلود وصاندوز، ثم وقف معهما أمام المـــدفأة، بعـــد أن اعتذر له عن صدور مقال فى مجلته صباح اليوم يقلل من شأن راويتـــه: "أنت تعلم يا عزيزى أننى لا أستطيع أن أتحكم فى كل الأمور... ليس لـــدى الوقت الكافى! فلم تواتنى الفرصة لقراءة هذا المقال قبل الموافقة على طبعه! لن تتخيل كم غضبت وثرت عندما تصفحته منذ قليل..."

فأجاب صاندوز ببساطة: "هدئ من روعك يا صـــديقى، هـــذا أمـــر طبيعى! فمادام أعدائى يمدحوننى، فلا ضير من أن يهاجمنى أصدقائى."

انفتح الباب مرة أخرى، ودخل جانيير فى هدوء وشرود غريب. كـــان قد حضر لتوه من ميلون بمفرده، فلم ير أحد زوجته على الإطـــلاق. كـــان

يحضر للعشاء، ثم يعود فى نفس اليوم فى قطار الليل. لم يطـرأ عليـه أى تغيير، وكأن الزمن يزيده شبابا، حتى بدا أكثر شقرة وحلاوة مع تقدم العمر.

صاح صاندوز: "إنه جانيير!"

وبينما انشغل جانيير بتحية السيدات، دخل ماهودو، الذى غزى الشيب مفرقه، ولمعت وسط وجهه النحيل الشرس عينان طفوليتان، مرتديًا ثيابا رثة عبارة عن سروال قديم، وسترة مجعدة، على الرغم من النقود التـى بـدأت تتدفق عليه من تعامله مع تاجر التحف البرونزية الذى اشترى منه العديد من التماثيل الساحرة التى باتت تزين مدافئ وموائد العائلات البرجوازية.

التفت كلود وصاندوز ليتابعا بفضول لقاء ماهودو بماتيلد وجـوري. إلا أنه كان لقاءً عاديًا، فانحنى ماهودو أمامها فى احترام، بينما رأى جورى أنه من الواجب أن يقدمها له، للمرة العشرين على الأغلب: "إنهـا زوجتـى يا عزيزى! هيا فليصافح أحدكما الآخر!"

وبالفعل، صافح ماهودو ماتيلد بوقار ورصانة النبلاء الذين يجبـرون على التعامل بألفة دون سابق معرفة. وأخيرا تخلص ماهودو مـن المـأزق الذى وضع فيه عندما أبصر جانيير جالسا فى ركن الصالون، فتوجه إليـه، ومضيا يتهكمان ويتذكران مواقف الماضى الشائنة: "انظر لقد أصبح لـديها أسنـان! بعد أن كان فمها فارغا تماما، حتى عجـزت عـن الـعض، لحسـن الحظ!"

انتظر الجميع دوبوش الذى وعد بالحضور. أخبرتهم هنرييت أنه لم يعد ينقص سوى دوبوش:

"ففاجرول كتب إلينا هذا الصباح ليعتذر، فهو مضطر لحضور عشاء رسمى دعى إليه فجأة... وسيحاول التملص، ليلحق بنا قرب الحادية عشرة".

فى تلك اللحظة، وصلت برقية من دوبوش: "لن أستطيع القدوم. أليس تسعل بقوة."

فقالت هنرييت فى استسلام ربة المنزل الحزينة لرؤية ضيوفها يتشتتون أمام ناظريها: "إذاً سنكون ثمانية فقط!"

جاء الخادم ليعلن أن المائدة قد أعدت، ودعت هنرييت ضيوفها. ومدت ذراعها إلى كلود الذى سار بصحبتها، بينما أمسك صاندوز بذراع ماتيلد، وجورى بكريستين، وتبعهما جانيير وماهودو فى المؤخرة غارقين فى السخرية من التغير الشامل الذى طرأ على ماتيلد.

كانت غرفة الطعام واسعة، ذات إضاءة دافئة أنيقة، اكتست حوائطها بالخزف واللوحات المبهجة، وبها خزانتان للأطباق، إحداهما للفضيات، والأخرى للخزف والزجاج، تومضان بقوة كواجهات المتاجر. وتوسطت الغرفة المائدة المزينة بالشموع، وعليها مفرش أبيض أظهر جمال الأطباق الملونة والكئوس المنقوشة وأطباق المقبلات التى وضعت بنظام وتماثل بديع حول باقة من الورود قانية الحمرة.

جلس الجميع، واستقرت هنرييت فى المنتصف بين كلود وماهودو، وتوسط صاندوز ماتيلد وكريستين، بينما احتل كل من جانيير وجورى طرفى المائدة، وانهمك الخادم فى تقديم الثريد. ثم أرادت ماتيلد، التى لم تسمع اعتذارات زوجها لصاندوز، أن تبدو ودودة، فصدرت عنها عبارة مشئومة موجهة إليه: " لا بد من أنك سعيد بالمقال الذى صدر هذا الصباح، لقد جلس جورى يراجعه بنفسه بعناية فائقة!"

هلع جورى بشدة، وقال متلعثما: "لا! لا! إنه مقال سيئ جدا، أنت تعلمين أنه نشر فى غيابى الليلة الماضية!"

أدركت ماتيلد خطأها على الفور على إثر الصمت المزعج الذى خيم على الجميع، ولكنها زادت الوضع سوءا، لتحمله كل الخطأ وتتنصل هى من المسئولية، فرمقته بنظرة حادة، وقالت: "ها هى كذبة أخرى من أكاذيبك! لقد قلت ما رددته أنت على مسامعى... لن أجعلك تضعنى فى موقف سخيف، أتسمعنى؟"

جثم هذا الخلاف على العشاء، وزاده فتورا. فانتهز صاندوز، الذى أسعده إحراج جورى، فرصة تقديم اللحم المشوى ليذكره بوجبة تناولاها سويا فى مرسيليا منذ فترة طويلة. ما أجمل مرسيليا! إنها المدينة التى تقدم أفضل طعام على الإطلاق!

قال كلود فجأة، بعد لحظات استغرق فيها فى تفكير عميق، كمن يستيقظ من الأحلام: "هل قرروا أخيرا اختيار الفنانين الذين سيتولون تجديد وتجميل مجلس المدينة؟"

رد ماهودو: "ليس بعد، ولكنهم سيقررون قريبا... أنا شخصيا أعلم أنى لست فى الحسبان، فليست لى أى علاقات مع ذوى النفوذ... أتعلمون أن فاجرول نفسه ليس واثقا من اختياره؟ ولهذا فهو لم يحضر إلى العشاء، فهذه الأمور لا تسير من تلقاء نفسها!...لقد حقق نجاحا كبيرا، ولكنه يخشى أن يتداعى كل هذا!"

وأطلق ضحكة قوية مملوءة بالتشفى والضغينة، وتلاه جانبير الذى أمعن فى سخريته، ينفثان عن غضبهما فى تلك العبارات المسمومة والجارحة متهللين من بشائر الهزيمة والاندحار الحتمى للفنان الشاب الذى أذهل الجميع.

كان أمرا لا مناص منه، وحلت الساعة الموعودة، وأسفر "المديح والتعظيم الزائد للأعمال عن الكارثة المحققة، فمنذ أن نما الرعب فى نفوس هواة الشراء بسبب هبوط البورصة، والأسعار تستمر فى الانهيار والتهاوى يوما بعد يوم، توقف البيع تماما. ما أصعب منظر نوديه الشهير وهو يتخبط ويفقد السيطرة على الأمور! استطاع أن يصمد قليلا فى البداية، وأن يعقد بعض الصفقات التى لم تعد تتجاوز مائتين أو ثلاثمائة ألف فرنك. ولكنها لم تعد تتكرر، واستمر هبوطه، خاصة مع ارتفاع نفقاته إلى درجة غير مسبوقة، حتى انهار كل شىء حوله، وتحتم عليه أن يقاتل من أجل الاحتفاظ بقصره الملكى المعرض للضياع تسديدًا لديونه.

قاطعته هنرييت: "ماهودو، ألا تريد المزيد من حساء المشروم؟"

قدم الخادم الطبق الرئيسى، وانهمك الجميع فى التهام الطعام واحتساء النبيذ، فى مناخ حاد وجاف، أضاع لذة الطعام، الأمر الذى شق على هنرييت وصاندوز.

ثم أجاب ماهودو: "حساء المشروم؟ لا! شكرا لك!"

واستأنف حديثه: "الغريب فى الأمر أن نوديه لا يزال يطارد فاجرول ليصادر ممتلكاته... أنا أمزح بالطبع! ولكنه يسعى بالفعل لاسترداد كل ما أنفقه على صغار الفنانين جميعهم، فيجبرهم على بيع منازلهم التى حثهم على بنائها... أى أن نوديه الذى ضغط على فاجرول لامتلاك المنزل والإنفاق على تأثيثه وتزيينه، يطالبه الآن باسترجاع زينته وأثاثه. ويتهم فاجرول بتبديد أمواله وإنفاقها على تفاهات مثل دخوله المعرض بدافع التباهى والتفاخر، بينما يؤكد فاجرول أنه لن يسمح لنوديه بأن يسلبه أمواله! كم أتمنى أن يفترس أحدهما الآخر!"

صاح جانيير بقوة كالحالم الذى يستيقظ فجأة من سباته: "فليذهب فاجرول إلى الجحيم!... كما أنه لم يسبق أن حقق أى نجاح حقيقى!"

هاج الجميع: "كيف هذا؟ وماذا عن مبيعات لوحاته التى جاوزت المائة ألف فرنك؟ وميدالياته؟ ووسام الشرف؟"

ولكن جانيير ظل متمسكا برأيه فى إصرار عنيد، وارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة، وكأن شيئا مما يقال لا يستطيع أن يزعزع رأيه، فأخذ يحرك رأسه فى ازدراء، ثم قال: "دعونى وشأنى! إنه لا يعرف شيئا عن الفن الحقيقى!"

كان جورى على وشك أن يهب للدفاع عن موهبة فاجرول الذى يعتبر نجاحه هو ثمرة عمله الصحفى، حين ناشدتهم هنرييت الهدوء استعدادًا لتقديم

الرافيولى. فحظى الجميع باستراحة قصيرة وسط أصـوات الكئـوس البلورية وصليل أدوات المائدة. ولكن سرعان ما احتدمت المناقشة مرة أخرى، واشـتعل الخلاف بين أطرافها. جزع صاندوز من هذا الهجوم الضارى على فاجرول:

"ماذا يضمرون ضده لينتقدوه بهذه الشراسة؟ ألم نبدأ كلنا معا على أمل بلوغ النجاح سويا؟"

تملكه لأول مرة ألم وضيق رهيبان وهو يرى حلم الخلود الذى راوده ينهار أمام عينيه، ومعه حلمه بالصداقة الأبدية وحفلات العشاء التى لا تنقطع وتدور جميعها فى جو من الألفة والود مهما طال الزمن. حاول أن ينسى هذا الشعور، فالتفت إلى كلود وقال ضاحكا: "هيا يا كلود، فلنتذوق هذا الـدجاج! كلود!كلود! فيم تفكر؟"

منذ أن صمت الجميع، قرر كلود استكمال حلمه، فشخصت عيناه فـى الفراغ، واستمر يأكل من الرافيولى دون أن يدرى. لم تفارقه عينا كريـستين التى جلست تراقبه فى صمت حزين. ورأته ينتفض فجأة حينما تناول قطعـة دجاج ساخنة فاحت منها رائحة نفاذة عبقت المكان.

عندئذ قال صاندوز فى مرح: "أشممت تلك الرائحة؟ ألا تجعلك تـشعر كأنك تبتلع غابات روسيا بأكملها مع كل قطعة؟"

ابتسم كلود، ثم استأنف حديثه الأول: "إذًا، تقولون إن فاجرول سيتولى مسئولية تجميل قاعة المجلس المحلى؟"

كان سؤاله كافيا لتحفيز جانبير وماهودو على استئناف هجومهما على فاجرول. فقال ماهودو:

"سيفعل المستحيل لينالها، ولن يتورع عن القيام بأى أعمال خسيسة ودنيئة، بعد أن تظاهر طويلا باحتقاره لمثل هذه الأعمال، وتكريسه للفن الحقيقى! بات خبيرا فى هذه الحيل القذرة منذ أن توقف الجميع عن شراء لوحاته. أيوجد ما هو أفظع من أن يقف فنان أمام موظفٍ ليقدم له الانحناءات والتبجيل والتنازلات المهينة فى سبيل النقود؟ يا له من أمر مخزٍ! إنه لعار! وها هو فاجرول منشغل الآن فى عشائه الرسمى بالتزلف إلى رؤساء الجهات والمسئولين الحمقى لبلوغ غايته!"

احتد جورى: "يا إلهى! وماذا تريدونه أن يفعل؟ إنه يدافع عن أعماله ومعه كل الحق... وإلا كيف له أن يسدد ديونه؟"

جاء رد ماهودو حادا: "أى ديون؟ ألم يكن لدى أنا أيضًا ديون حين كنت أتضور جوعا؟ وإذا كان مديونا فلماذا بنى إذًا قصره المنيف، ولماذا ينفق على عشيقة مثل إيرما التى تستنزف أمواله؟"

صاح جانيير من بعيد بصوت غريب: "إن إيرما هى التى تنفق عليه فى الواقع!"

غضب البعض، واستمر البعض الآخر فى المزاح، وتداول الجميع اسم إيرما، حتى انفعلت ماتيلد، التى بدت متحفظة حتى تلك اللحظة، وصدرت عنها إيماءات غاضبة، وقالت: "من فضلكم أيها السادة! أيها السادة!... لا تتفوهوا باسم تلك الفتاة أمامنا، من فضلكم!"

تسمر صاندوز وهنرييت فى ذهول يراقبان كيف تحـول عـشاؤهما اللطيف إلى فوضى عارمة، فأخـذ الـضيوف يـزدردون سـلاطة اللفـت والمثلجات المحلاة بالسكر دون استمتاع، بل فـى غـضب أطلقـت عنانـه المناقشة الحامية، بينما احتسى الجميع نبيذ موزيل ونبيـذ شـامبرتين فـى لامبالاة، وكأنها مياه عادية. حاولت عبثا أن تشيع الابتسام، وحاول صاندوز تهدئة أصدقائه، مؤكدًا أن جميع البشر ليسوا معصومين من الخطأ. ولكنهم لم يكلوا من الشجار، فأقل كلمة كانت تفجر النقاش مرة أخرى لينقض كل منهم على الآخر فى عنف غير مألوف، لم يعد يقتصر الأمر على الملل العابر أو الشبع الذى كان يقودهم إلى بعض الحوارات الملتهبة التى كانت تخيم علـى اجتماعاتهم القديمة، وإنما أصبحت تندلع بدافع القتال الشرس، والرغبة فـى تدمير الذات والآخرين. بدت المائدة فى حالة يرثى لها مـن أثـر الحريـق المندلع حولها وعنف العبارات المتبادلة والاضطراب والبلبلة اللتين سادتا منذ أكثر من ساعتين.

نهضت هنرييت لترغمهم على الصمت، وعندئذ تفـوه كلـود أخيـرا بعبارة اخترقت الجلبة التى أحدثها أصدقاؤه: "آه! آه لو كنت ممن سـيعملون فى مشروع مجلس المدينة! لو كنت أستطيع أن أكون هناك! ألم يكن هذا هو حلمى، أن أكسو جدران باريس بلوحاتى!"

عاد الجميع إلى الصالون الذى أضيئت مصابيحه كاملة. وسرت برودة طفيفة فى أجسادهم مقارنة بأتون النار المستعرة الذى أمضوا فيه الـساعات

يتراشقون بالألفاظ النارية. قدمت القهوة، وهدأ الحاضرون قليلا. لم يكن من المتوقع أن يصل أحد سوى فاجرول. كانت جلساتهم مغلقة وشديدة الخصوصية، فلم تكن من عادة صاندوز وهنرييت استضافة رجال الأدب أو الصحفيين لتوطيد العلاقات، لعدم قدرة هنرييت على التأقلم سريعا مع الناس. فكان صاندوز دائما يردد أنه يلزم على الأقل عشر سنوات لتحب شخصا إلى الأبد. ولكن أيمكن تحقيق هذه السعادة إلا من خلال صداقات قوية وعلاقات أسرية مشحونة بالعواطف؟

سارت الأمسية ببطء، بسبب الكآبة والانزعاج الخفيين اللذين خيما على بدايتها. جلست السيدات يثرثرن أمام النار التى أوشكت على أن تنطفئ، وانتقل الرجال إلى الغرفة المجاورة ليدخنوا ويحتسوا الجعة.

توجه صاندوز وكلود- غير المدخنين- إلى الأريكة وجلسا بالقرب من الباب. هش صاندوز لرؤية صديقه العزيز متحمسًا للانخراط فى الأحاديث المثيرة، فأخذ يستحضر له ذكرياتهما فى بلاسان، بعد أن ورده نبأ يتعلق بزميلهما القديم بويو، ذلك المهرج، الذى أصبح محاميًا مرموقًا، ولكنه لم يستطع كبح جماح نفسه، واستسلم لنزواته متورطا فى علاقات مع عاهرات قصر! يا له من قذر بويو هذا!

ولكن كلود لم يكن يجيبه بشىء، مرهفًا السمع، بعد أن سمع اسمه متداولاً فى غرفة الطعام، عسى أن يفهم ما يقال عنه.

كان جورى وماهودو وجانيير قد استأنفا المذبحة التى بدأوها فى ظمأ شرس. فبدءوا يتهامسون، ولكن سرعان ما علا صوتهم حتى قارب الصراخ.

دافع جورى عن فاجرول: "أنا لا أتحدث عنه كإنسان!... فهو لا يهمنا فى شىء! ولكنه استطاع أن يخدعكم جميعا، بعد أن انفصل عنكم وحقق نجاحا ساحقا على أطلال ما حققتموه! ولكنكم لم تكونوا بهذا اللؤم والشراسة من قبل!"

فأجاب ماهودو بعصبية: "اللعنة! يكفى أن نحسب من مؤيدى كلود لكى تغلق فى وجوهنا كل الأبواب!"

فأكد جانيير جازما: "نعم! لقد قضى كلود علينا جميعا!"

واسترسلوا فى الحديث، بعد أن تركوا فاجرول، الذى عابوا عليه تزلفه للصحف، وتحالفه مع أعدائهم، وتودده للبارونات العجائز لامتصاص ثرواتهن، وانتقلوا لمهاجمة كلود، الذى أصبح من الآن فصاعدا هو المجرم والمذنب الوحيد. لم يكن فاجرول فى نظرهم سوى فنان فاسق، مثله مثل الفنانين الذين يطاردون الجماهير فى الطرقات، ويدخلون فى صراعات دامية مع زملائهم لنيل إعجاب البرجوازيين. أما كلود، الفنان العظيم الذى لا يمنى سوى بالفشل، العاجز حتى عن رسم لوحة واحدة تصمد أمام الجمهور على الرغم من كبريائه، فقد أساء إليهم جميعا، وألحق بهم أشد الضرر! ألم يكن من الأفضل الانفصال عنه؟ ربما كانوا قد حققوا أى نجاح يذكر! لو كان فى استطاعتهم البدء من جديد، لتخلصوا قبل كل شىء من أوهامهم الحمقاء وأحلامهم المستحيلة التى ألهمها لهم كلود! فحملوا عليه حملة شعواء، متهمين إياه بشل حركتهم وإعاقة مسيرتهم نحو المستقبل، بل استغلالهم! نعم، استغلالهم بأسلوب ردىء وفاشل، حتى عجز هو نفسه عن الاستفادة بهم!

أردف ماهودو: "كلما فكرت فى أمره، تصيبنى الحيرة، فأتساءل عما جعلنى أنضم إلى جماعته؟ ألعلنى أشبهه؟ أيوجد ما هو مشترك بيننا؟... كم هو محزن أن أدرك المأساة، ولكن بعد فوات الأوان!"

قال جانيير: "أما أنا، فقد سلبنى تميزى! أتظنون أنه من السهل على أن أنصت لتعليقات الناس على كل لوحة من لوحاتى على مدار خمسة عشر عاما، وهم يقولون: "إنها من أعمال كلود!"... لا،لا، لقد نلت كفايتى، حتى فضلت التوقف تماما... ولكنى لو كانت لدى تلك البصيرة من البداية، لما صادقته، وانضممت إلى مجموعته!"

كانت آخر روابط الصداقة تتمزق. بات الجميع أغرابا، بل أعداء، وانقضى زمن الصداقة القوية التى توطدت أواصرها منذ الصبا. فرقت الحياة بينهم، وعمقت تباينهم الواضح، حتى لم يتبق لهم سوى مرارة أحلام الشباب والحماس القديم المحمل بالأمل فى الخروج سويا غالبين منتصرين من المعركة، وغذت تلك المرارة الحقد والضغينة الذى أصبح كل واحد يضمرهما لصاحبه. وقال جورى هازئا: "الفرق بينكم وبين فاجرول، هو أنه لم يدع أحدًا يخدعه كالأحمق."

غضب ماهودو، وصاح فى تبرم: "ليس لك الحق فى أن تسخر، فأنت أيضًا لست سوى جبان... نعم، أتذكر وعودك السابقة بمساعدتنا بمجرد أن تمتلك جريدة خاصة بك... والآن ماذا فعلت؟"

وانضم جانيير إلى ماهودو: "هذه حقيقة! ليس فى وسعك الآن أن تتحجج بأنهم يمنعون مقالاتك، فأنت هو مالك الجريدة... ولكنك تتجنب الحديث عنا، فلم تذكر حتى أسماءنا فى مقالك الأخير عن المعرض!"

اغتاظ جورى، وصاح بدوره: "إنه خطأ كلود!... لا أريد أن أخسر قرائى لأنال إعجابكما! أتفهمان صعوبة وضعكما؟ أنت يا ماهودو، يمكنك أن تكرس حياتك لصنع التماثيل الصغيرة الجميلة ولكنك لن تصل إلى نتيجة! وأنت يا جانيير، فربما من الأفضل ألا ترسم شيئا، فلوحاتك جميعها تم تصنيفها، وسيلزمك عشرات السنين من العمل الدءوب لتخرجها من هذا الإطار، الذى قد لا ينزع عنها إلى الأبد!... الجمهور يسخر منكما! فأنتما الوحيدان اللذان يعتقدان فى عبقرية هذا المختل الأحمق!"

لم تعد المناقشة محتملة، فكان ثلاثتهم يتحدثون فى نفس الوقت، متبادلين الاتهامات الجارحة، والعبارات القاسية.

انزعج صاندوز وسط عذوبة الذكريات، من الضوضاء الصادرة عنهم، فأمال بأذنه لينصت إلى ما يتشاجرون بشأنه.

فقال له كلود فى هدوء يعتصره الألم: "أسمعت؟ إنهم يتفننون فى إهانتى!... لا، لا تذهب إليهم، لا تدعهم يسكتون. أنا أستحق كل هذا ما دمت قد فشلت!"

فاستمر صاندوز ينصت، فى شحوب، إلى هذا الغضب العارم، الناجم عن الصراع من أجل الحياة، عن الضغينة التى ملأت نفوسهم واجتاحت الجميع، محطمة معها حلمه الجميل بصداقتهم الأبدية.

لحسن الحظ، استاءت هنرييت من حدة الأصوات، فنهضت لتنادى الرجال الذين تركوا السيدات بمفردهن طوال هذا الوقت،

من أجل الشجار. فعاد الجميع إلى الصالون لاهثين، يتصببون عرقا، وقد انتفخت شرايينهم من سم الغضب الزعاف الذى سرى فيها.

ألقت نظرة على الساعة، معلنة أن فاجرول لن يأتى بالتأكيد بعدما تأخر الوقت إلى هذه الدرجة. فأغربوا فى الضحك وتمادوا فى المزاح والسخرية منه متبادلين نظرات ذات مغزى. كانوا يعرفون أنه لن يضيع وقته مع مجموعة من الأصدقاء المزعجين يمقتهم جميعا!

لم يأت فاجرول بالفعل. وانقضت الساعات الأخيرة من السهرة بصعوبة بالغة. انتقل الجميع إلى غرفة الطعام لاحتساء الشاى الذى وضع على مفرش روسى مطرز بالخيوط الحمراء، وأعد الخادم أطباق البريوش والحلوى والجاتوه، إلى جانب مجموعة فاخرة من المشروبات والخمور.

وأسرعت هنرييت لتفرغ محتويات السماور[١] فى إبريق الشاى الموضوع أمامها. إلا أن هذه الرفاهية، والفرح البادى فى العيون ورائحة الشاى العذبة التى داعبت الأنوف، لم تهدئ من ثورة القلوب.

فتمحورت مناقشاتهم من جديد حول نجاحات البعض، وحظ البعض الآخر العثر. فثاروا على الميداليات والأوسمة والجوائز التى تشين الفن لتقديمها لمن لا يستحقونها. أسنظل هكذا إلى الأبد، مجرد تلاميذ فى فصل نرزح تحت ثقل الآخرين، ونرضى بالسطحية والخنوع والجبن لنحصل على درجات جيدة؟

---

(١) السماور: غلاية شاى روسية. (المترجمة)

حزن صاندوز لدرجة جعلته يتعجل رحيلهم. وعندما عادوا إلى الصالون، أبصر جانيير وماتيلد جالسين جنبا إلى جنب على الأريكة، يتحدثان عن الموسيقى فى فتور، بينما جلس كل من حولهم منهكين فاقدين القدرة على مواصلة الكلام.

لمعت النشوة فى عينى جانيير، وجلست ماتيلد، تلك المومس القديمة، تستمع إليه وقد فاح منها أريج شارد، كانت تسعد بتبادل الحديث معه منذ أن التقيا الأحد الماضى فى الحفل الموسيقى، واكتشفا إنهما يشتركان فى ولعهما بالموسيقى.

- فقالت: "آه، يا سيدى! ما أروعه مايربير! ما أجمل افتتاحية "ستريونسيه"، وكأنها لحنا جنائزيا مهيبا! تليها الرقصة الريفية بديعة الألوان المفعمة بالحياة! ثم يعود اللحن الجنائزى ليسيطر من جديد من خلال عزف آلة الفيولينا!... لا يوجد شىء يضاهى روعة آلة الفيولينا!"

- "لا تنسى بيرليوز يا سيدتى! وطابع "روميو وجولييت"[١] الاحتفالى! وأصوات الكلارينيت الرقيقة كالمرأة المعشوقة بصاحبها الهارب! يا له من سحر يخلب الألباب، ويطير العقول!... وكأنها لوحة حية من لوحات فيرونيز[٢]، أنها تضاهى تلك العظمة المتدفقة من لوحته "عرس قانا الجليل"! وتبدأ أنشودة الحب من جديد! كم هى عذبة وحلوة، تحملك بعيدا، بعيدا...

---

(١) سيمفونية من تأليف هكتور بيرليوز عام ١٨٣٩. (المترجمة)

(٢) Paolo Caliari Veronese, (1528- 1588) : رسام إيطالى من رواد حركة الباروك. (المترجمة)

- "أسمعت يا سيدى سيمفونية بيتهوفن من سلم "لا"، هذا اليأس الذى لا يبرحه، كطرقات الحزن المستمرة التى تدمى الفؤاد؟... إنه واضح للعيان، أتشعر مثلى بهذا الاتحاد التام بالموسيقى؟... ما أعظمه بيتهوفن! كم أنا سعيدة لأنى وجدت شخصا آخر يفهمه ويشعر بمعاناته!...

- "وكذا شومان وفاجنر!... إن حلم شومان يتجسد كاملا فى الآلات الوترية، وكأنها قطرات المطر الفاترة التى تتساقط على أوراق الشجر، ثم يأتى شعاع ذهبى ليمحوها، كدمعة تضل طريقها وسط الكون الواسع!... وفاجنر! فاجنر! قولى لى إنك تحبين أعماله! إنها تسحقنى تماما بكمالها، فلا يسعنى إلا أن أخشع لجمالها الفائق!..."

خفتت أصواتهما، ولم يعودا ينظران أحدهما للآخر، بل شرد كل منهما فى عالمه الخاص، وإن ظلا جنبا إلى جنب.

اندهش صاندوز لمعرفة ماتيلد بهذه الأمور، ولكونها قادرة على استخدام مثل هذه التعبيرات، لعلها التقطتها من إحدى مقالات جورى. ولكنه تعجب من قدرة النساء على الحديث فى الموسيقى دون الإلمام بقواعدها. أثار هذا الصمت الفاتر حفيظته، كما أحزنه غضب وحقد الآخرين. لم يعد قادرا على مواصلة تلك الأمسية التى تحولت إلى كارثة محققة، وتملكه الغضب من ماتيلد التى تجلس كأن شيئا لم يكن للتدله فى حب بيتهوفن وشومان!

نهض جانيير فجأة، لحسن الحظ، ليلحق بقطار الليل. كان يظل واعيا متابعا ساعته فى غمرة نشوته. فصافح الجميع فى صمت وفتور، ورحل إلى ميلون.

غمغم ماهودو: "يا له من فاشل! فقد قتلت الموسيقى الفنان الذى كان داخله! وهو ما لا يمكن تعويضه!"

ثم مضى هو الآخر. وفور رحيله، قال جورى: "أرأيتم آخر ما نحته؟ مجموعة من ثقالات الورق! سينتهى به الحال يصنع الأزرار!...ها هو واحد آخر قد بدد قدراته وموهبته!"

نهضت ماتيلد لتحيى كريستين بنوع من الجفاء، متصنعة ألفة مبالغًا فيها تجاه هنرييت، ثم اصطحبت زوجها الذى ساعدها فى ارتداء معطفها فى خضوع ورعب من وقع نظراتها القاسية التى أمطرته بها.

لم يستطع صاندوز تمالك أعصابه، فصاح غاضبا: "إنها النهاية! فلم يعد سوى هذا الصحفى ليصم الآخرين بالفشل وتبديد المواهب! هذا الأفاق الذى يتكسب من استغلال حماقات الجمهور!... آه! يا ماتيلد! أنت تجسدين انتقامنا!"

لم يتبق سوى كريستين وكلود، الذى ارتمى على أحد المقاعد دون أن ينبس بكلمة، مغيبا عما يدور حوله، وقد شخصت عيناه إلى شىء ما، بعيدا، هناك وراء الجدران. اكفهر وجهه فى قلق وتوتر، ثم مد رأسه للأمام، كأنه يرى ما لا يرى ويسمع نداء الصمت البعيد!

قامت كريستين معتذرة عن التأخير، فشدت هنرييت على يديها، مؤكدة لها أنها أحبتها للغاية، كما لو كانت شقيقتها ورجتها أن تأتى لتزورها، بينما

اكتفت كريستين بهز رأسها بالإيجاب، بابتسامة شاحبة، أشاعت الألم فى نفس هنرييت. ثم همس صاندوز فى أذنيها، مشيرا إلى كلود: "لا تحزنى هكذا... لقد تحدث كثيرا، وبدا سعيدا ومتحمسا هذا المساء! أظن أن الأمور تسير على ما يرام."

فقالت كريستين بصوت تملكه الفزع: "لا، لا، انظر إلى عينيه... إنها تصعقنى كلما نظرت إليها... ولكن شكرا لك، لقد فعلت كل ما فى وسعك! وما لم تستطع القيام به، لن يستطيع فعله أحد! كم يؤلمنى ألا أقدر على مساعدته، ولكن ليست لى حيلة!"

ثم نادته: "كلود، هلم لنمضى!"

كررت نداءها مرتين، ولكنه لم يسمع، وفجأة انتابته رعدة، ونهض، وقال مجيبا على النداء البعيد الذى يناجيه فى الأفق: "نعم، سآتى! سآتى!"

انصرف الجميع، وبقى صاندوز وهنرييت فى الصالون، بات الهواء خانقا، مع ارتفاع الحرارة، وحلول الصمت الكئيب الذى جثم على المدعوين، بعد انتهاء المشاجرة العنيفة. تبادلا نظرات حزينة، آسفين لفشل سهرتهما التى تحولت إلى كارثة. حاولت هنرييت أن تضحك من الأمر لتخفف من وطأته، ولكنها فشلت فقالت فى النهاية: "لقد حذرتك! علمت أن هذا سيحدث، ولم تصدقنى..."

ولكنه منعها من استكمال حديثها بإيماءة يائسة. أهذه هى نهاية حلمه الجميل بالأبدية؟ هذا الوهم الذى عاش فيه سنينا طويلة، وصور له أن

السعادة هى الصداقة، الصداقة القوية التى تربط بينهم منذ المهد وإلى اللحد؟ ما أفظع هذا الشرخ الذى حطم تلك المجموعة التعسة! أهذه هى النهاية؟ أهؤلاء هم أصدقاؤه الذين زرعهم طوال مشوار حياته؟ كيف ضاعت العاطفة؟ كيف تغير الجميع للأبد، بينما ظل هو عاجز عن التغير؟ أين ذهبت اجتماعاتنا الأسبوعية؟ أماتت كل الذكريات المحبوبة؟ أقضى عليه الآن بالعزلة، هو وهنرييت، بعيدا عن الأصدقاء الذين لم يعد يربطهم سوى الكراهية وحدها؟ وشيئا فشيئا، ترسخ داخله يقين واحد، بأن كل شىء راح إلى غير رجعة! تنهد تنهيدة طويلة، ثم قال فى استسلام: "كان معك حق... لن تكون هناك دعوات أخرى، وإلا سيفترسون بعضهم بعضا!"

وصل كلود وكريستين إلى ميدان ترينيتيه، وهناك ترك ذراعها، متحججا بأنه لديه عمل لينجزه، ورجاها أن تعود إلى المنزل. كانت تشعر به ينتفض بقوة وقد سرت فى جسده رجفة مؤلمة، فظلت واقفة أمامه بعينين يملأهما الرعب والفزع: أى عمل لينجزه وقد جاوزت الساعة منتصف الليل؟ إلى أين هو ذاهب؟

أدار كلود لها ظهره، وسار بعيدا، فلحقت به متوسلة إليه أن يعود معها، متحججة بأنها تخشى السير بمفردها فى هذا الوقت المتأخر إلى مونمارتر. عندئذ فقط عدل عن رأيه، وأمسك بذراعها ثانية، وسارا فى شارع بلانش، ثم لوبيك، وصولا إلى شارع تورلاك.

أوصلها إلى مدخل المنزل، وقال مغادرًا: "ها قد وصلت... أنا ذاهب لأنهى أعمالى".

ومضى مسرعا كالمجنون. ظل الباب مفتوحا، ولكنها لم تدخل، بل هرعت لتلحق به. رأته بالفعل فى شارع لوبيك، ولكنها لم تقترب منه لئلا تثير حنقه، فاكتفت بالسير وراءه، دون أن يشعر بها. استكمل سيره فى شارع بلانش، ثم لاشوسيه دانتين، وكاتر سبتمبر، وحتى شارع ريشوليو، وهناك اعتراها خوف قاتل، حين أدركت أنه يتوجه نحو نهر السين، فسارت وراءه تتنازعها الهواجس المفزعة. ماذا عساها أن تفعل؟ أتلحق به وترتمى على عنقه لتمنعه من المضى قدما؟ لم تعد تقوى على السير، فمضت تترنح، ومع كل خطوة نحو النهر، كانت تشعر بالحياة تنتزع من أوصالها. رأته يقترب من سور الجسر والمياه تجرى تحته، ظنت أنه سيلقى نفسه، حاولت أن تصرخ، ولكنها لم تستطع، اختنقت الصرخة فى حلقها. ثم رأته يقف فى سكون يرنو فى شجن إلى وسط المدينة التى سكنت أعماقه، إلى قلب باريس الذى اخترق نداءه كل الجدران، هذا النداء الصامت الذى لا يسمعه سواه مهما بعدت المسافة! وقفت وراءه، تتابعه فى قلق، متأهبة فى كل لحظة لتمنعه من القيام بتلك القفزة الرهيبة، وظلت تغالب رغبتها فى الاقتراب، لئلا تعجل بوقوع الكارثة.

وقفت محطمة المشاعر، دامية الفؤاد، مطعونة فى أمومتها، تراقبه عاجزة عن فعل شىء، تعوزها القوة لحمايته!

وقف كلود دون حراك يتأمل الليل.

كانت ليلة شتوية، احتجبت فيها السماء وراء الضباب، بينما هبت رياح الغرب حاملة معها نسمات قارسة البرودة. غرقت باريس فى سبات عميق،

وخلت من ملامح الحياة، عدا قناديل الغاز التى مازلت تومض من بعيد وكأنها نجوم متناثرة فى الفضاء السحيق. أنارت المصابيح أرصفة الموانئ كاللآلئ المضيئة، مرسلة انعكاساتها على واجهات المنازل فى المقدمة، تلك الكتل المبهمة من المبانى والآثار التى سرعان ما يخيم عليها الظلام ولا يظهر منها سوى شرر صغير قادم من بعيد. أضيئت مصابيح الجسور لتنعكس أشعتها المنيرة كخطوط رفيعة على مياه السين الذى اشتعل فى بهاء ليلى لا يضاهى، وقد رسمت قناديل الغاز واللهيب يتصاعد منها وكأنها نيازك ومذنبات تتهاوى وتنطفئ فى مياه النهر المتدفقة. ازداد السين تألقا وإبهارا، مكتسيًا بطابع ساحر غامض وعميق، حتى يخيل للناظرين أنهم أمام راقصى الفالس يتهادون ويتبخترون على وجه المياه فى احتفال بهى لا مثيل له.

اشتدت الرياح، وبقيت كريستين ترتجف من البرد، وقد امتلأت عيناها بالدموع اليائسة، وأحست بدوار من فرط الخوف وكأن الجسر كله ينهار من تحتها، ليدفنها فى أعماق النهر معلنا بذلك انتصاره الساحق عليها. كل هذا، ولم يتحرك كلود، لم يرفع ساقيه ليتجاوز السور، فكلما نظرت إليه، وجدته واقفا دون حراك يحملق فى عناد بطرف المدينة، التى اختفت عن ناظريه.

جاء ليلبى نداءها، ولكنه لم يستطع رؤيتها فى غياهب الظلام. لم يميز سوى الجسور، وأطراف القباب التى انعكست على المياه، بينما غرق كل شيء فى ظلمة معتمة، هى العدم! لم يكن فى مقدوره رؤية الشوارع والميدان لولا مرور بعض العربات من حين لآخر والمصباح الأحمر على قمة سد لامونييه، الذى بدا كبحيرة من الدماء وسط المياه. ثم تحرك جسم ضخم

مظلم، لعله قارب قد انفكت أربطته، وسط الانعكاسات تضيئه للحظات، ثـم يعود لتكسوه الظلال. كان كلود يبحث عن الجزيـرة العظيمـة، الجزيـرة المنتصرة الواقعة في المنتصف، إلى أين ذهبت يا ترى؟ لعلها دفنت وسط الأمواج المظلمة! ولكنه ظل يبحث، ويبحث، منتشيا بسكرة الليـل والنهـر. انحنى ليستنشق الهواء البارد الذى يفوح من النهر، منجـذبًا إلـى أصـوات الأمواج المتلاطمة. واخترق الضوضاء نداء يائس مفجع لدرجة الموت.

فى تلك اللحظة، طفر قلب كريستين داخلها، بعد أن جثمـت عليهـا تلـك الفكرة الرهيبة، فمدت يديها المختلجتين اللتين اعتصرهما الألم والبرد. ولكن كلود ظل واقفا، يقاوم عذوبة الاستسلام للموت. انقضت ساعة أخرى، وهو يتأمل فاقدا الشعور بالزمن، معلقا لبه وقلبه بوسط المدينة، وكأن عينيه الشاخصتين ستضيئان المكان وتستحضره أمامه فى حلل بهية ليمتع عينيه من جماله.

قرر كلود الانصراف، بخطى متعثرة، وركضت كريـستين مـسرعة لتسبقه فى الوصول إلى شارع تورلاك، لكيلا لا يعلم بمجيئها وراءه.

الفصل الثانى عشر

خلد الاثنان إلى النوم، فى تلك الليلة الباردة، نحو الساعة الثالثة صباحا. واشتدت الرياح، محدثة صفيرا حادا فى المرسم الواسع وغرفتهما الخالية. كانت كريستين قد ركضت لاهثة لتسبقه، واندست بين الأغطية لئلا يعلم أنها عائدة لتوها، بينما دخل كلود مهموما، وأخذ ينزع ثيابه قطعة بعد قطعة دون أن يتفوه بكلمة واحدة. كان البرود والفتور قد تسرب إلى مضجعهما منذ شهور طويلة، فكانا يتمددان جنبا إلى جنب كأغراب، فى تمنع عنيد وتعفف إرادى، ليحتفظ بقوته وبأسه للوحته، وقبلت كريستين هذا الوضع المؤلم فى شموخ وصمت، على الرغم من عاطفتها المشبوبة نحوه. لم يسبق لها، قبل هذه الليلة، أن شعرت بمثل هذا الحاجز يفصل بينهما، وهذا الفتور الرهيب الذى لا يمكن اختراقه لإعادة إذكاء شعلة الحب والعاطفة التى انطفأت، ولإعادة كل منهما إلى أحضان الآخر.

ظلت تقاوم النعاس الثقيل لأكثر من ربع الساعة. كانت مرهقة ومثقلة بالتعب، ولكنها لم تستسلم، خشية أن تتركه بمفرده مستيقظا. فكانت تنتظره كل ليلة حتى ينام، ليهدأ بالها وتتبدد مخاوفها، ثم تروح بعد ذلك فى السبات. ولكنه لم ينم هذه المرة، وإنما أوقد شمعة وظل يحملق فى النار التى كادت أن

تعميه. فيما يفكر يا ترى؟ أتراه لا يزال هناك بعقله وقلبه، يستنشق الهواء الرطب على أرصفة الموانئ فى تلك الليلة حالكة الظلام، متأملاً باريس المرصعة بالنجوم؟ ما الذى يدور بخلده؟ أى أفكار مفزعة تجعل وجهه متجهما إلى هذه الدرجة؟ ولكن سرعان ما غلبها النعاس والإرهاق، فنامت رغما عنها.

بعد ساعة، استيقظت فزعة، وقد راودها شعور كئيب بالفراغ والضيق، فمدت يدها بسرعة لتتحسس مكانه على الفراش، فوجدته باردا. لم يكن كلود بجانبها. جزعت بشدة، ونهضت ورأسها يؤلمها من فرط التعب، ورأت بصيصًا من الضوء يأتى من المرسم. فاطمأنت قليلا، وفكرت أنه ربما يكون ذهب إلى المرسم ليحضر كتابا ليقرأه بعد أن جافاه النوم. انتظرت قليلا، ولكنه لم يعد إلى الغرفة، فذهبت بهدوء لتراه. كان منظرا مفزعا، جعلها تتسمر فى مكانها: كلود رافعا أكمام قميصه، على الرغم من البرد القارس، مرتديا سروالا وخفين، واقفا على السلم الكبير أمام لوحته. وضع ملونه إلى جواره، وأمسك بيده شمعة ليرسم باليد الأخرى. كانت عيناه مخيفتين فارغتين كمن يسير وهو نائم، فكان ينحنى باستمرار ليأخذ ألوانا، ثم ينتصب مرة أخرى فى حركة آلية. لم يصدر عنه أى صوت، حتى أنفاسه لم تكن مسموعة، وخيم على الغرفة المعتمة صمت مخيف.

أدركت كريستين المرتعدة ما يحدث، إنه الهاجس القديم عاد ليتملكه ثانية منذ أن كان واقفا على جسر سان بيير، هذا الهاجس الذى سلبه النعاس

وأعاده صاغرا إلى لوحته، وقد استبدت به الرغبة فى رؤيتها، على الـرغم من الظلام الدامس. فصعد إلى السلم ليملى ناظريه ويتأملها عن قرب، وحينئذ لمحت عيناه خطًا صغيرًا، آلمه بشدة منعه من الانتظـار حتـى الـصباح، فأحضر فرشاته ليضع تعديلا بسيطا فى البداية، ولكنه انتقل من تعديل إلـى تعديل، حتى أخذ يرسم كالممسوس، قابضا على الشمعة بيده الأخرى. اعترته حمى الخلق والإبداع من جديد، فأضنى نفسه لساعات، قابعـا فـى عالمـه الخاص، ليضع من روحه فى لوحته لتدب فيها الحياة على الفور!

وقفت كريستين تراقبه فى إشفاق بعينين ملأتهما الدموع. فكـرت فـى البداية أن تتركه ينهى عمله الجنونى هذا، كالمهووس الـذى يستـسلم لخبلـه وجنونه، فمن المستحيل أن ينهى هذه اللوحة، كان هذا أمـرا مؤكـدا، فكلمـا ضاعف جهوده وعمل بضراوة، ازدادت اللوحة سوءا وثقلت ألوانها. فخلفيـة اللوحة، وخاصة مجموعة الحمالين الواقفين، فقدت صلابتها وروعتها الأولى، وبدأت تتشوه، ولكنه لم يتوقف، كان يريد أن ينهى كل تفاصيل اللوحـة قبـل البدء فى رسم صورة المرأة فى المركز، تلك المرأة العارية التى هى مـصدر خوفه ونبع رغباته طوال ساعات العمل فى انتظار اللحظة التى سينهيها فيهـا ليراها الجميع جسدا نابضا بالحياة. لم يضع فيها خطا واحدا منذ شهور، وهـو ما هدأ من روع كريستين، وخفف من حدة كراهيتها للوحة، فكلما ابتعد عـن تلك العشيقة الخطرة، تلاشى شعورها بالخيانة الموجهة إليها.

تجمدت قدماها من الأرضية الباردة، فتحركت لتعـود إلـى فراشـها، ولكنها لم تذهب. لم تفهم فى البداية، ولكنها رأت الآن كل شىء. كان كلـود

يغمر فرشته باللون، ويضعها على اللوحة فى حركة دائرية حانية، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ثابتة كالمغيب، فلم يعد يشعر حتى بالشمع المحترق الذى يسيل على أصابعه. كان ذراعه يروح ويجيء فى صمت عاشق، منهمكاً فى رسم المرأة العارية التى امتزج ظله بظلها، كحبيبين متعانقين متقدى العاطفة.

فتحت كريستين الباب، ودخلت، مدفوعة بثورة عارمة وغضب كاسح اشتعلا فى داخلها، فى داخل تلك الزوجة التى يخدعها زوجها ويخونها مستغلا غفلتها. كانت أحواله على أحسن حال وهو مع لوحته، فكان يرسم البطن والساقين بولع جنونى، وكأن عذاب وآلام الواقع قد قادته إلى الارتماء فى أحضان الخيال، ليتعبد فى محراب هذا الجسد الذى يلمع كالشمس بروعة لا مثيل لها.

احتدم غضب كريستين، التى عانت بما يكفى ولم تكن على استعداد للصفح عن تلك الخيانة الجارحة.

فتقدمت نحوه، ورجته فى البداية، بصوت حانٍ ومتوسل، كالأم التى تنادى طفلها، فنانها المجنون: "ماذا تفعل يا كلود؟... أيعقل أن تقوم بهذا الآن؟ من فضلك تعال لتنام، لا تقف هكذا على هذا السلم، وإلا ستمرض!"

ولكنه لم يجب، بل انحنى ليغمس فرشته فى الألوان، وعاد ليستكمل عمله.

– "كلود! كلود! أرجوك تعال معى... أنت تعلم أنى أحبك، أترى ماذا فعلت بى؟... من فضلك تعال! تعال! إذا لم تكن تريد أن أموت أنا بسبب انتظارك فى هذا البرد الشديد!"

لم يحول نظره إليها، بل صدرت عنه عبارة شاردة بصوت مخنوق: "دعيني وشأني! أنا أعمل."

لزمت الصمت لبرهة، ثم استعرت بداخلها نار ثائرة أشعلت كيانها الرقيق الساحر، فصاحت كالعبد الذى يصرخ طالبا العتق: "لا! لا! لن أدعك وشأنك!... لقد اكتفيت من هذا! أتعلم ما يسحقنى، ما يقتلنى منذ رأيتك، إنه الرسم! إنها لوحاتك القاتلة التى سممت كل حياتى!... لقد شعرت بذلك منذ اليوم الأول، ونما بداخلى خوف منها وكأنها وحش كاسر! كنت أراها بشعة، سيئة، ولكنى لم أتكلم، وكتمت خوفى! كنت أحبك حبا جما لدرجة جعلتنى أحبها، عشت طويلا معها... ولكنها لا تكف عن إيلامى وإيذائى، إنها تعذبنى! لا أذكر أنى قضيت يوما واحدا منذ عشرة أعوام دون أن أبكى... دعنى أكمل حديثى، إنه يريحنى، لأن الشجاعة واتتنى أخيرا! عشرة أعوام من الإهمال والعذاب اليومى، شعور قاتل بأننى لم أعد ملكك، بأنك تبعدنى حتى لم أعد أكثر من خادمة، وأنا أرى تلك الأخرى، تلك المجرمة، تستقر وتفصل بينى وبينك، بل تنتصر على وتنتزعك منى!... أتجرؤ على القول بأنها لم تجتاحك، وتغزو عقلك وقلبك وجسدك كله؟ إنها تفترسك، لقد أصبحت هى زوجتك، أليس كذلك؟ لم أعد أمثل لك شيئا، إنها تلك العاهرة الملعونة التى تمثل عالمك بأكمله!"

وقف كلود ينصت فى ذهول لهذه الصرخات الأليمة، التى أيقظته من حلمه، دون أن يعى سبب هذا الغضب. ضاعف صمته وذهوله من ثورتها،

فصعدت إلى السلم وانتزعت منه الشمعة وأخذت تحركها أمام اللوحة: "انظر إليها! قل لى ماذا ترى؟ إنها قبيحة، إنها غليظة مثيرة للشفقة، لقد حان الوقت لتعى هذا الأمر! إنها رديئة وبلهاء... أنت تعلم جيدا أنك مهزوم، فلماذا هـذا الإصرار والعناد؟ هذا ليس معقولا!... مادمت لن تستطيع أن تكـون فنانـا عظيما، فلماذا لا تترك هذا لتعيش، فالحياة تنتظرنـا، أتـسمعنى؟ الحيـاة، الحياة...".

وضعت الشمعة على حافة السلم، ورأته ينزل بخطوات متعثرة، فلحقت به. كان يسير بصعوبة حتى هوى على الأرض، فهرعت إليه، وجلست على الأرض وهى تضم يديه العاجزتين بقوة وعاطفة صادقة، ثم قالت: "لا تـزال الحياة أمامنا، فلتطرد عنك هذا الكابوس، ولنعش سويا!... أليس من الحماقة أن نعذب أحدنا الآخر، بدلا من أن نصنع سعادتنا؟ الحياة قصيرة، فلنسع إذًا لنحيا ونسعد ونحب! أتذكر بينكور؟... أتسمعنى؟ أرغب فى أن نمضى سويا بعيدا عن باريس اللعينة، لنعيش فى مكان هادئ، لأجعل حياتك عذبة وهانئة، وسننسى الكل مادام أحدنا فى حضن الآخر، بعيدا عن الناس!... فننام علـى فراشنا الواسع، ونخرج فى الصباح لنتجول فى الجـو المـشمس، ونتنـاول إفطارنا، ونقضى الظهيرة فى الكسل والمساء على ضوء المصابيح الهادئـة! فلتذهب الأحلام المستحيلة وعذابها إلى الجحيم وليبق لنا الحب والسعادة!... ألا يكفيك أن أحبك، أن أعشقك، أن أقبل أن أكـون خادمتـك، أن أكـرس وجودى كله لإسعادك؟... إنى أحبك، أحبك! ألا يكفيك هذا؟ أنا أحبك!"

تخلص من قبضتها القوية، وقال بصوت حزين: "لا، لا يكفيني... لا أريد الرحيل، لا أريد أن أكون سعيدا... أريد فقط أن أرسم!"

- "وأن تقضى على، أليس كذلك؟ وأن تفنى أنت أيضًا، أن نموت سويا تاركين خلفنا الدماء والدموع!... ألا يوجد فى حياتك سوى الفن؟ هذا الإله القاسى الذى يطاردنا بصواعقه! إنه سيفنيك، لأنه قادر على ذلك، ولا يسعك سوى أن تشكره!"

- "نعم! لأنى ملكٌ له، فليفعل بى ما يشاء... إنى أفضل أن يقتلنى الرسم على أن أموت إن لم أرسم... لا دخل لإرادتى فى ذلك... لا يوجد فى العالم شىء آخر يستحق الحياة من أجله!"

نهضت، وارتفع صوتها من شدة الغضب: "ولكنى حية، واللاتى ترسمهن وتتدله فى حبهن، أموات!... لا تقل لا! أنا أعلم إنهن جميعا عشيقاتك، كلهن! لقد أدركت هذا الأمر من الوهلة الأولى، حين رأيت العناية التى ترسمهن بها، وعينيك اللتين ترمقانهن فى وله لساعات طويلة. أو ليست حماقة، أن يرغب رجلٌ مثلك فى تلك النساء، أن يتحرق شوقا إلى صور، أن يضم بين ذراعيه وهما لا وجود له؟ أنت تعرف هذا حق المعرفة، وتخفيه عن الناس، وكأنه أمر شائن لا يباح به... فى وقت ما، بدا وكأنك تحبنى ولكن لفترة وجيزة، رويت لى فيها قصصا عنك وعن عشيقاتك. أتذكر كيف كنت تحتضن تلك الأشباح فى رفق وحنو حينما كنت تأخذنى بين ذراعيك؟... وبالفعل عدت إليهن بسرعة كالمهووس. لم يعد لى وجود،

بينما أصبحن هن الحقيقة الوحيدة فى حياتك... لم تشعر قط بكل ما عانيته أنا، لأنك لا تفهم شيئا! عشت إلى جوارك أعواما، دون أن تفهمنى! نعم، كنت أغار منهن! حينما كنت أقف أمامك عارية، لم تكن تراودنى سوى فكرة واحدة، أن أقف هكذا لأقاوم وأقاتل من أجلك، كنت أسعى لاقتناصك، ولكن لا شيء، لم تفكر حتى فى أن تطبع قبلة صغيرة على كتفى قبل أن أرتدى ثيابى! يا إلهى! لكم شعرت بالخزى فى ذلك اليوم، لكم أحزننى الشعور بأنى منبوذة محتقرة!... ومنذ ذلك الحين، لم يتوقف احتقارك لى عن النمو، كنت تستلقى بجانبى كل ليلة دون أن تمس طرف أصابعى، أتعلم منذ متى؟ منذ ثمانية شهوز وسبعة أيام، لقد عددتها!"

استرسلت فى حديثها بعبارات قوية. لم تعد هى كريستين الخجولة الصامتة الهادئة، التى تكظم غضبها وخوفها من التحدث فى هذه الأمور، متحصنة وراء ابتساماتها المضطربة، جعلتها رغبتها الجارفة فى استعادة حبها، تنطق بعبارات صارخة، تندد فيها بالإهانة الموجهة إليها باستمرار بابتعاده عنه. كانت غيرتها فى محلها، فظلت تتهم اللوحة بإفساد حياتهما. كان يحرمها من عاطفته، مختزنا قوته ومشاعره لمنافستها التى يؤثرها عليها. كانت تعلم لماذا هجرها هكذا. اعتاد من البداية أن يمتنع عن الاقتراب منها إذا كان لديه عمل لينجزه فى الغد، فكانت كلما اقتربت منه لترتمى فى أحضانه، يبعدها متحججا بأن الإرهاق سيمنعه من العمل. ثم ادعى أنه يحتاج على الأقل لثلاثة أيام ليتعافى من أثر عناقها المشبوب مما يعوقه عن العمل،

وشيئا فشيئا دب الفتور، فكانا يظلان دون أن يقرب أحدهما الآخر لمدة أسبوع حتى ينتهى من لوحة، ثم شهر لينتهى من أخرى، وهكذا حتى امتنع عنها تماما، وكأنه نسى وجودها. كانت نظريته تطن فى أذنيها باستمرار: العبقرية لابد أن تتحلى بالعفة، لا يجب على الفنان أن يعشق أحدا سوى لوحته.

قالت بعنف: "أنت تبعدنى عنك، كل ليلة تمضى بعيدا، كأنك تنفر منى، ولكن لماذا، لتذوب فى عشق من؟ لا أحد، مجرد شكل، كتل من الألوان والأتربة المكدسة على قطعة قماش!... والآن انظر، انظر إلى امرأتك التى صنعتها فى لوحتك! انظر كم هى بشعة! أترى كيف شوهتها وأفسدتها بسبب جنونك؟ أهناك امرأة تبدو هكذا؟ أفق وافتح عينيك! وعد إلى الواقع!"

أطاعها كلود، ونهض فى خنوع ليرى لوحته. ألقت الشمعة المثبتة على السلم بريقًا من الضوء على المرأة فى المنتصف، بينما غرق باقى اللوحة الضخمة فى غياهب الظلام. استيقظ فجأة من أحلامه، عندما رأى المرأة من بعيد. أذهلته رؤيتها من هذه الزاوية الجديدة، وتفكر: "من الذى رسم تلك المرأة الرائعة؟ مما صنعها يا ترى؟ من المرمر أو من الأحجار الكريمة حتى بدت خلابة إلى هذه الدرجة؟ أيعقل أن يكون هو؟ أرسمها دون أن يدرى؟ أهو إذًا صانع هذا الجمال، رمز الرغبة التى لا تعرف الارتواء، كيف خرج هذا الجسد البهى من بين أصابعه وسط جهوده العقيمة؟

وقف فاغرا فيه، ثم راوده خوف من اللوحة، من هذه القفزة الفجائية فى العالم الآخر، وأدرك عجزه عن بلوغ الحقيقة على الرغم من جهوده وصراعه الطويل لإخضاعها بيديه البشريتين.

قالت كريستين فى انتصار: "أرأيت؟ أرأيت؟"

– "ماذا فعلت؟... لماذا يستحيل على الإبداع؟ لماذا تقاومنى يداى؟"

خارت قواه، فأسرعت وأمسكته بيديها، وقالت: "لماذا تتمسك بهذه الحماقات؟ لماذا تلجأ إلى غيرى؟ أنا من أحبك!... ألم تتخذنى كعارضة لك؟ ألم ترد صورا لجسدى؟ ولكن ما فائدة هذا كله؟ أتماثلنى تلك الصور جمالا؟ جميعها سيئة وباردة كالجثث... وأنا أحبك، وأريد أن أحظى بك! أيجب أن أبوح بكل شىء؟ ألا تفهم أبدا أننى عندما أحوم حولك، أو أعرض عليك أن ترسمنى، أو ألامسك وأدفئك بأنفاسى، إنما أبرهن لك عن حبى؟ أنا لا أريد سواك!"

أمسكت به، وقد انفتح قميصها كاشفا عن صدرها، وضمته إليها بقوة، وكأنها تريد أن تختبئ داخله وقد غمرتها عاطفة ورغبة لا حد لهما، جعلتها على استعداد لقول أو فعل أى شىء لتنتصر فى معركتها الأخيرة. تهدلت خصال شعرها على وجهها، فأخفت عينيها وجبهتها الصافية، وبرز فكاها وشفتاها الحمراوين.

فهمس كلود: "لا! لا! اتركينى أنا التعس!"

أردفت، بصوتها المهتاج: "ربما تعتقد أنى تقدمت فى العمر، نعم لقد قلت إنى لم أعد جميلة كالماضى ولقد صدقتك، فكنت أقضى ساعات أتفحص جسدى بحثا عن التجاعيد... ولكنك كنت مخطئا! أنا أعلم جيدا أننى لم أتقدم فى العمر، وأنى مازلت يافعة وقوية..."

ثم قالت: "انظر إذًا!"

تراجعت ثلاث خطوات، وخلعت رداءها ووقفت أمامه عارية تماما في نفس الوضع الذي اتخذته طويلا أثناء جلسات الرسم، ثم أشارت برأسها إلى صورة المرأة التي في اللوحة، وقالت: "هيا، قارن بيننا! ستجد أني أكثر شبابا منها... إنها تبدو كورقة جافة... وأنا كما لو كنت في الثامنة عشرة، لأني أحبك!"

كانت تشع نضارة وشبابًا، وقد زادتها عاطفتها فورانا وانتعاشا، فرأى كلود ساقيها أجمل من ذي قبل، وكذلك صدرها وجسدها كله الذي أشعلته دماء الحب والرغبة.

ظلت ممسكة به وقد التصقت بجسده، وجالت يداها تتحسس صدره وكتفيه وكأنها تبحث عن قلبه لتنتزعه لنفسها وتثبت ملكيتها له. أمطرته بقبلات لاهثة قوية في وجهه ولحيته ويديه، وفي كل مكان. انحشر صوتها، فلم يعد يصدر عنها سوى أنفاس متقطعة تتخللها تنهيدات قوية، ثم قالت: " هيا، عد إلي! ولنحب أحدنا الآخر!... أزالت منك الحياة، فلم تعد تثيرك سوى الظلال والأشباح؟ عد إلي وسترى كم هي حلوة الحياة!... سنقضي بقية حياتنا متعانقين لا يبرح أحدنا الآخر ليلا ونهارا...

كان جسده كله يختلج، ثم بدأ يحكم هو الآخر قبضته عليها ويضمها إلى صدره، ليحتمي فيها بعد أن زرعت معشوقته الأخرى الخوف والرعب في قلبه. ازداد جمال كريستين وإغراؤها في عينيه حتى ذاب بين يديها، فاقتحمته من جديد.

- "سأقول لك ما يخيفنى يا كلود، لم أحدثك عنه من قبل لـئلا أجلـب المأساة على نفسى، ولكنى لم أعد أقدر على النوم، كل ليلـة أبقـى مستيقظة فى فزع... لقد أصبحت تخيفنى... لقد تبعتك اليوم حتـى الجسر الذى أمقته، وكدت أفقد الوعى، اعتقدت أنها النهاية، إنى لن أراك ثانية!... ماذا سيكون حالى بدونك؟ أنا فى حاجة إليك، وأنت لن تؤذينى بخسارتى إياك؟ هيا فلنحب، وليكتنفنا الحب ويحيطنا من جميع الجهات!"

فى خضم تلك العواطف الجياشة، والحب اللا متناهٍ الذى غمرته بـه، تأثر كلود واعترف بمدى تعاسته، وانهيار عالمه من حولـه. ضـمها إليـه بشغف ولهان، وقال منتحبا: "نعم! لقد راودتنى تلـك الفكـرة المفزعـة... وأوشكت على القيام بتلك الخطوة، ولكنى قاومتهـا متـذكرا لـوحتى غيـر المكتملة... ولكن كيف لى أن أحيا بعد ذلك، بعد أن اكتشفت عجزى وفشلى؟ كيف أحيا بعد ذلك، بعد أن أفسدت اللوحة؟"

- "ستحيا لأنى أحبك!"

- "لن تحبينى بما يكفى لتخليصى مما أنا فيه... أنا أعرف نفسى جيـدا، تلزمنى سعادة صعبة المنال، سعادة تنسينى كل شىء... وأنت كنـت عاجزة عن انتزاعى من دوامة التعاسة قبلا، لن تستطيعى فعل شىء!"

- "بلى، بلى، سترى... سآخذك هكذا بين ذراعى وأقبلك فى عينيـك، فى شفتيك، فى كل جسدك. سأضمك إلى وأتحد بك فـلا يفـصلنا

شىء، فتصير أنفاسى هى أنفاسك، ودمى هو دمك، وجسدى هو جسدك..."

لم يستطع المقاومة هذه المرة، وسرت إليه عاطفتها المتأججة، فدس رأسه بين نهديها يحتمى بهما، ثم قام ليغطيها هو الآخر بقبلاته الملتهبة.

- "أنقذينى إذًا! خذينى منها لئلا تجهز على!... اصنعى لى السعادة، اغمرينى بفرح يمنعنى عنها... اجعلينى ملكا لك، عبدا لك أجلس تحت قدميك... آه لو كنت أستطيع أن أحيا هكذا، أن أمكث معك، ألا أحيا إلا بك، آكل وأنام وأمتلكك!"

صاحت بانتصار: "أخيرا، عدت لى! ليس لأحد سواى! أما الأخرى فانتهت إلى الأبد!"

انتشلته من أمام اللوحة الكريهة، ثم أصعدته فى زهو وغلبة إلى غرفتها، وفراشها، ومضت الشمعة المثبتة على السلم للحظات، ثم انطفأت وغرق المكان كله فى ظلام دامس. دقت الساعة الخامسة فجرا، والسماء لا تزال مظلمة وقد غطاها الضباب.

صعد كلود وكريستين إلى غرفتهما. لم يسبق لهما أن عرفا مثل هذه الحميمية وهذا الشغف حتى فى أيامهما الأولى، تدافعت ذكريات الماضى إلى قلبيهما، وأثملتهما النشوة المشبوبة. انفصلا عن العالم المظلم، وارتفعا على جناحى حبهما الذى طار بهما بعيدا، بعيدا...

نسى كلود آلامه وبؤسه، وكأنه ولد من جديد ليحيا حياة الغبطة والهناء الدائمين، بينما حملته كريستين، بابتسامتها الشهوانية المثيرة ونبرتها التى امتلأت بكبرياء الغلبة والانتصار على غريمتها، على ترديد ما يحلو لها: "قل إن الرسم حماقة!"

- "الرسم حماقة!"

- "قل أنك لن تعمل أبدًا، وأنك ستحرق كل لوحاتك لترضينى!"

- "لن أعمل أبدا وسأحرق كل لوحاتى!"

- "قل إنك لا تفكر فى سواى، وإنه لا توجد سعادة إلا معى، وابصق على تلك الساقطة التى رسمتها! هيا ابصق دعنى أسمعك!"

- "ها أنا أبصق عليها! لا توجد أخرى سواك!"

عانقته بقوة حتى أوشك أن يختنق. أصبحت تملكه الآن، وطارا سويا إلى السماء حتى لامسا النجوم المتلألئة فى سحر وفتنة خلبت عقولهما. ما أروع هذه السعادة! كيف لم يفكر قبلا فى مداواة نفسه بهذه السعادة الأكيدة؟ أمامهما الحياة بأكملها ليعيشاها فى فرح وسعادة حتى الثمالة.

أوشك النهار على المجىء، بينما استلقت كريستين بين ذراعى كلود ونامت وقد أسكرتها النشوة، ثم مدت ساقها على ساقيه لتحكم قبضتها لتتأكد من بقائه جوارها إلى الأبد، وأسندت رأسها على صدره الدافئ، وقد علت وجهها ابتسامة هادئة مطمئنة. أغمض كلود عينيه، ثم فتحهما، على الرغم

من الإرهاق، وأخذ يحملق فى الظلال. لم يستطع النوم، وتـدافعت هوجـة الأفكار المضطربة إلى رأسه، بينما حاول جسده استعادة قوته والتعافى من ثمالته النشوانة التى سرت فى أوصاله.

طلع النهار، واخترقت أشعة الشمس النافذة الزجاجية. وفجأة انتفض، وظن أنه سمع صوتًا عاليًا يناديه من داخل المرسم. انقضت عليه تلك أفكار تنهشه وتعذبه، فانقبضت شفتاه، وارتسمت على وجهه ملامح النفور والألم، فشعر بثقل ساق كريستين الرقيقة، وكأنها مصنوعة من الرصاص، كأداة تعذيب، تسحق ركبتيه تكفيرا عن خطاياه، وكذلك رأسها الملقى على صدره وكأنه عبء ثقيل يجثم على قلبه، حتى رائحة شعرها المتهدل بدت له لا تحتمل. جلس طويلا متحاملا على نفسه لئلا يزعجها، ولكن ظل جسده ينتفض ثائرا فى كره ونفور لا يقاوم. وفجأة، ترامى إلى أذنيه ثانية الصوت الملح الذى يناديه فى المرسم، فعزم على النهوض. اتخذ قراره، فقد أصبحت حياته عسيرة يصعب تحملها، لا يمكنه العيش مادامت الحياة خلت من معناها. فرفع رأس كريستين بهدوء، ثم تحرك فى حذر مخلصًا ساقيه من قبضة ساقها المحكمة، وانفصل عنها، أصبح حرا!

عاجله نداء آخر، فهرع إلى المرسم، قائلا: "نعم، نعم، أنا آت!"

كان يوما شتويا كئيبا وصباحا ملبدًا بالغيوم والضباب. استيقظت كريستين نحو الساعة الواحدة، واجتاحتها رجفة باردة، وتعجبت من كونها بمفردها على الفراش. فتذكرت أنها راحت فى النوم مسندة وجنتها إلى قلبه،

وامتزج جسدها بجسده، فأين ذهب كلود إذاً؟ فقفزت بقوة ونزلت من الفراش، وركضت مسرعة إلى المرسم: "يا إلهى! أعاد إليها مرة أخرى؟ أأخذته تلك الساقطة مرة أخرى بعد أن ظننت أنها امتلكته للأبد؟"

نزلت إلى المرسم، وللوهلة الأولى بدا كل شىء معتما ومهجورا، فاطمأنت عندما رأته خاليا، ثم رفعت عينيها إلى اللوحة، وعندها أطلقت صرخة رهيبة: "كلود! كلود!"

رأت كلود معلقا على السلم الكبير فى مواجهة لوحته الناقصة، شنق نفسه مستخدما أحد الحبال التى ثبت بها اللوحة إلى الحائط، صعد إلى حافة السلم وقفز فى الفراغ. كان عارى القدمين، لا يرتدى سوى قميصه، وجحظت عيناه شاخصة إلى لوحته الضخمة أمام امرأته الجميلة وكأنه تنازل لها عن روحه.

مكثت كريستين ثابتة، يتلوى جسدها من الألم والغضب والرعب، وأخذت تصرخ بشدة، ومدت ذراعيها ناحية اللوحة، ملوحة بقبضتها: "آه يا كلود! يا كلود!... لقد أخذتك منى! لقد قتلتك تلك العاهرة! قتلتك!"

خارت قواها، وارتمت على الأرض كالميتة، هربت الدماء من عروقها من فرط الألم. ظلت ملقاة بائسة محطمة، بينما وقفت المرأة الأخرى مشرقة ومتألقة. أنتصر الفن، أبقيت تلك المرأة وحدها خالدة وثابتة؟

يوم الاثنين، جاء صاندوز – بعد أن انتهى من الإجراءات التى تأخرت بسبب حالة الانتحار– إلى منزل صديقه فى التاسعة صباحا استعدادا للجنازة.

كان قد تولى أمر كل شيء، على الرغم من حزنه العميق، فأدخل كريستين المنهارة إلى المستشفى، بينما جال بين البلدية والمقابر والكنيسة، دافعا مبالغ باهظة لإتمام الإجراءات اللازمة. لم يجد أمام منزل كلود سوى أشخاص قليلين، معظمهم من الجيران، أو من الفضوليين الذين جاءوا للتطفل، بينما برزت بعض الرءوس من النوافذ تراقب المشهد في أسى وقد أثارتهم الفاجعة. كان متيقناً من حضور باقي الأصدقاء، خاصة وأنه لم يرسل إلى عائلة كلود لأنه يجهل عناوينهم، ولكنه تفاجأ لرؤية اثنين من عائلته، عرفا نبأ انتحاره من الجريدة بعد أن انفصل كلود تماما عن الجميع، كانت قريبة له متقدمة في العمر لها هيئة التاجرات، وقريبا ضئيل الحجم، واسع الثراء من أصحاب المتاجر الشهيرة في باريس. صعدت المرأة لتتجول في المرسم لتتأمل هذا البؤس والفقر المدقع، ثم نزلت تتحسر على هذا الجهد الضائع، بينما سار قريبه في زهو وافتتان خلف عربة الموتى وقد بدا عليه الحزن.

تحركت العربة، وسارع بونجراند للحاق بصاندوز ليصافحه ويمكث بقربه. تجهم وجهه في حزن وأسى، وقال وهو يرمق القلة الواقفة خلف العربة: "آه! يا له من مسكين! ألم يحضر أحد سوانا؟"

كان دوبوش في كان مع أولاده، بينما امتنع جورى وفاجرول عن المجيء، الأول لكرهه للموت والمناسبات الحزينة والآخر بحجة كثرة أعماله وارتباطاته. جاء ماهودو وحده ليلحق بصاندوز، مؤكدا أن جانيير آت، لعل القطار فاته، ولكنه آت بالتأكيد.

سارت العربة ببطء فى الطرقات المتعرجة، والشوارع المتفرعة، حتى وصلت إلى كنيسة القديس بطرس على قمة أحد الـــتلال، وهنـــاك وضـــعوا التابوت مطلاً على باريس بأكملها. كانت السماء ملبدة، وهبت رياح بـــاردة من كل الجهات، وغلف الضباب الجميع حتى اختفى وراءه الأفق البعيـــــد. وها هو كلود الذى رغب يوما فى غزو باريس وإخضاعها، يقبع الآن داخل هذا الصندوق الخشبى، يهال عليه التراب عائدًا إلى الأرض مرة أخرى.

خرج الجميع من الكنيسة، وعندئذ اختفت قريبته، وكذلك ماهودو، بينما ظل قريبه جالسا خلف الجثمان. لم يعد يتبق سوى سبعة أفراد، وأخيرا قرروا التوجـــه إلى مقابر أنتوان التي أطلقت عليها الطبقات الشعبية اســم مقـــابر كـــايين نـــسبة لمستعمرات النفى والتعذيب، وهكذا أصبح جميع الموجودين عشرة. فقال بونجراند وهو يسير بالقرب من صاندوز: "هيا بنا، فلن يتبقى سوانا نحن الاثنين!"

سارت عربة الموتى، تتبعها العربة التى تقل الكاهن والمرتل، بين السفوح والهضاب. وتعثرت الجياد وتخبطت العجلات وســط الأرض الطينيـــة. وفـــى الخلف، سار المعزون العشرة بمشقة فى صمت. وبمجرد أن وصلوا إلى شارع كلينيانكور الواسع، تنفس الجميع الصعداء، وبدعوا يتبادلون بعض الكلمات.

لحق صاندوز وبونجراند تدريجيا بالعربة، كما لو كانا يـــسعيان إلـــى الابتعاد عن هؤلاء الناس الذين يقابلونهم لأول مرة. ثـــم ســـأله بونجرانـــد: "وكيف حال زوجته؟"

- "يا لها من مسكينة! ذهبت بالأمس لرؤيتها فى المستشفى، إنها مصابة بحمى مخية. يقول الطبيب بأنها ستتعافى، ولكنها لن تعود إلى سابق عهدها، وستخور قواها بالتأكيد... أتعلم أنها وصلت إلى مرحلة متدنية حتى إنها نسيت الكتابة؟ يا له من تدهور وانحدار مؤلم لفتاة مثلها، لتصبح فى النهاية خادمة! نعم! فإذا لم يعتن بها أحد ستضطر إلى العمل كخادمة أو غسالة!"

- "وبالطبع، لم يترك لها أى أموال؟"

- "لم يترك أى شىء! لقد حاولت حتى أن أبحث عن لوحاته القديمة للمناظر الطبيعية، أو لوحاته الصغيرة التى كان يعدها لتفاصيل تلك اللوحة الضخمة، التى أفسدها. ولكنى لم أجد. فتشت فى كل مكان دون جدوى! كان يعطيها للناس، الذين استغلوا طيبته. ولم أجد شيئا يصلح للبيع، ولا لوحة يمكن بيعها، لم يعد هناك سوى تلك اللوحة العملاقة التى دمرتها وأحرقتها بنفسى! أقسم لك أنى لم أشعر قط بمثل هذه السعادة، إلا وأنا أحرقها وكأننى أنتقم منها!"

صمتا برهة، وسارا سويا بطول شارع سان توان المستقيم، وسط الأراضى الجرداء، خلف العربة الصغيرة البائسة. ثم جاوزا وسط الأراضى الممتدة على الجهتين، لاحت من بعيد مداخن المصانع وأسقف بعض المنازل المنعزلة بيضاء اللون، واخترقا احتفال مدينة كليانيانكور، حيث العربات والسيرك والجياد الخشبية والزينة الملقاة بإهمال على جانبى الطريق

والأرجوحات الخضراء،... استأنف بونجراند: "ما أجمل لوحاته القديمة! أتذكر لوحة رصيف ميناء بوربون؟ إنها لوحات متفردة واستثنائية! والمناظر الطبيعية فى ميدى، والصور العارية التى رسمها فى مرسم بوتان!... إننى أذكر واحدة منها بالتحديد، ما أروعها!... لابد من أنها عند السيد مالجرا، إنها لوحة متميزة، لا يقدر أى فنان على رسمها... لم يكن كلود أحمق، بل فنان جريئ ومقدام، كان فنانا حقيقيا بكل بساطة!"

– "آه! كلما تذكرت اتهامات هؤلاء الحمقى فى الكلية والصحفيين له بالكسل والجهل، مؤكدين جميعا أنه رفض أن يدرس مهنته! كسول! يا إلهى! كيف هذا؟ كسول، كلود الذى رأيته يغشى عليه من فرط التعب، بعد جلسات استغرقت عشر ساعات! كلود الذى كرس حياته كاملة لعمله، وقتل نفسه فى نوبة من جنون الفن! كيف يتهمونه بالجهل؟ لن يستطيعوا أبدا فهم ما أراده، ولن يدركوا أن ثورته التى خطط لها تقوم على نقض التقليدى والمعروف! أيمكن القول بأن دولاكروا كان جاهلا لأنه لم يحصر نفسه فى نهج واحد؟ يا لهم من بلهاء وحمقى هؤلاء الطلبة الذين يضطربون أمام أى اختلاف أو تغير!"

صمت قليلا، ثم أردف: "كان فنانا بطوليا شغوفا، قوى الملاحظة واسع الاطلاع! كان رأسه محشوًا بالعلم والموهبة بطريقة تدعو للعجب..."

– "لم يكن يهمل أو يتساهل فى شيء على الإطلاق، أنا لا أذكر له لوحة كاملة، من كثرة الرسوم المبدئية واللوحات التحضيرية

وتجارب الألوان... ولكن الجمهور لم يفهمه أو يقدره، وها هو محمول على الأكتاف لتستقبله الأرض بين أحضانها!"

حثا الخطى ليلحقا بالعربة التى سبقتهما ودارت إلى يمين الشارع المؤدى إلى المقابر وبالفعل تبعاها ووصلا إلى المكان. ونزل الكاهن والمرتل من العربة وتقدما المسيرة.

كانت المقابر تقع فى إحدى الضواحى الخالية، مقسمة بشكل منتظم ومتماثل إلى طرق وممرات. خلا الممر الرئيسى سوى من قبور قليلة، وتركزت باقى القبور على الجانبين. وغاصت فى التربة شواهد القبور رديئة الصنع، وزرعت أشجار صغيرة هزيلة غير مكتملة النمو، مما أضفى طابعا فقيرا حزينا وباردا على المكان، كثكنة عسكرية أو مستشفى كئيب. لم يكن هناك ركن واحد به أشجار مورقة، أو قبر كبير ينطق بالكبرياء والخلود، كانت المقابر جديدة، محفورة على التوازى ومرقمة بوضوح، وكأنها أدراج فى خزانة موظف يقبع فيها الموتى فى انتظار قدوم زائر جديد ليقيموا له الاحتفالات.

همس بونجراند: "عجبا! المكان هنا شديد الكآبة!"

– "لماذا تقول ذلك؟ أعتقد أنه ملائم... فالهواء لطيف، والشمس مشرقة. أترى كم هى جميلة هذه الألوان؟"

كانت السماء رمادية محملة بنسمات باردة، وبالأسفل اكتست القبور المنخفضة المزينة بالأكاليل والزهور المصنوعة من اللآلئ بألوان رقيقة

ساحرة، فكانت هناك قبور بيضاء، وقبور سوداء، بحسب لون النقوش والزينة، وقد خلق هذا التباين لمعانا خفيفا يضيء وسط خضرة الأشجار الصغيرة والورود الطبيعية الموضوعة على القبور، بينما توهجت الأكاليل الصفراء وكأنها كتل من الذهب المحفور، كانت اللآلئ هى المسيطرة، وأخفى بريقها النقوش المحفورة على الأحجار، سواء كانت أيدى متشابكة، أو صورًا للنساء، أو صورا طبيعية، أو مجرد وجوه قبيحة تثير الشفقة بابتسامتها التائهة.

أعاده له هذا المشهد ذكرى كلود، فاستكمل حديثه مع بونجراند: "وحده الموت سيحتوى ويتفهم ولعه بالحداثة والتغير... لقد عانى كثيرا بسبب عبقريته الناقصة عن الحد أو الزائدة عن الحد كما كان يقول عن نفسه، متهما والديه بكونهما السبب فى قدومه إلى هذه الحياة بهذا التكوين الغريب! ولكن مشكلته لم تكن فيه وحده، فقد كان ضحية عصر بأكمله... فلقد تشرب جيلنا مبادئ الرومانتيكية، ومازلنا نحمل تلك الصبغة مهما حاولنا التخلص منها، بالتمسح فى الواقع العنيف، كبقعة عنيدة لا تستطيع منظفات العالم أجمع أن تمحوها!"

ابتسم بونجراند، وقال: "لقد غصت أنا بالكامل فى تلك الرومانتيكية، وتغذى فنى عليها وتشبعت أعمالى كلها بها، وأنا لست نادمًا على هذا! ولا يهمنى إذا كان عجزى نابعا من تمسكى بها! فأنا لا أستطيع أن أجحد ما آمنت به طوال عمرى... ولكنى أتفق معك فى كونكم، أنتم الشباب، متمردين عليها، والدليل على ذلك، كلود بامرأته العارية التى تقف فى وسط الموانئ، فهى أبلغ دليل على هذه الثورة وهذا التمرد...".

قاطعه صاندوز: "تلك المرأة! لقد قتلته! آه لو كنت تعلم إلى أى مدى بلغ تعلقه بها! كان من المستحيل انتزاعها من داخله... فكيف كان له أن يبصر جيدا ويفكر برصانة واتزان، فى ظل وجود مثل هذه الأشباح داخل رأسه؟... فجيلنا مفعم بالحماسة والوجدانية الزائدة التى تعوق إنتاج أعمال جيدة، فنحن فى حاجة إلى جيل أو جيلين قبل أن نبلغ مرحلة الرسم والكتابة بحسب المنطق ووفق بساطة الواقع والحقيقة... فالحقيقة والطبيعة هما الأساس الوحيد لأى إنتاج، وإلا تسرب الجنون، وفسدَت الأعمال، دون كبت لمزاج وطباع الفنان التى تتحكم فيه. لا يسعى أحد إلى نفى شخصية المبدع، تلك النفحة اللاإرادية التى تشكل إبداعاتنا!"

التفت فجأة مضيفًا: "ماذا يحترق هناك؟... أهنَاك من يشعل النيران للاحتفال؟"

رجعت العربة من شارع رونبوان، حيث مستودع العظام، الذى يعج بالبقايا التى تؤخذ من القبور، وقد تلاشت ملامحه من كثرة أكاليل الورود المكدسة التى يلقيها أهالى الموتى. وأثناء مرور العربة فى الممر الثانى، سمع صوت غريب، وارتفع دخان كثيف من وراء الأشجار التى تزين الرصيف. ومع اقتراب العربة، رأى الجميع كتلاً ضخمة من الطين المحترق، المنزوعة من الأرض الواسعة، بعد أن أحدثوا فيها شقوقًا عميقة ومتوازية ليستخرجوا منها بقايا العظام استعدادا لوضع جثث أخرى، تماما كما يفعل المزارع حينما يحرث التربة قبل رمى البذار. كانوا يحرقون أيضًا الصناديق الخشبية

التى توضع فيها الجثث، ولكنها لم تكن تشتعل بسهولة بعد أن تشربت رطوبة الأجساد الآدمية، وكان يتصاعد منها دخان كثيف غطى السماء الباهتة، بددته الرياح الشتوية، وحوله خطوط رفيعة من الدخان تتطاير ما بين القبور المنخفضة.

استغرق صاندوز وبونجراند فى تأملات صامتة حتى تجاوزا النيران، عندها قال الأول: "لم يكن فى مقدوره أن يصبح رائد الفن الجديد الذى يدعو إليه. أقصد أن عبقريته لم تكن محددة الملامح بما يكفى لتثبيت فنه والمجاهرة به فى لوحة كاملة وحقيقية... وانظر كيف ستتناثر وتتشتت جهود الجميع من حوله، ومن بعده! فالجميع لا يزال فى مرحلة الرسومات الأولى والانطباعات المتعجلة، ولا يتمتع أى منهم بالقوة التى تؤهله ليصبح القائد المنتظر! أليس من المؤسف عدم تقدم هذا التيار الجديد، هذه الدفقات الضوئية الساطعة، والشغف بالواقع الذى يصل إلى حد الملاحظة العلمية، والتطور المتفرد، لأن الشخص المناسب لم يولد بعد؟... ولكن هذا الشخص سيولد يوما ما، ولن تضيع جهود كلود، وسيظل الضوء والنور ساطعين فى كل اللوحات!"

- "من يعلم؟ فالحياة ليست منصفة، وكثيرا ما تفسد الخطط العظيمة... أنا أفهمك جيدا، ولكنى اشعر بالأسى، أنا تعس ملىء بالألم والحسرة، ولذلك فأنا أشعر بألم كل التعساء... أنا أعلم أن المناخ الفنى الآن غير سليم، فنهاية هذا القرن قد امتلأت بالتخريب والتدمير لكل ما هو جميل، حتى أصبح الكل ينضح برائحة الموت!

فكيف لأحد أن يصمد فى مثل هذه الظروف؟ فتتحطم الأعصاب ويتداعى الجسد ويتسلل الاضطراب العقلى! نعم، فالفن فى حالة هياج الآن! إنه التدافع، إنها الفوضى، إنه الجنون، جنون الفرد حينما يكون فى وضع ميئوس منه!... فلم يسبق لتاريخ الفن أن شهد نزاعات وصراعات كالتى نشهدها الآن، ولم تنعدم بصيرة الجميع كما حدث منذ أن ادعى الجميع معرفة كل شىء!"

امتقع وجه صاندوز، وهو يشاهد الدخان الكثيف تتلاعب به الرياح، وقال بصوت خفيض: "إنه أمر حتمى! إن هذه المبالغة فى العمل والكبرياء والثقة فى معرفة كل شىء لابد وأن تدفعنا إلى دوامة الشك. وكأن هذا القرن، الذى أضاء للكثيرين، كان لا بد له وأن ينتهى تحت تهديد موجة جديدة من الظلام... ها هو سبب أزمتنا! فقد وعدنا بالكثير، حلمنا بأكثر، انتظرنا غزو الجميع وتفسير ومعرفة كل شىء، توقعنا تحقق كل شىء بفارغ الصبر، تساءلنا لماذا لا نسير بخطى أسرع؟ والحقيقة أن العلم لم يقدم لنا بعد اليقين المطلق والسعادة الكاملة، فما الفائدة إذاً من الاستمرار مادمنا لن نعرف أبدا كل شىء، وستزداد حياتنا مرارة وقسوة؟

إنها النهاية المؤسفة لهذا القرن، إنه الأسى والتشاؤم الذى يوخز القلب والأحشاء، والأفكار التى تكدر العقول. كان من الأفضل أن نهتم بالتخلص من الأشباح والتفسيرات الخارقة للطبيعة عن طريق التحليل والتفكير الذى ينير العقول، ولكن ها هى روح الأساطير والخرافات تنبثق وتعود من جديد

لتجتاح عالمنا، مستغلة حالة التشتت والتخبط الفزع الذى نعيش فيه... لا أستطيع بالطبع أن أجزم بشىء، فأنا نفسى ممزق ومحطم من الداخل ولكنى أشعر بأننا لسنا آخر المطاف، فنحن لسنا سوى نقطة تحول، مرحلة انتقالية، بداية لشىء جديد... مجرد التفكير فى هذا الأمر يريحنى، ويطيب نفسى، ويثبت أقدامى فى الطريق الذى اتخذناه، طريق العلم والمعرفة..."

اختلج صوته من عمق الانفعال، وأضاف: " إلا إذا دفعنا الجنون جميعا إلى الهاوية، أو سحقتنا أفكارنا عن المجد والإبداع المطلق الكامل، كما حدث مع صديقنا الذى يرقد فى هذا الصندوق!"

استكملت العربة سيرها فى الطريق الطويل ووراءها صاندوز وبونجراند اللذين انشغلا بمشاهدة صفوف القبور التى اصطفت بمحاذاة الموكب. كانت معظمها قبورا للأطفال، تمتد على مدى البصر إلى ما لا نهاية، موضوعة بالترتيب، ويفصل بينها ممرات صغيرة وكأنها مدينة صغيرة للأطفال يحكمها الموت. وزينت هذه المقابر بالصلبان البيضاء الصغيرة، التى توارت خلف أكاليل الورود البيضاء والزرقاء المزهرة، بينما تألقت المروج الهادئة وعمها سلام وسكينة نبعت من تلك الطفولة الرقيقة المسجاة تحت الأرض. كتبت أعمار الأطفال على الصلبان، فمنهم من كان فى الثانية من عمره، ومنهم من توفى فى شهره السادس عشر، أو فى شهره الخامس،... وهناك صليب بسيط لا تحيط به أى نقوش، لم يكتب عليه سوى: "أوجونى، ثلاثة أيام". يا إلهى! لم تكد تبدأ فى العيش، حتى تأتى لترقد هنا إلى الأبد

بمفردها بعيدا عن الجميع، كالأطفال الصغار الذين تخرج عائلاتهم وتتركهم بمفردهم أيام الأعياد!

توقفت العربة فى منتصف الممر. فنظر صاندوز ورأى قبر صديقه المعد لاستقباله ، فى مواجهة قبور الأطفال، ثم قال فى أسى:

"آه! يا عزيزى كلود! كم كان قلبك رقيقا واسعا كالأطفال! ستسعد بالبقاء معهم!"

أنزل الرجال التابوت، بينما وقف الكاهن عابسا من بعيد وسط الرياح الباردة، حتى ينتهى الرجال من الحفر. لم يعد يبقى من المعزين العشرة سوى سبعة أشخاص، بعد أن انصرف ثلاثة منهم. ثم اقترب قريب كلود الضئيل ممسكا بقبعته، على الرغم من سوء الطقس وتبعه الباقون. وما إن أوشك الكاهن على الشروع فى الصلوات ومراسم الدفن، حتى دوت صفارة اخترقت مسامع الجميع، فرفعوا رءوسهم بحثا عن مصدرها. كان قطار يمرق فوق أحد التلال التى تحيط بالمقابر.

أحاطت بالمكان الخضرة، وبرزت ظلال لأشكال حادة، أعمدة الإشارات التليغرافية التى تربطها الأسلاك الرفيعة، بالإضافة إلى كوخ صغير لمشرف القطار، لاح ضوء أحمر قوى يستخدم كإشارة لمرور القطار. كانت الإضاءة قوية، واستطاع الجميع رؤية القطار بكل تفاصيله – مارا بسرعة محدثة جلبة عالية– سواء العربات أو ركابها الجالسين بجوار النوافذ، وكأنهم يشاهدون إحدى مسرحيات خيال الظل. مرق القطار سريعا، وكأنه

خط من الحبر شق الأفق إلى نصفين، ودوت الصفارات من بعيد وكأنها تتحسر وتنفث غضبا صائحة من الألم والضيق، ثم دوى صوت بوق كئيب، وبدأ الكاهن يتلو الصلوات بسرعة وهو يقرأ من كتابه. لم يسمعه أحد، لمرور قطار آخر قاطعًا المراسم. ضاعف صوت صفيره الجهورى القوى من قتامة الموقف وشاع الانقباض والتعاسة فى القلوب.

وأخيرا قال الكاهن: "فليرقد بسلام!"

أجاب المرتل: "آمين."

استفزت صفارات القطار بونجراند، الذى التفت بنفاد صبر ناحيته، وظل يرمقه بقوة حتى صمتت الصفارات، وهدأ الجميع.

اغرورقت عينا صاندوز بالدموع، وكان لعبارات كلود وقع انفعالى شديد فى نفسه، وشعر وكأنه يدخل معه فى مناقشة من مناقشاتهما القديمة. أحس وكأنهم سيوارون شبابه وأحلامه الثرى، كان كلود جزءًا منه، هو نبع الحماس والأوهام، وها هو يوضع فى أعماق الأرض وينهال عليه التراب. فى تلك اللحظة الرهيبة، وقع حادث آخر زاده حزنا. كانت الأيام الماضية غزيرة الأمطار، والأرض غاية فى الرطوبة، فانهار أحد جوانب من الحفرة، فاضطر الرجال إلى النزول لإفراغها. تمت هذه العملية ببطء وبحركة آلية، وكأنها استغرقت دهرا كاملا وليس بضع دقائق، خاصة وقد سأم الكاهن الانتظار، بينما وقف الجيران الأربعة، الذين تبعوه دون سبب إلى النهاية، يراقبون باهتمام. وبالأعلى، انطلق القطار مصدرا أصواتا صاخبة حتى اختفى فى الأفق.

أفرغ الرجال القبر، وأنزلوا التابوت ورش عليه الكاهن الماء المقدس. انتهى كل شيء! ووقف قريبه يحيى الجميع برصانة ورشاقة ويصافح المعزين الذين يراهم لأول مرة، ووقف بونجراند يغالب دموعه، وصاندوز منتحبا يراقبان القبر الذى اختفى فيه صديقهما المحبوب.

رحل الجميع، الكاهن والمرتل، والجيران الذين ساروا متفرقين يطالعون النقوش على شواهد القبور.

قرر صاندوز هو الآخر الرحيل، ثم قال: "لن يعرفه أحد سوانا... لم يوضع أى شيء على قبره حتى اسمه!"

- "ولكنه سعيد الآن، فلا توجد لوحة تطارده حيث هو الآن!... فلعل الرحيل عن العالم أفضل من البقاء وبذل جهود مضنية لا تتمخض سوى عن الفشل والأعمال التافهة التى ينقصها الكثير، ولا يقدر لها الحياة".

- "نعم! فلكى نستطيع أن نحيا، يجب التنازل عن الاعتزاز بالنفس، وأن نرضى بالأعمال العادية، ومراوغة الحياة... أتعلم أننى على الرغم من مغالاتى فى التدقيق فى كتاباتى، مازلت أحتقر نفسى لكونها ناقصة أو خداعة، على الرغم من كل جهودى؟"

سار صاندوز، الروائى المشهود له بجهده وقدراته، وبونجراند، الرسام العظيم الذى يخبو مجده بعد أن كلله لأعوام طويلة، معًا بوجه شاحب وخطوات متثاقلة بمحاذاة القبور البيضاء التى للأطفال الصغار، ثم قال صاندوز: "على الأقل، كان بيننا كلود الذى امتلك الشجاعة الكافية للاعتراف بعجزه، وإنهاء حياته بيده!".

- "نعم! لو لم نكن جميعا خائفين، لفعلنا مثله، أليس كذلك؟"

- "إنها الحقيقة، أقسم لك! فما دمنا عاجزين عن خلـق أو إبـداع أى شيء، وما دمنا لسنا سوى مقلدين تافهين للحقيقة، فلماذا نتكبد هذه المشقة من الأساس؟".

ألفيا أنفسهما مرة أخرى أمام التل الذى وضـعت عليـه الـصناديق المشتعلة، وقد تصاعدت أعمدة الدخان برائحتها النفاذة يحركها الهـواء فـى دوامات ملبدة غشت المقابر كلها بسحابة من الحزن والحداد. نظر بونجراند فى ساعته، وقال: "عجبا! إنها الحادية عشرة! يجب أن أعود!".

صاح صاندوز متعجبا: "كيف هذا؟ الحادية عشرة؟ بهذه السرعة؟"

رمق القبور الباردة والحقل الواسع المرصع باللآلئ بنظـرة يائـسة، غلفتها الدموع، ثم قال: "هيا، لنعمل!".

المؤلف فى سطور:

إميـــــل زولا

روائى فرنسى شهير ولد عام ١٨٤٠، لأب مـــن أصـــل إيطـــالى وأم فرنسية، وتوفى عام ١٩٠٢ فى باريس.

صدرت أولى رواياته "تيريز راكان" عام ١٨٦٧، وكانت بمثابة الإعلان عن بزوغ مدرسة الطبيعيين، التى اعتمدت على دراسة تأثير البيئة والعــصر وقوانين الوراثة على الشخصيات الروائية، متأثرا بالعصر الذي شهد ازدهـــار العلوم الطبيعية وطبقت فيه الطريقة العلمية للبحث عن طريق تجرد الباحث من ميوله وخياله والخضوع للواقع ودراسة الحياة وإجـــراء التجـــارب واســـتقراء الحقائق، ثم تلتها سلسلة مكونة من عشرين رواية تدعى "عائلة روجون ماكار"، التاريخ الطبيعى والاجتماعى لعائلة فى ظل الإمبراطورية الثانية"[1] اســـتغرقت كتابتها من ١٨٧١ إلى ١٨٩٣، وتدور حول أسرة "روجون ماكار" التى قـــدم من خلالها جزءًا كبيرًا من التاريخ الفرنسى فى ظل الإمبراطوريـــة الثانيـــة، وتناول فيها مظاهر الحياة اليومية فى فرنسا، معالجا العديـــد مـــن المـــشاكل الاجتماعية والاقتصادية التى هزت أركان المجتمع الفرنسى فى ذلك الوقت.

---

(1) *Les Rougon-Macquart, Histoire naturelle et sociale d'une famille sous le Second Empire.*

تعرض زولا لهجوم وانتقاد لاذع بسبب بعض مواقفه السياسية ومساهمته فى تبرئة ضابط الجيش ألفريد دريفوس، الذى اتهم زورا بالتجسس، وعلى إثره سافر إلى إنجلترا عام ١٨٩٨، ليعود إلى فرنسا عام ١٨٩٩، ليقيم فيها حتى وفاته عام ١٩٠٢ عن عمر ناهز ٦٢ عامًا مختنقًا بالغاز فى حجرة نومه.

المراجعة فى سطور:

جينا نبيه بسطا

حاصلة على دكتوراه اللغة الفرنسية وآدابها فى مجال الحضارة الفرنسية، فى كلية الألسن بجامعة عين شمس. وتقوم بتدريس مادة النقد الأدبى بالكلية ذاتها. وقد قامت بالعديد من الترجمات عن اللغتين العربية والفرنسية ولها عدة إسهامات فى مشروع "نقل الفكر المصرى إلى مختلف دول العالم" الذى اضطلعت به الهيئة المصرية العامة للكتاب، كما ساهمت بعدة ترجمات ومراجعات فى المركز القومى للترجمة بوصفها عضوا فى لجنة الأدب.

كُتبت هذه الرواية عام 1886، واسمها الأصلي "L'Oeuvre"، وهي الرواية الرابعة عشرة من سلسلة "عائلة روجون ماكار: التاريخ الطبيعي والاجتماعي لعائلة في ظل الإمبراطورية الثانية".

تصور هذه الرواية المناخ العام في عصر شهد معركة المدرسة التأثيرية التي قادها شباب الفنانين في ذلك الوقت ضد دعاة الفن الرسمي والأكاديمي. وتعبر الرواية عن مأساة الإبداع التي يمر بها كلود الرسام العبقري المرذول، وصاندوز الروائي المنهجي المجتهد، ودوبوش المعماري البائس، كما تفيض بمشاعر متدفقة، تتجلى فيها مأساة الشغف والحب التعس الذي يدفع فتاة في السابعة عشرة من عمرها إلى التضحية وبذل ذاتها عن طيب خاطر في سبيل حبيبها، حتى تحل النهاية المأساوية.

تعد هذه الرواية الأكثر تأثرًا بشخصية إميل زولا من بين سلسلة روايات "عائلة روجون ماكار"، بعد أن عبر فيها، خاصة في شخصية صاندوز، عن جوهر حياته وأفكاره، بالإضافة إلى نقله الصادق لأحوال الفنانين الذين عاصرهم في ذلك الوقت.



تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن